مواسم الهذيان

الكتاب: مواسم الهذيان

رواية

المؤلف: ثابت العقاب

عدد الصفحات: 480

الطبعة: الأولى 2019

الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

مواسم الهذيان

رواية

ثابت العقاب

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
2019

خلاصة

« ثلاثين عامًا من الحب، وثلاث سنوات من الكتابة »

وصلت المحطة متأخرًا، اليوم هو رابع أيام العيد، أتى رمضان ورحل، وأتى العيد ورحل، وأتى أيلول وسيرحل. تبدو مخيفة سرعة الأيام، تجري بنا دون أن نشعر، تمشي بأقصى سرعتها، وتفلت منا دون أن نحس بوقع خطواتها. تسير بنا ونحن لا ندري، ثم نتفاجأ بأننا وصلنا إلى نهاية أيامنا متأخرين ونحن لم نبدأ بعد.

هكذا كنت أحدث نفسي غير عابئ بالمارة، وكأنني أضع قدميّ على هذا الكوكب للوهلة الأولى، أنيقةٌ هي المحطة من الخارج، وحتمًا سيكون ركّابها أكثر أناقة. لا شيء أتذكره الآن سوى أنني قرويٌّ أحمل داخلي تهمة أزلية؛ هي الحنين إلى الرُّبى التي كانت تقف على مسافة من الوادي، ومن الحبيبة، ومن القصيدة. كنت فيها أبدو وكأنني صوفي بلغ به إيمانه أن يصنع حولها طوقًا من الحب.

يستبد بي الشوق لركوب القطار، ليس لأنني قرويٌّ بل لأنني عشت أجمل لحظات عمري في القطار، سواء من خلال الروايات التي قرأتها أو الأفلام التي شاهدتها.

يتقاطر الناس إلى المحطة، بينما كانت خطواتي مثقلة بالدهشة، والحنين، والغبن، والعثرة. كل خطوة بلون، وكل خطوة بحجم، وكل خطوة بعطر مختلف تمامًا، وفي كل خطوة أتحسس شفتَيّ، أبحث عن ابتسامةٍ ولو صغيرة.

لم تعد العروبة ناقةً مذبوحةً على شفاه الخريطة، لم يعد العرب سُلَّمًا تتناوب عليه الأمم لتحقيق أحلامها وطموحاتها.

دفعت عني مراكب الهذيان باتجاه الريح

«قرِّبا مربط (الصَّمت) منّي»!

كانت درجة الحرارة تتعدى الخمسين، وكان الناس معتادين على هكذا حال صيفًا، بينما كنت أنا أشعر بالجحيم يلتهمني من كل جانب.

كلما تقدمتُ خطوةً باغتني شعورٌ مخيفٌ، واستبدّ بي سؤالٌ عقيم: من أنت؟

عندما يمُرّ النهر من باب بيتك لا تلتقط الأشياء التي جرفها، ولكن حاول قدر الإمكان ألّا تكون جزءًا منها. كل شيء هنا لا يعنيني؛ لا أسئلة ولا إجابات، لا الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل الآتي، أشعر وكأنني في تضاد مع الأشياء، ربما يكون الاتجاه نحو العدمية المطلقة قد بدأ من محطة القطار، ربماتوقفت لبرهة، أغمضت عينَيّ، امتزجت الأحلام بحرارة الصيف، تراءت لي المرايا والوصايا.

أنت في الأول والأخير مجرد ريشة في جناح الرياح، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أكون بين أوائل المتواجدين خارج المحطة، الروس والأوروبيون كأنّ على رؤوسهم الطير، وأنا وقلقي وعَجَلي وهمومي وبقايا امرأة تقف داخلي، نكاد أن نوقف حركة السير.

اعتدنا على الفوضى، على التعالي، الكبر، الغرور، والتعدي على الآخرين. ما من شيء يستطيع إيقاف قدميّ عن التقدم نحو الأمام.

كثيرًا ما تراودني الأسئلة، أو يستوقفني الوقت، أو تواجهني الإجابات المقتضبة، لكنني غير آبه كالعادة؛ أريد اللحاق بالزمن

المهرول من أقاصي الروح إلى منحدرات الذاكرة، من سراب قوس قزح إلى ظلال الناي في أغاني المساء.

الزمن المهرول الذي يأتي على حين غرة ويغادرنا فجأة، ينسَلّ من تحت أقدامنا المتعبة في اتجاه الماضي، أفسِحوا لي الطريق، ما من سبب سوى أن الساعة تقترب من السادسة مساء، سوى أنني قرويٌّ قادمٌ من بلاد (واق الواق)، ما من سببٍ سوى أنني شاعرٌ بسطت له القصيدة رداءها، والسماء ظلالها.

حاولت منذ أن وطئت قدماي هذه المدينة الخرافية أن أكون طبيعيًّا، أن أتعامل مع اللحظة كسجّان في بلاط مستبد، لكنني عجزت؛ فلا شجرة أستظل تحتها، ولا نبع ننهل من سواقيه، ولا فلاح يتناول غداءه على قارعة الطريق مع المارة والطيور والأنسام العليلة.

الجميع يسير بحركة توحي أن كل شخص يسعى لإسعاد نفسه فقط، يسعى لجمع ما تساقط من السماء من حبٍّ له وحده، الجميع يحاول إخفاء غصته تحت إبطيه، الجميع يتسرّب من بين أصابعهم الندم على تأخر هكذا لحظة جميلة.

تعبٌ كلها الحياة، لا أحد يرضى أن يكون مرفأ للحزن أوموقفًا لناقلات الألم أو فضاءً للأوهام والانكسارات والآلام المتبخرة من هذا الكوكب، لا أحد يريد أن يكون حائطًا متنقلًا يبكي ذاته، أو جدارًا يريد أن ينقضَّ، ولا موسمًا تعبث به الرياح المهاجرة.

يقطع الشعور بالحنين أفكاري، كلما قررت أن أستعيد ذاكرتي وذكرياتي، ما الذي يعبث بي عند كل محطة وأمام كل منعطف للزمن؟!

ما الذي يجبرني على التوقف واستعادة ما لا يُستعاد؟!

أيُّها الحزن القادم من أرومة الحرف، من شفاه الحب، من سلالة الغزاة، تمهّل قليلًا، ترجّل عن صدري، وانتظرني هنا حتى أعود.

عند بوابة المحطة، تقترب فتاة تكاد تطير من السعادة، كم هي جذابة وأنيقة، في هكذا مواقف تغتالني القصيدة، تكاد أن تفتك بي الأسئلة القادمة من أعماق الموج، من العيون السرمدية! تقتلني تلك الإجابات القادمة من توابيت الحب ومن مقابر الجمال.

يمكنك أن تقف بعيدًا عن نبضات قلبٍ يستشعر ما يقوله القطار البعيد.

المستحيل هو أن تبني حاجزًا بينك وبين المشاعر الملتهبة.

ماذا لو كنت طفلًا تختلط عليه الأشياء؟!

الضحك والبكاء، الصباح والمساء، النساء والهواء، ما الذي ستفعله وأنت تقف وجهًا لوجهٍ أمام وجه امرأةٍ مضيء؟!

بعض النساء تشعل الحرائق في غابات الروح، خصوصًا في فصل الصيف، الشعور بحرارة الجو يقابله الشعور بالأنانية المفرطة، بالنرجسية القاتلة، بالأنا المتسلطة، بالذات المتوحدة.

فُتحت البوابة الأوتوماتيكية، دلف الجميع، يسيرون باتجاهٍ واحد. ما أملكه هو أن أتبعهم فقط، يجب أن أشعر بسعادةٍ غامرةٍ كلما مررت من أمام مرآةٍ، وأن أبدو مختلفًا تمامًا. مزاجٌ في كل لحظة يصعد إلى الأعلى، وذاكرةٌ همّها المقارنة بين الأشياء

والأشياء فقط، المدينة الكبيرة والقرية الصغيرة، فتاة القرية الجميلة، وملكات الجمال القادمات من كوكب الزهرة، بين القطار وسيارتي الصغيرة التي صنعتها من (جالون) زيت الزيتون وعجلات البلاستيك في أزهى سنوات العمر.

تبعثرت نظراتي وأنا أضع قدميَّ على أرضٍ كأنها فضاء واسع، فتارة ألملم خطواتي، وتارة أفرك عينَيّ، وثالثة أزمّ شفتيّ المتعبتين من الدهشة وكثرة التمتمة.

تُرى أين شباك التذاكر؟ الفاتنات يشتتن الذهن، أين أنا؟!

خلف العيون الزرق أم بين الجفون النعاس؟!

في الواقع لا هنا ولا هناك، إنني في طابور التذاكر أحاول أن أكتب رواية، تكون فتاة القرية هي بطلتها، تضحكني الطموحات الساذجة والأمنيات البلهاء، تنبعث من داخلي ضحكات تكاد تفضحني، كلما أخرجت واحدةً باغتتني الأخرى، عليَّ أن أتوقف هنا أمام هذه المرآة؛ كي أتعرف عليَّ، فربما لستُ أنا. عيناي أصبحتا أكثر اتساعًا، وشفتاي تبدوان بحاجة إلى ماء، وأنا بحاجة إلى البكاء.

أنا بحاجة إلى استخراج الماضي بكل ألوانه وأشكاله على هيئة دمعة، بحاجة إلى لحظة أغتسل فيها من درن الذكريات وطيب الأصدقاء وعيون النساء.

كم أنا بحاجة إليّ؟!

قالت ذات غيم، وكان الروض يضمّنا بجناحين من وجد:

«حين يعتريك الشوق، أشعل من ثقاب سطوري ما يدفئك».

لم تكن تدرك أن الريش الجميل ليس كافيًا ليصنع طائرًا جميلًا، ولم أكن أدرك أنني سأحتاج إلى ريشةٍ أخرى حتى أستطيع استكمال سيمفونية العودة إلى عينيها.

لم تكن تدرك أنه لا أحد يشبهها، ولم أكن أدرك أنها الوردة الوحيدة في هذا الحقل الكبير، كانت تدرك أنني سأشتاق إليها رفيقة في السفر، وصديقة في القطار، ونديمة على الشاطئ، وما كنت أدرك أنها الحلم.

لم يكن في حسبان تلك القروية الجميلة أنني سأركب القطار، وسأتزلج بين أظفار الحرير ونهود الثلج وخدود الأقحوان.

ولم أكن أدرك أنها ستتفوق على كل نساء الدنيا، كانت تعلم أنها المعنى، لكنه لم يكن في حسبانها أنني سأقف على جناح المرايا لأرى الأشياء على حقيقتها، حيث لا رتوش ولا ألوان ولا مساحيق.

القرويات يمتلكنَ قلوبًا مرهفة، وعطاءً متدفقًا، يمكن للقروية أن تحبك كما أنت وتعطيك كل ما تريد، لكنها لن تغفر لك أبدًا إذا كذبت عليها في مشاعرك، تريد منك أن تمنحها كل شيء، وإن توقفت، فستقتلك. تغريها مفردات الحب، وتظل متعطشة للاهتمام والاحترام، وكلما مر العمر، تريدك دائمًا في أول لقاء بها.

كنت أعتقد أنها نقطة الضوء الوحيدة في هذا العالم، لم يكن في الحسبان أنني سأكتشف أن العالم صورة مكبرة لما يعتمل

داخلي من حياة وفن وشعر وجنون، كانت تخفي كل شيء تحت عباءتها ، حتى كبريائها.

لم يكن في حسبان تلك القروية الجميلة أننا سنصل إلى زمن تقف فيه بجواري امرأة لا تلبس إلا جسدها ، عليَّ البحث عن مكان للجلوس، فطول الوقوف أصبح يؤلم قدميَّ، ربما تكون شيخوخة مبكرة.

على مقربة من شباك التذاكر، ارتخت أجفان الليل على قناديل القمر، لتعلن بدء مساء جديد، سلسلة أحلام مطوقة بآمال لن تنقطع، بدأت ستائر الليل المخملية بالنزول، وبدأت أنا بالصعود. ثمة ما يشبه الجمر في أقاصي القلب، قد يكون الوقت، وقد تكون الذكريات، وقد تكون القروية الجميلة.

هناك على الجهة المقابلة لشباك التذاكر ساعة حائط أنيقة، الهدف على ما يبدو من وضعها تزيين المكان ليس إلا ، ربما ستؤدي وظيفتها يومًا ما ، حين تستغرق الرحلة من دبي إلى نيويورك دقيقة واحدة في قادم الأزمان.

الساعات التي على جدراننا ومعاصمنا ليست لحساب الوقت، إنها فقط للزينة.

إلى الآن لا زلنا نجهل قيمة الوقت، وربما قيمة أنفسنا. كانت المحطة عبارة عن مبنى مكوّن من عدة طوابق ذكية ، ومقسم إلى أجزاء عدة يصعب وصفه؛ فهو مزيج من الفوضى الهندسية الأكثر جمالًا والأكثر بُعدًا عن الجمال الحقيقي.

كل شيء هنا مستعار؛ أسقف وأعمدة وجدران وموظفون، لا شيء قريب إلى الحقيقة البتة. ينقسم المبنى إلى قسمين لفئتين من الناس:

(قادمون) يشكون، و(مغادرون) يبكون، حتى المباني تحتاج إلى المساحيق!

كقروي نبيل، أمعنت في كل التفاصيل، جزّأت المُجزأ، ولملمت كل ما التقت به عيناي، أخذت ما يمكن لي أخذه، عرضت أفكاري القديمة على عمود من الرخام القريب من شباك التذاكر.

لا تستطيع التأقلم مع عالم أوله إسمنت وآخره حديد، لا مشاعر ولا مروءة ولا شوق ولا حب، ولا نبتة خضراء نقف بجوارها، حياة مبنية على إسمنت وحديد لا يتقبّلها قروي ترعرع في حقول الياسمين.

عليك أن تستعيد ذاتك حتى يستقيم الحال، وتعيش حالات الإفراط في الهندسة، والتقنية، والزيف، والخداع، والوهم، جوهر الأشياء ليس هنا، لا أحد يبدو مهتمًا بالآخرين سواي، وكأنني في مهمة مراقبة الناس، تسريحات الشعر، ربطات العنق، ماركات الأقلام، الساعات، الأحزمة، الصدور، الأقدام صغيرة أم كبيرة؟!

النساء أكثر أناقة، لكنها أناقة مزيفة، مصطنعة، أناقة قائمة على لا شيء.

تختلف درجة الحرارة من قلبي إلى أطراف أصابعي، برد، غليان، غليان، برد.

كم هو مؤلم الشعور بالتناقض، فكيف بمَن يعيشه؟!

الذي يشاهدك وأنت تحدث نفسك سيقول عنك: مجنونًا، واضح ذلك من حركة شفتيك ورأسك وأصابعك. هذا العالم الممتلئ بالفراغ لن يهمه من أنت، ومن تكون؛ شاعرًا أم فيلسوفًا أم عالمًا؟!

كثيرون من عاشوا لحظات الدهشة، ولكن على الطريقة الصوفية، بين العباءة والعمامة حدثوا أنفسهم، وقفوا أمام الذات، في المسافة الممتدة من الماء إلى السماء، بكوا واستبكوا.

لأن مشاعرهم نبتت خارج الأرصفة والشوارع، وبعيدًا عن مداخل المدن المتخمة بعوادم السيارات ومخلفات المصانع وأخبار الصحف اليومية.

يبدو أن الحياة خرجت عن وجهتها الحقيقية، أو أننا فشلنا في اللحاق بها.

كأننا غرباء في أوطاننا، استطاعوا ترتيب الحماقات وتغليف القبح، وتحويل فشلهم إلى أقنعة مزيفة، نحن من استوردناها، كم كانت ناعمة الملمس، سطحية المعنى، تناسبت مع عقولنا، ومع تفكيرنا، ومع جهلنا. دعك من هذا الجنون، كُفّ عن التحدث إلى نفسك. أنا لا أتحدث إلى نفسي، أنا أتحدث إلى هذا العالم ولكن بصوت هادئ.

- كم بقي على وصول القطار؟

- دقائق.

- أتدري ما الذي يؤلمني؟! يؤلمني أن الجميع مغُيّب عن الحقيقة.

- أي حقيقة يا سيدي؟!

- الحقيقة المزيفة، أن الأقنعة التقت وأقامت حضارات على أنقاض الحضارات الأصلية التي داخلنا، حتى أمسينا في صراعٍ مع الأوجه المستعارة، وأصبحنا في حربٍ مع الأشباه، وفي تحالفٍ مع الأضداد، وفي سباقٍ مع الوهم، وهكذا دواليك؛ كلما صعدنا سقطنا، وكلما ارتقينا وجدنا أنفسنا في القاع. كم هو مؤلم أن تجد السخرية أمامك على هيئة مبانٍ وقطارات ومستشفيات وأشخاص وبلدان ولوحات إرشادية!

اقتربت من شباك التذاكر، لم يتبقَّ أمامي سوى امرأة يبدو أنها رومانية، ترتدي بنطلون جينز رصاصيًّا دون حزام، مع تيشيرت أسود، وحذاء رغم ارتفاعه إلا أنها لا تزال قصيرة، تسريحة شعرها توحي بأنها متوجهة لعملها.

الشعور بالسعادة أحيانًا يبعث الحزن من أعماق الذكريات المريرة، تكاد المرأة التي خلفي أن تلتصق بي، من سوء الطالع أن تجد نفسك بين امرأتين، أصبحت المرأة بالنسبة لنا - نحن الشرقيين - جسر عبور إلى شرفةٍ مطلّةٍ على البحر، بها فنجان قهوة وهواء عليل وكأس زنجبيل وبقايا دخان.

وأنت تتحدث عن المرأة - أيها القروي النبيل - يتحتم عليك أن تقول كلمة عظيمة بحق المرأة؛ كونك ذكرت نظرة الشرقيين الدونية لها، فعليك - يا سيدي - أن تنتشلها أنت إذن بنظرتك السماوية.

الأضداد تتسابق داخلك، يا فتىالذاكرة النائمة، تستيقظ آلاف الـوجـوه، ولا سـواه مقعد واحـد فـي أقاصي الـذاكـرة، كـم نحن بحاجة إلى رسم ملامح أرواحنا المتعبة، ذواتنا الغائبة خلف ضباب الأحلام، كلما فُتحت نافذة للحزن، نافذة للألم، نافذة للجنون، مضينا إليها.

من قـال لـك إن الفوضى التي نعيشها لا تعبر عن تراكمات اجتماعية ودينية لا حصر لها؟!

لا دين يجمعنا، ولا كفر يوحّدنا، ولا طائفية نلتقي في إطارها، ولا قبيلة تحتوينا. نحن في أزهى عصور الانحطاط.

عليك - أيها القروي - أن تستجمع قواك حتى تستطيع المرور من بين تلك الأزمنة المختلفة والعصور الغابرة.

كأنَّ المحطة صالة لعرض الأزياء، حتى العباءات التي يفترض بها ستر جسد المرأة أصبحت عاملًا من عوامل التعرية، ثمة كلب تبدو عليه ملامح الدلال والأناقة كان يترقب الخارجين من شباك التذاكر، وكأنه ينتظر تذكرته!

جاء دوري، باغتني الشِّعر، استبدّ بي الشوق والحنين إلى الديار وإلى مراتع الصبا، وأخيرًا إلى ركوب القطار. قصيدة واحدة لا تكفي أمام مشهد ثلاثي الأبعاد.

كان بائع التذاكر هنديًّا أسمر اللون، وبجواره شخص آخر تميل بشرته إلى البياض، لكنه كان بدينًا وأنيقًا، بربطة عنق أرستقراطية.

أخذت تذكرتي، وكانت عبارة عن بطاقة شبيهة ببطاقة الألعاب، التفتُّ ورائي، استدرتُ إلى اليسار، ومن ثم إلى الخلف، أصبح طابور التذاكر على يساري، آخر الواصلين امرأة قادمة من الزمن الجميل، كانت تنورتها ومعطفها البني ونظارتها الطبية وحقيبة يدها تشير إلى أنها قادمة من طبقة النبلاء وشريحة المثقفين.

اتجهت صوب السُّلّم الكهربائي، كان بينه وبين شباك التذاكر مجموعة من الكراسي، يجلس على أحدها رجل مسنٌّ، يتصفح جريدة، وخلفه عمود من الرخام صلبت عليه المروءات والأعراف والثقافات وعادات القبيلة الأصيلة؛ ما أحدث ثقبًا في القلب.

منذ متى نداري خيباتنا بابتسامة؟!

منذ متى تجمع قصاصات قوائم فشلنا الطيور المهاجرة قبل موعد القطار كل مساء؟!

لن نقدم عقارب الساعة كي يأتي الصباح ومعه فنجان القهوة، تملّكني الحزن، ثمّة عمر يتسرب من بين أصابعنا، ثمّة رحلة على عربة يقودها حصان طائر. مؤلم عندما تنتهي بك أحلامك إلى دار عجزة أو إلى ركن حديقة، أو إلى محطة قطار، أو إلى رصيف مشاة، أو إلى مدينة تكاد تكون مخنوقة، كنت أرغب في التحدث إليه، وسؤاله:

لماذا أنت هنا؟! ولأنني أكره الفضول، فقد تركته ومضيت في سبيل حالي.

كان بالقرب منه شاب يبدو أنه يعيش ضياعًا فكريًّا ونفسيًّا وحسيًّا، بين أمرين، تقاسيم وجهه توحي بالبراءة، وقصة شعره تؤكد تأثره بالمشاهير، ترك للموضة حرية اقتياده إلى حيث تريد هي، وحيث تضع لمساتها اللا مسؤولة في هيئته وشكله وثقافته، اعتلى اليأس سحنته، وارتدى ما لا يليق بعاداتنا وتقاليدنا وديننا، وتشرّب كل ما هو قادم من نوافذ الموضة التي لا عنوان لها.

الموضة: سلاح ذو حدين؛ الأول أن تكون مواكبًا لها، والثاني أن تعكس التيار فتضيع في مدن الألوان. العين تعشق كل جميل.

كيف نرى الأشياء؟! وكيف نوفق بين شخصياتنا وعاداتنا وتقاليدنا؟!

متى نصنع من هذه الموضة ما يرتقي وثقافتنا وألواننا نحن التي تتكون منها الذات؟!

مؤلم حين لا يعلم هذا الشاب أن كل شيء مزيف، وأن كل شيء أمامك يكذب عليك، وأن كل شيء يحتال عليك، ومع ذلك تستمر، تتوكأ على عصا من القش، وتستند إلى جدار من الفلّين، تستمر لتواصل خطواتك؛ ظنًّا منك أنك ستتجاوز الممر، بينما هو الذي يتجاوزك!

إن ركوب القطار أو حتى رحلة إلى الفضاء لن تسترجع عمرًا، ولن تهزم شيخوخة مدججة بالهرم، نتهم العمر بالضياع، وهو في الحقيقة يهرب، يشرد، يهرول، يتجنب مواجهتنا؛ لذلك لا نلتقي معه على طاولة الطعام، ولا ننام معه في غرفة واحدة، لا يلبس ملابسنا، ولا يلعب بكُرتنا، نتهم العمر بالسحق وبالمحق وبالقحط، ونحن الذين لا خير فينا.

كلما شرَّق غربنا، وكلما اتجه شمالًا، ذهبنا جنوبًا. الإيجابية المطلقة مشكلة، والسلبية المطلقة مشكلة أكبر منها، لا أجمل من الوسطية، لكنها أصبحت مع الأسف منطقة يأوي إليها أنبياء بلا نبوة، (السذج من البشر)، كيف لك ألّا تكون ساذجًا والبساط الذي تمشي عليه يغطي الحقيقة المُرة التي تنشدها؟!

المباني كالأشخاص لها أسرار، نحن ننتمي إلى الأماكن، إلى الخطوات المُرة والحلوة، إلى الصوت الذي ينادينا من الداخل، إلى الصدى القادم من سفوح الذات، إلى المشاعر المقدسة والأحاسيس المجنونة، ننتمي إلى الحزن، وإلى الفرح، إلى البكاء، وإلى الضحك.

ننتمي إلى قوس قزح في السماء، وإلى البقيع في الأرض، نحن لا ننتمي إلى قصة الشَّعر التي على رأسك يا غلام، ولا ننتمي إلى بنطلونك الذي لا يغطي نصف مؤخرتك، ولا ننتمي إلى قولك ولا منقولك!

بعد كل هذا الهذيان، والحديث مع النفس، والشرود المقصود، والغياب غير المقصود، بعد كل هذا التعثر وكل هذا التوقف أمام علامات الاستفهام القادمة من أعماق القروي النبيل، انضممت إلى فوج العابرين باتجاه السلم، كانت أنفاسنا مبللة بالهزائم المبتكرة، والخيبات المصنوعة على عجل، يبدو أننا ننتمي إلى برج السرعة.

الجميع مستعجل، ولا شخص واحد أتى حسب الموعد. لسنا من عشاق فن الاستمتاع بالممكن والمتاح من الأشياء، لا بالمواعيد ولا باللقاءات، لا بالقراءة ولا بالكتابة، لا بالترفيه ولا بالرياضة، لا بالحب ولا بالفراق، لا بالصمت ولا بالتفكير، ولا بالعبادة ولا حتى بنا!

نـؤدي الشعائر لإسقاط فرض ليس إلّا ، كأننا مُجبَرون على الاستعجال، ومصلوبون على جذوع الرحيل، كطفلٍ يتيم سلّم خمرته للحقول واتجه للسواقي يبحث عن شربة ماء تنقع غلته، نمشي وكأننا نساق بعصيّ إصرار على حمل ما يتساقط من الآخرين من حزن وبؤس وحماقات، إلى أقصى حدود الأشياء.

الجميع يتصنع السعادة، نتوهم أننا بخير، نحاول أن نبتسم ولو من تحت أسناننا فقط، سنترك ما لا يروقنا جانبًا.

هذا المساء الجميل يجب أن أبدأه بابتسامة، كل شيء يعتمل داخلي، ما زال يزعجني، الضجيج الذي أسمعه من أغوار أعماقي، يعبر عن عدم انسجامي، ليس مع بعض الأشياء بل مع معظمها.

الوجوه أشبه بقطرات المطر، تتساقط لتختفي، كأنّ الزمن يسافر في مآقي الراحلين، وكأنّ العمر يمضي سريعًا غير آبهٍ بتأوُّهات الأرصفة والممرات وشباك التذاكر وصدر امرأة تركته نهبًا لأعين المكبوتين والمحرومين والرعاع.

كان العمر في حوار مع تذكرة الرحلة الواحدة، وكنت أنا أبحث عني في وجوه القادمين، في تخوم المرايا ، ربما نسيني أحدهم خارج محطة القطار أو ربما نسيت أنا ذاكرتي في طابور التذاكر، ربما يمتطي العمر بساط الريح والروح تاركًا آمالنا معلقة على جدار الوقت، بانتظار ما كان ذات حلم، أمنية.

إنه العمر يا سيدتي، تمتم القروي النبيل أثناء مرور الفتاة الشقية، كان في أشد الحاجة إلى عصا يسلمها إليها لتؤدي رقصة المساء،

التفتت إليه بابتسامة صغيرة تشبه حبة لوز جرحت بمشرط، وبصمت واصلت السير، وواصل هو تمتمته. كانت لا تعير الوقت اهتمامًا، ولا الزمن انتباهًا، الشباب والجمال والغرور توائم ثلاثة، لن تدرك هذه الفتاة أن العمر قبطان سفينة لا ينتظر أحدًا ولا ينظر إلى الخلف.

عاد الصدى وغابت الفتاة، مضى القروي مسرعًا، كل ما وجده في الطرقات كان عبارة عن ابتسامات ذابلة، وأنصاف مواويل، وبقايا مرايا، وأمواج هادئة. مضى مسرعًا، مسرعًا، ثم توقف فجأة، جال بنظره ليرى، أو يحاول رؤية كل من حوله، قال في نفسه:

- إن بي رغبة في الغناء، إن بي رغبة في العزف على سيمفونية ابتسامة مجنونة، قالها بنشوة.

لم يكن ذلك الفتى القروي يدرك أن العمر يجتاز به محطات العبور دون انتظار لقادم، أو لحلم، أو لأمنية، أو لحب.

هذه الأماكن ليس لديها ما تقوله، إلا أن كل شيء مرتب بعناية فائقة.

أشعر بالبرودة، التكييف عالٍ أو أنني فقدت المناعة.

قالت امرأة في العقد الخامس من عمرها، وهي تستند على كتف ابنها الذي يمسك بيد زوجته: هذه الأماكن لا تسمح للآخرين بالاحتفاظ بها، لا ذكرى، ولا موقف، ولا صورة، إنها فقط تستنزف مرايا المخيلة.

الأماكن الخالية من النساء مثل الصحاري، قد نستمتع بها، لكن لا نسكن إليها. المرأة هي السكن المعنوي والمادي للرجل،

هي الكون يحتضن كل من فيه، مهما ابتعدنا عنها، ولطالما تعثرت لحظاتنا من دونها.

إن اللحظة الجميلة مثل السهم القادم إلينا من ثنايا أحلامنا، إما أن يقتلنا وإما أن نأخذه لنستفيد منه في رحلة صيد قادمة، حتى وإن كانت مشاعرنا متعبة، فبمقدورهذا المساء الجميل أن يغمرنا بفيض من الأمل والتفاؤل، ويغسلنا من مساء كله حزن وألم وأخبار سيئة.

في مدخل السلم الكهربائي، تقف فتاة ذات سحنة كردية، قابلت ابتسامتي بابتسامة أجمل، وأهدتني وردة كانت بيدها، أخذتها ومضيت في طريقي، تكوّن لدي انطباع حسن عن الأكراد، لكن ما مناسبة الورد؟! نسبة كبيرة من النساء يحملن الورد، الذاكرة متعبة، وأنا ممتنٌّ لهذه الجميلة على هذا الموقف النبيل، لكن لماذا انعقد لساني؟

لماذا مضيت ولم أتوقف؟ لماذا لم أتعامل معها كفلاح أنيق في حديقة للورود، يُقبّل الوردة ومن ثم يعيدها إلى مكانها؟!

ما أجمل المساء الذي يبدأ بوردة وينتهي بقُبلة.

غالبًا ما تأتي الأشياء الجميلة عندما نكون غير مستعدين لها، وتذهب حينما نكون قد رتبنا لاستقبالها، حتى صلاة الاستسقاء أحيانًا لا تأتي بالمطر، ورغم ذلك سوف نتنفس حُبًّا وطمأنينة، سوف نقول للنار التي في دواخلنا فقط مع هذا المساء:

كوني بردًا وسلامًا. سوف أتفاءل وأقول: إن كل شيء على ما يرام.

هي لحظة كالثلج، أو كالبرق، أو كالضوء، لحظة كالنور أو كالنار، ترقص في الهشيم، بائعو الهموم والغموم والحقد والكراهية أصبحوا أكثر من بائعي الورد، اللحظات السعيدة لا تحتاج إلى أسئلة ولا إلى إجابات، فقط تتساقط مع المطر.

بالقرب إلى الأسفل من ساعة الحائط النائمة على الجدار (كافيه)، تعبق منه رائحة البُن، ما أدى إلى استيقاظ الطاقة النائمة داخلي، لم أعد عاشقًا للقهوة وحسب، بل لقد أصبحت مدمنًا عليها. أحيانًا نستبدل ابتسامة المساء بفنجان قهوة، ليس ترفًا ولكن محاولة لاستعادة مشاعر منهوبة.

استمر، دع فنجان القهوة يعزف نشيده الوطني داخلك، اترك لنفسك الحبل على الغارب، اسمح لكل ماهو داخلك بالرقص والغناء والصراخ والبكاء، إذا كان فنجان القهوة سيمنحك مزاجًا أفضل، فهو ثروتك الحقيقية. كثيرون جعلوا من فنجان القهوة رفيقًا لرحلاتهم الطويلة.

الجميع منهمك بالحركة، لا أحد يفشي السلام، ولا أحد يهتم لأمر أحد.

إنهم انعكاس للقوالب الإسمنتية والمدنية الحديثة، لقد تخلصوا - كما يبدو - من شرطي القبيلة، ومن الوازع الديني، والضمير المستتر.

بعد 1400 عام من النصح والوعظ والخطب والضرب المبرح والأدب، أصبحنا ضحية اختلاف الفقهاء وتضاد الأئمة ومناكفات الساسة وفتاوى البلاط، أصبحنا بلا أدب، ذهبوا بنا باتجاه الفروع

وتركوا الأصول، كم نحن في حاجة إلى إعادة قراءة النص، وتنقيحه من المفاهيم الخاطئة، ولكن، ما دخل القهوة بهذه الحوارات القادمة من الأغوار؟!

إنها مشروع رواية، قد تنقذ البشرية مما هي فيه، من الضوضاء، والعدمية، والخمول الفكري، والفقر العاطفي، والانحطاط الثقافي، والجمود الاقتصادي!

أغلب المشاريع الكبيرة التي راهنّا عليها، كالوحدة العربية والقومية، فشلت. إن لم تكن قد تحولت إلى بحيرات آسنة، نتج عنها العقل الخالي من النبل، والقلب الممتلئ بالحقد، والإحساس المنخور من داخله، والسعادة المفرغة من الفرح.

اعتدنا أن نسلم بكل شيء، بالموروث، وبالثقافة، وبالدين، حتى حاصرنا أنفسنا بالانتماءات، خنقنا الذات النقية في مجسم خرافي مزيف، نحاول أن نشيع داخله الروح المقدسة، نحاول أن نقنع أنفسنا بأفكار لا تُغني ولا تُسمن من جوع.

هؤلاء النساء الجميلات ضحية الشركات، والموضة، والدولار، والجنيه.

ما هذه الأحذية العالية؟! كيف تستطيع أن تستمتع بالرقص وبالدوران وبالقفز؟!

التكييف الصناعي حافظ على (الميك آب)، ولطّف الجو، وخفّف من روائح العمال. كلما اقتربنا من الريال ابتعدنا عن وهج الحياة الحقيقي، عن الأُنس والحب والسعادة والمرح.

كأنّ المدينة تتهيأ لليلة صاخبة، وكأنّ عامل المقهى كان بالانتظار.

- تفضل سيدي، قالها باللغة الإنجليزية. التحدث بالإنجليزية يمنح البعض السعادة، لعلهم يشعرون عندما يتحدثونها بأنهم من طبقة النبلاء.

شكرته وطلبت فنجان (لاتيه)، قهوتي المفضلة، مع القرفة. الجريدة الإخبارية على الطاولة لم تعد مرغوبة رغم امتلائها بأنواع الكذب، قضى عليها النت وجعلها من بين الأشياء التي أهملها الزمن، ووضعها في رفوف عتيقة مثلها مثل التحف الفخارية.

بالقرب منّي رجل تبدو عليه ملامح السعادة والقلق، كأنه ينتظر شخصًا ما، لا أغرب من اندهاش القروي لِما صار عليه الناس واعتاد عليه البشر.

التفت إليّ ثم عاد بنظره إلى جهازه الخلوي ليستمر بعد ذلك في توزيع نظراته بين الجميلات والجهاز، أصبحت هذه الأجهزة تلبي كل احتياجاتنا.

لا أعتقد أنني بحاجة إلى صحيفة أو كتاب؛ فكل شيء في الحياة أصبح داخل جهاز بحجم اليد، حتى الحب والمشاعر تستطيع أن تجدها في هذا الجهاز من خلال مواقع التواصل، صحيح أنها ستكون مؤقتة، وستنتهي إما بحظر أو نحوه، ولكنها تلبي متطلبات هذا العصر، حيث أصبح الحب وجبة من الوجبات السريعة؛ لذا لا يمكنك أن تفارقه أو تستغني عنه.

تارة يتبسم وأخرى يتجهم.

كل شيء تغير في ظل هذه التكنولوجيا، ورغم أن الأشياء هي ذاتها، لكن طعمها تغير، الموسيقى هي ذاتها لكن صوتها تغير، الزمن هو الزمن لكن لونه تغير، البريد الذي كنا ننتظره عدة أشهر أصبح يصل في نفس اللحظة، الموسيقى كانت تبدأ من أطراف أصابعك ثم إلى شفتيك ثم إلى عينيك ومن ثم إلى أذنيك، الآن تصل في نفس اللحظة.

بينما أنا مسافر في هذياني، نهض مبتسمًا نحو امرأة نصف محجبة، رغم الوقار الذي يبدو على حجابها إلا أنها تملك روح طفلة وجسد أنثى، فهي ترتدي بنطلون جينز وبلوزة مكممة، ما زلت أؤمن بأن الحجاب في القلب وليس فيما تستر به الأجساد والشعر.

غادرا معًا وعدت أنا إلى هذياني، كان أمام المقهى مجموعة صغيرة من الطاولات والكراسي الخشبية، جميعها فارغة إلا من كرسي يتيم يجلس عليه رجل متقدم في السن لكنه في صحة جيدة، كان يرتدي بذلة رسمية وقبعة وبيده عصاه، كان يبدو باذخ الأناقة.

إذا كان ثلث عمرك قد أمضيته في النوم باكرًا، وثلثه الآخر قد أمضيته في الحب والشعر ومناجاة النجوم، فالثلث الأخير عليك أن تمضيه في العبادة والصلاة والصيام وحسن الختام.

كانت القرية في المساء لوحة فنية فيها تداخلات النجوم والقمر، وبقايا ضوء هنا أو هناك، لناسك يتعبد أو لمريض يسمع أنينه كل سكان القرية.

أخـذت فنجان القهوة وهممت بالذهاب، المدن الأنيقة تهتم كثيرًا بمظهرها وبأسلوبها وبترتيبها، النظام في الشارع لم يعد إلزاميًّا بقدر ما أصبح سلوكًا ينتهجه الناس.

مؤلم حد البكاء أن تكون قادمًا من مدن الفوضى والاعتداد بالسلاح والعيش في القرن الأول قبل الهجرة، وأكثر إيلامًا أن تكون أنت - في الوقت نفسه - من طبقة المثقفين المستتيرين أو من يسمون بالنخبة.

إلى أين تذهب؟! لم أتوقع أن يكون هذا السؤال موجهًا لي.

ابتسمت وأنـا أبحث فـي المكان عن مصدر السـؤال. تناول قهوتك، ومن ثم واصل سيرك. قالها العجوز الأنيق بلطف وأبوة.

قلت: أخشى أن يفوتني القطار، قلتها وأنا أتأمل سحنة الرجل ولون عينيه.

قال: ثمة رحلة أخرى.

أراد أن يقول لي: إن من الأدب ألّا تمشي وكوب القهوة بيدك، وأنا من يتقبل النصيحة حتى لو كانت من فضولي.

جلست على الكرسي غير المقابل لمستودع النصائح حتى لا أفتح حديثًا لنصيحة ثانية وثالثة، وهلم جرًّا؛ فالفضوليون لا يكتفون بنصيحة واحدة على الغالب.

سمعته يقول: إنه - أيضًا - من غير اللائق إعطاء ظهرك للآخرين، فعرفت أنني أنا المقصود، أدرت الكرسي واعتذرت له، قال لي:

لا تعتذر، لكنني مجبر أن أسدي لك النصح، فقد تربيت على الفضيلة، وأسعى لزرعها في الآخرين.

قلت له: يا سيدي، الفضيلة ماتت حين ولدت الجامعات.

قال: صدقت، تبدو من سحنتك أنك بابليٌّ أصيل.

أجبته: أنا من اليمن السعيد.

قال بحفاوة: أنعم وأكرم، أهل حسب ونسب، أخوالنا وأجدادنا.

قلت: كأنّي بك من العراق الجريح؟!

قال: نعم، من عاصمة الرشيد.

قلت: غبني على الرصافة والجسر، كيف العراق؟

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارة كوبية، كانت أكبر من أصابعه وأعرض من شفتيه، ثم قال:

من أين نبدأ؟!

جراحاتنا مثخنة، وهمومنا كل لحظة في ازدياد، وأهل الحل والعقد استبقوا الأحداث بالرحيل، لم يبق للسعادة مكان ولا للفرح موقع.

قاطعته بالقول: هل أصبحت العراق مثل فلسطين؟

قال: أسوأ؛ لأننا تاجرنا بقضيتهم، ولعبنا على دمائهم.

القدس وإخواننا الذين يعذبون ويقتلون في اليوم آلاف المرات دمرونا من الداخل، استعمرونا مرتين، أحرقوا قلوبنا ملايين المرات، صبوا على جراحاتنا الملح والزيت والقرارات الأممية، والآن. .

الآن ماذا؟! الآن لا نملك حتى قرار العيش في خيمة واحدة، أو تحت صفيح واحد، أو داخل كيان آمن ذي سيادة، واستطرد قائلًا: نكأت جراحي يا رجل.

قلت وكُلّي حسرة وألم: الأنظمة التي استصغرت شعوبها وعاشت بين الحيلة والخديعة، ورسمت الابتسامة في الإعلام ونزعتها في الواقع، ذهبت إلى الجحيم، أليس كذلك؟!

قال وغصة تتدحرج في حلقه كجُلمود صخرٍ حطَّ من مؤخرة لسانه:

ليس كذلك يا بُني، إننا لم نصل إلى تعريف مشترك لمفهوم المواطنةالمتساوية؛ ما أحدث شرخًا في القلب، وأحدث بونًا شاسعًا بيننا وبين الأنظمة التي استهترت بمقدرات شعوبها الفكرية واستغلت مقدراتها المادية، الأنظمة التي سخرت كل المؤسسات المحلية والدولية لخدمتها هي وهي فقط.

- هل هي الشماتة إذن، وهل هي عزاؤنا الوحيد؟

- لا شماتة ولا استهزاء، ولكن جاء دور المظلوم ليبتسم لعدالة السماء.

بعد أن صادروا أفراحه وسعادته وابتسامته لأعياد عديدة وأعوام مديدة.

علّمتني أمي منذ نعومة أظفاري عدم الدخول في الأعراض، سواء في حق أو في باطل؛ لذلك كلما اتجه الناس إلى الصحافة ابتعدت عنها، وكلما فتحت الفتنة بابًا أغلقته.

قال: لكنك - يا بني - جزء مما يجري، يتقطع قلبي ألمًا وحسرة لما وصلنا إليه من القطيعة والخصام والحقد والكراهية والتحاسد والتباغض، من تسابق نحو الأسوأ، نحو الهدم، نحو الفرقة، نحو الشتات. كانت أمنياتنا في الطفولة أن نكبر ونستعيد القدس، لكن اتسع الخرق؛ أصبحت أمنياتنا أن يكون لنا وطن.

قاطعته بلغة رصينة وصوت منخفض:

أنتم ضيّعتم القدس.

قال: نعم، لكنكم - يا بني - أضعتم الوطن من أقصاه إلى أقصاه.

قلت: صحيح، لأنكم أضعتم القدس وأسأتم التربية.

نظر إليّ بِحَيرةٍ وأسًى، ونظرت أنا باتجاه الناس المهرولة جهة الضياع.

لدي رغبة في الهروب من مواجهة الذات، رغبة في الخروج من دائرة النقاش العقيم.

وضعت الكوب الذي لم أستطع الاستمتاع به من يدي على الطاولة، واعتذرت للرجل، وشكرته على لطفه، لكنه كان أكثر حِدّةً وأشدّ جرأة؛ فقد وضع رِجلًا على رِجل وأرخى ربطة عنقه قليلًا، وقال: اجلس يا بني، فالنقاش سيغير طريقة تفكيرك وتعاملك مع الآخرين.

قلت له: إن حديثك يجعلني أفكر بإعادة النظر في الانسجام مع الدراويش.

فضحك حتى عاد صدى ضحكته من عيون الآخرين!

ما إن أنهى ضحكته حتى نظر الجميع نحوه، كان الرجل يشارف على الثمانين ولكن خبرته في إدارة الحوارات والنقاشات كانت أكبر.

قال: لست درويشًا يا فتى، إنما (تكة) الدراويش بداخلي؛ لذلك أهرب منهم إلى الخارج.

بربك كيف عرفت ذلك؟!

قلت: يا سيدي، لو لم تكن كذلك لما توقفت أمامك، فأنا أكره التوقف أمام محقق أو مخبر أو قاضٍ أو فضوليّ، لاحظت أن ملامح وجهك وتصرفاتك لا تمتّ إلى الفوضى بصِلة، لا شيء يمتّ إلى الحقيقة بصلة سواك.

قال: اجلس وسوف أعلمك كلمات لم تسمعها من قبل، الفكر والفن يزدهران تحت ظلال السيوف، والحرية هي مظلةٌ خادعةٌ تنتج فنًّا، ولكنه مزيف.

قلت: ربما تتحدث عن الديمقراطيات الناشئة؟

قال: لا، إنما أتحدث عن الديمقراطيات العميقة، القادرة على التلون والسحر واللعب في أكثر من جهة.

قلت: ربما تكون الصحافة قد أثّرت في الديمقراطيات.

نظر إلى فنجان القهوة بتعجبٍ، وقال:

إنهم حين ألبسوا الصحافة بردة السلطة الرابعة، يا بني، كان القصد تحويلها إلى ضوء يسبق الأنظمة الديمقراطية التي تحترم

حرية الرأي والفكر، وحتى لا تتحول الحرية إلى فوضى، ولكن - مع الأسف - أصبحت أسوأ من الديكتاتوريات.

لم يكن لديه موضوع نتناقش فيه، لكنه يحب أن يتحدث إليّ، فربما هو بانتظار شخص ما، لذلك كان يفتش عن نافذة لحديث. التفت إلى لوحة كانت معلقة على الجدار المقابل لرائحة القهوة، ثم قال لي:

- هل تعرف لمن تلك اللوحة؟

قلت: لا.

قال: إنها لبيكاسو، وهي لنساء شبه عاريات في الجزائر؟!

- نعم.

- كم تتوقع سعرها؟

- قلت: لا أعطيها حتى دولارًا واحدًا؛ لأنني تألمت أن يأتي (بيكاسو) من إسبانيا إلى الجزائر لرسم لوحة لنساء شبه عاريات، ونأتي نحن لنمجدها!

قاطع حماستي بالقول:

- يا بني، لقد بيعت هذه اللوحة بقيمة 179 مليون دولار، حيث صنفت أجمل أعماله.

- قد لا يكون أتى إلى الجزائر.

- وهل أنت معترض على اللوحة أم على التسمية؟

- يا سيدي، لن نتقرب إلى الله بخطيئة الفن الذي يخدش مشاعرنا ويجرح كبرياءنا وينتقص من كرامتنا ويقدمنا للعالم بغير الصورةالحقيقية التي نحن عليها، فن هابط، لن نمجده ولن نلتفت إليه، نحن قوم لا زلنا مغرمين بقصص تبع وسيف بن ذي يزن والزير سالم، لا زلنا نعتقد أننا مَن بنى العالم ومَن ألهمه بناء السدود والأبراج والقصور.

استقام العراقي العجوز، وقال:

- يا بني، لا تكن مغرمًا بحضارات أفلت وممالك زالت.

أخذت رشفة من قهوتي وأنا أحدق إليها كمن يقرأ الفنجان ليتمسك ببقايا تاريخها العريق عبر تعرجاتها في قعر الفنجان، ثم سألته:

- أتعلم من أين أتت هذه القهوة، ومن أين أتت تسمية قهوة اللاتيه مع الشوكولاتة (الموكا) بالإيطالية (Caffe Mocha)؟

أصل الكلمتين عربي فأصلها قهوة المخا.

و(المخا) - أو (المخاء) - من الموانئ اليمنية القديمة التي ذكرتها النقوش الحميرية باسم (مخن)، وقد وجد اسم المَخا في نقوش يمنية قديمة بخط المسند، مثل نقش للملك «ذي نواس».

نحن - يا سيدي - لا زلنا نعيش الماضي ونعتقد أننا علمنا العالم الرماية والسباحة وركوب الخيل، لا زلنا مشدودين إليه بقوة رغم أفوله على حد قولك، وتطرب قلوبنا حين نكون بحضرة الملكة بلقيس والإله المقه ومدينة ظفار.

لا زلنا مغرمين بخط المسند والنقوش السبئية التي أضاءت للعالم طرق الحرير والبخور.

- يا بني نحن في القرن الحادي والعشرين، لا طرق قوافل، ولا إبل، ولا عبيد، ولا نقوش. العالم يبحث عن كوكب آخر لنعيش فيه.

- هؤلاء أنتم، أما نحن فحين نولد تولد معنا التواريخ والأحداث مسلسلة، المروءة، والنخوة، والشجاعة والشرف، الكرم وحب الله.

- بل أنتم مجرد شجرة أحلام كبيرة. وقبل أن يكمل حديثه، زاحمنا ظل ثالث لامرأة أتت في صكة ترفل بالدمقس وبالحرير، فستان تتمازج فيه الألوان الوردي والخمري والأبيض، يتوقف آخره عند ركبتيها، تضع طرحة على كتفيها كمعطف، لا تكاد تخفي ضفيرتها الغجرية، في يدها اليمنى حقيبة، وفي اليسرى وردة. أدركت بأنها تأخرت لأمر ما، ولسان حالها يعتذر لولا أنفاسها المتلاحقة، بدت كطفلة مشاغبة قفزت من فوق سور المدرسة.

عيناها تكادان تفصحان بأنها من فصيلة نادرة، تجيد البكاء والابتسامة معًا، وتجيد أيضًا تحويل الغصص إلى أمنيات والأماكن إلى ساحة مرح بلا حدود.

كأنّها أتت لتمارس كل أنواع الجنون والثرثرة، وتسرد كل الحكايات، لها جسد نحيل كأجساد عارضات الأزياء، ولها روح مثقلة بكل أحلامها الساذجة، تنتظر من يهدي إليها الوردة التي حلمت بها؛ لذلك عيناها تبحثان في يدي عن وردتها المفقودة، إنها

تبدو كمهرة عربية تنتظر فارس أحلامها كي يطلق سراح شعرها المصلوب في ضفيرة.

وحين كنت منشغلًا بتفسير ملامح الفتاة أوالوصول إلى شاطئ يفسرها ويترجمها لي، إذا بالعجوز الأنيق يكسر جدار الصمت الذي قام فور وصولها:

- أعرفك بابنتي الدكتورة جولي، تعمل أستاذة لفيزياء الطاقات العليا.

استدركت بقايا شجاعتي التي قضت على معظمها نظرات تلك المرأة اللغز، مدت يدها إليّ لتصافحني، توقف الزمن، استدار الوقت باتجاه نافذة العمر، وفي داخلي تحركت فوضى عارمة من التناقضات التي زرعتها القبيلة وكتيبات المدرسة وخطب المساجد، تقابلها رغبتي وثقافتي والآخر الذي يسكن بداخلي، وفي كل مرة يهزمني، حتى في لحظة أفول الزمن. مددت يدي وصافحتها. كان يبدو عليها الاستعجال، وتمتمت ببعض الجمل التي - رغم تركيزي الشديد - لم أستطع التقاطها، لكن يبدو أنها تعتذر لوالدها عن التأخير. عرفها بدوره عليَّ واستأذنا منّي، وانطلقا، لتترك حولي هالة من علامات الدهشة والاستفهام.

كان يجدر بي أن أستوقفهما للحظات، وأتعرف الفتاة أكثر، ربما كان يجدر بي اللحاق بها. وقت انصرفت مع والدها، كنت على يقين بأنني سأجدها، أو قد أقابلها برفقة أبيها، ولو مصادفة مرة أخرى.

الحياة حلقة صغيرة، ليست كل النساء على حدٍّ سواء يستطعن فك الشفرات من أول لقاء، هناك نساء تتدحرج على مدرجات قلبك كحبات عقد قطعته يد الحب.

رغم الحسرة التي تتركها المرأة الغامضة في جدران ذاكرتك، إلا أنك في قرارة ذاتك تلهث وراء ذلك الغموض وتستأنس به، كأنك عشقت القمر، لم يلملم نظراتي وذاتي المتناثرة بعد رحيلها سوى اصطدامي بأحد المستعجلين!

أكملت طريقي، كيف تضع قدمك على السلم الكهربائي ومشاعر الحزن والأسف تصعد قبلك؟! كيف تنتمي إلى عالم يعتبر الموسيقى مادة، والمادة عاطفة، والعاطفة قيمة؟!

ربما تكون القروي الوحيد هنا في هذه المدينة التي تنام عارية، بينما أنت مثقل بالعادات والتقاليد والأعراف القبلية تنام مغطى بكل همومك وأحزانك، مروءتك ونبلك، مشاعرك السلبية والإيجابية، وتصحو وقد سرقوا نبلك ومروءتك وابتسامتك وحزنك وقصائدك!

القرية لا تزال أقرب نقطة إلى القلب، جمال، هدوء، هواء عليل، صوت خرير الماء ينساب من السواقي إلى أقاصي أذنيك، إلى الآن لم تستطع المدينة سحب البساط.

لا تزال القرية مركز الكون، الفراشات الملونة ترقص على أغاني القطيع، الطيور المهاجرة لا تزال تسبح في الفضاء، رائحة التراب المبلل بقطرات الندى، الفجر الذي لا يمل من نسائمه، رائحة الخبز الممزوج بدعاء جدتي، المدرجات في القرية تصعد بك إلى

القمة، تصل بك إلى الحقيقة النابعة من الأرض، من عرق الفلاحين، من التقاء الياسمين بالندى، والجبال بالسحاب، والمطر بالتراب.

السلم الكهربائي يصعد بك إلى الحقيقة المزيفة، إسمنت، حديد، بلاستيك، مساحيق. كيف يستطيعون العيش دون مشاعر جياشة؟!

ودون إحساس مضطرد؟!

ودون وجدان مختلج؟!

الحياة في القرية بسيطة، ذاكرة ممتدة بامتداد الحقول، بقايا قصيدة عالقة بين سنابل القمح.

قالت ذات حنين وفصول الصمت التي بداخلي توزع الكلمات على عينيها:

عندما تفوح رائحة الحناء من يدي عروسة الجبال في ليلة خميس، سأكون بانتظارك.

قلت وبي من ألم الجوى ما بي: ربما يكون انتظار ما لا يأتي على حد تعبير (صمويل بيكت) في مسرحيته الشهيرة.

كانت الإجابة حينها صعبة، لصلتها الوثقى بنبضات قلبها القروي الذي ينام مغطى بالعشب وبالحب وبعقود الياسمين، ما كنت أقوله في سري كانت تجيد قراءته في عيني، وفي شفتي كانت تسمع الصخب الذي داخلي همسًا، ورغم أن القرية تقع في أطراف الجبال ولا تستطيع وسائل النقل أن تصل إليها، إلا أن صوت فيروز وأم كلثوم وعمالقة الزمن الجميل مثّلت طريقًا مُعبّدًا إلى

قلوب القرويين، فكان المذياع رسول حب إلى أفئدتهم، وصارت الأغنية غذاء للعاشقين المختبئين بين حقول الذرة وعقود الفل.

في الصباح تطل فيروز من نافذة الفضاء لتعانق الحقول والجبال بصوتها العذب، وفي المساء تجلس كوكب الشرق أم كلثوم على شرفة القمر وتغني (أنت عمري).

كنا عبق الماضي. أنا، وقروية كانت كل صباح تقدم فنجان القهوة بمذاق العشب، وأغاني فيروز بنكهة الزهور، ورقصة البطريق برائحة الخزامى.

أسامر القروية الجميلة، أغني لها حين تحمل الحطب، وحين تجمع العشب الأخضر، وحين تخرج إلى بيت جارتها متحججة كي أراها كل يوم بجمال مختلف.

إلى أين سيحملك السلم الكهربائي بعيدًا عن صوت المذياع الذي يدندن بين مواسم الحصاد ونهود العذارى، بعيدًا عن أغاني الحب التي تنضح بها الجبال؟!

في القرية حياتهم - رغم بؤسها - جميلة، ورغم شقائها سعيدة، ورغم عنائها هنية، ورغم كدها شجية، لا تسمع لهم شكوى ولا تحس لهم نهدة.

في الحلم تأتيهم الحياة، ويأتيهم الحب، وتأتيهم حيتانهم شُرّعًا. القرية مكان مرتبط بالصلاة والصيام والنذر والأولياء والصالحين، بالمشاعر والعواطف، والحب بالحياة المتجددة الطرية.

أنا لا أكره المدينة كبنيان، لكنها تسرق العمر، تجبرك على الابتعاد عن طبيعتك وسليقتك ودينك، تشعر أن التزامك بروتين المدينة يقطع عنك الأوكسجين ويصادرحقك في الشهيق والزفير، ويجعلك تشرب سيجارتك مقلوبة! (لا يمكنك تعليم الكلب العجوز حيلًا جديدة)!

أريد أن أقف على رؤوس الأشهاد، أريد أن أستوقفهم وأقول لهم: أبطئوا الخطى، تنفسوا الصعداء، اشتمُّوا رائحة الزهور من حولكم؛ فإيقاع المدينة سوف يدمركم من الداخل دون أن تشعروا، جربوا الصحو بين أشجار البن والفل والياسمين.

إننا نعاني الأمرّين؛ عدم القدرة على التعبير، وعدم القدرة على التصوير.

نتحرك ككتلة واحدة، أشعر أنني أصبحت في موقع القاضي. لو يعلم الجميع الآن كيف أفكر في تغيير العالم، لرموني بالحجارة؛ لذا نلتزم الصمت دائمًا، ونترك لخيالنا حرية التفكير بطريقته.

أجمل الأشياء التي وهبنا اللّه أننا نستطيع التفكير والتخيل بحيث لا يرى البشر ما يدور في أدمغتنا، ولكني أخاف من اليوم الذي ينتج العلم الجديد والتكنولوجيا المبتكرة آلة تكشف خبايا النفس البشرية، مثلما يقرأ السلم الكهربائي الآن عيوب الناس!

سأترك العالم بخيره وشره وأقف هنا لأشتَمّ رائحة الوردة، أجمل الذكريات هي تلك التي تتحول إلى ياسمين، إلى عيون تنضح

بالعطر، إلى مرجان غارق بالحب، إلى وجن عاشقة للنايات المسافرة من الحنين إلى الحنين، إلى ابتسامة محلّقة في الفضاء.

السلم الكهربائي بلا دين وبلا شرف، يقف بين انسيابية الأشياء والأشياء، ويتدلى بين المسافات كطائر اقتات على الشبق، كم هو محظوظ هذا المساء بمروري من هنا، كلما نزعت الغرور الذي داخلي وتركته على الرصيف، قابلته أمامي.

قلت لها ذات مساء: ما تعريفك للغرور؟

قالت: أن ترفض تعليق يدي على كتفك ونحن نقطع الحقل بكرة وغدوًّا.

إحساسي لا يخيب أبدًا، هناك باقة حب في طريقها إلى قلبي، ربما سينكسر الاعتقاد المعروف عن القروي بأنه مكتوب عليه أن يعيش حالة حظر تجوال. الحب في مزالق المدن ومنعطفات الشوارع إحساس مقيت، أعراف القبيلة تتربص بي، وتجرني للخلف من قدميّ، يجب أن أتفاءل، قمة الخيال والتفاؤل أن تتبخر تلك الجميلة من فنجان القهوة على هيئة فراشة، المرأة إن دخلت قلبك دمرته، وإن دخلت قلبها دمرتك؛ في الحالتين أنت الضحية!

القطار على مقربة وأنا لا زلت مسكونًا بالوردة، بابتسامة تمنيت أن تكون وطنًا، حتى وأنت تحاول التعبيرعن مشاعرك تخذلك العبارة، ويخذلك الشعر، ويخذلك القلم، وتخذلك الورقة، وقد تتحول حينها إلى مُضطهد من الدرجة الأولى.

في كل مرة كنت أحاول التعبير فيها عن مشاعري تجاهها، تمرّ من شفتي ورقة التوت أو ثمرة المانجو، كثيرة هي المرات التي تلعثمت فيها، وأكثر منها خذلان القصيدة. كنا أنا والقروية الجميلة نعتقد بأن المقدس فينا ملكنا، وأن سنابل القمح هي جزء منا، وأن قوس قزح هو ابتسامة أحزاننا، ولكنني اكتشفت بعد ذلك أننا مجرد ورق على رفوف منسية، لن يلتفت إليها سوى التراب!

قالت ذات مطر والنساء يهربن باتجاه بيوت القرية خوفًا من تبلل ثيابهن، وهنّ ممسكات على أجساد مغطاة بأثواب الحشمة والدين والقبيلة:

الحب أغنية جميلة، وما بعدها يتجه إلى العدم.

قلت وأنا أعرض نفسي للمطر المنهمر: أقصى ما يتمناه الرجل الحقيقي هو أن يكون عنوان كتاب خطته أنامل أنثى مخملية، فكيف لو كانت مبللة بالمطر؟!

قالت: الحب إما أن يحملك وتعيش سعادة أبدية، وإما أن تحمله وتعيش بقية عمرك تحت الأنقاض.

قلت: الحب أغنية جميلة، واستمرارها مرتبط بتناغم الإيقاع بين طرفيه.

قالت: لا أجمل من الحب إلا شاعريتك، وشعر كأناقتك. . . قاطعتها: وجمالك.

قالت: هل تجيد الغناء على وقع أنغام المطر؟

قلت: لا، أنا أجيد الكتابة على شفتيك.

قالت: ولا الرقص؟!

قلت: ولا الرقص.

قالت: وإن دقت طبول الحرب؟!

قلت: الحرب - يا سيدتي - هي التاريخ الذي أتينا منه، والحب هو التاريخ الذي وصلنا إليه.

قالت: لا يجتمع حب وحرب!

قلت: بلى يجتمعان؛ فكلاهما يسكنان عينيك، وكلاهما جعلا من قلبي ساحة وغى.

لملم طائر الأشجان أجنحته واتجه نحو الأفق.

اقترب منّي حكيم القرية، تأمل حالتي وأنا ممتلئ بالعشق على حافة جدول صغير ذات صباح أستجدي ذاكرتي بعودة جميلة أيقظت فِيّ تباريح الهوى، نظر إليّ ذلك الحكيم بفراسة وقال:

السماء لا تمطر عشقًا يا بني، الأرض مليئة بسنابل الحب، لكننا اعتدنا على الحزن، حتى أصبح مصدرًا لسعادتنا!

ما تبقى من المساء لا يكفي لحزن جديد، تنفست الصعداء، واصلت السير وسط عالم من النساء والجمال والعطور والبخور، عالم من الدهشة والجنون، تركت الكون ورائي، وصعدت السلم، تساقطت الأسئلة:

ماذا تكتب لنا الأيام يا ترى؟

كيف ستصبح السلالم الكهربائية؟

وكيف ستصبح النساء؟ وكيف ستصبح الأسواق والمحطات والقطارات؟

وماذا سترتدي النساء؟ بل كيف ستصبح العلاقة الجنسية؟!

كانت كل علامات الاستفهام تلك تملأ حيزًا كبيرًا في رأسي، وكأنني أقف في محطة الأسئلة أتأمل هؤلاء البشر، الذين هم رماد المستقبل، كم كنت أتمنى أن تأتي القروية الجميلة إلى هنا وتستنطق الدهشة ثم تستأصل الحيرة الجاثمة على صدري.

ما من أحد هنا إلا وهو ملتحم بجهاز الهاتف، ربما أصبح الذاكرة الخارجية للإنسان، إن لم يكن توأمه. سنكون أمام خيارات مُرّة في قادم الأزمان، حين تتحدث أوجاعنا، وحين تتحدث أشواقنا، وحين تتحدث لحظات الصدود والجحود، كما تتحدث برامج الهاتف الخلوي.

كان السقف حالة خاصة، فهو خالٍ من العيوب، إنه - فقط - يمنح الآخرين الضوء.

غدًا ستصبح الذكريات وشمًا على القلب، باقة وردٍ نتنسّم شذاها، أنا وهي وبقايا المكان، غدًا يكون الحب جبلًا من الجليد، أول من يصطدم به نحن.

غدًا سنكون مخدوعين من الوريد إلى الوريد.

غدًا ستلتقي جميع الخيوط من حولنا، كم سنكون مثيرين للشفقة!

غدًا عند أول نقطة تفتيش، سيكون أول من يخذلك قلبك. كان نبض قلبي أشبه بمسافة تحتاج إلى قفز، فالعصافير التي تسكن في صدري لا تحتاج سوى إلى المطر.

السماء ملبدة بصور القروية الجميلة، متى غاب قمر السماء تبدت هي قمرًا في الأرض أو صورة في السماء، مقامات الدهشة من نصيبك هذا المساء.

كم من الوقت مضى؟!

أعتقد أنني لا أحتاج النظر لساعة اليد كي أعدّ الدقائق والثواني التي تمضي من عمري.

كانت تقول: لا أخاف في هذه الحياة إلا من شيئين اثنين فقط:

حضورك وانتظاري، حضورك يكون طاغيًا، أعجز فيه عن لملمة شتاتي والتموضع في مدن الأحلام، وعن الوقوف إلا في حالة بين الهذيان والجنون، أما الانتظار فإنه أحيانًا يكون مخيفًا، موحشًا، قاسيًا، جارحًا، مؤلمًا، خصوصًا عندما لا يتسع لكل طموحاتنا وأحلامنا وأوجاعنا.

حرارة الصيف تتطاير شررًا من زوايا القطار الخارجية، ثمة قطار داخلي لا يتوقف عن الحركة، يعمل على الفحم الحجري، ممتلئ بالفراغ.

ثمة نهر متجمد يتوزع على الجراحات الغائرة. لكي يكون مزاجك الداخلي متوافقًا مع مزاجك الخارجي، كن ابتسامة جميلة، فقد تحصل على وردة.

الوقت ملائم لابتسامة صادقة تتبلج من الأعماق، وباقة ورد. لم يعد بإمكاني البقاء أكثر، أنا وهذياني المستمر، كأنّ القطار سفينة نوح يحمل من كلٍّ زوجين اثنين!

كيف تفرق بين امرأة وكلبها أو بين رجل وقطته؟! بل كيف تتعرف امرأة توارت خلف طبقات من مساحيق التجميل في زمن أصبح المقياس الحقيقي للجمال هو الفيزون؟!

لا أحد يهتم بمقادير المساحيق التي توضع على الوجه، لكنه المال، المال الذي يغير الأشياء من الداخل والخارج، المال قد يشتري السيارات الفارهة والطائرات واليخوت والقصور، وقد يعمل العجب العجاب لكنه لن يمنحك الشعور بالنزاهة الداخلية لن يمنحك الإحساس بالسعادة الدائمة، لن يمنحك الإيمان الذي يتجاوز بك الصراط المستقيم إلى حيث يوجد الأولياء والصالحون.

كلما تأخر الوقت توغلت نفسي باللا شيء، الحياة من حولي مجرد عقارب ساعة تتحرك صوب النهاية.

الوقت يمرّ، والمحطة مكتظة بالبشر، ورأسي ممتلئ بكل شيء؛ بالدهشة، والحب، والحنين. ديك القطار لم يستيقظ، بعدالحزن يتبخر من داخلي على هيئة نهدة، والسعادة تتساقط في الممرات على هيئة نظرات متناغمة مع سلسلة الخطوات، أتفحص بإمعان الجميلات اللاتي يهرولن من أمامي ويرمقنني بنظرات خاطفة، قد تقابلك ابتسامة مجهولة، ومع ذلك تراجع خطوات إلى الوراء وتأكد، فقد تكون لغيرك، وربما - لو أسعفك الحظ -

تكون لك، احتضن اللحظة وعشها بكل تفاصيلها، ما من أحد صادق هنا سوى العيون، من هنا مرَّ قيس بن الملوح. الحب هو الرحلة الأولى وهو القطار الأول.

ما زال قيس هو الراكب الأول في كل رحلة، في شهر آذار يتفتح زهره، وفي شهر نيسان يتحول إلى مفردة منقوشة على طرق القوافل وفي محطات القطار

العمر مسافة بين نقطتين، أولها أنت وآخرها أنت. أحيانًا نحب ولكننا في أول منعطف نتصدم؛ لأننا لا نملك مرايا تكشف الجانب الآخر، كلما ابتعدنا عن الواقع التقينا أكثر.

بين عينيها وجفونها وطن، في اليقظة أتنفس أحلامًا بائسة، وفي النوم تتنفسني أحلامٌ يائسة. كلانا، الحلم وأنا، نفتقد الحقيقة.

على مقربة منّي مقعد خشبي مصبوغ بلون بني داكـن، ما أقبح الانتظارعلى هكذا حال، سفر في الحياة وسفر في أغوار النفس البشرية، وسفر في الممرات والكراسي. لحظات أغتالها، لحظات تغتالني.

لم أعد أعرف من أين أتيت؟ ولا إلى أين أذهب؟

عليّ أن أتوقف عن التفكير، وأشتَمَّ الوردة، أحيانًا أشياء صغيرة لا تكاد تذكر، لكنها تصنع المستحيل، تجعلنا إما ملائكة وإما شياطين، فوق الدهشة وأقرب من اليقين.

وضعت يدي على أطراف الكرسي، ونظرت مرة أخرى إلى السقف، ثمة طفل يقفز، يلعب، سنواته السبع جعلت علامات السعادة والتفاؤل والرضا تعتلي سحنته الأفريقية وبشرته السمراء، وآخر بلونه الأبيض الناصع وأصابعه الصغيرة تحاول اللحاق بالمجهول، وهو يتشبث به بواسطة جهاز آيباد، ملامح البريق الطفولي الذي افتقدناه عندما كبرنا، عدت إلى أجوائي، بعض المساءات كالعاصفة، كلما قلت: ستتركني هنا، حملتني باتجاه الشمال، بعض المساءات يتساقط فيها الإيمان كالمطر.

برغم إيماني بأن كل فرد في الحياة هو شريك في خراب المجتمع وانكسارات الشعوب أو إصلاحها وتقدمها.

نتفق أو نختلف سيّان، الحياة تمضي باتجاه الأفضل ماديًّا، حيث اللا روح واللا دين واللا أخلاق واللا فضيلة، وحيث اللا علمانية.

طبقة النبلاء تلاشت، وإن وجدت فقد اقتصر اهتمامها على القصور والأثاث الفاخر واللوحات الثمينة والسيارات الفارهة والركوب في الدرجة الأولى، لم يعد هناك غير المسميات، كثير من الأشياء فقدت قيمتها، أفرغت من محتواها، القادمون من الفضاء فرضوا قوانينهم. لم تعد الحياة معلقة بالقيم ولا مرتبطة بالدين ولا ممهورة بتوقيع الرجل النبيل، كلٌّ في طريق، لكن الجميع تحت مظلة الإنترنت، الجميع مخترق من الداخل، الجميع تتدلى أهدابهم على مشارف اللاب توب أو الجوال، يهتكون شرف الوقت، ويقتلون اللحظة الجميلة، الكبار قبل الصغار، يسقطون المسافة المحلقة

بين الحلم والحلم، الجميع أمام سوق واحدة، وبرنامج واحد، كم أحتاج في هذه اللحظة إلى الموسيقى، والموسيقى فقط؛ كي أمرّ من شرفات جراحاتنا وخيباتنا وانكساراتنا وهزائمنا إلى السلم الكهربائي، ومنه إلى شواطئ عينيها.

على الضفة الأخرى من الزمان امرأة عجوز، تتقدم خطوة وتتأخر خطوة، تمنعها الرعشة من نزول السلم. العمر لحظة قد تكون بقدر هذا السلم.

يا ترى، ماذا تخبئ لنا الأيام؟ وماذا ستأتي به الصباحات القادمة من اختراعات ومن تطورات؟ وماذا ستكنُّه المساءات؟

ربما غدًا تكون المسافة واحدة مع علم النانو، ستكون عندها ارتعاشاتنا مرتبطة بكم الألم الذي اخترقنا على غير موعد، إنها محاولة للرؤية في زمن العتمة، والدفع بالخطيئة إلى كوكب آخر.

التنبؤ بالمستقبل أو بما يخبئه الغد، ليس في متناول اليد مع ذلك، نحن قادرون على الانتماء للمستقبل إذا افترضنا أننا تلاميذ نجباء، وأن المبادئ التي تعلمناها من أساتذتنا وخطبائنا وآبائنا قد أثمرت.

هذا الافتراض بحاجة إلى افتراض آخر، وهو أننا ننتمي للإسلام، لكن إذا افترضنا أن الإسلام ينتمي إلينا فإن الأمر يختلف.

مُرٌّ هو الحديث عن الأيام التي ستأتي غدًا، أجمل الأيام، لما تأتِ بعد ولن تأت بعد.

محاولة الاستمرار في المشي على الحبل، الرغبة في الهروب من الضجيج إلى جلسة على شواطئ الجميرا، وأمامك نسخة من روايتك الجديدة «مواسم الهذيان»، دقائق أخرى رائعة، لن أستشعر وجود أحد هناك، ما أتذكره هي الوردة، والفتاة الجميلة، عالم تصنعه أنت، حاول أن تكون مركزه، قد تعيش في الماضي السحيق، وقد تكون هناك في المستقبل اللا منظور، لا أستطيع لمس ذاكرتي، الآن ستنبجس وستتكأ الذكرياتُ الذكرياتِ، قديمها وجديدها، وأنا في مزاج مضطرب.

لست قلقًا، لكنني أخفي نهدة عريضة، تساؤل مرُ، كيف جئت إلى هنا؟!

كان الأحرى أن أستقل سيارة صغيرة حتى لا يسبقنا الوقت، ولا تتزاحم الذكريات. لحظات الحزن أكثر حضورًا وأكثر طوفانًا فوق محيطات الذاكرة، قليلون هم من يستطيعون تحريك مشاعرنا وملامسة أحاسيسنا وترجمة ما يعتمل داخلنا ولملمة شتات أفكارنا.

قليلون هم من يستطيعون كتابتنا ونستطيع قراءتهم، من يرسموننا ونبروزهم داخل إطارات معلقة على جدران قلوبنا، لكنهم غالبًا ما يأتون متأخرين، حيث نكون نحن قد هممنا بالرحيل.

وبينما أنا أخرج هاتفي من جيب البنطلون، قبل أن تغرب الشمس، تسكنني أسئلة كثيرة، تهبط بي مرايا الكون في الوادي المقدس من بلاد الله، لا ذكرى تعيد الروح، أسئلتي تصلح ما تهشم من زجاج القلب، أين عصاك؟

هل ثمة هنا نقطة فاصلة بين البداية والبداية؟!

توقف هنا، ابحث عن إشراقة المعنى، عن ترجمة للابتسامة الأولى، عن تفسير لانتعاش جرار مشاعري، في هذه اللحظة رغبة ملحة في السفر، اجتياح لسكون الذاكرة الممهورة بتوقيع العيون النرجسية، أمني اتعذاب، تجليات كينونة صغرى، وهم فضاء مسكون بكل ما هو جميل إلا من القروية الجميلة، قاب قوسين أو أدنى من أغاني السراب.

قبل أن يأتي القطار وبعد أن أخذت الوردة تحول السلم الكهربائي إلى بُراق.

خيارات الحب لم تعد متعددة، بالأمس إن سهرت طربت وأطربت، وإن نمت جاءت على هيئة «أحلام سعيدة»، وإن تألمت عادت السعادة سريعًا تقفز كعصفور صغير أمام ناظريك.

كلما سمعت حرفًا تساقط من شفاه من تحب اشتعل القلب حُبًّا؛ لذا كان الحب وما زال ظاهرة إنسانية لا تفسير لها؛ فعندما يأتي الحب تأتي الابتسامة، وتأتي السعادة والرضا، يأتي السحاب ويأتي المطر، تصبح الصحراء جنات وأنهارًا، تصبح بيوت الطين قصورًا ممردة من قوارير، يأتي الكرم والنبل، وتحل دماثة الأخلاق، وتتهذب الطباع، يأتي الحمام إلى النوافذ.

عندما يأتي الحب تتحول الحواس الخمس إلى غمزة، تأتي الفصول الأربعة، يأتي الصوت ويأتي الصدى، يأتي الشعر، يأتي الكلام المنمق، يكتمل البدر، تزهو النجوم، تقترب المسافات، ويقصر

عمر الزمن، لكن عندما يذهب فإنه كالفيضان، كالنيران، كالزلزال، يتركنا خرابًا.

نبالغ بالحب ونبالغ بالكره، نبالغ بالسعادة ونبالغ بالحزن، لا ندرك قيمةالصحة ولا قيمة المرض، نسهر بداعي الحب وننام بداعي العمل، نقطع الشارع من المكان غير المخصص، ونتهم الناس في عقولهم.

على حافة الوقت سكنت قدماي برهة، لدي رغبة أن أتأمل العابرين، وأتأمل الأرض، أتأمل الفضاء، لا تراب، لا كثبان رمل، لا بن، لا قات، لا سيول، لا شلالات، لا جبال، لا منحدرات. الأفق أشبه بكسارة في طريق ترابي، السماء بجمالها ونجومها غطت عليها سلسة الأبراج العالية والإضاءات الملونة.

المزيج الفوضوي من الوردة وعيون الفتاة الجميلة، وعجوز تركتها ابنتها في مواجهة الشلل الرعاش والسلم الكهربائي، لترد على التليفون. عامل النظافة الذي دفعت به الحياة بين أقدام العابرين، شرارة الحب التي تقدح من عيني الفتاة القروية، صدى البلابل التي تشدو في كل صباحاتنا كموّال شجيٍّ ومعه تنصِتُ الجبال الشامخة، وترقص الوديان المنسابة الغواني في الحقول، والتلاميذ في المدرسة، والجندي في الموقع، الابتسامة التي ألفناها في وجوه الفلاحين ورعاة الغنم ليست موجودة هنا، الحارة، الأصحاب، المدرسة، الطريق، همومنا الصغيرة، أحلامنا الكبيرة، الذكرى التي جمعتنا في الماضي، الموقف الذي يحاول أن يفرقنا اليوم،

الأمل الذي ينتظرنا غدًا، الحب القديم، النظرة الأولى، القُبلة الأولى، المولود الأول، اللقاء الذي لن يتكرر.

كل شيء هنا متغير، خاضع لمنطق الربح والخسارة فقط، هنا عليك أن تهتم بأناقة ياقتك وكيف يكون الإتيكيت جزءا منك، هنا عليك أن تكون جزءًا من النشوة التي تدفع باللحظة إلى خارج المعنى.

إنني أشفق على أولئك الذين قسرتهم الحياة، وأجبرتهم الحظوظ، وساقتهم الأقدار إلى هكذا جماد، العلاقة مع المدينة معقدة، متى سيكتشف هؤلاء البشر أنهم في سجن كبير، وأنهم ينتظرون قيام الساعة فقط؟!

كانت القروية الجميلة تنتظر شروق الشمس للقائي، وبزوغ المساء لتجلس على ماكينة الخياطة فتجمع قصائدي وتصنع منها ثوبًا موشى بالحنين.

ثمة شيء لا أتذكره تمامًا هو كيف التقينا؟ وكيف لعبنا؟ وكيف بكينا؟ وكيف رقصنا؟ وكيف سرقنا مفاتيح الحب؟ كيف استقبلتني عيناها حين لجأت إليها؟ كيف تقاسمنا المساء، لها القهوة ولي ابتسامتها؟!

كل شيء يتناقص في هذه الحياة، العمر، الأصدقاء الطيبون، الوقت، الشِّعر، الأوطان، الدين، إلا أنت، البقية الباقية لي في ركام من القش.

لم أقرأ معاهدات الغرام، ولا بروتوكولات الحب العذري، ولا اتفاقيات القلوب البيضاء، لم أفكر بتصفح قانون المنازعات

الغرامية، ولم أفكر بشكل المرافعات المقدمة لهيئة المحلفين والمحكمين بقضايا الحب، كنت مشغولاً فقط بكيفية النظر إلى عينيها المتعددة البحار.

لم يكن الحب القائم بيننا على نظام الجولات، بل على نظام الجولة الواحدة فقط، لم نمرّ يومًا ما من خلال هيئة المواصفات والمقاييس، ولكننا فجأة وجدنا أنفسنا متشابكين.

كيف لشاعر ولد هنا أن يصف عيون المها؟!

وكيف لشاعرة وجدت نفسها في شرفة الأبراج العالية، أن تعرف العلاقة بين الياسمين وشقائق النعمان؟!

بين الربابة وكثبان الرمل؟! بين المساء وجدائلها الجميلة؟!

لم أكن أعرف قبلها الفرق بين الشمس والقمر، ولا الظل ولا الحرور، كانت الحدود كلها متساوية، وكانت العيون كلها متشابهة، وكانت الطرقات كلها واحدة.

عندما تخوننا الكلمات وتتصارع المشاعر ويختلج الوجدان، نكون قاب قوسين أو أدنى من جدار القلب، من سماء الحب، من شواطئ الذكريات الجميلة، ومن محطة القطار.

عندما لا نقول فنحن نقول، وعندما نقول فنحن نغني، وعندما نصمت فنحن في العمق، حيث يكون اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة، هكذا الحب في المساء، واحد وسبعون طيفًا أولها عندي وآخرها عندها.

المساء القروي أمل، حب، سفرفي عينيها، ابتسامة، وفي شفتيها تفاؤل يعقبه قصيدة، متفائل حد الرغبة في السفر، كطائر مهاجر اشتاق لعُشه، كعاشق اشتاق لفضائه، كناسك افتقد محرابه، كجدول ضاق به السد، كليل تيّمته أشعة الشمس. أشتاق لأشياء هجرتني، لأشياء تركتني على قائمة الانتظار.

توقف القطار ليبدأ رحلة جديدة، هكذا بدا لي، بينما القطار لم يصل بعد، ولم يتوقف ولن يتوقف، تشابهت الأشياء، القادمون إلى القطار مع الخارجين منه، اتجاه الشمال بالجنوب، كمية الحب التي نحملها بكمية الخوف الذي يحملنا.

كل يوم أعتبره محطة جديدة لمواصلة الرحلة والبحث عن الحقيقة، أما هنا فتتداخل الأوقات، تتداخل المساءات بالصباحات، الفصول بالمواسم، الجنون بالعيون.

كثيرون مَـرّوا من هُنا. يتوقف القطار في كل محطة ليهرول راكب نجهله، أو قادم تضيع ملامحه، بين رحلة الصيف وأغاني الشتاء، يهطلون كحبات البرد بقوة، بعنفوان، بزخم نرجسي. نعمل على قراءتهم في أول السطر بجمالٍ وحماس، وفي المنتصف يخفت الضوء ثم يتلاشى، في المنتهي حين نكون قررنا أن نتعلق بهم، نصدقهم، نؤمن أنهم الوفاء، الوجود، الهواء، ومع هبوب الرياح يتطايرون «كرمادٍ اشتدّت به الريح في يومٍ عاصف».

قلوب قد تتحطم، مشاعر قد تندثر، سكون غرق، ألم، وماذا بعد؟

هل يستحقون أوجاعنا؟ هل يستحقون آهاتنا؟ رحلوا، غادروا، ذهبوا، انتهوا، ماتوا؛ وجراحاتنا باقية متجددة، فهل سيكون القادم بلسمًا للجراح أم ملحًا أجاجًا؟!

الحقيقة الوحيدة أننا نعيش دون حاضر، دون راهن، ولا ماضٍ كما نتخيل، ولا آتٍ جميل، وحدها المصادفة سيدة الحضور، والموقف الوحيد المسؤول عما نحن فيه.

آخر درجة في السلم الكهربائي، هذه اللحظة التي لا تستطيع تحويل بصرك عن قدميك، لكل شيء نهاية، يخيل لي أن العالم يتجاوز سلم القيم، وسلم المروءات، وسلم الحب. أحيانًا تكون النهاية نافذة إلى الجنة، وأحيانًا بابًا إلى الفضاء الرحب، وأحيانًا حبل مشنقة، وأحيانًا حفرة من حفر النار.

كانت الصالة الواسعة بانتظاري، ومعها مجموعة كبيرة من أغاني الراب والموسيقى الغربية، لن تستطيع إخراج الأغاني الشعبية التي داخلك، بل لن يكون لها أي حضور، فضلًا عن أنهم سيعتبرونك متخلفًا. الأغنية الشعبية تمثل رمزًا قوميًّا أو نشيدًا وطنيًّا للفقراء، للفلاحين، للجبال، للقرى البعيدة.

عند بوابة القطار يتساوى الجميع، كمتسلقي الجبال، كل إنسان داخله قطار، سفينة، طائرة، كل إنسان داخله حبل سري يربطه بالعالم الخارجي، بالواقع، بالقيم، بالدين، بالوطن. كنا عند بوابة القطار أشبه بمدعوين إلى مائدة مشتركة، لم يتبق إلا أن يتوقف القطار.

فتحت البوابة الأوتوماتيكية، تقاطر الناس بحثًا عن المقاعد، تسابقوا، بينما أنا لا زلت أعتبر نفسي ضيفًاغريبًا، دخلت بروية وتأنٍّ وأدب، في زاوية قريبة من البوابة تجلس امرأة أربعينية مثقلة بالكبرياء، وممتلئة بالشموخ، وطافحة بالعظمة، ومغَشّاة بالصمت، شلال هادر من الجمال والكمال.

ابتسامة جذلى ونادرة وثمينة ومُنسابة، لكنها كبقية الأشياء ذابلة، ووجهها متعب، الابتسامة الحقيقية هي التي تمنحك الرغبة في احتسائها. كانت تتوسط القطار لكنها في الحقيقة تتوسط الكون، كانت كقصيدة باذخة الصور والبلاغة، تسريحة شعرها توحي بانحدارها من سلالة ملوك، ترتدي تنورة تغطي ساقيها ومعطفًا تركوازي اللون، بيضاء معتقة بسحنة جبلية، عيناها سوداوان.

سيان بين تزاحم الجراحات النازفة وتضخم الأنا المتدلية كعنقود عنب، شعر أسود مغُطّى بطرحة سوداء خفيفة، لا تغطي الرأس ولكنها تعطي المرأة قداسة لا أكثر، لم تعد الطريق من وإلى شواطئ عينيها آمنة، القادمون إلى هنا مرّوا بأعينهم من شفتيها.

لقد قطعت هذه السيدة حبل أفكاري، كنت أرتب داخلي، عليّ أن أفسح مساحة واسعة للقطار، وأبحث عن مرايا معتقة تعيد تشكيل صدى صوتي، عليّ تشكيل لوحة تنام بحضنها حقيبة يد عليها رواية (مئة عام من العزلة)، رائعة الفن الروائي العالمي قديمه وحديثه.

في المساء يكون الحب أول القادمين إلى القطار، الذاكرة الخالية من الجنون ذاكرة مجنونة، الانتصار الحقيقي ليس

بالسيوف ولا بالحروب، ولكن بباقة ورد تهديهالك فتاة مهاجرة. ستعلو راية الحب، وستنتصر القيم، وستسود الأخلاق، وستذوب الحماقات التي بداخلك، وستتطاير كل الأشياء القبيحة.

غدًا سيشرق الصباح من محيا هذه الجميلة، وستقول كلمتها، بالأمس بالغت في التفاؤل حين ذهبت إلى النافذة لأرى المطر يتساقط في يومٍ صحو.

لست ممتنًّا لسنوات الحلم، ولكنني ممتَنٌّ للحظة البكر التي التقيتها فيها، لفنجان القهوة، لبقايا سيجارة، لزاوية من الطين تتأمل هلوسات العابرين، لقلق يشبه السكين بأقصى القلب، للحظة منحتني فرصة أن أكتب عبارة خالدة على قلب أنثى من مرمر.

لا سواي يسافر في الشارع الممتد من أقصاي إلى أقصاي،

الصيف يلتحف دفء مشاعري،

موقد للثلج،

قنينة للسفر،

أنا قلق، وتلك العيون النعاس لا تحب القلق.

لا زلت أسافر في تفاصيل الرواية، أقرأ في مرايا الروح فصلًا جديدًا من روايتنا القديمة، لا زلت أكتب في مهب الريح فصلًا من جنون الأتربة.

يحزم الناس أمتعتهم لقضاء إجازاتهم الصيفية في أجمل مدن العالم، وأنا في طريقي إلى مصيفي الدائم في شواطئ عينيها ، في محياها قنديل من التفاؤل، ربما استيقظت أحلامك متأخرة يا فتى.

إذا أحب الرجل امرأة سياسية فسيعيش بقية عمره تحت البند السابع، أما إذا أحب مهندسة فسينتهي به الحال عمودًا من أعمدة البيت؛ فكيف بمَن يعشق شاعرة أو روائية؟!

ثمة أشياء كبيرة تخترق الذاكرة وتتساقط على الأرض لتعلن انتحارها ، نبحث عن الحب في القطار ، وفي الشارع، وفي المطار ، ونحن مصدره.

هناك خلل سيكولوجي في النشأة، عندما نتصالح مع الذات سنرى الوجود شيئًا جميلًا ، سنجد الحب الجميل على جناح عصفور مغرد ، يبني عشَّه في شجرة القلب.

تركنا الأشياء تصنعنا وتحدد ملامحنا وتوجهاتنا ومساراتنا ومستقبلنا ، ونحن المعنيُّون بالبحث عنا ، بالبحث عن الحقيقة، وعن الجمال، وعن الحب.

ليتنا - إذن - ندرك أنّ الحياة ليست معقدة كما يصورها بعض البشر ، أيتها المرأة الحلم، حينما تكونين بكامل أناقتك تتوقف الأرض عن الدوران، لا شيء هنا أو هناك يشبه خواتمها المميزة المثيرة ، يبدو أنها من بيئة مُرصعة بالأحجار الكريمة.

أناملها هي التي منحت هذه الخواتم كل هذا الحضور.

حاول أن تكون أنت؛ ففي كل مرة تلتقي مع ذاتك تهرب منك لتعود إليك محملة بالألم، لن تتحول مشاعرك إلى رواية قابلة للنسيان، ولن تتحول أنت إلى عبارات مختزلة عابرة للفصول والمواسم.

في الجهة المقابلة من الذاكرة لا تزال كوكب الشرق تدندن (أنت فين والحب فين)؟!

كم أتمنى أن أكون قيثارة، أولها صمت وآخرها صدى، ثمة معنى يسافر باتجاه الأبجدية المهترئة، ثمة ضمور في ذاكرة الشمس، ثمة انحناء في عمود الرخام الذي كتب عليه الأصمعي قصيدته!

قد تكون الذكريات طوفانًا أو فيضانًا أو سيمفونية ثامنة، ولكن متى؟

على الدوام، ثمة طوائف لا مرجعية لها، وأحزاب لا أيديولوجية لها، ومنظمات لا أساس لها، ثمة مجاهدون وليس ثمة جهاد، ثمة فتوى أيضًا يتم تنزيلها من المتجر!

لا بد من رفيق سفر تتحدث إليه، ولكن لا يُستحب أن يكون شاعرًا؛ الشعراء عندما تريد أن تصمت يتحدثون ولا يسكتون، وعندما تريد أن تتحدث يدخلون في عالم الغيب، يجعلون من علاقاتهم الغرامية انتصارات وحضارات، وبينها أمم تُباد وأخرى تُولد، يصورون إحباطاتهم على أنها ذكريات، ويسمّون نقصهم بساطةً وتواضعًا، ويعتبرون هزائمهم مغفرة.

لا بد من رفيق سفر، ولكن لا يستحب أن يكون محاميًا؛ أصبح المحامي ينتصر للمال فقط، في كل مرة تنهض مثقلًا بالعثرات وممتلئًا

بالذكريات، في كل مرة يمتد الزمان ليتكوّر. القاسم المشترك في حياتنا ليس غير العاصفة الترابية، كنا ننتظر المساء ليحمل إلينا طيفًا عابرًا أو ذكرى جميلة، والآن نخشى من المساء، ومن الصباح، ومن الوقت، ومن الأخبار، ومن الأفلام، ومن الأحلام، ومن الحقائق، نخاف من النت، من الهاتف، من مواقع التواصل الاجتماعي.

نخاف من القريب ومن البعيد، ومن العدو ومن الصديق، نخاف على ما تبقى في أقاصي القلب من حلم، أحيانًا يكون الحلم خيطًا رفيعًا فلا نراه، وأحيانًا نكون نحن ذلك الخيط الرفيع فلا نرى. أيتها الأتربة، أمطري أنَّى شئتِ، سأعود من حيث أتيت؛ من عينيها.

الأمنية اليتيمة إذا لم تتحقق تقتلك، ابتسامة واحدة تكفي لسقوط المطر.

منذ شهر وأنا أجمع ما قالت الريح لي، المرأة غيمة قد تمطر ماءً أو بردًا أو خناجرَ مسمومة. تقاربت الحياة، أصبح العالم قرية واحدة، الطريق، السفر، المعلومة، التواصل؛ لكن هناك تنافر بيننا وبيننا، هناك تباعد روحي بيننا وبين الأشياء.

قد تكون الرواية سدًّا منيعًا بيننا وبين القلق المنبعث من رصيف الغربة وعبر مكيف الهواء، ومن الأصوات القادمة من محطات التلفزة ومن نوافذ القطار!

ما هذه الأحاسيس التي تنبعث من بين سطور الرواية؟!

لم أعد أفرق بين ركاب القطار وأبطال الرواية، كأنه لم يتبق سوانا، عالم آخر زاخر بالجمال، بالحب، بالأناقة؛ لكنه ليس زاخرًا بالجنون، كأنها لا تريد أن تعود من رحلتها، ولا أنا.

هل كان لديها هي الأخرى أبطال يتزاحمون على مسرح رواية لم تُكتب بعد؟!

في زمن المرايا المقلدة، اللا شيء هو أجمل الأصدقاء، لا تريد أن تتذكرالممر والسفر والبشر وبقية المواسم، كلما تحرك القطار زاد تسمرها، كانت أكثر رشاقة وأكثر جاذبية وأكثر سرعة في تجاوز الآخرين والابتعاد عنهم.

شكرًا أيتها العاصفة الرملية، لم نعد نفرق بين ذرات الرمال وعقد من الذهب يتوسط عنقها، رفقًا أيتها النخلة الباسقة بالأبراج العالية، رفقًا أيها الياسمين بساجية العيون، رفقًا أيتها العيون النرجسية بقلبي، رفقًا أيتها المساءات المشتعلة بكل نساء الكون.

على مسافة قصيرة من الباب، وبعيدًا جدًّا عن قلبها، كان القطار يواصل سيره، وكنت أنا مسافرًا في تفاصيل الرواية التي بدت لي بثوب قشيب؛ فالبطلة مختلفة، والزمان مختلف، والمكان غير المكان، كانت تقاسيم وجهها دائرية كلما اقتربت منها زادت سرعة القطار وتلاشت الوجوه.

استحالت الرؤية من الأتربة المتساقطة كالمطر، فقط وجهها كان يقرأ معي تفاصيل (مئة عام من الحب).

اللحظة التي نعيشها قد تكون وطنًا، وقد تكون غربة، وقد تكون قفزة من علو شاهق، قد تكون منتجعًا نمارس فيه غواياتنا، نسبح، نتحمص تحت الشمس، نغني، نتزلج على الجليد، وقد تكون سياطًا تجلدنا.

على خدها الأيسر (خال صغير) وتجاعيد تقول إنها كانت أكثر بدانة من الآن، الفقراء لا يجدون ما يأكلونه؛ لذلك فالحياة عندهم عبارة عن مستنقع ممتلئ بالفيروسات والأمراض والهموم واللعنات، عكس الأغنياء حيث السمنة عندهم حقل للأمراض ومنتجع للسكر والضغط وأمراض القلب، هكذا تقسم الحياة الأحزان.

الأضواء القادمة من الخارج تتسلل عبر نوافذ القطار، تقبل شفتيها، تمتص رحيق الأزهار؛ كأن لا أنثى سواها، وكأن لا مفتون سواي، نمضي معًا في الرواية والقطار، كيف تتدلى عناقيد العنب على كتفي؟! وكيف يعود النبيذ معتقًا باردًا من شفتيها؟!

النار تشعل هذا الممر الممتلئ بالحرير، القطار يشق طريقه باتجاه العاصفة الترابية، ونحن نمعن في الغياب، نتزلج بين الفواصل، وعلى صفحات الرواية، نفترق هنا، لنلتقي هناك.

الظلال هي الراكب الوحيد تحت القطار، كيف أداري شجوني قليلًا؟

كيف أخبئ هذا القطار من عيون المشاة؟ كان ركاب القطار في وادٍ وأنا في وادٍ، وكانت هي في وادٍ آخر!

متى تتدلى أغصانها لإطلاق العصافير التي في صدري للعيش هناك؟ سنابل القمح وعصا أهش بها رائحة العطر النسائي النفاذ، ومساء يتوكأ على خاصرة الغربة، وعينان وشفتان ومئة عام من الجنون، لا تكفي لتجاوز نقطة التفتيش التي بين عينيها!

في الحب يفشل مَن لا يتقن لغة الفراشات، كيف أقسّم هذا الجنون على صفحات الرواية وفي جنبات القطار؟ أنا في غير وقتي، كلما داعب الصمت شال الحريرعلى كتفيها تذكرت الجامعة، أحتاج إلى مرآة كي أتنفس، إلى كتاب شمس المعارف، وإلى قلم رصاص، أحتاج إلى بوصلة.

لا فضاء هنا، ولا نافذة تطلّ منها على قلبك المتلظي بين الفواصل والكلمات، كانت لا تعير اهتمامًا لشيء، فقط خصلات شعر كانت كلما أزاحتها عن عينيها لتقرأ، عادت لتتدلى على خدها الأيمن حتى المنتصف.

السفر نوعان: الأول يسافر بك، والآخر يسافر معك.

كيف تتعامل مع جمال أنثى مرتبط بالزمن؟! لحظة واحدة قد تغوص بك في أعماق البحر، وقد تستخرج أجمل أنواع اللؤلؤ والمرجان، ولحظة قد تفقد فيها كل شيء.

قبل أن يشرق الصباح، أشرقت هي من أقاصي القلب، لا يمكنك أن تبوح لامرأة بمشاعرك إذا لم تكن المشاعر قد التقت وتبادلت المواقع واقتسمت المحيطات والبحار واليابسة والهواء والسماء نصفين.

يقال: إنه في ألمانيا توجد دور تسمى دور الكلام، يذهب إليها المصابون بأزمات نفسية تتطلب البوح، وهناك يجدون متبرعين للاستماع والإصغاء لمساعدتهم على تجاوز أزماتهم النفسية، إننا في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدور؛ ولكن ليس للحديث، إنما للصمت!

ضاعت أصابعها في ضباب الرواية، ذابت هي في (أنبوبة اختبار زجاجية عنقها طويل وضيق تحاكي البيضة الفلسفية).

أصبحت بين روايتين: رواية مكتوبة، وأخرى تنتظر الكتابة. بين سفرين:

سفر يطيل العمر، وآخر يقصره «رحم اللّه امرأً عرف قدر نفسه».

أحيانًا كثيرة نحن بحاجة إلى معرفة حجمنا، وزننا الحقيقي، عدد الحروف التي تتكون منها أسماؤنا، معرفة المسافة التي بيننا وبيننا.

ثمة قطار يمنحك الدفء، وآخر يمنحك الخوف. المساء أنثى جميلة، ولكنه يفتقد إلى الكيد. نشعر بالسعادة ليس لأن لدينا أصدقاء أو مال أو سلطة، بل لأن لدينا جوارح مفعمة بالحب. كلاهما ساحر، هدوء الليل وابتسامتها.

بالقرب منها امرأتان روسيتان على الأرجح، يبدو أنها عدّاءة ماهرة في القراءة والابتعاد عن الآخرين، لا أحد يجرؤ على الاقتراب من الحدود التي رسمتها، يتخلل صمتها حركة مستمرة، وصخب جميل، لا زلت واقفًا بين نهر من البشر المتموج، بين مغادرين وقادمين، قد يكون طموحها أن تكون بطلة الرواية، لكن الزمن تغير، والتكنولوجيا لعبت دورًا سيئًا، لم تعد الطبيعة هي الأرض

الخصبة للعمل الروائي، الفلاح، حقول القمح، الراعي، أغلب الروايات صارت تدور أحداثها في المطارات والقطارات والأسواق والشوارع الذكية وأحياء المتعة المدفوعة الثمن.

أمنيتي أن أكتب عملًا روائيًّا واحدًا يدهش العالم، يحدث ثقبًا في طبقات الأوزون، وأن أسرق ابتسامة من شفتي هذا القطار، وقُبلة من خدود القمر، استدارة مجنونة من هذه النافذة.

كم سيكون مذهلًا لو كانت هذه الفراشة بطلة الرواية، لو سمعتك فتاة القرية لماتت كمدًا، ماذا أقول لها إن عدت إلى شواطئ عينيها؟! كيف سأحكي لها عن القطار دون أن أتعرض للجميلات؟!

يوم بلا حب، بلا قلق، بلا رقص، بلا ضياع، بلا جنون، ليس يومي!

من سوء الطالع أن تضيق بك الأماكن، أن تضيق بك العيون، إلا عيون القروية الجميلة.

يا لشدة خوفي من أن أخذلها وأحول لحظات انتظارها إلى رماد، تسفه الرياح في عيون الأزمان والعصور، في عيون اللحظات والساعات التي قضيناها معًا، حضورًا وغيابًا، حقيقةً وحلمًا، صغارًا وكبارًا، ويا لشدة خوفي من تلك السواقي التي ولد فيها حبنا، والحقول التي ترعرعت فيها أحلامنا، والتلال التي كبرت فيها ذكرياتنا، والجداول التي شربت منها أشجاننا ومواجيدنا.

يا لشدة خوفي مجددًا من أن تمسي مجرد ماضٍ، وأصبح مجرد ذكريات مُرّة، كلما قلبت صفحة في الرواية طويت صفحة من ذكرياتي، لقد أنستني لحظة وصولي إلى دبي، جعلت الوعود التي

قطعتها على نفسي، مجرد حديث عابر مثله مثل حديثي مع مسافر في القطار، كان القطار يمضي وسط الأبـراج والمباني العالية كنهرٍ تلاحقه الأمطار والسيول، وكنت أنا أهرول مسرعًا باتجاه مئة عام أخرى من العزلة.

الجمال الخارجي ليس مصدر قوتها فحسب، هناك سحر ينبعث من الداخل، من الأيام الخوالي، كان محقّ ذاك الذي قال: إن قلب المرأة لؤلؤة تحتاج إلى صياد ماهر.

هناك إشعاع روحاني يجذبك إليها ، هناك قوة خفية؛ فكلما تمنيت أن تصمت المرأتان الروسيتان كي يصلني ولو صدى الشهيق والزفير، اتسعت دائرة حديثهما وكأنهما تلعنان اللحظة التي جاءت بهما إلى هنا ، ربما تكونان ضحية المافيا عصابات المتاجرة بالجنس اللطيف، كان جليًّا من ملابسهما أنهما في الطريق للرقص، الليل للرقص، للعشق، للحب، للبوح، للسحر، للسفر، مَن يدري، ربما سيأتي زمن يتوسط القرية مرقص وبار، وستصبح المساجد مأوى للطيور المهاجرة.

كانت لديّ نزعة فيزيائية في صغري، كثيرًا ما كنت أتساءل عن الكون، وعن القمر، وعن الشمس، وعلاقتها بتحميص الأطفال كل صباح.

في الثانوية العامة دخلت القسم العلمي، ودخل صديق طفولتي القسم الأدبي، بسبب قانون العجلة ثلاث مرات والأستاذ يشرح القانون، وفي المرة الرابعة قال:

نصيحتي لمن لم يفهم هذا القانون بعد ثلاث مرات من الشرح أن يذهب إلى القسم الأدبي؛ لأن القوانين القادمة ستكون أكثر صعوبة، ما زاد في رغبتي أكثر في معرفة القوانين التي تعتبر مفاتيح الكون.

وعندما كبرت استبدت بي أسئلة كثيرة، كيف يكون جسد الإنسان مرتبطًا بالتناغم مع البحر؟ مرتبطًا بالسحاب؟ وبالتناغم حركة الليل والنهار؟

وهل هناك تناغم كوني كبير؟ بين الأرض والنجوم والسماوات السبع؟

ولماذا السماوات سبع وليست واحدة؟ ولماذا الأرض كروية؟

وهل السماء مثل قشرة البصل أم أنها سقف واحد؟!

في الجهة الأخرى، رجل ستيني ذو سحنة أوروبية يبدو عليه التعب، توحي جلسته المتموجة أنه عائد من عمل يوم شاق، أصبحنا مجرد وسطاء شركات تستخرج النفط وأخرى تأتي بالراقصات والخمور.

أحتاج إلى صخب يشع من بين أرداف الرواية، صخب مضمخ بعطر المائلات المميلات، صخب قادم من إبطين عباقين ومعتبقين، صخب قادم من الشرر المتطاير من تصادم الركب، والتقاء العيون بالعيون، والكأس بالكأس، والأغنية بالأغنية، والصوت بالصوت، والخواتم بالخواتم، والكفوف بالكفوف، والشفاه بالشفاه، صخب ممتلئ بالأنوثة والرشاقة والأناقة.

لا أسوأ من أن تكون قرويًا في قطار تحيط بك الجميلات من كل جنس ولون، وأنت تعيش حياتك بكل تفاصيلها في القرية، غير عابئ بكل ما هو حولك منفوضى، هذا زر بنطلونه مفتوح، وذاك شعر صدره مكشوف بأسلوب استفزازي للرجال ومغرٍ للنساء، وآخر قصة شعره عجيبة، وتلك سرتها واضحة، وأخرى بنطلونها دون حزام، وثانية نهداها يكادان أن يخرجان، وثالثة تنورتها قصيرة جدًّا. الذي قال:

«مَن راقب الناس مات همًّا»لو ركب القطار لغيّر رأيه!

صخب قادم من تجاعيد قوس قزح، وتطاير الدخان من تصادم العيون السود بالعيون الزرق، والجنون بالجنون، صخب يحمل كل الجنسيات، كل الأعراق، كل الألوان، وكل الديانات، صخب يجعل الدهشة قنديلًا تنزَّلَ من السماء.

عليك أن تتوقف عن التفكير واجترار المشاهد المثيرة، نتحدث عن الحب ولا نملكه، بينما هم لا يملكون الحب ولا يستطيعون التحدث عنه، نحاول أن نستودع الريح آمالنا وأحلامنا وأشواقنا، فقط يتحول الركاب في القطار إلى أسرة واحدة، نشوة السكر تستبق اللحظات المدمجة بين الكأس والشفاه، العناق المُرُّ يتوارى خلف ضباب الشلالات الراقصة. لن يكون هناك مستقبل لهذا القطار، لكنه سيكون ذكرى جميلة، مثله مثل الديناصورات. الخروج من أحداث الرواية كالخروج من حادث تصادم، تنتظر فقط متى تعود إلى البيت!

عدت إلى شواطئ عينيها بعد جولة قصيرة في القطار، مغامرة أن تلعب خارج أرضك ومن دون جمهورك، ثمة ما يستحق السهر هذا المساء، كانت أصابعها ملونة طويلة، تكاد أن ترى الدماء وهي تمارس حياتها الطبيعية. كان لها خاتم من ذهب، كلما أعدت النظر إليه وجدته مختلفًا، كانت على علُوٍّ كبير، تراقبني باهتمام، تقف في المسافة الفاصلة بين قلبي وروحي، كانت جلستها توحي بأنها عازفة موسيقى للمتشردين.

في القرية يعتبر النظر إلى المرأة نقصًا وسقوطًا، المرأة هي العرض، وهي الشرف، وهي ما يتقاتل الناس بسببه ومن أجله.

رغم حرارة الجو العالية، كلما نظرت في عينيها شعرت بتساقط المطر، قد يضيء التوت من شفتيها، وقد تنام الموسيقى بين أصابع يديها، وقد يستلقي الصمت في شواطئ عينيها، وقد تسافر الكلمات في خطوط يديها؛ لكن تبقى جدائلها مسافرة في تخوم المدينة، في مرايا القطار. عندما يأتي الحب ستتعرى وترقص لتمارس غواياتها في البعيد، أما أنا أمارس هذياني فقط.

هي في خيمة ممتلئة بالنوارس والأشجار وأبطال الرواية، وأنا في قطار ممتلئ بالسنابل، بين مغادر وقادم تتلاشى الكثير من الأمور، في حياتنا، تتجدد أفكار، تولد أحلام، تتبدل قلوب، يغير اللّٰه من حال إلى حال.

عليك أن تنتظر موسم الثلج وتساقط المطر حتى تسألك: مَن أنت؟

ربما تكون القروي الوحيد الذي يعيش من أجل السفر والحب، على الرغم من أنك تكره الصخب والمدن الملتهبة، وتعشق الجلوس بصمت على الهضاب ومشارف الوادي الخصيب.

الركاب في حالة غيبوبة صغرى، لا إحساس ولا شعور، ولا أحد يلتقط أنفاس أحد.

أحيانًا تظن أنهم يمارسون الخجل ويتقمصون الفضيلة ويرتدون عباءة الرجل النبيل؛ لذلك أنت أمام خيارين أحلاهما مُرّ: إما أن تكون مثالًا للإنسان المسلم النقي التقي الطاهر الذي يعرف حدوده في الحل والترحال ويرى أن النظر المتكرر إلى امرأة أجنبية يعد انتهاكًا سافرًا لخصوصيتها التي حفظها لها الدين، وإما أن تقترب منها وتتبع خطوات قلبك وتجعل من اللحظة المشرقة من شفتيها بداية عمر جديد، وهذا ما لم تتدربَّ عليه وما لم تظن أن تقوم به في يوم من الأيام!

عندما يكون ماضيك مشوشًا سيكون مستقبلك أكثر غموضًا، وستكون كنبيٍّ سُرِقَت رسالته. أكثر المواقف قبحًا أن تعتذر في وقت يجب أن يُعتذَر لك. قد تكون الحياة روضة أطفال كبيرة لكنها تفتقر إلى الألعاب.

على الكرسي المقابل امرأة يبدو أنها من سلالة العم سام، تتصفح جريدةالصحافة هنا تهتم بالاقتصاد والطقس فقط، من المستحيل أن تقرأ موضوعًا علميًّا أو ثقافيًّا أو دينيًّا.

كيف خدمت البروليتارية الرأسمالية، وكيف خدم الإسلام المسيحية، وكيف خدم العرب المستعمر؟! كل الأيديولوجيات

خسرت مواقعها وتحصيناتها وقلاعها ، ونحن نولي القوالب الإسمنتية والبلاستيكية اهتمامًا أكثر من البشر ، افتقدت ساعة يدي ثمنها ، لم يعد هناك قيمة للوقت دون الإحساس بالأشياء.

هل لا تزال قوى التخلف خارج القطار تتصارع على السلطة؟!

كيف أحول هذه الضوضاء إلى وصلة موسيقية وأهديها لتلك الفتاة التي قابلتها أول مرة في الحقل وكانت غصون البُن مفتونة بجمالها؟!

كنا كل صباح نتقاسم الحلم والطريق والقهوة التي لا تزال معلقة علىالأغصان.

كانت أول من آمن بي من النساء وكنت أول من علمها العزف على أوتار قلبي، قبلها لم أكن أعرف معنى السفر، معنى الحب، معنى الألم، معنى السهر، قبلها لم أكن أعرف ضوء النجوم ولا لون السماء ولا صوت البلابل، قبلها لم أكن أعرف أن المساءات تختلف من بلد إلى بلد ، من قلب إلى قلب، قبلها لم أكن أعرف معنى أن كيدهن عظيم، لا زلت أكتب بالقلم الرصاص، الحب الحقيقي يجعلك تعيش العمر طفلًا بين كل اللحظات المسافرة بيني وبيني أكاد أكون مصباحًا ثملًا في ليل العتمة.

أوشك أن أقسم القصيدة إلى قسمين صدر ، بطين أيمن، وعجز بطين أيسر ، أوشك أن أقف على ممر طائر الفينيق، لأجمع ما تساقط من جرأة وقوة وأمل، بين مرايا الحقول، بين جراحات راحلة وأخرى قادمة ، بين اعترافات تختصر لحظاتي، وما بين ركام الأسئلة

المتتالية صعودًا وسلة الحيرة نـزولًا، ما بين الصراعات الداخلية والمشاحنات الخارجية أكون أنا واعترافاتي في آخر المطاف بعيدًا عن الوجوه المستعارة التي لا تحمل حقيقتها.

من يجرؤ في هذا العالم أن يصرخ وفي فمه ماء؟ من يعترف؟!

كيف تقدم نفسك وتقول لها من أنت؟ من أين تبدأ؟ من التفاصيل الصغيرة أم الكبيرة؟ كيف مُلئت كل هذه المساحات الشاسعة بالحنين والأشواق؟

الشعور بالفقر يجعلك تبحث عن الحب، الشعور بحرارة الصيف يجعلك تبحث عن نسمة هواء باردة، الشعور بحرارة الشمس يجعلك تبحث عن الظلال، الشعور بالضياع يجعلك تبحث عن الحقيقة.

عليك أن تخرج من أعماقك، أن تهرب من الخوف الذي يحوّطك من جميع الجهات، أن تخرج من قوالب الثلج التي سكنتك في رحلة الشتاء هذه، المرأة لا تؤمن بالتعايش ولا بالتفاهم ولا بالحبولا بالذكريات.

ورغم هذا الراهن المقيت، رغم الحرب، هناك حب، ورغم البؤس هناك أمل، ورغم اليأس هناك تفاؤل، هناك تجليات من المستحيل وصفها، هناك روائح زكية عبقها يغلب روائح البارود وطعم الرصاص، هناك ابتسامات تغطي صفحة الأفق الممتلئة بالأتربة والروايات البوليسية، هناك قبس يضيء المدى حبًّا ونورًا وأملًا، هناك بصيص ضوء يضيء ظلمتنا ويبدد وحشتنا.

كيف أغلقت هذه المرأة كل النوافذ والأبواب والممرات المشرعة داخلي واتجهت إلى القاع؟! ربما هناك أشكال جديدة من الحب، فكيف سأواجه اللحظات القادمة؟! كيف سأواجهها حين يتحول الألم والحب والجراح إلى مجهول؟!

كيف أواجه الحزن المتسرب بين مرايا القطار؟

كيف أدعو النساء للاحتفال بعيد الحب؟! بذكرى اشتعال الحلم؟!

كيف أجمع موسيقى الانتظار وبدايات القصيدة ونهايات القصص الحزينة؟!

كيف أزرع زهرة غجرية في قطار القلب؟!

كيف يتحول القطار إلى شاطئ و(مئة عام من العزلة) إلى موج؟!

كيف نرتب الفوضى المتناثرة؟ وكيف نجمع المعنى الذي تحول إلى قطار من العثرات؟! كيف نصافح إيقاع أغنية متمردة؟ كم هو صعب استخراج الكلمات من القلب؟! وسيكون أصعب من ذلك توصليها إلى هنا.

ستكون حربك سلمًا، وسيكون ظلالك حبًّا، ستكون شمسك عطرًا، وهمسك شعرًا، وحنينك غناءً. عليك ألّا تجمع بين همومك وعواطفك، شجونك وآهاتك، غربتك الداخلية وابتسامة امرأة حاصرتها الوجوه! الحب لا يولد في الأماكن العامة كالقطارات والمطارات، لكنه يموت فيها!

كانت العاصفة الرملية تغطي وجه السماء، لكنها لم تصل إلى القمر، وكنت أنا عاصفة من الحنين والمشاعر والأشواق والشعر والقلق، لكنها مبعثرة. اتجهت بنظري إلى الخارج لعلّي أتجنب مواجهة حزنٍ قادمٍ من أعماقي.

تتوالى الأحـزان، وتضيق المسافات، حتى أصبحت السعادة متوالية من متواليات الحزن، لماذا تمارس جلد الذاكرة في هذا الحيز من الزمان؟!

كانت المباني الشاهقة أشبه بمجموعة فتيات يعانقن السماء، يقدمن الكعك للشمس، والنبيذ للقمر، يمشطن جدائل السحاب كل مساء، كل الحب والتحية والتقدير؛ شتان ما بيننا، يا صديقتي الوطن عندهم مصلحة، وعندنا جراح.

لم تركب العروبة وحدها قطار العودة إلى الخلف، لقد سبقها كل المتعاملين بانحطاط ووحشية وظلم، يتحدث الجميع عن الحوار، عن الشراكة، عن الوطن، لكنهم يتحدثون ومعاول الهدم في أيديهم، ووسائل الجريمة في مخيلاتهم، والنوايا السيئة في دواخلهم.

لا أمرّ من حالٍ ينتهي بك إلى أحد أمرين: إما متآمر، أو عاجز!

من بيدهم الحل ينتظرون مائدة من السماء، ومن بيدهم المشكلة ينتظرون معجزة من الأرض. فشل المتحاورون ونجح المتآمرون، ذهب السلفيون بتعدد الزوجات، والسواد الأعظم بالبكاء على الأطلال، يمضون معظم العمر يتعلمون الزحف على بطونهم.

الأوراق ليست متداخلة، الذين فرقتهم المصالح أمس لن يجمعهم الوطن اليوم، والرحيل بباص خمسة نجوم هو القاسم المشترك بين الجميع، المتأخر سيدفع ثمن جميع الفواتير.

التفاؤل في أسمى معانيه أن تمد يدك في الفضاء فتجد مَن يصافحك.

لم يتمكن الإنسان من الاستفادة من نفسه أولًا، ولا مما حوله من الأشجار والأنهار والليل والنهار والسماء والفضاء والنجوم والشمس والقمر، ثانيًا وثالثًا، وإلخ؛ لأنه مشغول بتدمير نفسه، وإعاقة عقله، يبحث عن طرق أنسنة الحيوانات، وحيونة الإنسان، فمن تطوير السجون إلى تطوير آلات التعذيب ووسائل الحرب والدمار والهيمنة.

عد إلى القطار القادر على لملمتك وترتيب مشاعرك، على ترتيب نبضات قلبك وتطبيب جراحاتك النازفة. مؤلم حين تتحسس قلبك، حين تبحث عن إنسانٍ يشاركك اللحظة، فتعود أصابعك ببقايا تراب، ببقايا ضباب، ببقايا سراب.

القطار وأنا وبقايا دخان قد يكون قصيدة، ستكون ذات يوم حلمًا جميلًا. شيء ما يشبه القلق يجتاح ذاكرتي، ربما تكون هذه الجميلة إحدى ضحايا الربيع العربي، وربما كان عطرها وحده سبب الحروب والدمار الذي لحق بهذا الكوكب؛ فالثورة التي لا تقوم بالقضاء على الفقر والجهل والمرض، ولا تساوي بين الناس في الحقوق والواجبات وفق سياسة عادلة، ولا تقسم المجد والخبز مثلما كان تقاسم الجراحات، ولا تحرر الإنسان من قهر أخيه الإنسان

وتدحر التسلط والعبودية والظلم والتجاهل والاختلاف مع الآخر وفق منطق غير منطق الأقلية والأكثرية، تكون هذه الفتاة من ضحاياها.

أين تذهب بك المشاعر الجياشة والعواطف المتقدة؟! أين أنت أيها المخمور برائحة العاصفة الترابية، وبصدى العطر النسائي؟!

أجمل الهدايا هي تلك التي تأتي قبل أوانها، هكذا طالعك. ما خيبتك الأقدار، ولا خذلتك الأماني، ولكن ظلمتك الليالي. لم يعد هناك من حزنٍ كي نسعى إليه، ولا من يأس كي نطارده، ولا من حلم كي ننتظره.

الحنين في دائرة الشك بين الدين واللا دين، والحب واللا حب، والخوف واللا خوف، والموت واللا موت، أقصى ما نتمناه هي لحظة يقين نمتلئ فيها بالحب والإيمان والأمل.

أن يتقاسمك الوطن والحب في لحظاتك النرجسية، فأنت لم تزل - إذن - في طور الإنسانية التي فقدها الكثيرون.

ليس لدي رغبة في العودة إلى مربعات الحوار أيام الجامعة، ولكن إلى تلك النقاشات التي كانت فتاة القطار طرفًا رئيسيًّا فيها. لقد أعاد إليَّ هذا القطار صوابي، كان الصراع بين الضوء القادم من الشارع ومن المباني ومن النجوم ومن القمر ومن داخل القطار على أشده. لكي أنتقل من هرم الأشياء إلى أعماقي أحتاج إلى معجزة.

بدلًا من أن أتعلم الموسيقى والعزف على أصابع الضوء القادم من نوافذ الغيم، اتجهت صوب الماضي، ربما حملت الماضي ما لا يحتمل.

أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أبحث في أسرار الماضي، بينما المستقبل لا يزال ورقة بيضاء. كيف تمسكنا بجذور التاريخ في حين واصل العالم تقدمه نحو المستقبل؟!

لماذا ظلت أحلامنا وردية طرية على طبق مخملي يدور في رؤوسنا من الثانية ظهرًا وحتى منتصف الليل فقط؟!

من أين أتى الاعتقاد السائد بأن دخول أي قوى صديقة أو غير صديقة يعتبر إهانة لشرفنا وكرامتنا وعزتنا، وهو الثابت الذي لم يتغير طوال سبعة آلاف سنة من تاريخنا؟!

أريد أن أفتح هذه الروح لأجدني، لست بحاجة إلى حرب، ولا إلى وحدة، ولا انفصال، ولا إلى اعتقالات، ولا إلى زعيم، ولا إلى سيد، ولا إلى إعلام؛ كل ذلك سيذهب هباءً، ما نحتاج إليه هو وعي فقط؛ كي تعرف أين أنت ومن أنت، العالم لن ينتظرك.

الذاكرة - يا سيدتي - ليست مثقوبة، ولكنها منهكة، باسترجاعك اللحظة آلاف المرات، كلما ذهبتُ عنكِ بعيدًا رُدني إليكِ، أبعد من ذلك، أحيانًا يكون الرقص على تخوم الذاكرة صلاة استسقاء، أصحاب العقيدة الفاسدة ينامون على وهمٍ ويصبحون على حقيقة، مرهقة هي الحياة؛ إما حرية مبعثرة، وإما سجن مؤبد.

كيف تمسي الخيالات المتناثرة في فضاء الذاكرة فراشات تتسابق في المحيط؟

وكيف تتحول الأفكار الشاردة إلى فِرَق من اليعاسيب تطارد الفرح؟!

أنا والقطار في حالة سواء، أنا أشعر بطنين النحل وأحس بلسعه، والقطار تكاد تخنقه العاصفة الترابية، قل ما تشاء، وكيفما تشاء، ولكن في حدود الدين والأخلاق، بين هَمٍّ وَهَمٍّ هناك هَمٌّ أكبر، وبين سيد وسيد هناك سيد أكبر، وبين إرادة وإرادة هناك إرادة أكبر، وبين صنم وصنم هناك هبل!

عندما تكون الأنانية أكثر الحجج حضورًا، ومنتهك القانون أكثر إقناعًا، وقاتل الناس أكثر تأييدًا، حينها تتوقف السماء عن المطر. الأنظمة قسمت ولاءات الناس، جزأت معتقداتهم، صنعت صراعات وهمية داخلهم وخارجهم على لا شيء، حولت الدين إلى مجسم ثلاثي الأبعاد كل طرف يراه من منظور مختلف تمامًا.

القبيلة غدت رمزًا للمدنية، المدنية أصبحت عدوًا للدين، وما بينهما سلطة مقدسة. الغرور الأعمى ذهب بالجميع إلى الجحيم، كان بوسعهم معرفة الله بواسطته هو، كما يقول فريد الدين العطار، لا بواسطة الشيطان الأكبر، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة، الجميع لا يجرؤ على الحديث والتنبؤ والتحليل، ينتظر ما يقوله الآخر الأقوى كي يحاكيه، حتى وإن كان لا يؤمن به.

لم يعد بإمكاني مواصلة الاستماع إلى الراوي الذي داخلي، كأني أسمع بابًا يفتح وآخر يوصد، كيف تكون مدينة الهذيان فوق قلبك يا فتى؟!

لم تنسني الشقراوات ولا الموسيقى، استغلال فرصة وجود كرسي بالقرب من رواية دوخت العالم، تركه شاب ممتلئ

بالسعادة والفرح كان منتشيًا، يبدو أنه قروي مثلي أنا، أدهشته المدنية، قطعت الممر الذي بيننا، كان مضيئًا وكنت أرى الأشياء مشتعلة، ما كان منّي إلا أن تهيأت للجلوس داخل القطار، على يميني فتاة شقراء فاتنة الجمال شعرها مقصوص، ترتدي بنطلون جينز وقميصًا يبدو كأنه أولادي، قد تكون في نظر البعض جذابة وأنيقة، لكنها في نظر القروي القادم من بين سنابل القمح وزهور الياسمين مختلة عقليًّا، وحتى إن رآها البعض مجرد تقليعة موضة تأتيفي زمن وتختفي حال ظهور تقليعة أخرى في زمن آخر، ربما سيقال بعد مئة عام لهذه الفتاة:

عليك سلام اللّه أيتها المهذبة أيتها المحافظة!

كانت مقصورة القطار متواضعة جدًّا مقابل ما يعتمل في مخيلتي من خيال.

أحسست بنهدة طويلة تتجاوز المريء والبلعوم والحلق باتجاهها إلى الخارج، حيث العالم مليء بالدهشة والغصص والتناهيد والجمال.

لم يعد بيني وبين السيدة الجميلة سوى ابتسامة.

من أين أبدا الحديث معها؟! في القطارات عادة يبحث الناس عن الهدوء والصمت، ربما رغبة في التأمل ومشاهدة الحياة من مقصورة مختلفة، وربما لأنها فرصة لالتقاط الأنفاس والتزود بقسط من الراحة. الحديث مع أصحاب (البريستيج) مشكلة بحد ذاتها، لهم أوقات معينة مثل الغذاء، بينما نحن - معشر القرويين - تغلب على تصرفاتنا الفطرة والسليقة.

في خضم جدالي الداخلي هل ستفاجئني بالحديث؟ ربما لم تعرفني، الافتراضات المجهولة أكثر حضورًا من تشكيلة الهذيان، تقدمت بهدوء وأناقة، كان الراكب الذي على الكرسي المجاور قد وقف استعدادًا للنزول في المحطة القادمة.

أحسست بنهدة أخرى أكبر من الأولى، ألقتني على الكرسي ولم أعرف كيف أتيت وكيف وصلت؟

من حملني؟ ومن الذي أحمله؟! لم أعرف أهي العواطف الأصلية أم الأحاسيس الفرعية؟!

بداخلي شعب عريق من العواطف والمشاعر، قد تكون العاصفة الترابية انعكاسًا لعواطفنا، ليتني أستطيع أن أنفصل قليلًا عني؛ لكي أتعرفني، لكي أستطيع العودة قليلًا لجمع ما فاض من حب وشوق وكلمات.

ليتني أستطيع أن أكون على مقربة من ظلال الأشياء التي داخلي، ومن موقد الشعر الذي بيني وبيني. وتلاشى الراوي، انفصل الهذيان، انفصلت عني ذبذبات القلق والتوجس والخوف. أعتقد أنني بلغت حالة من الرضا والقناعة، كنت على اعتقادي القديم بأن الجميع ينظر لي، أن الجميع يسخر منّي؛ لكنني عندما تجولت بنظري في القطار وجدت أن كل شخص مشغول بنفسه، كل شخص ينساب بهدوء داخل حدوده فقط.

كان على امتداد البصر مدينة تعيش طفولتها ومراهقتها وجنونها وسط الرمال المتحركة، أبرقت ثنايا الليل، رائحة الأتربة

ممزوجة بروائح العطور الفرنسية، في الممر أطفال يتقافزون بين الكراسي، يرسمون ذكرياتهم هنا، ويتركون ابتسامة لهم هناك. تلك الصغيرة بجديلتين كورتهما لها أمها على جانبي وجهها، لا يهمها سوى اللهو ومطاردة الفراشات وبث الابتسامة المشاكسة. يحل المساء كقصيدة يتيمة، تحتاج أنت إلى النوم بجوار ضفائرها وتحتاج هي إلى دفء مشاعرك، لا طعم لقصيدة غزلية من شفاه عابر سبيل، اللحظات تزداد تعقيدًا.

في اعتقادي، إلى الآن لم يتم اختراع مقياس للحظات الحرجة، الوردة الكردية ليست كافية كهدية عربون صداقة، إنها بحاجة إلى حزمة من المشاعر الصادقة، كان الجميع في القطار يرونها راكب، لكنني كنت أراها من زاوية أخرى، قرأت كل شيء، كان حديثنا وُديًّالكن بصمت، كانت نظراتها تمر عبر الوردة التي في يدي، وحديثي يصل إليها عن طريق بطل الرواية. تكوّن لدي انطباع أنه من الممكن أن يكون هناك مشروع لقاء، ولكن في قطار العودة كنا نقف على مسافة واحدة من نافذة الحب، ولكننا نمضي نحو حلم لا نعرف نهايته.

تمنحك المرأة إحساسًا فطريًا، تشعر أنك تستنشق هواءً نقيًا، تحس ببرودة أقدامك كأنك تجلس على صخرة ينبجس من تحتها الماء، بعض المواعيد تتحول إلى جرعة زائدة من الفوضى والحزن والجنون، كنت أعتقد أنه يمكنني الإشاحة بنظري عن فتاتين يتجاوز عطرهما القطار والأمصار.

كيف حولت المدنية المرأة إلى قطار؟!

ربما لأن المعايير التي تحكمنا جاءت من جامعاتهم، والمنطق الذي يستظل تحته الجميع جاء من بين سطور كتبهم.

تستبد بك الرغبة في العودة إلى مدارات التجلي والوقوف على شواطئ الذكريات، في التحليق في الفضاء الرحب، في الاستقرار بين الشريان والصمام، ثم الهروب إلى جروحك النازفة. كل الورود التي حولك صناعية، كل الأجساد التي أمامك دُمى، كل البنايات العالية من الفلين، كل الأسماء مستعارة، أقنعة ليس إلَّا.

قف ولا تستوقف اللحظة العابرة، لا تقل: ما أجملك!

لا تمنِّ قلبك المغبون بالقُبلات، لا تكتب على شرفات خلق اللّٰه: «ذهب الذين أحبهم»، لم يعد بالكأس ما يروي الظمأ، استوطن الحزن قلبك، ولا زلت ترجو وترجو.

الجدال العقيم أول الحب، هناك مفارقة عجيبة؛ كلما ازدادت ثقافة المرء ازداد بؤسه، وكذلك المرأة، كلما تعلمت زادت معاناتها وتفاقمت مشكلاتها، من عنوسة وطلاق وخلافات عائلية، مَن السبب؟ هل هو الرجل أم المرأة؟ وهل أخرجها التعليم عن طورها؟

ألم يكن التعليم إضافة جميلة في حياتها؟ هل المنهج الدراسي منهج ذكوري أثّر على شخصية المرأة وأنوثتها؟!

أنصت إلى القطار، لا تترك الحزن يتناولك كالدواء بانتظام، افتح قلبك ليتجه السحر نحو الداخل، ابتسم ليخرج باتجاه العيون

المخملية التي تجذب الناس كالمغناطيس، تألق، حب، سفر إلى هنا، ورحيل إلى هناك. تُعِيرني قلبك، وتأخذ قلبي.

إلى أين أيتها الرومانسية المعلقة في السماء؟

إلى أين أيتها الصباحات المتعبة؟

إلى أين أيتها المساءات المسافرة في قنينة للنبيذ؟!

إلى أين أيتها المرايا المتجهة نحو الخارج في رواية دوخت العالم من المحيط إلى الخليج؟

إلى أين أيتها الأسئلة القادمة من الأعماق؟ إلى أين؟!

أصعب مراحل الحياة أن تصل إلى دائرة مغلقة فلا تعرف كيف تحب، ولا من تحب، ولاكيف تحكم، ولا من تحكم!

لا تعرف كيف تكتب قصيدة، ولا لمن تهديها!

لا تعرف كيف تموت، ولا أين تموت، ولا لماذا تموت!

اليوم تغيب الابتسامة عند القاضي، واللين عند المحقق، والضمير عند المسؤول، والأمانة عند الغني، والهمة عند الموظف، والصدق عند التاجر، والوفاء عند الصديق ونغيب نحن عنا، يغيب عنا السؤال المُرّ حين يكون وقاية ويأتي حين يكون عذابًا، كيف نقتسم الحزن كقطعة حلوى؟ وكيف تعلن حربًا على امرأةٍ شواطئ عينيها ممتلئة بالغزاة؟!

متى تكون المعاني جسر عبور إلى مدن الموسيقى والحب؟!

متى تكون هي في الزمن الغياب؟!

ومتى تكون أنت حين تكون الذات مجزأة إلى أقاليم؟!

يبدو أن المؤثرات السلوكية للطالب في سنوات الدراسة هي التي خلقت جيلًا من دون ابتسامة!

نتأثر بالناقص والهابط ولا نتأثر بالجميل. تاريخنا أصيل، وقيمنا نبيلة، التربية تسبق التعليم، وحتى إن كان البعض يحتاج إلى تربية من جديد، فلن يتغير شيء، إذا كان الجزء المريض هو الذي يسيطر اتفق الناس على الخروج إلى الشارع ولم يتفقوا على العودة إلى منازلهم!

لا يهم كل ذلك، المهم الآن التوحد، التملك، التماهي، الجنون، أنا (هي)، وهي (أنا)، قلب واحد، فؤاد واحد، روح واحدة. أنا أثمل منها وهي ترتوي من أناي، أسكبها حبًّا وتشربني نبيذًا. أن تكون (أنا) حيث الهوى، وأكون (هي) حيث الشجون، تأخذنا نزوات المُنى المستبد حد السماوات الثلاثين التي تحت السحاب، نتألم معًا، نبكي بعين واحدة، ونسهر بجفن واحد، نغني على السفح بصوت واحد، تخرجني من داخلي جمرًا، وأستوطن قلبها ثلجًا ولحنًا. كيف أكون (هي)، وكيف تكون (أنا)؟!

كلما نظرت إلى الممر الذي يفصل بيني وبين النساء وجدته ممتلئًا بالحديث عن الرعد والبرق، عن المطر، عن السأم والضجر، عن الغربة والغياب والسفر، عن الرحيل والمنافي، قسرًا أو اختيارًا، مؤلمة تلك المصطلحات، موجعة أحرفها.

أيها الفتى، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لم أعد أشكل استثناءً مشرفًا؛ لم أعد قادرًا على الدهشة لم تعد تقلقني الأسئلة؛ لا الأساسية ولا التافهة، لم تعد تثيرني الإجابات، لا الصحيحة ولا الخاطئة، لم تعد العيون النرجسية قادرة على أن تنكأ جراحاتي، لم تعد الأمواج قادرة على إثارة الصخب داخلي.

توقف أمام ما يجري داخلك، تأمل الخلاف، تفحص المشكلة، أعد النظر، تساءل، لماذا تتعقد الأمور؟

بدأت الأفكار تتوارد واحدة تلو الأخرى، بما يعني أن الرحلة أوشكت على الوصول، لا زلت أرى نفسي واقفًا على أقاصي القرية، وفتاة القرية تحتضن بين يديها الوقت كي لا يتسرب من بين يدي السنابل والحقول.

ماذا أقول لجرح كلما تدلت قربة الكلمات من داخلي سال حتى يغمرني لنصبح معًا صخرة صمّاء؟!

كانت الفرصة مواتية لاختلاق حُجة الكلام مع صاحبة الرواية، والدخول إلى حدائقها المعلقة بين القلب والقلب، بيد أنني كنت أراني في مرايا القطار أتحرك في كل اتجاه، وكل الأبواب موصدة، كيف يمكنني أن ألقي التحية والسلام على الأبراج العالية، وعلى الذين يجلسون في شرفاتهم يشربون القهوة ويرتبون أحلامهم حسب الحروف والانتماءات، وحسب الولاء والبراء، وحسب الأسماء والصفات؟! كيف وهم ينظرون الآن إلينا على أننا قطار فقط؟!

القناعة امرأة تجعلك تتوقف عن الحب؛ لأنك ممتلئ به، فتنسى كل شيء.

أحيانًا نبالغ في تقدير الذات (خيرها، شرها، حبها، كرهها، تواضعها، غرورها).

وصلنا، وكنت أتمنى أن يواصل القطار رحلته ولا يتوقف، أن يتعطل.

كنت أتمنى أن أقول لها: كم الساعة الآن؟!

كل الأشياء في حالة غليان، جراحاتي مفتوحة، مشاعري مضطربة، وجداني يختلج، قلبي يخفق، يرتجفدمي، يسافر بين المسافات، وصلنا ونحن لم نقف على تعريف حقيقي للصمت.

كيف غابت الكلمات من شفتيها؟ وكيف تسرب الوقت من شفتي؟!

كيف مضينا معًا باتجاه النهاية ونحن لم نبدأ بعد؟!

عندما نفشل نتهم الحظ، عندما ننهزم نتهم الأصدقاء بخذلاننا، عندما تضيع الكلمات بين ثنايا المساء نتهم الحلم، عندما نتجه لاحتطاب الشجرة الأخيرة في فنائنا الداخلي فإننا نتهم خيباتنا، عندما تضيع البذرة الوحيدة من بين أصابعك، فقل:

قدر الله وما شاء فعل.

وصلنا وأنا لم أقل لقلبي إنني وصلت، لم أقل وصلنا فما زالت صفحة القلب، فارغة، نقية من السلام ومن الكلام ومن الابتسام.

كانت العاصفة الرملية تغلف المدينة، لا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل. كيف أتحرر من هذا الانتظار، ومن هذه المراهقة المتأخرة، ومن الألم المسافر في تقاسيم المساء وفي فراغات العاصفة الترابية وابتسامة الفتاة الروسية؟!

هناك أراها، لم تكن بعيدة؛ فقد كانت تنصت لي وترتب نظراتي، كيف نام الكلام في شفتيها؟! تربكني إغفاءة العطر، دندنة الفراشات بين يدي، المواعيد المجهولة.

عندما اقتربنا من الباب سألت نفسي إلى أين أذهب؟ كل الأبواب تفضي إلى لا شيء، إلى العدم. كل حواسك الخمسين تنشد العودة إلى مقعدك في القطار، إما أنك مفعم بالحنين إلى الماضي والذكريات والطفولة، وإما أنك تخشى مطرقة الفقد وتخاف سندان اللقاء! مؤسف أن يكون مصدر خوفك هو أمنياتك، شجونك، تفاصيلك الصغيرة والكبيرة، المسافات التي صنعتها أنت سفرًا، مطرًا، وكلمات.

تدافع الناس للخروج من القطار، إنه توقيت الشلالات الراقصةوقت القهوة والموسيقى والحب، وقت اللحظة التي تتصعد في السماء باتجاه قمة برج خليفة؟

نصف استدارة من عنقها الطويل ليست كافية لتقول:

أنا أبحث عنك، قبل أن أقعد كانت تراني بين سطور الرواية، وبعد أن قعدت كانت ابتسامتها الصغيرة التي لا تكاد تُرى تتجاوز المكان والقطار، ولسان حال المعطف التركوازي أن مئة عام

من الشوق ومئة عام من الحب قادمة، الجميع هناك يغني ويرقص، ابتسامات بالجملة، وأنا هنا أبحث عن وقت إضافي، عن زمن آخر، وعن رحلة أخرى؛ كي أتعرف عليّ، كيف أعرف من أنا، أعرف أنه لم يتبقَّ من الوقت ما يكفي للبقاء، للقاء.

وبينما أنا أعيد الأشياء إلى أماكنها في قلبي، الذكريات إلى أدراجها، الموسيقى إلى ألبوماتها، وبينما أنا أرتب السهام وأضمها إلى السهام، والمعنى إلى المعنى والجنون إلى الجنون، تقف استعدادًا للخروج. الأشياء الجميلة قد لا تأتي حتى متأخرة، شاركتها الوقوف. عليّ أن أخرج من هذا القفص الحزين، من هذه الفترة الزمنية التي ليست لي إلى الرحب من شواطئ عينيها. سأقول للتفاؤل من الآن فصاعدًا:

أنت صديقي، سأحتضن الأتربة الدافئة؛ كي تغسلني من هموم الأمس وأحزانه، وسأدعو العصافير لتناول العشاء على مائدتي، سأكتب في عينيها قصيدة أخرى، سأحتفل اليوم بخُلوّ قلبي من السياسة، ومن الأخبار السامة، ومن الأصدقاء الطيبين الذين يقتربون منك أكثر ليدفعوك نحو السقوط.

سنبدأ مساءنا بالحب، بالنقاء، بالسعادة، سأقول: إن كل شيء على ما يرام، فقط نحن بحاجة إلى ابتسامة وابتسامة فقط.

وصلنا ولما تنبجس المشاعر بعد، لما تنسكب القصيدة بعد، لما تضع المرأة أشواقها في مرايا القطار بعد.

تتوقف الرحلة لتبدأ الشلالات بالرقص، وأنا بالغناء. يتوقف القطار لتبدأ الموسيقى رحلتها الممتدة من الشريان إلى الشريان، تتوقف أنفاس الناس المتصاعدة باتجاه السماء ولم تتوقف روحي عن التحليق في الفضاء، لم أتوقف أنا عن السباحة في ملكوت الأغنية الراقصة، لم أتوقف عن البكاء بين مقامات الحزن والفرح، لم أتوقف عن الطيران بين مدن الذكريات ونوافذ الوقت وعيون المها وسكرات الحنين!

أحيانًا يكون الجنون نافذة لحياة أجمل، وأكمل أحيانًا نكتب هنا، وأحيانًا هناك، لكن أجمل ما كتبناه كان على رصيف ذاكرة مثقوبة بين رحلتي الشتاء والصيف. سيعود الناس إلى التسوق، وسأواصل السير مشيًا على الأقدام في المئة عام القادمة من أعماق الحزن، ومن جذورالحب، ومن ممرات الرقص والهذيان.

للنافورة الجميلة رقصتان، شرقية وغربية؛ لذلك علينا أن نكمل الرواية معًا، أنا وهي وأبطال الرواية، ونحتفل بالسفر والموسيقى والقهوة معًا، هذه المدينة لا تشرع نوافذها إلا للجميلات، هكذا تحدث شخصان مندهشان لمرور فتاة كأنها إيطالية، كانت ترتدي الهواء الناعم الذي يلامس جسدها البضّ.

أيتها اللحظة، قفي، فما أعجلك!

الأشياء الجميلة تصيبك مرتين، حين تأتي دهشة، وحين تغادر ألمًا.

كنت في وسط الجموع الغفيرة التي تركت التسوق واللعب والأكل وأتت للاستمتاع بهذه اللحظة الثمينة، (كطفْلٍ بين آلاف الهدايا) الناس هنا ثلاثة:

عاشق، ومعشوق، وضائع بينهما أظنه أنا.

بِمَ يستمتع الذين ليسوا هنا؟!

يستمتعون بالقبيح وبالساقط من الأشياء، يتسابقون على الانحدار، يتبنون الثورات في المساء، وفي الصباح يتبولون على قبور الشهداء، في المساء يضعون قيمهم وعاداتهم وأعرافهم ومروءاتهم أهدافًا للثورة، وفي الصباح يلمعون أحذيتهم بالصحف التي تحمل أهداف الثورة!

من أين تأتي المثاليات الزائفة؟!

من بوتقة الصمت، من جبال الثلج، من غابات الطموحات المحترقة!

كيف يقلب أضلعًا في الرمل شاعر العيون الزرقاء؟!

كيف يصل صولجان المشاعر إلى ذروة الجنون في لحظة صدق؟!

وكيف تشتعل شهقات الخلود؟!

متى نكون هُنا؟!

عندما لا يبقى في المساء سكون، عندما لا نحمل أي حلم غير الهموم والظنون والمنون، عندما ينكفئ هذا الكون ونضيق حد

العدم، عندما نتوج على عرش اليقين، عندما تأتي كلمة (أحبك) كسحابة محملة بالمطر.

عندما لا يبقى في المساء سوى رسائل قصيرة ومنشورات مبهمة على صفحات التواصل الاجتماعي، تحاول أن تعيد تشكيل أزمات الشعوب لتحلها، فلا سلطة مسؤولة، ولا معارضة رشيدة، ولا شعب يعرف أين هي مصلحته، لا شيء سوى الفراغ.

(يا ذا القرنين)، إن قلبي وقلبها مفسدان في الأرض، فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بينهما ردمًا؟!

(ياذا القرنين) إما أن تعذب هذه النافورة الراقصة وإما أن تتخذ فينا حُسنًا!

الفضاء القريب من خاطري يفتش في ثنايا الوقت عن ثوانٍ إضافية تمنحنا الحياة أو تضيف أعمارًا إلى أعمارنا، وبهجة إلى أيامنا. قمة الألم أن تتصنع الصمت، أن توهم قلبك بأن كل شيء على ما يرام، أن تفترش أحلامك البائسات لتستريح قليلًا من كل منغصات الحياة وأكاذيب الخلجان والبحار، من وعثاء السياسة وكذب الإعلام وانحطاط القادمين تحت مظلة النخب.

أيتها القادمة من سراب الغليان ومن ديمومة الوقت، لا تتلعثمي، قولي، انبجسي، اصعدي بي إلى سدرة الغيم، أيتها القادمة من أقاصي الموج ومن أماني الغيب، لا تتكوثري؛ فالقلب أوشك أن يغيب.

هي لا تأتي، إنما تهطل كالمطر؛ لذلك تتفتح أزهار قلبي، أجمل ما في العمر بقيته، فتعالي نثرثر بصمتفي المساء، لست أنا الوحيد الذي ينتظرك، هناك أيضًا قلق يتيم.

فهناك أيضًا خطوط الطول والعرض تنتظر قدومك لتبدأ الرقص والغناء.

أنت وأنا، ورابعنا المساء، الجهات الأربع للجنون. إنه عيد النظرة الأولى، ذكرى حبنا الأول؛ لذلك أهدتني تلك الجميلة وردة، كان الأحرى بي أن أهدي كل أنثى أقابلها حديقة من الورود.

الذين احتفلوا بعيد الحب هم التعساء، أما الذين ينعمون بالحب فهم يعيشون اللحظة بكل تجلياتها، كنت سأقدم لها التحية حيث منحتني فرصة التوقف عند حدود الجمال وعلى أطراف حدائق الياسمين، لكنها لم تمنحني فرصة التعبير عن مشاعري المكبوتة.

الاحتفال بعيد الحب - من وجهة نظري - من أهم احتفالات الأعياد، ونحن أولى به من اليهود والنصارى!

القيم النبيلة بحاجة إلى حب، الكرم بحاجة إلى حب، التعامل بحاجة إلى حب، حتى الحب ذاته بحاجة إلى حب.

أن تحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، النجدة بحاجة إلى حب، حمل رسالة الإسلام بحاجة إلى حب، الصلح بين الناس بحاجة إلى حب، العبادة بحاجة إلى حب، إخراج الزكاة بحاجة إلى حب، الصدقة بحاجة إلى حب، اللقاء بحاجة إلى حب، الوداع بحاجة إلى حب أيضًا،

كل القيم النبيلة والأصيلة التي حث عليها ديننا الحنيف تحتاج إلى احتفال. كثيرة هي المسلمات التي تشرع لنا الاحتفال بالحب؟!

حتى في أماكن الصراع والحرب يجب أن يكون الاحتفال أكبر؛ فربما ألّف بين قلوب الناس، وربما أصلح ما أفسدته المصالح المتقاطعة ودمرته السياسة اللعينة.

في حين يتزاحم الناس على الاقتراب من النافورة الراقصة تبحث أنت عن الأغنية الجميلة، الأغنية الوحيدة التي ضاعت منك في زحمة العابرين.

متى فك الحب ارتباطه بالمشاعر الجياشة وارتبط بالنقد والذهب والأسهم؟!

يبدو أن اللا حب هو الذي يعيش بيننا، أما الحب فقد رحل.

عن اليمين وعن الشمال موجات كهرومغناطيسية ابتسامات مصطنعة وأخرى طبيعية، ما بين حب مادي وآخر سماوي، جمال حقيقي وآخر غير حقيقي ربما تجاوز المنطق.

كيف تحولت القوالب الصماء إلى حياة؟!

أسأل نفسي، وأنا أتوكأ على عصا القرية المكسورة، عصا الترحال المستعار، عصا الفلاح الذي يهش به الشمس كل ظهيرة حينما تجلده على ظهره في شهر تموز، لا زلت أبحث عن تفاصيل النبيذ المسافر في العيون، أبحث عن تعريف للحزن الذي يعترض طريقنا، الحزن الذي يتحول إلى حائط مبكى متنقل، الحزن الذي

يأتي على هيئة موسيقى راقصة، الحزن الذي يتساقط على هيئة عاصفة رملية. أقطع الساحة، وأتجاوز الجموع التي ما زالت متأثرة بتثاؤب النافورة الراقصة.

رن هاتفي، كان المتصل صديقي مازن الذي تركته نائمًا في الفندق وخرجت، كم هو مثالي في كل شيء إلا في نومه، ينام عندما يقوم الناس ويقوم عندما ينامون، ليس شاعرًا ولا فيلسوفًا، لكنه طبيب، يعشق فوضى الشعراء وتمرد الفلاسفة.

- أين أنت؟

قالها بتهدج كأنه خارج من البحر بعد أن أنهكته السباحة.

رددت عليه بلهجة المنتصر والنشوة تملأ صوتي:

- في (دبي مول) كأني أقطع المسافة على صهوة جواد أبلج.

قال:

- انتظرني، عندك لدي مفاجأة، لا تتعشَّ اتفقنا؟!

كلما هدأت النافورة الراقصة اشتعل داخلي حبًّا، كلما توقفت عن الكلام عن حديث المساء ضجت داخلي الأشواق، كلما اقترب صمتها ازداد القلب خفقانًا. بعض الصمت إثم، وبعض الحب بوح، وبعض الظن حب.

حين تلتقي أضواء النافورة الراقصة مع رائحة القهوة، عليك أن تتفقد ذاكرتك، عليك أن تعيد جراحاتك المتناثرة إلى أماكنها المعتادة.

يخيل إليّ أحيانًا أن كل من مرّ من هنا أو من هناك، من القلب أو من الروح، أو كان جملة مفيدة في دفتر الذكريات، سواء كان ممتلئًا بكبرياء وطن ذبحته المثاليات الزائدة، أو مسكونًا بالرحيل نحو مواطن الأمن والاستقرار، أو مرتبكًا بين وطن مسلوب وقلب حولته النايات المهاجرة إلى مأوى للغرباء فقط. إن الكل يعيش الصخب.

الصخب الذي نشعر به أحيانًا هو أصوات من نحب، تتبعث من الداخل لحظات الغياب.

قالت ذات مساء والغروب يداعب ياقة قميصها البني الذي تعدى حاجز العباءة والطرحة ولم يتعد حاجز الأعراف والتقاليد:

متى تتوقف الأرض عن الدوران؟

قلت: عندما أنهي السعي بين طيفك والمساء.

أغلقتُ هاتفي، فأنا لستُ من عشاق المفاجآت إطلاقًا، تركتُ جوالي في يدي، واصلتُ طريقي. أشعر بالجوع، يبدو أنه ذكرني أنني لم أتغدّ بعدُ. هناك مدن لا تستطيع فيها أن ترد على الاتصال في الشارع، سيسرقون هاتفك، وربما يكسرون يدك ويكملون هم الحديث مع المتصل نيابة عنك حتى وإن كانت زوجتك!

عندما لا يبقى في المساء سوى نبض الاعتراض على خيبات الحياة، على الذات المنطوية، وعلى الروح المنفتحة على كل شيء نستطيع أن نقول له: لا.

هناك لحظات في التاريخ ننظر فيها إلى الوراء ونقول لها ليتك كنتِ تستمرين إلى الأبد؛ حتى لا نلعن الوقت والحظ والذكريات.

يشرف على الساحة الراقصة (كوفي شوب) إطلالته جميلة، الدخول إليه يتم عن طريق بوابة (المول)، اتجهت صوب البوابة، كانت مزدحمة بالماضين في طريق التسوق ذهابًا وإيابا، كأنّي بصاحبة الرواية والقطار وخاتم من سراب، تتخطى البوابة باتجاه الداخل وتأبى الدهشة إلا أن تكون هي، يأبى المساء إلا أن يكون قلقًا وجنونًا وكبرياءً وحُبًّا.

وعر هو الطريق بين صمتها والكلام، لا أدري كيف تجاوزت الجموع؟! هذا لمسته بيميني، وتلك بيساري، وآخر بقدمي. لن يسعفني الوقت بالاعتذار ولا بالتوقف، ولا حتى باستعادة الأنفاس القادمة من مدن مجهولة الهوية «إن كنت ريحًا فقد واجهت إعصارًا»، في الداخل أجبرتني مفترقات الممرات الثلاثة على التوقف، درج إلى الأسفل ودرج إلى الأعلى، ودرج إلى الداخل، لن أنفع كبطل سينمائي، كل من سأقوم بمطاردتهم سيهربون منّي بسهولة.

استبعدت أن تكون اتجهتْ للأسفل، وصعدتُ بعد أن أخذتُ نفَسًا عميقًا باتجاه الأعلى، وصلتُ إلى الممرّ العلوي، لا أحد، نظرتُ يمنةً ويسرةً ولا أحد.

تقدمتُ خطوة، حيث كان يحيط بالممر «دربزين» من الخشب المعمول على طريقة فنية بديعة ولا أحد.

اتجهتُ بنظري إلى الأسفل ولا أحد ، كانت الردهة السفلية ممتلئة بالمتسوقين والمتسكعين والزوار، ولا أحد. أرجعت البصر كرة أخرى كانت كالماسة بين كوم كبير من الأحجار الكريمة، كانت تمشي ككوز مثقوب يتسرب منه الماء، طف، طف، طف، كموسيقى حزينة، بها عرجة غريبة زادتها تفردًا وتميزًا وجمالًا.

كانت تتوسط المول بل والكون والقلب.

لطالما آمنتُ أن كل إنسان داخله طفل مرح يحتاج للدفء والحنان، طفل تسعده الصباحات المشرقة، وتواسيه المساءات الدافئة، لا زلنا نبحث عمّن يمكنه أن يحتضن أرواحنا القلقة دون كلل أو ملل، من يقبلنا بكل عيوبنا. ما زال القلب طريًّا وآمالنا لم تزل فتيّة؛ لذلك ليس عليك إلا أن تتشح بالصمت وأنت في قمة الألم.

كلما خطت خطوة ازداد المول انتعاشًا وابتهاجًا وحيوية، كانت ترتدي طرحة يمانية تسمى (مقرمة) وفستانًا ورديًّا أسفله، أرجوانيًّا أعلاه، يغطي إلى منتصف الساقين ولأنه عاري الأكتاف فقد ارتدت معطفًا رصاصيًّا.

كانت خطواتها تقول: إنها تبحث عن شيء ما!

المساء كعادته عندما يأتي واضعًا ابتسامتها في المشرق وخاتمها العقيق في المغرب وفستانها الوردي في الشمال وعطرها في الجنوب، وأنا أطارد المسافات، أذهب بطيفها إلى البعيد حتى لا يقابله عود ثقاب. كنا في المول كغريبين لا يملكان جواز سفر ولا تذكرة للجنون، كدولتين تعيشان حالة فراغ دستوري.

لا فرق بينهما، المحارب وأنا، كلانا تحت ظلال السيوف! كانت تتوسط العابرين كريشة تسافر بين السطور، كنغم يحاول أنيعيد القصيدة إلى الكأس خمرًا.

كانت كمعنى يتموسق بين أوتار قلب نهبته العيون والهجرة والأشواق والغربة، كانت المعارض التجارية تتسابق لاستقبالها، والبائعون يخرجون إلى واجهات المحلات للترحيب بها، وكان السقف يقطر ندًى، والسلالم تعزف لحن خطواتها. كانت تمرُّ على وقع ناي يربك العابرين، ثمة ما يشبه أن يكون قصيدةً تمشي علىالمول، ثمة إحساس يتسرب من شعاع القمر إلى شغاف القلب، ثمة بركان يتحرك اقترب من عينيها قدر رمح وابتعد عن شفتيها قدر قُبلة.

أريد أن أكتب لا شيء على هذا الشلال الذي يحتفل بقدومها على طريقته الجميلة؛ حتى لا يقرأه سواها.

توقفت مكاني، تسمرت على الخشب القابض على أحشائي، دخلت معرضًا للساعات، غابت عن ناظري ولم تغب عن الحواس الأربع الباقية، أغمضت عينيّ، عدت إلى الجامعة، القطار، الرواية، وأنا. طرحَتها، فستانَها، كثيرة هي الأسئلة التي تتصاعد من فوهة البركان، السعادة وابتسامتها وجهان لقلب واحد، الطريق إلى قلبي أيضًا بحاجة إلى تذاكر سفر!

الانتظار هو المنفذ الأخير للحب الحقيقي، ما الذي تحتاجه امرأة منمعرض للساعات والنجوم لها مواقيت، والقمر مرآة، والسماء حب، وأنا سفر؟!

قبل أن أكمل تساؤلي وأبحر في خيالاتي، وقبل أن أستنطق جراحاتي، وقبل أن أقف على المسافات الفاصلة بين الأنا والذات، فتحت عينَيّ، ووجدتها تنظر إلـيّ، عيناها في عيني، تعثرت بالمعنى، وبالذكريات، وبالأشواق، لم أجد ما أقوله لها ولا لنفسي ولا للساعات ولا للعابرين ولا للمول ولا للمساء!

المسافة التي بيننا ليست مظلة، وليست عطر مسافر، وليست قصيدة قالتها عينان مغرورقتان بالدّمْع لجوارح مهزومة، إنها الجراح التي تتوالد من الذكريات، إنها السماوات التي تظللنا، الوجع المسافر في شرود السفر، في عينيها قطعة من جهنم، والحب أحياناً يكون جبهة من جبهات القتال، وأحياناً يكون همًّا لا طاله مَن قبلنا، ولن يناله مَن بعدنا.

في أماكن كهذه، القرويون لا يأتون بزوجاتهم، يخشون أن تصيبهم لعنة السماء فتنزع البركة ويحلّ الفقر والتشرد حتى سابع حفيد!

الخوف على الزوجة، وعلى الأم، وعلى الأخت، وعلى البنت، على المحارم من الآخرين ثقافة متوارثة، وهذا الخوف نوعان:

الأول يسمى: الشك، وهو مرض قاتل.

والآخر يسمى: الغيرة، وهو قسمان:

الأول محمود وهو غيرة فطرية تأتي من داخل الإنسان السليم المعافى.

والثاني مذموم وهو غيرة مكتسبة قد تصل بصاحبها إلى اتهام المجتمع بالانحلال والانحراف والفسوق.

قد تكون أضغاث أحلام أو خيالات أو معتقدات الهدف منها هو الحفاظ على قنينة الشرف الوحيدة في هذه الحياة، القنينة التي لو انكسرت فلن تعود.

الشرف لدى البعض معتقد، ولدى البعض الآخر دين، ولدى الأعراق ذات الدماء الحارة كالجزيرة العربية دين ومعتقد وقيمة؛ لكنه لدى القادمين من مدن الدينار والدرهم سلعة تباع وتشترى؛ لذلك تنخفض قيمته بشكل ملحوظ لدى الكثير من الأمم.

تشعر أن العالم بأكمله هنا أضواء، حكايات، أغنيات، أمنيات، جموع من الناس تمضي، وأخرى تجيء، ماذا عساي أن أقول؟!

(الصمت أبلغ من ملايين الخطب) الجميع في سباق مع الوقت، لا أحد يريد أن يفوته شيء.

هنا لا ترى وجهًا عبوسًا ولا متجهمًا، كأنّ هذا المكان وجد لمنح الابتسامة مجانًا، رغم أن تكاليف الحياة غالية إلا أنّ الجميع مستمتع، كلٌّ على قدره ومستواه.

مهجة حرّى تحتاج إلى شتاء قارس، ألم جميل لكنه دافئ، جراح كلما طببتها يد المساء نكأتها ابتسامة الصباح، سفر ممتع، ووجدان يكاد أن يشتعل أسئلة ولدت من إيقاعات المساء، بعض المساءات قد تتأخر، لكنها تمنحنا الدهشة.

ثلاثة تجري لمستقر لها: أنا وأنت وأغنية من دخان، فلا تحلمي باللقاء حين تفيض الأشـواق، اكتبي فوق ضريح الأماني تاريخ ميلادك الأربعين.

كأنّها تمشي على شوارع قلبي، تفتش في دفتر الذكريات، تنهدت نهدة شعرت بأنفاسها الحرّى تلفح وجهي، واستدارت إلى اليمين، وواصلت رحلة البحث عن جرح في مدن الضياع؛ وهكذا دواليك كلما اندمل جرح فتحنا نافذة للرياح لتأتي بجرح أكبر.

غابت وغابت معها كل الأشياء الجميلة، غاب فجري وليلي البعيد والقريب.

يا راحـلًا، هل يعود؟! يا راحـلًا أشعل همسي، وأقلق راحتي، ياغائبًا، كيف ألقاه؟!

يا راحلًا كان أحلامي وأمسي البعيد وغدي القريب، ياغائبًا أخذ معه كل شـيء؛ حسي وحواسي، كتبي وأشعاري، أغنيتي وصوتي، ضحكتي وآهاتي.

كانت السماء بنجومها وقمرها وسحبها وعاصفتها الترابية تتجه نحو الرحيل، الهواء القادم من الأسقف الصناعية ليس باردًا ولكنه مشبع بالأسئلة، كيف يعبر الصخب الذي داخلي هذا الممرّ إلى منعطفات الغياب؟!

مثلما يسرُّ اللقاء يؤلم الغياب، ومثلما تهلل قلبي لقدومها فقد بدأ الحزن بالانتشار والتموضع، مثلما ننتمي إلى الحضور ننتمي إلى الغياب، مثلما تتبخر الأحلام من دواخلنا على هيئة قصيدة تكبر

الآلام، أينما يممت وجهك وجدت امرأة. النساء أكثر حيوية في الأسواق على عكس الرجال، إلا إذا كانوا من دون زوجاتهم!

كلما وصلت إلى مواسم الحصاد عادت بي مراكب الحياة إلى مواطن المرارات الممتدة من الحنين إلى الحنين، عدت بنظري إلى المحلات التي تتزين بأجمل الأقمشة والملابس النسائية، لا طائل من الاستغراق في الشواطئ المهجورة والبكاء على الأطلال.

(ذهب الذين تحبهم)!

وبقيت كالسيف المفلل.

في الطريق

لا أحد هنا،

لا أحد هناك.

أحيانًا يكون الإحساس الغامض تمثالًا خشبيًّا نصلي عليه، نطوف حوله ويمضي العمر، وتمضي السنوات، يتساقط الخشب ولا زلنا نؤدي المناسك، عندما تكون أنت نهاية الممرّ سيكون من الصعب وصول الهدوء إلى قلبك، اترك هذا المكان وتوجه إلى (الكوفي شوب).

وصلت إلى (الكوفي)، وكانت الأماكن المطلة كلها محجوزة، ذهبت إلى زاوية كانت خالية، طلبت قهوتي المفضلة (لاتيه) بنكهة القرفة، لأن الفرح غائب استضفت الحزن، ليس من عادتي العيش وحيدًا. إذا كانت الوردة الأولى ليست من نصيبك

فحتمًا ستكون الأخيرة، قليلون من يفرضون احترامهم وتقديرهم، قليلون من نحبهم ويحبوننا بصدق، قليلون من نجد معهم طريقنا وأسلوبنا وفكرنا؛ لذلك نحتاج إليهم ليشاركونا فنجان القهوة، والاستمتاع باللحظة الجميلة.

فتحت هاتفي أريد أن أرفع صورة لي على(الفيس بوك)، من الصور التي التقطناها في شواطئ الجميرا، نفسيتي ليست مهيأة للتعليقات والردود، خصوصًا أن البعض سوف يدخل على الخاص، وتبدأ سلسلة الأسئلة الغبية.

كلما أسدلت ستائر الذكريات عن درب التوحد كشفتها الرياح المرسلة.

أحيانًا وأنت تكتب، تشعر أنك طفل في مدينة ألعاب كبيرة. عاد عامل القهوة بكوب من ورقوضعه أمامي، وأشار بابتسامة جميلة إلى السكر الموجود على الطاولة، شكرته. أكره الأشياء المسكرة والمالحة والباردة، أخذت رشفة من فنجان القهوة، عندما تتلاشى الخيارات توجهنا الحياة صوب الشواطئ الصخرية. أيتها السُّحب، أمطري همًّا أو غمًّا أو حُبًّا أو حزنًا، أمطري خناجر أو رماحًا.

حين أكون بلا وطن سأحتاج الحزن، وحين أكون بلا أمل سأحتاج الناي، وحين أكون بلا ظلال سأحتاج سيجارة واحدة يظللني دخانها، وحين أكون بلا مطر سأحتاج إلى أهداب أنثى تعشق المطر، وحين أكون بلا رفيق سأحتاج إلى شجرة آوي إلى ظلالها، وحين أكون بلا سفر سأحتاج إلى فراشة واحدة فقط،

وحين أكون دون هوية سأحتاج إلى قصيدة أكتبها في لحظة جنون. على مقربة منّي شاب لا تزال دبلة خطوبته طرية، وأمامه فتاة كان الهوى يشرق من مقلتيها، كانت ابتسامتها صغيرة، لكنها تضيء، وكان صوتها رقيقًا وخافتًا، لكنه يتموسق.

كان الشاب أكثر أناقةً، وكانت أكثر جمالًا وأكثر سعادةً وأكثر جنونًا، وكنت أنا عبارة عن عينين شاردتين تقيسان مسافات المدى البعيد، كلما حملق إلى عينيها وفاضت بها المشاعر نشوةً وابتهاجًا، اتجهتُ صوب البعيد باتجاه القرية وفتاتها الجميلة.

كلما اقتربت أنفاسهما المتلاحقة منّي شعرتُ بالضياع والغربة.

لا زلتُ مجهولًا أبحث عني في رغوة القهوة وفي مُرها الأحلى من العسل.

لا زلتُ من عشاق أم كلثوم وعبد الوهاب وفيروز، صدى أغنية، وفنجان قهوة، وسيجارة كوبية كفيلة باستعادتي.

أنت في الطريق إلى الإقامة الجبرية، إن ثمة بقايا امرأة تشعل الحرائق داخلي، تبعثر الأوراق، تعبث بالخلايا التي مارست الحب من بعدها ومن قبلها، بقايا امرأة تسد الطريق أمام جميع النساء، تعلن الحرب، النسيم الذي نحتاجه هو الذي يحمل الروح إلى روابي القلب، ويحمل القلب إلى شواطئ عينين تكتحلان بالناي.

استبد بي الشوق، وراودتني الأماني حين لا بأس إلا احتراب الجفون، وحين لا خوف إلا اضطراب القلوب، وحين لا وقت إلا اعتراف العيون. استبد بي الشوق وجاءت كالحلم، كالندى، كالبراءة، كالبحر، كالمساء، كالمطر.

في البداية أنت، وفي النهاية أنت، وما بينكما فنجان القهوة، الشاهد الوحيد على أجمل قصص الحب وأكثر المشاهد مأساوية وألمًا.

أحيانًا يكون التفاؤل في ناصية الشارع، فقط يحتاج أن نلتفت إليه، أما البهاء فهو موجود داخلنا، ولكنه بحاجة إلى مشاعر دافئة تستخرجه، يحتاج إلى نظرة خجولة تستنطقه، إلى ابتسامة مجنونة تبعثره كقصاصات ورق في مهب الريح.

كم أنا متفائل في هذا المساء الجميل، كل ما هو قبيح لن يكون في دائرة اهتماماتي، كل ما هو سيئ لن يكون في دائرة أولوياتي، كل ما هو مؤلم لن يكون في دائرة أحاسيسي. للذكريات الجميلة ألقها وروعتها، وللعيون النرجسية ما يقول المساء.

قال الشاب وهو يحدق إلى شفتيها كأنه يستحضر طعم القُبلة الأولى:

لقد كنت في سباق مع الشمس، فعندما كنت صغيرًا كنت أعشق البحر وأحب الشطآن وأسامر النجوم؛ لعل وعسى أن أراك خيالًا أو حقيقة، صورةً أو مجازًا، رسالةً أو جوابًا.

قالت له: والآن؟!

تنهّد تنهيدة لو وقعت على جبل لتصدع.

قالت: والآن؟!

نظر إليها نظرة لو كانت في بحر لجي لسكن.

- والآن؟!

قال ويداه تحطان على أطراف أصابعها:

الآن، وشهق شهقة ظننت معها أنه فارق الحياة.

الآن وتلفت يمنة ويسرة، ثم نظر إلى نجفة مكعبة الأركان كان ضوؤها خافتًا، وتقاسيمها بديعة.

قال: الآن.

قالت وعيناها تتطايران شررًا:

- الآن.

قال: الآن أنا عشقان من أول الكأس إلى آخر المنحنى في الصراط!

فسقطت مضرجة بالحب، وسقطت أنا بين فنجان القهوة وسحابة مهاجرة باتجاه مدن الضباب، متى تلتقي الروح بالروح؟

الحلم وبساط الريح وكذبتها الأخيرة ثلاثي قاتل. ترى، أيكون حبهما مثل الماء والأوكسجين؟! من الآن وصاعدًا سأكون موجودًا كل يوم، مع الأصيل ومع الغروب، سوف أحمل مرآتي وأوجهها باتجاه الشمس؛ كي تعكس إلى العالم الآخر قصيدتي الوحيدة المكتوب عليها: (أحبك)، بكل اللغات.

صمتا لبرهة كأنهما يتحسسان شيئًا مشتركًا بينهما، كأنهما يتعرفان على بعضهما عن طريق اللمس، المشاعر، الحنين، كريات الدم الحمراء والبيضاء، كانت خجولة، وكان المكان يشعر بخجلها. كانت عاجزة أن تقول له:

أحبك.

وكان جريئًا كأنّه قد قالها لامرأة قبلها ، كانت تغمض عينيها وتزم شفتيها وتسري في جسدها رعشة وفي الكون هزة ، وهكذا كلما أرادت أن تقول له:

أحبك.

أكاد أن أغرق في شجوني، فيزياء الحب عربية.

كان المكان يقرأ في عينيها ما هو أبعد من الحب، وفي شفتيه ما هو أقرب من العشق.

قالت له: ما أجمل أن أرى الأشياء عن قرب، الآن فقط أنا لا أحتاج إلى نظارة طبية ، فأنا أرى الأشياء كما يجب، لا أحتاج إلى دروس في الحياة ولا محاضرات في التنمية البشرية، السعداء هم من تقابلهم الورود أمام كل منعطف جديد في طريق الحياة، ونحن اليوم منهم. أعشق الرحيل حين تكون بوابته عيناك.

كان الشاب قد بدأ رحلة الكينونة والزمان، كان جالسًا جسدًا، لكنه في الحقيقة على صهوة جواد أدهم يمخر عباب أحلامه ويتجاوز التاريخ والبحار والأنهار والمحيطات والمسافات، كان يحكي غراميات الخلود والبقاء، أما هي فكانت أمام عينيه كمن يموت ليولد في كل لحظة مرتين، كانت مبهورة ومفتونة، مغرورة ومأسورة به.

قال لها : أحبك.

قالت: أريدها بالقراءات السبع!

لم يكن ثمة ما يسكب الضوء من وتر الأمنيات غير قُبلة.

الحب مثل الضوء موجود داخل كل شخص، فقط هناك من يكشفون الغطاء عنه فيضيء، وهناك من يمنعونه من الانشطار فيعتم.

الحب يأتي على هيئة هدية قَلَّ ثمنها أو كثر، على هيئة رسالة تحمل فصيلة دمك، كلاهما كان يشرب شهيق الآخر وزفيره، تنفس من وراء نخب الخاتم.

قالت له:

عندما تكون بالقرب يكون المساء قطعة شوكولاتة سويسرية.

أجابها:

إذن سيهطل المطر، وسوف تزهر الورود، وينبت الظل، ويسطع القمر، وتتوجين ملكة!

كانت تتحدث بنفس منطق فتاة القرية، وكان الوقت الذي يجري في عينيها هو نفس الوقت، إلا أن الوقت الذي كان في عيني فتاة القرية كان يجري بين القرى ومنعطفات التلال وبين الصخور وفي شراييني.

لم يكن يعرف الأرصفة ولا القطارات ولا الطائرات ولا المولات، الزواج في القرية يختلف عن زواج المدينة، الشاب في المدينة يحلم بفتاة تشاركه حياته، وتكمل معه سنين عمره، والفتاة تتمنى فارس أحلامها أن يأتي على جواد أبيض، بصفات تختلف عن

صفات البشر، لا لشيء إلا لأنها أنثى ومن حقها أن تحلم. لكن في القرية تأتي الأقدار بالنصيب، والعادات والتقاليد بالشريك، والأم والأخوات يتفقن على اختيار عروستك كأنّها هدية، ثم تمر سلسلة الاختيارات الذكية؛ هذه سمراء، وتلك جذابة، وهذه هادئة، وتلك عصبية، وهذه ندى، وتلك ندية، وهم لم يلتفتوا لرغبة الشاب ولا الصبية، وأنها قصة قد تكون أبدية. قد كان يريدها أنثى بقوة، لكن العادات والتقاليد تقف كالسيف بينهما وبين رغباتهما.

لا الرجل يختار من يريد، ولا المرأة ترفض من لا تريد، الرجل بين سندان أمه، والمرأة تحت مطرقة الأعراف والتقاليد، حياة مبنية على القدر والنصيب. العجيب أنها قليلة الأخطاء.

كثيرًا ما تصيب وتستمر وتنجح عندما تكون تحت رقابة طرفي الشريكين؛ أما الشاب في المدينة فيملك كل الخيارات؛ ففتاة أحلامه قد تكون زميلته في الجامعة، في العمل، أو في الدراسة، ونحوهما.

المرأة الحقيقية هي التي تبدأ الحياة في عينيها وتنتهي في شفتيها، هي التي حينما تصل إلى عينيك تقول:

هنا استراحة العمر، سواء كانت في القرية أو المدينة أو حتى سطح القمر!

على الطاولة الأخرى، كان هناك مجموعة من الشباب، أصواتهم تضج ملء المكان، يتحدثون كأن لا سواهم، يعتقدون أنهم سيملؤون الفراغ الذي داخلهم بالقهقهات والضحك، وسيعوضون النقص الذي يسكنهم بأصواتهم العالية، يظنون أنهم سيغيرون نظرة المجتمع إليهم

بملابسهم التي ارتفع ثمنها وقَلّ رونقها. هؤلاء الشباب ضحية أخرى، في أزمان الانحطاط يكون الضحية جيلًا بأكمله، وها نحن الجيل الثاني من ضحايا الهرولة والشتات.

كلما حاولت أن أنتصر للهوية العربية التي داخلي، للقومية العربية، للذات الهائمة بين الحدود وعلى الطرقات المسدودة، أقنعتني تصرفاتهم أنني عاشق فاشل وسياسي مهزوم ورجلُ دينٍ إمّعة ومحارب جريح ومحاور أبله!

قطعت الطريق على الظنون والشكوك والحظوظ على نفسي؛ لكنها لم تقنعني؛ إذ كيف تشيخ الأحلام؟ وكيف يكون الحلم مريضًا وجريحًا وحزينًا؟ لم تقنعني؛ إذ كيف يموت الحلم؟! أعترف أنني أجسّد طائفة من الأحاسيس والمشاعر والتصرفات التي صنعتها حقبة الانحدار أو عصر الانتكاسة الروحية، حيث السقوط، حيث الانهيار غير المسبوق في منظومة القيم والدين، لقد أخفقت في الحفاظ على ما تبقى من سيادة الوطن داخلي.

عدت بنظري إلى الشاب والفتاة، كان صوتهما قد بحّ، استبد بي الشوق، سكنتني هواجس العودة، أكبر من المأساة وأوسع من الحزن: التفاؤل.

توزعت مشاعري بين مسافر ومقيم، مشتاق ومكروب، غالب ومغلوب.

حين تدفع الرياح سفينتك إلى حيث الصخور الثلجية، فلن تسأل:

كم الساعة الآن؟

فقط اكتفِ بقُبلة لفنجان القهوة إن تسنى لك ذلك في المساء اليتيم.

سكن الليل، فاضت بي شجوني، متفائل رغم الألم، منتصر رغم الهزيمة، عاشق رغم الجفاء؛ إنها الرغبة في البقاء خارج أسوار الحقيقة.

أخذت هاتفي، وفتحت (الفيس بوك)، كانت الرسائل كثيرة، ولكن أهمها كان من سيدة جميلة تعرفت عليها مصادفة عن طريق قصيدة نشرتها في صفحتي لامرأة كدت أن أحبها، لكنها تجربة فشلت قبل أن تبدأ، وتركت في عتبة العمر جرحًا طريًّا كلما لمسته الرياح دندن الموال داخلي وتساقط الشعر جمرًا، التجارب المريرة لا نستطيع قياس حجمها ولا طولها ولا عمقها.

كانت هذه السيدة عبارة عن مجموعة من اللغات والمدن والحكم والأمثال والأمواج والمواسم والمطر والسنابل تمشي على الأرض، ذكية ومتمردة ولكنها - أحيانًا - عبارة عن قطعة سكر سرعان ما تذوب في فنجان العشق، عشقت الحرف فعشقتها النجوم والكواكب والشمس والقمر، تكتب وكأنها في صراع مع الموج وفي تماهٍ مع المساء وفي اتحاد مع النبيذ المعتق، كانت رسائلها أنيقة، وكنت أتحاشى الرد عليها، لا لشيء إلا لأنها وصلت متأخرة.

كانت رسائلها عميقة، وأنفاسها مستعرة. كان هزلها جدًّا، وابتسامتها ثمينة، تأتي بالشيء وضده في آن، لديها سبع لغات وسبع قراءات وسبع سبعات، لا تؤمن بالترتيب التفاضلي لتطورات الحياة، كانت لا تثق بساعتها، ولكنها تفتح نافذتها كل يوم، وتنظر إلى السماء لتستأذن الله فيما تقوم به، كانت وجهًا من وجوه الحب.

جاءت رسالتها:

(مساء الفل،

كيف حال شاعرنا العظيم؟

الطقس حار وأنا باردة، ربما أكون مريضة، وربما أكون مسحورة، وربما أكون مجنونة

سيدي،

عندما يفيض الحب بالآخرين تتوسع جراحاتنا، وتكبر آلامنا، وتتداح دائرة أحزاننا.

عندما تتساقط السعادة من شفاه الآخرين على هيئة قهقهات، نكرههم.

عندما تأتي الابتسامة على هيئة (لايك هنا أو إعجاب هناك)، نكون كالعهن المنفوش.

عندما تكون المودة سحابة والنبل مطرًا نكون حبًّا.

فقط افتقدت همسك، أتمنى أن تكون بخير

مودةً بحجم الكون أيها الأنيق).

كان مفعول القهوة قويًّا هذه المرة؛ فقد تشجعت وردت عليها برسالة كانت عبارة عن أسئلة من رحم الموج القادم من شواطئ عينيها:

(مساء الخيرات والمسرات والبركات،

نحن بخير، ونتمنى أن تكوني بخير وصحة وسلامة.

سيدتي،

لا شيء أحتاجه الآن سوى أن اتقاسمني الحلم والمكان والزمان، القهوة والعشاء والجدل البيزنطي، البعض حين نحبهم نخسرهم، والبعض حين نخسرهم نحبهم.

خالص تحياتي وتقديري).

أحيانًا أحس أن الأشواق تلعب معي الشطرنج، بينما الأنا العائمة بين كريات الدم الحمراء والبيضاء ربما ظلت عاجزة عن تقديم منظور شامل للهويات المتناقضة داخلي.

كيف نفرق بين المعرفة والصداقة والحب؟!

متى نتوقف على قارعة الطريق نتأمل العابرين، الأرض، كثبان الرمل، البحر، السماء، الأحبة؟! ردت:

(سيدي،

أنت في العمق منك؛ لذلك نحن نبحث عنك، نبحث عنك تعريفًا وتفسيرًا ومعنى.

سيدي، لا شيء يجعلني أطارد الحلم من نافذة إلى أخرى كالمجنونة، سوى أنت.

يا سيدي، عندما يأتي الحزن، ننسى أن هناك فرحًا، وعندما يحضر الألم ننسى أن هناك تفاؤلًا، وعندما يطرق الغياب نوافذنا

ننسى أن هناك وجهًا آخر للحياة (المستقبل)، لكن عندما تأتي أنت، تتحول الحواس الخمس إلى نافذة واحدة، وعندما تأتي رسائلك ننسى أن لنا عقلًا. ما أجمل الهذيان في حضرة رسالة مجنونة، حبي).

أجبتها:

(سيدتي،

إلى الآن لا زلت أبحث عن تعريف للحب.

تعريف للحدود، للمقاييس، للجنس، للون، للطبقة.

متى يلتقي العقل والقلب؟!

كل عاشق مجنون أم أن كل مجنون عاشق؟! هل يعترف الحب بالأولويات؟! وبالرسميات؟! وبالحسابات؟! هل له منطق؟! قانون؟! هل له ضريبة مدفوعة؟! قيمة مضافة ومتى؟ قبلًا أم بعدًا؟!

ما علاقة الحزن بالحب؟ ما علاقة الحب بالألم؟! وما علاقة القلب بالوجع؟!

خالص التقدير والامتنان).

ردّت برسالة مقتضبة، وكأنها لا تزال تستفزني:

(سيدي،

هناك أشخاص الدخول معهم في حرب عاطفية مضيعة للوقت، فإما أن تُهزَم وتلوذ بالفرار، وإما أن تؤسَر، وهما أمران أحلاهما مُرّ. خالص الود أيها الأنيق).

لا تناضل من أجل مبادئ ومصطلحات ومُثل عُليا لا ترتبط بالواقع، أيقظت رسائلها أشواقًا كانت نائمة، وحُبًّا كان غافيًا، ومشاعر كانت مهاجرة، نكأت جراحًا كادت أن تندمل، أيقظت رسائلها أحلامًا كنت أظنها لن تعود، وأمنيات كانت قد تحولت إلى وهم.

لا أتذكر متى وكيف تعلمت السباحة في شواطئ عينيها، ولا من أين بدأت؟!

من أطراف القرية أم من خطوط يديها؟!

كيف كانت تتلون الأشياء! تتلون الأسماء! تقترب المسافات! تبتعد المرايا! تخضر الفتاة القروية كلما نظرت في عينيها!

عندما تتغير مواقيت الزمان والمكان، لا تتذكر مواعيد المساء، لا تبحث عن عطورك القديمة، حبك الجديد، طفولتك الضائعة، مواعيدك الغرامية الفاشلة، هزائمك الإليكترونية.

اترك المسافات تبتعد بك قدر المستطاع، عندما يتكلم الورد يجب أن نصمت.

كانت عاملة المقهى تمشي دون انتظار لأحد، فقط تتعامل مع اللحظة كما هي، طلب يتبعه ابتسامة، أو ابتسامة يتبعها طلب، كيف أمسيت أنا والمساء هنا ورقة واحدة قد يراها البعض دولارًا والبعض قصيدة شعر، والبعض آية قرآنية، والبعض امرأة جميلة، والبعض تذكرة سفر، والبعض لعنة تطاردهم كلما جن الظلام وأسدل المساء ستائره؟!

وصلت إلى أقاصي الذاكرة، قاب قوسين أو أدنى من الألم، المسافة من فنجان القهوة إلى شفتيها مليون عقدة، الطرقات إلى قلبها مُعبّدة بكلماتي.

أحيانًا نحتاج إلى لحظة صدق، لحظة هدوء، لحظة اعتراف، لحظة نكون فيها بعيدين عن أكاذيب السياسيين وخيالات الشعراء وطموحات المراهقين وجنون العشاق وجهد المفكرين وتحايل التجار وكيد النساء وبراءة الأطفال، بعيدين عن العتمة، وأضواء السيارات. لحظة نكون فيها نحن فقط، القهوة هي الابنة البكر التي تُولد قبل القصيدة.

رنَّ هاتفي، إنه صديقي مازن أجبت:

- مرحبا.

- أنا في (باريس جاليري).

- حسنًا، دقائق وأكون عندك.

خرجت وتركت خلفي حوارات لن تنتهي ولقاءات سوف تستمر وقهوة هيريق المساء وعنبره. كان الممر مكتظًّا بالبشر، عالم آخر، أصوات ضحك، لُعب تتفاوت بين نساء ورجال وأطفال من جميع الفئات العمرية ومن جميع الجنسيات، على يميني بعض الفتيات أمام معرض للمجوهرات وأخريات أمام معرض الماكياج، أحمر شفاه بيد إحداهن، وبيد الأخرى قلم رسم العيون، وبيد الثالثة كريمات.

لفت انتباهي جميلات صغيرات كالملائكة، لا يعرفن من هذا المكان إلا حكاياتٍ وألعابًا وابتساماتٍ، وهناك طفل أمه تفاوضه على السكوت مقابل تلبية طلباته، لو كانت أمي - رحمها اللّٰه - لجلدتني، أما أبي فقد كان قاسيًا كالجبال التي انحدر منها.

هنا يفترض بك أن تبتسم لكل جميلة تمُرّ من أمام ناظريك، بين الحقيقة والخيال نقطة، بين الابتسامة والجنون فاصلة، بين اضطراب الموج ودقات قلبي حرف، بين ابتسامتك وحديث العيون كلمة.

هنا تبتسم لفخامة التنسيق وأناقة العرض.

وصلت الدور الأرضي، اتجهت صوب محلات العطور، أغلب الماركات العالمية هنا. صديقي مازن طبيب للأطفال؛ لذلك أعاني من الأطفال الذين يسكنون داخله، يحب اللعب كثيرًا، ويحب الضحك ويحب الهدايا، ويحب الشعر، ويحب الحب، مفتون بالتسوق واقتناء الأشياء غير باهظة الثمن، متواضع حد التناقض، ومغرور حد البكاء، وأنيق حد الكآبة.

كان صخب الحياة هو الجانب الآخر من شخصيته، التسكع المحمود، العالم المرح المبهرج بالأضواء والموسيقى، كل شيء جديد هو انعكاس له، لا يقرأ، بل لا يؤمن بقراءة مصفوفة النصائح التي وضعتها أمه على الرف الموجود في غرفة نومه، فقط يمضي خلف خطواته.

- العالم كان أجمل دون هاتف، تمضي، لا أحد يتعقبك أو يستعجلك.

قالها وهو يأخذ زجاجة عطر (الشانل بلو) ليرى السعر، كل شيء في السوق رائع إلا الأسعار التي يعتقد الدكتور مازن أنه مبالغ فيها، هذه الأماكن هي التي تنسيك نفض الغبار عن قلبٍ كان يسابق النجوم في سماء الحب، عن عيون كلما خبأتها في محراب قلبك هربت باتجاه البحر، عن قصيدة كلما كتبتها على جدار قوس قزح سرقتها الرياح، الذهول يبقي عينَيَّ معلقتين لدقائق على واجهات المحلات التجارية، العرض رائع، الأزياء، الإكسسوارات، الذهب، المطاعم، لا بد من وجبة خفيفة.

قال الدكتور مازن:

- ما رأيك؟ هناك من دعانا إلى العشاء وأنا أحببت أن أفاجئك بهذه الدعوة.

- موافق، ولكن نريد ما يخفف الجوع؛ حتى لا نصل فيفضحنا جوعنا!

- موافق.

وحتى تستطيع قدماي تحملي لبقية اليوم فأنا لم أتناول شيئًا منذ البارحة.

العالم يتفنن في صناعة كل شيء ونحن نتفنن في الاستهلاك والأكل.

ما أجمل أن تتسكع في السوق تاركًا كل القيود والموانع والتهديد والوعيد خلف ظهرك، الألعاب تستهويني.

- ما رأيك بعد أن نأكل ما يسدُّ رمقنا أن نذهب لنتزلج؟

قال الدكتور مازن:

نتزلج على الثلج أم على الرمال؟ فضحكت ضحكة أزعجت صديقي.

- باللّٰه ما يضحكك؟!

- التزلج على الرمل

- أول مرة تسمعها؟!

- نعم.

- التزلج على الرمل أجمل من الثلج، لكنه متعب ولم يجد اهتمامًا كبيرًا، ولكن سيكون له هواة ومحترفون في قادم الأيام. جميل، ولكن قد نكون شحنا.

- أنت ما تكبر يا دكتور مازن، ستظل طفلًا، وإن سابقتك الأيام والليالي.

- الطفولة شيء ثمين.

- لذا أنا أستمتع وأنا معكِ يا دكتور، كم أكون سعيدًا حين تأتي وبيدك آيس كريم أو شوكولاتة.

- أحيانًا أكون شيخًا كبيرًا، وأحيانًا أكون شابًّا يافعًا، لكن سرعان ما ينتهي ذلك.

الطفولة رحلة ممتدة من الروح إلى الروح، فترة التعقل والالتزام أشعر أنها مزيفة.

أشعر بأنني ولدت في حقبة ما بين الآيس كريم والشوكولاتة.

وأثناء مرورنا من أمام معرض عليه (فاترينات) تعرض، من خلال مجسمات، جديد القمصان والبنطلونات والنظارات والأحذية، قال:

- ما رأيك بموضة هذا العام يا صاحبي؟!

- إنني لا أتابع الموضة لكنني أجيد اختيار ملابسي بأناقة منقطعة النظير، الذوق العام في طريقه إلى الزوال، إن لم يكن في بعض البلدان قد انتهى.

- ما رأيك أن تختار لي البنطلون والتيشيرت وأنا أختار لك بالمثل ونرى؟!

وافقت من باب أنّ علينا أن نعطي الآخر فرصة حتى يقف في الزاوية المقابلة لنا.

موضة هذا العام نظارة بإطار أبيض وحزام أبيض وحذاء أبيض، أعجبتني جدًّا، تبدو أنيقة هذه الموضة.

السوق وجدت لإغراء البشر، ونحن من الذين تضيق صدورهم إذا لم تتسوق، وتضيق أكثر إذا لم نجد من يقنعنا بالشراء.

أنهينا تسوقنا الذي لا ينتهي، ذهبنا إلى صالة التزلج، دخل الدكتور، تزلج، تابعته، كان طفلًا جميلًا في نهاية العقد الثالث من عمره.

توجهنا صوب البوابة الرئيسية للخروج، وهناك كان الجميع يقفون طابورًا واحدًا لاستقلال التاكسي، كان منظرًا يدمي القلب، الألم الذي سببه أنت اجعله جسر عبور إلى سيارة الأجرة.

جاء دورنا استقللنا سيارة الأجرة، سألنا السائق:

إلى أين؟ نظرت إلى صديقي.

قال: نذهب إلى الفندق لنضع مشترياتنا ومن ثم نتهيأ للعشاء.

إذا أردت أن تصنع تحولات جذرية في حياتك، فلا تتبع خطوات الناجحين، اكتشف نقاطًا محورية جديدة في الحياة، نقِّب عن طرق القوافل والبخور التي داخلك، ابنِ جسورك أنت، وأبراجك أنت، واصنع سفينتك أنت بنفسك.

كان سائق التاكسي أنيقًا، في العقد الرابع من عمره، يميل أسلوبه إلى أساليب النصابين المحترفين؛ فمرّة يهرج ومرّة يبتسم ببلاهة ومرّة يبدو كسياسي يحتاج إلى صوتك، يتحدث كأنّه يحلم بأن تتحول هذه الأبراج وناطحات السحاب إلى سبائك ذهب، أحيانًا تحولك الرغبات إلى كائن هزيل.

وصلنا إلى الفندق، كان مزاجي متقلبًا، وإن كان ظاهر الدكتور مازن يعد بليلة استثنائية.

«أخذت دشًّا»، صليت المغرب والعشاء، الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، ربما تأخرنا. لبست، نزلت إلى البهو، كان الدكتور قد سبقني مع أنني استعجلت سفر طويل من مدن الذكريات إلى صحاري الحلم، ومن مواسم المطر إلى بقايا العطر، ومن شواطئ عينيها إلى أقاصي مرايا مهشمة، ومن تجليات المعنى إلى أطراف الحقيقة. انتعاش، طاقة متجددة. كان بهو الفندق مستطيلًا، وبه

جلسات على اليمين واليسار والوسط، وبه ممران لبابين يعملان أوتوماتيكيًّا، كان أشبه بطائرة جاثمة على الأرض.

جلست مقابل الدكتور مازن، قال إن هناك عاصفة رملية ستفسد الرحلة.

قلت له: لقد اعتدنا عليها ربما هي الموسم الخامس.

قال: ماذا تعرف عن العواصف الرملية؟

قلت: ما أعرفه أن العاصفة مخلوق مثلنا، لها قلب ولها إحساس ولها مشاعر، لكنها ليست من لحم ودم.

- هذا عندكم معشر الأدباء، عندنا هي عبارة عن رياح عاصفة محملة بذرات ترابية وغبار، ومنقولة من قشرة الأرض السطحية المفككة، وتعتبر العواصف الرملية من الكوارث الطبيعية التي تخلف الكثير من الحوادث والتلفيات على مستويات النشاط البشري كافة.

- معنى ذلك أنها تحدث في المناطق الصحراوية مثل جزيرتنا العربية؟

- لقد أصبحت ظاهرة مترولوجية شائعة، تحدث في كثير من بقاع العالم الصحراوية، بل ورصدت عواصف ترابية عظيمة جدًّا فوق كوكب المريخ بصورة أعظم بكثير من العواصف الأرضية.

- هل هناك سبب معين أو عوامل مساعدة؟

- تحدث عند توفر شرطين:

أحدهما تربة جافة ومفككة عارية من الغطاء النباتي، والشرط الثاني سرعة الرياح.

الموضوع واسع، وكل يوم يسعى العلم لمعرفة المزيد.

قلت: يا دكتور، للكون سنن، وللكون خريطة طريق، وللكون نظام، وللكون نواميس، الرياح ركن أساسي في هذا الكون؛ فهي المسؤولة عن اللقاح بين كل المخلوقات، وهذا أمر مذكور في القرآن الكريم، وهو تلقيح النخل والأشجار والزهور والبحار والأنهار والسحاب والإنسان والحيوان وغيره.

ثم هل تعلم أن للغبار فوائد وأن الغبار يعمل بما يشبه فرمتة للغلاف الجوي؛ فهو يقضي على الحشرات الضارة بالإنسان والنبات.

قال: أنت لا تشعر بالمعاناة التي نعاني منها، المستشفيات تتكدس بالمراجعين الذين يتأثرون سلبًا بالغبار، وخاصة الذين يعانون من أمراض الحساسية والربو وأمراض الصدر وغيرها.

قلت: لولا أنها تقلل من الغازات السامة، خصوصًا في المدن الصناعية، لكان الأمر كارثيًّا، أما إذا نزل المطر فإن التراب يتحول إلى سماد.

الأهم، والذي لم يتطرق إليه العلم ولم يسبقني إليه أحد، هو أن الرياح متناغمة مع الأبراج، وهي تنقسم إلى عدة أقسام متساوية، ومتناغمة مع الأبراج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. كذلك هناك الرياح الشمسية والأرضية والزهرية والمريخية

والبحرية، الرياح والأتربة والحرارة والجاذبية، المواسم، الليل النهار، تعمل وفق نظام واحد، حيث تقوم بنقل مواد كالحديد والفسفور والسيليكون والمنجنيز والنحاس والزنك، وغيرها من الفلزات والنيوترونات من كواكب المريخ والزهرة وزحل والشمس والقمر وبقية الكواكب، حيث إن العلاقة بين كواكب المجموعة الشمسية علاقة كهرومغناطيسية، الرياح والضوء هما اللاعبان الأساسيان في مضمار التكنولوجيا في المئة سنة القادمة، وهما العامل المشترك الوحيد بين الكواكب والنجوم والمخلوقات.

وقبل أن نقوم من مقامنا، قال:

إن زميلة له من أيام البكالوريوس أتت مصادفة إلى دبي، وأخبرني أنها من دعتنا إلى العشاء.

قلت: ستنكأ الذكرياتُ الذكرياتِ يا دكتور، أنا أنتظر هنا.

قال: إنها هي وأختها الصغيرة، وقد أعدت العشاء بيدها.

تجاوزنا باب الفندق، على اليمين باب أنيق تكتسي الجدران المحيطة به بخشب السنديان الفاخر، تقف أمامه امرأة متوسطة القامة، متوسطة العمر، متوسطة الجمال، ترتدي تنورة سوداء قصيرة بالكاد تصل إلى فوق الركبة، وبلوزة حمراء في فمها علكة كبيرة، وبيدها هاتفها النقال، وبجوارها شخص أسود كأنه مجموعة أشخاص!

من أين يأتون بهذه القامات؟!

قال صديقي: إن هذا مرقص، وإن العادة جرت أن يأتوا بمثل هؤلاء لحفظ الأمن، خصوصًا مع الذين يسرفون في الشرب، وعليهم واجب تجاه الناس الموجودين هنا لحفظ ممتلكاتهم وإيصالهم إلى أماكن إقامتهم.

قلت له: هنا في فندقنا يوجد مرقص؟! وأنا أقول الليلة الماضية ما قدرت أنام، كنت أسمع أصوات الأغاني تهز الغرفة، فاتهمت جاري في الغرفة.

قلت: ربما أنه فاتح صوت التليفزيون على الآخر. ضحك الدكتور مازن.

وقال: يوجد ثلاثة مراقص، هذا الذي تتحدث عنه عربي، وعلى اليسار لاتيني، وآخر الهول مرقص وبار روسي.

قلت ملاطفًا: اللّه المستعان يا دكتور، أنت تتمرقص من ورايا؟!

كاد أن يموت من الضحك، ركبنا سيارتنا، كانت سيارة لكزس حديثة، وكان سائقها على دراية بمداخل المدينة ومخارجها؛ ما جعله دليلنا السياحي لرحلة أقلّ ما يقال عنها: إنها من القلب إلى القلب.

كنا نتموج داخل السيارة، وكان وجه صديقي كلما استرقت أنوار الشارع قبسًا من وجهه الجميل، شعرت أنه يخفي عنّي أمرًا ما، كيف قادت المصادفة أوزبكية إلى هنا؟! «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». مخرت السيارة عباب الطريق باتجاه الفندق الذي تقيم فيه الأوزبكيتان.

قال الدكتور مازن: إنه معجب بالخطوات التي قطعتها دبي.

قلت له: إنها مدينة تعيش بواقعية مطلقة، لا يديرها ساسة، بل شركاء.

كان حديثه معجونًا بابتسامة ساحرة، وكأنه لمح في المسافة الفاصلة بيننا سؤالًا منطقيًّا:

إلى أين نحن ذاهبان؟!

في حضرة الحب، يمرُّ الوطن المكلوم كنسمة هواء عليلة، هناك علاقة مطردة، علاقة ما بين لحظة حب صادقة والحنين لوطن تركناه نهبًا للفوضى، نهبًا لنزاعات الدين والقبيلة.

أحيانًا ننظر إلى المدن بعيني من نحب، تبدو جميلة لذلك، فالذين يعيشون حالة فراق وشقاق ونفاق يهدمون المعبد وهم تحت آخر عمود.

كان الشارع يمشي بانسيابية عجيبة، بين كل كاميرا وكاميرا، كاميرا. الناس لم يعد يردعهم دين أو أخلاق أو ضمير أو تربية، فقط يخافون من الكاميرات.

وصلنا إلى أمام الفندق، كان فندقًا مكونًا من برجين متلاصقين يفصلهما ممرّ، كان صديقي مازن يرتدي قميصًا أبيض اللون، لكنه خفيف لا يستر ما وراءه، وبنطلون جينز أزرق داكنًا مع «بوتي» أسود.

أما أنا فكنت أرتدي بنطلون جينز بني اللون إلى غامق، مع تيشيرت لونه أبيض على تقليمة بنية، وجزمة إيطالية سوداء رسمية. لا زلت أعتقد بأنه لا يتناسب أن تلبس «البوت» في مناسبات رسمية، خصوصًا وأنت في حضرة النساء.

دخلنا (اللّفت) كان مازن ينظر في المرآة، ويصلح شعره بأطراف أصابعه، مع أنه في الأصل مقصوص بطريقة جميلة. الدور السابع، توقف اللفت، خرجنا، أصلح مازن ياقته.

دق الجرس، فتحت الباب امرأةكانت في نهاية العقد الثاني، ترتدي عباءة ملونة، تسريحة شعرها عادية، ابتسمت.

قالت: تفضلوا.

قال الدكتور مازن: thank you

قلت: شكرًا.

كانت تتحدث العربية بطلاقة، ما أجمل اللغة العربية من أفواه المستشرقات، اللغة العربية ليست مجرد أداة للتواصل بيننا فحسب، بل هي لغة تحمل إرثًا ثقافيًا وفكريًا ودينيًا، مجموعة من القيم والمشاعر والموسيقى، ساهمت في تطور الحضارات ونقل المعرفة.

كنت أقلد الدكتور مازن، يبتسم فأبتسم، يقول: مرحبًا، فأقول: ياهلا. قال: «ثانكيو»، قلت: شكرًا.

دلفنا إلى الشقة، كانت عبارة عن غرفتين وصالة واسعة، كانت الدكتورة صاحبة صاحبي مشغولة بتجهيز الطعام وتقديمه، استقبلتنا بفرح ورزانة ممزوجة برائحة عطر نسائي نفاذ.

تعانقا بعينيهما، كانت الأخت الصغرى أقلّ وزنًا وأكثر جاذبية، بينما الدكتورة كأنه قد كان غلب عليها طابع الحزن والألم الذي ينتقل للأطباء عادة من مرضاهم، إلا أنها فاتنة.

كانت ترتدي تنورة إلى منتصف الساقين، بنية بها خطوط، وبلوزة أشبه بمعطف يكاد نهداها الممتلئان بالطب والدواء والهواء أن يرحبا بنا لولا شال الحرير الذي يغطيهما.

كان توقيت وصولنا دقيقًا؛ لذلك اتجهت بنا مسؤولة مراسم الاستقبال عبرالسجادة الحمراء إلى طاولة الطعام، جلسنا إلى السفرة، لم تكن متواضعة؛ فقد كانت معمولة بطريقة متكلفة جدًّا، فيها أشياء غريبة، اندهشت، لقد اعتدنا على إكرام الضيف، وكان اعتقادي أنها صفة خاصة بنا نحن أبناء الجزيرة العربية.

كنت أظن أننا منذ ما قبل التاريخ وما قبل الأنبياء وما قبل الإسلام نتصف بالكرم، مرورًا بقصة سيدنا إبراهيم كما في القرآن، وبغيرها من قصص الكرم العربي، ومن كمال هذه الخصلة أن الله - جلّ جلاله - خصّ بها نفسه، فهو الكريم سبحانه، وقد مثل الكرم الجزء المشرق في حياة العربي النبيل ورمز التفاخر بين القبائل، وجاء الإسلام وثمّن هذه الخصلة وأعطاها حقها، كما وردت بذلك الأحاديث؛ ولكن فوجئت بأن الكرم سمة محمودة لدى كثير من الأمم.

الكرم جزء أصيل من ثقافتنا ومن ثقافتهم، إذن وهو أصل المحاسن كلها، وقد ارتبط بالشجاعة، وكانت العرب تقول: من جاد ساد ومن بخل رذل، وقيل:

كل قبيح يغطيه السخاء، ويبدو لي أن مثل هذه العبارات تقال عندهم.

كنت أشرد بذهني، أذهب بالعيون بعيدًا حتى لا تفضحني، النظر فضاح!

حانت منّي نظرة نحو السفرة التي يتوسطها طبق كبير من «الأرز»، مزيّن بأوراق الخس والليمون والخيار والطماطم، وزعت بشكل فني فوق لحم مطبوخ وموزع بأسلوب رائع، وقد أشارت لي الدكتورة أن أتفضل لنبدأ الأكل، كأنني الضيف الوحيد.

بسملت، وبدأت بالمقبلات والشوربة والسلطات، كل شيء مختلف، ربما أكون أنا في حالة غيرت المذاق، والحواس اتجهت إلى الطبق الرئيسي الذي يبدو أنه لذيذ، وهو اللحم بالأرز بالسلطات، ورغم مظهر الأكل الجميل والذي يفتح الشهية إلا أنني لا أدري لِمَ لمْ أستسغه، ولكني على كل حال يجب أن أجامل وآكل، كان عليَّ أن أتكلم كثيرًا؛ حتى لا يشعروا بأنني لا أريد الأكل.

وبينما أنا أشرح لهم عن أكلاتنا الشعبية الرئيسية: بنت الصحن، العصيد، المندي، الفحسة، السلتة، الشفوت، اللحوح، المعصوب، الفتوت، وجدت أنه من الأفضل أن أدخل في التفاصيل؛ لأن الوقت ينفد بسرعة، وبدأت أشرح لهم كيف أن الخبز يعمل في

البيوت وأن كل بيت به تنور، وأن الخبز له مذاق مختلف من بيت إلى آخر، والفحسة والعصيد وسلتة صنعاء تختلف عن سلتة إب، وأيضًا الجبن البلدي مع العسل الذي يعقب سفرة الطعام، وأنه أيضًا ليس شفوت إب كشفوت تعز التي اشتهرت بأجود أنواع الحلوى، ولحوح المحويت يختلف عن لحوح عدن التي اشتهرت بالصيادية والصانونة، وهي لها نكهة خاصة فريدة عن باقي مدن العالم، ولحضر موت الساحرة بصحرائها وبحرها طقوسها وعالمها في الأكل، حيث عرف الحضارم باللخم وهومن المأكولات البحريةالمفضلة لديهم، وأيضًا لديهم القهوة الهوشلية.

قاطعني الدكتور مازن، وطلب منّي أن آكل؛ لأنه يعلم أن بطوننا خاوية على عروشها، أو ربما أنه شعر بالحرج، كان اللحم بالأرز هو الوجبة الوحيدة التي أعرفها، الملاذ الأخير لإنسان يتلاطم بين أمواج الغربة والجمال والنكهات والأغذية، أكلت كان لذيذًا.

قلت بيني وبين نفسي: توقف عن الحديث يا فتى، واضرب هنا، بدأت بتوجيه الحواس الخمس، الأصابع العشرة، صدري، قلبي، معدتي، كلنا اتجهنا صوب الأرز باللحم، أما باقي السلطات والمقبلات والشوربة وكل ما له طعم مختلف فقد تركناه جانبًا.

قالت الدكتورة وهي تبتسم بعد أن رأتني أبدع: أعجبك الأرز؟!

قلت: جدًّا.

كم كانت سعيدة، وشعرت أنها استحسنت إعجابي بطبخها.

قالت بلغة أرقى: واللحم كيف؟!

قلت: أيضًا لذيذ.

قالت: أشكرك. وهو فعلًا كان لذيذًا.

قالت: لقد أحضرته بشكل مخصوص من (طشقند) لأجل الدكتور مازن؛ لأنه يحب لحم الحصان.

قلت: هذا لحم حصان؟!

قالت: نعم، وعيناها بعيني الدكتور مازن وقد امتلأت نشوة وفخرًا وشكًّا، وامتلأتُ أنا ندمًا وحسرة.

نظرتُ إلى الدكتور مازن وأنا أريد أن أتقيأ، ولكن على ملابسه!

تمالكتُ نفسي ثم عدتُ إلى صحن السلطة، طعمه ولا لحم الحصان!

أشعر أن نفسي في حالة هيجان، خفت من أن أرد لحم الحصان إلى السفرة، اللهم الطف. شربتُ رشفة طويلة من عصير البرتقال الطازج، نظرت إلى عيني الأوزبكية الصغيرة، الحمد لله، أشعر باستقرار الحال. بحثتُ عن ابتسامة لم أجد، تغير وجه الدكتورة، شكرتها على الأكل اللذيذ، شعرت أنني لست على ما يرام.

عليَّ أن أقوم، كان يجب عليّ عدم إزعاجهما بـ«أعجبني ما أعجبني»، لا أريد أن أكون (جنتل مان) من الخارج، بل من الداخل، ولا أريد أن أكون أكثر لطفًا مع النساء؛ كي لا أكون انتهازيًّا يبحث عن فرصة للتعارف، ولكن في الحقيقة أن سفرة العشاء كانت مهيبة، فقد كانت مزيجًا من الفخامة

والأناقة والاشتهاء، أوانٍ بلاستيكية صُفّت بأناقة مع المناديل البيضاء والسكاكين والأشواك، كيف بها لو كانت فاخرة؟!

فن الإتيكيت يجب أن ينبع من الداخل، كل شيء موضوع بعناية واهتمام، أن تكون في حضرة هذا العشاء فأنت محظوظ، وأن تكون السفرة أوزبكية فهو شرف كبير، وأن تكون طبيبة أطفال وفيلسوفة صغيرة هما من أعدتا هذا الطعام فذاك حدث استثنائي.

العالم يبدو متناغمًا من خلال هذه السفرة؛ فهناك أكل شرقي وغربي. الأوزبكيون يتمتعون بالجمال الرباني، وكذلك طريقة حياتهم رائعة، إنهم مزيج ثقافي من الشرق والغرب، خليط من الفن والذوق والجمال.

أما نحن فقد صرنا وصيرتنا القبيلة أسرابًا من العثرات والحسرات، نندب حلمًا تسرب من بين الأصابع، وغيمات أمطرت خرابًا وجدبًا.

في كل مرة تجد نفسك في المسافة الفاصلة بين السهو والظلال، أعلى من الشوق، وأدنى من الجرح. تحت الأجداث أنّات وعلى أديم الأرض ما يستحق البكاء.

كما لو كان بيتنا القديم، تشدني إليه ذكريات طفولة متأخرة، ذهبت أتفقد المكان، صالة بها كنبتان سعة ثلاثة أشخاص، وكنبتان سعة شخص واحد، وطاولة وتلفزيون لم يعد وجوده مهمًّا في ظل الإنترنت، وفي كل مرة أنظر إلى الأوزبكيتين وصديقي مازن وهم يحدقون إليّ، كأنهم ينتظرون ردة فعل من شخص مجنون، أتفحص المكان وهم يحدقون إليّ.

اتجهت إلى الشرفة، على يميني لوحة فنية وعلى يساري أخرى مكتوب عليها آية الكرسي، عالم من الدهشة والجمال، الخط العربي.

قالت إلينا: هذه اللوحة استوقفتني أول ما وصلت إلى هنا، وقد كنت أنوي تحضير ماجستير في الخط العربي، إلا أن الجامعات التي أدرس بها لا تولي اهتمامًا له.

- ما الذي دفعك لذلك؟! سألتها.

- فن التصميم والكتابة يختلفان عن جميع اللغات.

- نعم، تتميز الكتابة العربية بكونها متصلة، مما يجعلها قابلة لاكتساب أشكال هندسية مختلفة من خلال المد والرجع والاستدارة والتزوية والتشابك والتداخل والتركيب.

- لقد كان فنًّا رافق الفن التشكيلي في الغرب.

- صحيح، اقترن فن الخط بالزخرفة العربية؛ حيث استعمل لتزيين المساجد والقصور، كما استعمل في تحلية المخطوطات والكتب وخاصة نسخ القرآن الكريم.

شهد هذا المجال إقبالًا من الفنانين المسلمين بسبب نهي الشريعة الإسلامية عن تصوير البشر والحيوان، خاصة فيما يتصل بالأماكن المقدسة والمصاحف. هل تعلمين أن هذا الخط تطور عن خط المسند؟

قالت: نعم وهذا رأي تبناه مؤرخو العرب، لكن المؤرخين الأوروبيين يقولون إن الخط العربي مشتق من حلقة الخط الآرامي.

كلها أتت من منبع واحد ، الآرامية والفينيقية والهيروغليفية.

كانت الشرفة مجهزة ومهيأة لشخصين فقط، كنبتان من الخشب الفاخر وطاولة زجاجية أنيقة وشيشة وجمر ينتظر من يشعله!

جلستُ، أشعلتُ سيجارة كألف سيجارة في القرية ، ثمة صخب، اشتعال مطر ، وهم ، حزن يتبخر من شوارع المدينة ، وسعادة تتساقط من السماء.

حتى نحن كان لدينا وطن، وكانت لنا أحلام وإن كانت ناقصة ، وكانت لنا حياة جميلة وإن خالطها بؤس أو ألم، وكانت لنا سماء يتساقط منها المطر والحب والذكريات، كنا نمنّي النفس بالهجرة صوب المجهول، علَّنا نعود بما ينقع الغلة ويروي الظمأ ، لكننا لم نعد.

تاهت بنا الدروب، كان لدينا وطن، وكان لدينا بساتين، وكان لدينا عنب، كنا كل عام نكبر وأحلامنا تصغر ، عكس بقية الأمم كنا نغرّب عامًا ونشرّق عامًا ، كنا نذهب مع المد ولا نعود مع الجزر ، وكنا نذهب مع القمر ولا نعود مع زحل.

كنا نحلم أن تنتهي ظاهرة الثأر ، فانتشرت ظاهرة القتل. كنا نحلم أن تعمل السيارات بالطاقة فأطفأوا الكهرباء ، كنا نتمنى أن يتوحد اللباس الرسمي فقسموا البلد إلى أقاليم، كنا نبحث عن عدل اجتماعي، وعن عدالة اجتماعية ، فتساوى الجميع في الهاوية. كان لدينا وطن، وكان لدينا يمن، وكان لدينا ثمن، الآن غرّبنا ولم نشرّق، وذهبنا ولم نعد.

أقبلت الأوزبكية الصغيرة بعد أن أنهت عشاءها ، سألتني بأدب جمّ:

ماذا تشرب؟

قلت: كوب شاي إن وجد.

الأماكن الجميلة تسرقك، تحولك إلى قطعة متحركة، تجعل منك شخصًا أبله، لا مشاعر تستقي منها زادًا ، ولا وجدان يختلج فيمنحك الضوء، ولا ذكريات متوقدة كلما اصطليت منها تجدد توهجك، أريد البوح ولكنّ عينيها سرقتا خارطة الكلمات.

عندما تنتابني الدهشة، أقف أمام الأشياء الجميلة أتوكأ على بقايا المساء، بقايا النبيذ، بقايا القصيدة، بقايا النغم.

بين الصوت والصدى امرأة واحدة فقط في هذا الكون.

هل هناك ملكات وهناك وصيفات وهناك جوارٍ، أم أنهن امرأة واحدة؟!

الأناقة لها مصدر واحد فقط: المرأة حملتني تسعة أشهر، وحملتها العمر كله. التقينا في أجمل مدن العالم، أضحكتني صغيرًا وأسعدتني كبيرًا ، افتقدت حضنها ، حزمها ، ابتسامتها ، خوفها ، تعليقاتها الخاطفة.

تمنيت أن نلعب معًا في شواطئ الجميرا وأن نضع مخيمًا في صحراء النفود ، وأن نقيم بعضًا من العمر في منافي الصمت على نهر الدانوب ، كانت أمي تحفظ الكثير من الشعر والحكم والأمثال، كانت مجالستها لا تُملّ، كانت جلستها مميزة، وقهوتها مميزة، وقراءتها

للأشياء عميقة. كانت تقنعني أنني يجب أن أكون عاليًا في السماء كالقمر، وفي الأرض كالجبال، وفي البحر كالأمواج العاتية.

عادت الأوزبكية الأنيقة وقد أعدّت أربعة أكواب شاي، تركت اثنين على طاولة الطعام، وأحضرت اثنين.

قالت: تقول أختي إن الأكل لم يعجبك.

قلت: بالعكس، ولكن ربما كان غريبًا أو بالأصح جديدًا عليَّ، خصوصا لحم الحصان.

استنفدت كل الأسلحة ولم يتبق سوى الصمت، مدت نظرها، قسمته نصفين بيني وبين المدى، كأنها تريد أن تقول: للمساء معنى آخر، فقط بوجودك.

وضعت كوب الشاي الزجاجي أمامي، وقالت:

تأذن لي في الجلوس؟

قلت وأنا أنظر إلى أثر أصابعها على الكأس:

بل يسعدني ذلك، ولكن بشرط، ألّا تكوني مطرًا فنغرق، ولا شهبًا فنحرق، كوني عوانًا بين ذلك!

ابتسمت ابتسامة الظمآن لشربة الماء، جلست، وضعت يدها على أقاصي مهجتي، سكبت بعضًا من الحنين الذي فاض بها على نوافذ قلبي المشرعة على مدن الحزن.

عندما يكون المساء برائحة الذكريات نكون أنا وقلبي مثل سمن على عسل، لأول مرة في حياتي أقابل امرأة وجهًا لوجه، وعلى

إطلالة السماء والبحر والبرج والأشواق والفطرة السليمة، المرايا المقعرة التي تملأ الأفق.

هل صحيح أن القلب لا يتسع سوى لامرأة واحدة فقط؟!

كان لها عينان واسعتان لونهما أخضر، وعنق طويل متناسق مع جسمها، وأصابع كأنهن الياقوت والمرجان، كانت ابتسامتها تضيء المدينة، وأنا أبدو في هذه اللحظة كطفل مدلل، وأسعى أن أتقاسم الحب والطفولة والدخان والوقت والمدينة والعمر والدهشة، ولكن مع من؟! مع من نتقاسم الجراح والحزن؟!

أحيانًا تكون الجرأة هي الوردة الوحيدة التي تملكها لحظة سقوط الحب من السماء دون موعد.

قالت: بما أنك في ضيافتنا فسأفتتح الحديث وأعرفك بنفسي اسمي (إلينا اسكولوف).

- تشرفنا، أهلًا وسهلًا.

(إلينا) اسم جميل ومعروف، لكن (اسكولوف) هل هو الاسم الثاني أم اسم العائلة؟

- اسم العائلة، وهو مشتق من الطيور، وترجمته للعربية الصقر.

- هل لا تزالون تحتفظون بأسماء العوائل؟

- نعم، وهناك عوائل أخرى مشتقة مما ذكرت، مثل: غولوبيف (الحمامة)، فوروبيوف (العصفور)، أورلوف (النسر)، ساروكين (العقعق)، جورافلوف (الغرنوق)، بيتوخوف (الديك)، درازدوف (الشحرور).

- هذا ينطبق على بلاد ما وراء النهرين أم يمتد إلى مناطق أخرى؟

- في روسيا ظهرت أسماء العائلة متأخرة نسبيًّا لدى شرائح المجتمع العليا في القرن السادس عشر، أما لدى الفلاحين ففي نهاية القرن التاسع عشر، عقب إلغاء نظام القِنانة، وكانت أسماء العائلات الروسية التقليدية تنتهي بأحرف «أوف»، «يِف»، أو «إِين»، أي منذ البداية كانت عبارة إيفان بيتروف على سبيل المثال، تعني إيفان بن بيوتر، أما في الأجيال اللاحقة فأصبح اسم العائلة يمثل النسب العام، وللإشارة إلى الأب بدأ استخدامُ الاسم الثلاثي.

- عظيم.

ابتسمت وواصلت حديثها، خريجة فلسفة من جامعة سنغافورة الوطنية، ولدي أيضًا منها ماجستير في الترجمة، وماجستير في الفلسفة من جامعة أوزبكستان، وقريبًا سأناقش الدكتوراه في الفلسفة عند العرب في الجامعة الأمريكية في الشارقة.

واستطردت: وأنت هل تستطيع أن تضع تعريفًا لنفسك كعنوان كتاب؟

كيف أعرف بنفسي أمام قامة علمية؟! لم أملك سوى الصمت، والصمت الحزين فقطفي لحظات كهذه، يضيق الأفق، وتصبح الأرض بما رحبت أصغر من راحة اليد، يغيب الشعر، تغيب الكلمة، تغيب الأنامل التي تمسك برواية (مئة عام من العزلة).

كيف أكون أنا في راهن غيَّب كل شيء؟!

قبل أن تقول من أنت، حاول أن تجمع أحلامك المتناثرة على هيئة قصاصات شعر، قَبِّلها واحدة واحدة، اجعل كل واحدة منهن في قطار يأتينها سعيًا، لا تمدنّ يدك إلى عينين شاردتين، ولا تتسول الحب أو الموسيقى أو السعادة، أو قلب امرأة مصلوب على جسر معلق من الذكريات.

هل أقول لها: إنني كنت محظوظًا لأنني لم أكمل تعليمي، ولأنني لم أكتب رواية أبطالها من البشر؟!

إنهم يزفون الموتى إلى المقابر بالموسيقى، ويتركون الأحياء يتضورون جوعًا على الرصيف.

هل أقول لها: إنه لا كرامة لنبي في قومه ولا لمسلم بين المسلمين؟!

هل أقول لها: إن الفقر أصبح عيبًا وأصبح عزلة وأصبح نقصًا وأصبح ذلًّا وأصبح صارفًا للعيون الكحيلة؟!

هل أقول لها: إنني قروي رأس ماله إنسانيته الصرفة؟!

هل أقول لها: إنه لم يعد لدينا وقت للحلم، حتى اللا وعي أصبح مشغولًا بالتفاصيل الصغيرة؟ هل أقول لها: إن أجمل الأشياء لا تأتي إلينا؟! لقد ذهبت مع الرياح.

هل أقول لها: إننا نهدر الوقت والعمر والمال في البحث عن الحرية كمفهوم وليس كممارسة؟!

وأنا أغوص بداخلي وأتنقل من شجرة إلى شجرة ومن صحراء إلى صحراء ومن بحر إلى بحر، أبحث عن مسمى حقيقي لي، عن تعريف مختصر، عن بطاقة شخصية، عن شهادة ميلاد؟! وماذا لو لم أجد شيئًا وعدت من داخلي خالي الوفاض كما هو الحال في كل مرة دون أن أجد ما أستدل به عليّ؟! حتى جواز السفر الذي يحملني تارة وأحمله تارة أخرى، يبدو أن صراعًا داخليًّا قد أدى إلى محوه.

قلت لها وكلي أسى:

أنا القروي النبيل، الذي لم يقايض بمبادئه ولا بمروءته ولا بفقره، القروي القابض على الجمر دون دينه وعرضه ووطنه، توزعته عيون القروية الجميلة وطرقات الغربة ومئة عام من العزلة، وأخيرًا امرأة قادمة على أجنحة طائر الفينيق.

أنا سيمفونية تتعلق كل صباح بأجنحة الطيور المهاجرة أملًا في يوم جميل، ومع الغروب أعود إلى المساء.

أنا مدينة عشق بنتها امرأة قروية.

أنا دمعة صادقة سقطت ذات شتاء من عيني طفل يتيم.

أنا بركان من المشاعر الخرساء.

قالت: هذا أنت؟!

أما أنا، فحكاية حزينة في سماء الوقت، تفتح نوافذها كل يوم على جرح، تحلّق في فضاءات المدن والتواريخ والسيمفونيات المهاجرة إلى سنوات الغياب.

قلت ويدي تتحسس بقايا أناملها التي كانت متكئة على الكأس:

بين الجرح والجرح أجمل الذكريات.

- بقايا الأوتار لا تخلق لحنًا يا سيدي، وبقايا الذكريات لا تصنع حبًّا، وبقايا الانتصارات لا تجعل منك قيصرًا، فقط بقايا المعنى هي التي تعيد تكوينك لتكون أنت، عنوان رواية خطتها أنامل فيلسوفة أوزبكية.

قالت: كم استوطنت من القلوب؟

- قدر ما أستطيع لم أترك نبعًا إلا ورويت منه ظمئي، ولا شاطئًا إلا وكتبت فيه قصيدة، ولا مساحة إلا وغرست فيها وردة.

- وما بينهما؟!

- حب.

- وأين استقر بك المقام؟!

- حيث لا حب في محراب الحلم، أو في مدن الأحزان.

- والورود التي غرستها؟!

- سيأتي غيري ليشتمّ عبقها.

- ستذبل.

- سُنّة الحياة.

- بي من الشوق خزائن ما إن مفاتيحها لتنوء بالعصبة أولي القوة للغوص في أعماقك.

- الأشياء التي تؤلمنا هي التي نبحث عنها، وكلما استمر البحث انداحت دائرة جراحنا.

- كل شيء ينتهي بنقطة إلا أنت تنتهين بعلامة تعجب!

قالت وهي تقلب ناظريها بين الأفق الممتد باتجاه السماء وبين عينين عسليتين كأنه لم يذق طعمهما أحد حتى اللحظة:

هل درست؟! سألتني وهي تتفحص أصابعي.

ما أصعب الإجابة عن هذا السؤال ولكن على أي حال، درستُ إلى السنة الثالثة في الجامعة فقط. ولماذا لم تكمل؟!

- جرح آخر من الجراحات الخمسة التي تحمل عرشي.

شعرت بغصة تتدحرج في حلقها، بألم، بسكين تمتد من خاصرة المساء إلى خاصرتي، شعرت أنها قد أشعلت النار في الهشيم المتراكم داخلي على مدى السنوات الأربعين، وأنها قد لفحتها، فحاولت الخروج إلى رحب المشاعر.

قالت: ألمح في عينيك قصيدة فهل أنت شاعر؟! أتمنى أن تسمعني آخر ما كتبت.

تبسمت، كيف يستطيع المثقف قياس المسافة التي في داخلك؟

إنها ترمي بشرر كالقصر إلى معرفة متى آخر نص كتبته.

قلت لها: الشعر معاناة وحزن وجراح وحكايات منحوتة من القلب.

امرأة من جنون

أرى قمرًا في السماء
وسنبلة على صفحة الماء
أرى الوقت بين نهدين
من اللازورد
وكأسا في يديه نبيذ
أرى الناي يجلس منتشيًا
على حافة الوقت
أراني هناك!
كيف تمر الثواني
وكيف تقاتل خوفًا من الصحو
تقاتل وجدًا
غزالًا من الياسمين
كيف تمر الثواني
وأنت تحارب شوقًا إليها
فتبحث عن طائر أو عقاب
تبحث عن وردة أو سحاب
رسولًا إليها

من الضوء، أو الأغنيات

إنها امرأة من جنون

وأنت رسول أمين!

قالت: مذهل، مذهل، مذهل.

أن يلتقي شاعر وفيلسوفة.

قلت: لم أسمع أن امرأة اشتهرت بالفلسفة، لا يزال هذا الحقل حكرًا على الرجال، مثله مثل النبوة.

قالت وقد تجهم وجهها:

هذا الكلام غير صحيح، المرأة هي التي تدفع بالرجل إلى الفلسفة، وإلى الشعر، وإلى الإبداع، وإلى الجنون.

ماذا تعرف عن الفلسفة؟

قلت وأنا أحاول أن أصلح ما أفسدته كلماتي:

كل مجالات الحياة مبنية أو قائمة على الشراكة بين الذكر والأنثى، إلا الفلسفة لا تزال حكرًا على الرجل بالمطلق، لماذا غاب الجنس اللطيف عن هذا المجال؟ هل هناك فرق في التفكير؟ أم عجز في الرؤية الفلسفية؟ أم أن الفلسفة لا تتناسب والأنوثة؟

قالت: ماذا تعرف عن الفلسفة؟!

قلت: شذرات، وهي تمثل أسئلة أكثر منها إجابات.

- إذن، أنت لا تعرف الفلسفة.

- نعم، وإن كانت الحلوى بالنسبة لي، فبعد كل كتاب أو رواية أو ديوان شعر لا بد أن أعرج على الفلسفة لكنهم ظلموا أنفسهم.

- تقصد الفلاسفة؟!

- نعم.

- كيف؟

- ضلوا وأضلوا. ضحكت.

قالت: ما رأيك أن أعطيك نبذة مختصرة عن الفلسفة ثم نتناقش؟!

قلت: جميل.

قالت: بصوت كأنه قادم من بين وصلتي البيانو:

ظهرت الفلسفة لأول مرة في بلاد اليونان القديمة حوالي القرن السادس قبل الميلاد مع الفلاسفة الذين ينعتون بالفلاسفة الطبيعيين أمثال: طاليس - أنكسمنس - أنكسمندر، وقد سموا بذلك الاسم؛ لأن تفكيرهم انصبّ حول البحث في الطبيعة وأصل الكون.

إذن الفلسفة تعني محبة الحكمة، والبحث عن الحقيقة بشكل مستمر دون ادعاء امتلاكها. فهمت؟!

قلت: لا.

قالت: بمعنى آخر، لقد ظهرت الفلسفة عند اليونان كنتيجة لتوفر مجموعة من الشروط أو العوامل، من أهمها: العامل السياسي الذي

تمثل أساسًا في انتقال الحكم من النظام الديكتاتوري إلى النظام الديمقراطي الذي تميز بحرية التعبير وطرح كل القضايا للنقاش العلني.

فهمت؟!

قلت: لا.

قالت: بمعنى أوضح، ظهور الفلسفة في بلاد اليونان كان إعلانًا عن إحداث قطيعة في التفكير لدى الإغريق، حيث تم الانتقال من الخطاب الشفهي إلى الخطاب المكتوب الذي يعتمد على العقل وإنتاج الأفكار والمفاهيم العقلية المجردة، وقد كان للعامل السياسي دور كبير في بزوغ هذا الفكر الجديد، حيث ظهرت الفلسفة في بيئة ديمقراطية مدنية، مثلت حرية التعبير أرضًا خصبة لكل القضايا المطروحة للنقاش الحر والعلني. فهمت؟!

قلت: لا.

قالت: بلى فهمت، لكنك لم تقتنع بكلامي.

قلت لها: بالعكس، طرحك مقنع ولكن ربما أنا لي رأي في الفلسفة.

قالت: هات أيها الفيلسوف.

قلت وأنا أتبسم ضاحكًا من قولها:

لقد قرأتُ أغلب كتب الفلسفة ولم أخرج بنتيجة، ربما رأيي مختلف تمامًا وأنا أتحفظ عليه منذ زمن لكنني اليوم أجد رغبة في الاعتراف به أمام عينيك.

سأقول لك أولًا ما هي الفلسفة حسب تعريفي أنا:

الفلسفة يا سيدتي، مشروع فراغ، يبدأ بالماء وينتهي بالهواء.

كشفت عن ابتسامة، عن ثنايا يكاد ضوء سناها يغطي على ضوء القمر، ثم صمتت كأنه أصابها الذهول.

قالت: أكمل.

قلت: لقد ظهرت الفلسفة كتفكير جديد في مواجهة الفكر الديني المتسلط (الكنيسة)، الفكر الذي يعتمد على الترهيب والترغيب؛ حيث أتى الخطاب الفلسفي مكتوبًا لكنه يعتمد على عدم الدقة في التعبير واستخدام أساليب الحُجّة بالتضليل، والشك بالتعطيل، واليقين بالتأويل.

قالت: الفلسفة حاولت لملمة المجزأ وفقًا لنظريات وجدالات ما كانت لتلتقي لولاها.

قلت: على العكس من ذلك، لقد وسعت الفلسفة دائرة الجهل بالشك، ودائرة المعرفة بالنفي، ودائرة التشاؤم بالتفاؤل، ودائرة الإلحاد بالدين. لقد حول (ماركس) جدلية (هيجل) المثالية إلى جدلية مادية وطبقها على المجتمع، وهو عمل احترافي، أن تحول النظرية إلى ممارسة وتستهدف تغيير العالم.

لكن أن تنفي وجود الإله معتقدًا أن الطبيعة أوجدت نفسها فأنت ناقضت نفسك وكل النظريات السابقة واللاحقة، الكون كُلٌّ لا يتجزأ، الشمس لها علاقة بالقمر، والقمر والشمس لهما علاقة بالنجوم،

والنجوم والشمس والقمر لهم علاقة بالأرض، بالبحر، بالمد والجزر، بالزراعة، بالمواسم، بالليل والنهار، بالوقت، بعينيك الجميلتين.

قالت: الفلسفة منهج بحث لا ينتهي.

قلت: الفلسفة منهج بحث متناقض يعيش على الأضداد، يرتبط بفئة معينة لا علاقة لها بعامة الناس.

قالت: يا سيدي، الفلسفة وسيلة معرفية نقدية تهدف إلى إنقاذ الإنسان وانتشاله من هوة الجهل والخرافة والقدر الأعمى.

قلت: أيتها الفيلسوفة الجميلة، هذا قول من لا يقرأ الفلسفة من داخلها، الجدل الذي كان طرفاه الفلاسفة والكنيسة، استطاعت السلطات إذكاءه وتوسيع دائرته ودعم الفلاسفة للتخلص من الكنيسة التي كانت متسلطة وصاحبة القول الفصل، وتم فعلًا إقصاء الكنيسة وتحييدها، ولما لم تلقَ الفلسفة عند المسلمين رواجًا لهيمنة الخطاب الديني أتوا بالعلمانية من أجل فصل الدين عن الدولة، وهي منهج يترك الآخر وقناعاته، بينما تهتم بما هو علمي ومنطقي وعقلاني.

أما ما يخص المعرفة فربما هناك فرق بين المدينة والقرية، وهذا ما نطق به لسان الفطرة عند الأعرابي قس بن ساعدة الأيادي في خطبته المشهورة:

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، مَن عاش مات، ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، ونهار ساج، وأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر. البعرة تدل على البعير، والأثر يدل

على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير؟! »الموجود لا بد له من مُوجد، والمخلوق لا بد له من خالق.

انضم إلينا الدكتور مازن والدكتورة أزميرا، ولأن المكان لا يتسع إلا لاثنين فقط فقد قامت لتترك مكانها للدكتور مازن، إلا أنه رفض وأحضر هو والدكتورة الكنبتين الصغيرتين اللتين أمام التلفزيون، وجلسا بمحاذاة الزجاج الفاصل بين الصالة والشرفة.

قال الدكتور مازن: أخشى أن نكون قطعنا حديثكما.

قلت: أبدًا.

قال: نحن العرب ما نعرف أوزبكستان إلا بكرة القدم.

قلت: صحيح علمناهم الكرة، رجعوا يهزموننا.

قالت الدكتورة: الكرة رغم صغرها إلا أنها حكاية لا تنتهي فصولها، تذهب بشأن أُمّة إلى السماء وأخرى تنتهي بها إلى الحضيض، صراعات واستثمارات ودعايات ومبالغ مذهلة تحصدها هذه الكرة الصغيرة، احتفاليات تتسابق عليها الدول لاحتضان أشهر الألعاب واستقبال عمالقة هذه الكرة.

قالت إلينا وهي تضع عينيها الواسعتين في بؤبؤ عيني:

جربت، حاولت أن أكون واحدة منهم، ما ذاك الشعور الذي يجعلهم مجانين؟!

وجدت نفسي أرى تلك الكرة عادية، تسير معي وأسير معها، لا يوجد سحر، لكن. .

قاطعها الدكتور مازن: سيدة الملاعب وصاحبة الشهرة الواسعة خلفها مافيا تصنع نجمًا وتطيح بآخر؛ لذلك فالدخول إلى المستطيل الأخضر يحتاج إلى عصابة في المدرجات.

قلت: أصبح ارتباط الشباب بمباريات كرة القدم أكثر من ارتباطه بالندوات والحلقات والسير والأعمال الخيرية والتنمية البشرية، أو بمعنى آخر بما ينفعه، ولذلك نرى أن الشباب وخصوصًا العربي أصبح يترقب وينتظر أوقات المباريات أكثر من انتظاره وترقبه لأوقات الصلاة، ونرى أن البعض أصبحوا متعلقين بنجوم كرة القدم أكثر من تعلقهم بآبائهم، وبالأندية أكثرمن المساجد.

قالت إلينا: المسألة الأكثر أهمية والتي لم يدركها أحد هي إضاعة الوقت، حيث تذهب الساعات والدقائق الذهبية سُدى، ما يعني أنها بحاجة إلى فراغ.

قال الدكتور مازن: العجيب أن لاعب كرة القدم صار يقدم على العلماء والرهبان وذوي الكفاءات العليا والرؤساء.

قلت: مسالة إدارة الوقت تعتبر فنًّا، وهناك في ديننا الإسلامي قاعدة عريضة لإدارة الوقت، لو طبقناها لأدرنا وقتنا بانتظام ودون كلل أو ملل.

قالت إلينا: كيف؟!

قلت: الصلوات الخمس منهج حياة متكامل؛ فإدارة الوقت عبادة والتزام وفن.

قالت إلينا: العبادة لها علاقة بالوقت؟!

قلت: نعم، والوقت له علاقة بالكرة، والكرة لها علاقة بالأخلاق، والأخلاق أساس كل شيء؛ لذلك هناك تعطيل للجانب الروحي عند الشباب، والبدائل الفورية غير ملائمة للفطرة السوية، أنا أشجع وألعب لكن باتّزان ومفاضلة.

قالت الدكتورة أزميرا: قد يضع البعض الرياضة ككل بديلًا عن التجربة الدينية.

قال الدكتور مازن: نعم صدقت، مجرد الشعور بالانتماء لهذه الكرة الصغيرة يأتي على حساب ما هو روحي وفطري وربما عقدي، لكن - والحق يقال - فهي تظل النموذج الأنقى والممتلئ بالمُثل.

قامت إلينا، وأحضرت الجمر الذي وضعته الدكتورة أزميرا على النار. كانت الشيشة جاهزة، وكان المكان مغريًا والحديث يستدعي ذلك الدخان كي يملأ المسافات التي بيننا.

سألتني الدكتورة أزميرا بكل خجل: تشيش؟!

قلت: لست مدمنًا لكن في مثل هذا المقام وجب ذلك.

أصلحت الشيشة، وأثناء تقديمها لي،

قال الدكتور مازن: الجو شاعري، وكل واحد يأخذ الشيشة يلقي قصيدة.

قلت: موافق، رغم معرفتي السابقة أنكم تسعون لتوريطي أنا.

انهمرت قصائد، كنت شلالًا من الرومانسية والحب والحياة، وكلما شعرت أن إلينا تمتلئ بالحب وبالموسيقى وبي أنا، كنت مطرًا.

قالت الدكتورة أزميرا وهي تنظر إلى الدكتور مازن: أعدت إليّ شبابي، أعدت إليّ الروح، الذكريات، الحنين.

قال الدكتور مازن: أول مرة أعرف معنى: «إن من البيان لسحرًا».

وأنا جالس أنا وأنت كل هذا العمر لكني لم أرك مثل هذا اليوم، كأنما يُوحى إليك.

قالت الفيلسوفة الجميلة: ماذا أسميك؟! نبيًّا للحب أم رسولًا؟!

قلت: في المساء أكون نبيًّا، وعندما يكون ظل كل شيء مثله أكون رسولًا.

قالت: الصمت، السلاح الوحيد في مثل هكذا مواقف، لكن القول الفصل أنك حالة استثناء وضوء يتسلل إلى المناطق التي ظلت مظلمة لسنوات العمر المهدرة.

قالت الدكتورة أزميرا: المرأة من دون شاعر كالأرض اليباب، والشاعر من دون أنثى كالليل إذا عسعس.

قال الدكتور مازن: الآن دورك إلينا.

قالت: لست شاعرة - وتورّد خدها خجلًا - لكني سأكون من الليلة شاعرة.

ألم يقل السورياليون: إن كل من يحلم هو شاعر، وكل من يبدع هو فنان؟!

أدركنا الوقت، وشارف الليل على الرحيل، والقمر على الغياب، وأنا على الذوبان. الساعة تقترب من الثانية صباحًا، وعلينا أن ننصرف، السهر هو التركة الوحيدة للحب.

شكرناهما على كرمهما اللا محدود، وأثنيت على أناقة الاستقبال، ودعوتهما للعشاء اليوم التالي، وتركت لهما حرية اختيار الزمان والمكان.

قالت الدكتورة: الأماكن كلها هنا راقية دون استثناء، كانت إلينا بكامل أناقتها، وكنت أنا بكامل غربتي، كلما اقتربت من الحلم توطنت الغربة داخلي.

قالت: لماذا لا نذهب إلى السينما؟! !

كانت دائمًا سباقة لكل ما هو جميل، قال الدكتور مازن: أنا موافق.

فما كان منّي أنا أيضًا إلا أن أبديت موافقتي في الحال، وابتسمت الدكتورة أزميرا حيال هذا القرار.

تركناهما واتجهنا صوب اللفت الذي كان بانتظارنا، كان الدكتور مازن ينظرإليّ بعين الرضا، وكنت أنظر لساعتي، وكانت الأوزبكيتان الجميلتان لا تزالان خلف الباب تنتظران دخولنا المصعد، قمة الأدب والذوق والأخلاق.

أول ما دخلنا المصعد قال الدكتور مازن: أنت عالمي ولست قرويًا.

جعلتني هذا المساء أشعر بالفخر لأنك صديقي.

لقد همست الدكتورة في أذني بأنها لم تجد إلينا سعيدة مثل هذا اليوم، وأنها همست لها بأن أناقتك طغت على أضواء عمالقة هوليود.

قلت: هل تعرف يا دكتور!

لقد ظلمنا المرأة العربية، تحكُّم الرجل بالمفردة واللغة والأدب والبلاغة والسُّلطة جعله يطلق أحكامه دون مبالاة، فمثلًا «عانس» أدت إلى إحباط المرأة العربية ودخولها في شيخوخة مبكرة وهرم معنوي وانتكاسة نفسية أثرت في المجتمع وجعلته قاتمًا.

قال: صحيح، لقد وضعنا المرأة في شرنقة الضلع الأعوج وصدقنا ذلك، والمفترض بها أن تنافس الزهور والرياحين والفل والنرجس وتتحدى القمر وتهزم البحر.

قلت: المرأة يا دكتور، كتلة من الأحاسيس والعطر والضوء؛ لذلك لا شيء يقتلها أو يحييها غير الكلمات، السلاح الفتاك الذي يملكه الرجل.

قال: نحن نهرب من مواجهة الحقيقة إلى الانتقاص من المرأة، نعوض الشحنات السالبة التي نمتلئ بها من أسواق العمل ومن طرقات الفشل ومن دواخلنا المتخمة بالكبت والقهر والسادية العمياء بهجومنا على الجنس اللطيف، حتى المقارنة بين أعزب وعانس فيها

ظلم للأبجدية واللغة، وفيها عنصرية، وفيها ابتزاز للمشاعر، وكأن أعزب لفظ فيه شموخ وعزة نفس وقوة وهو ما يدل على جهل عجيب.

كلما جن الليل وتكدر صفو الحياة بحثت عن المرأة صدرًا يجتر من رأسي الهموم، كلما سافرت الأحلام وابتعدت السعادة واقتربت الأحزان بحثت عن المرأة بحرًا هادئًا وموسيقى ملونة وموجًا يتراقص، كلما ضاقت بي الحياة بحثت عن المرأة.

قلت: وكلما خلوت بنفسك لكتابة منشور أو تغريدة أول من تنتقص منه المرأة.

قال: أحيانًا لا أكتب لكني آخذ حقي في الحلم.

وصلنا إلى الشارع، كان السائق بانتظارنا، ركبنا. كانت الشوارع أكثر صفاء وأكثر نقاء وأقل ازدحامًا، كان المساء يرقب خطواتنا المغرورة، وكان القمر قد توارى خلف غيمة تبدو ممتلئة بالمطر، ليتها تمطر كي تغسل المدينة وتعيد إليها رونقها وبهجتها.

خيم الصمت حولنا، إلا من صوت فنانة هندية يغرد خارج حدودنا، لا المكان المكان، ولا الزمان الزمان، الطرب الأصيل لا يحتاج إلى لغة ولا إلى مترجم لكن إلى مشاعر.

كان البحر على يسارنا، وعلى يميننا المباني والأبراج العالية التي كانت تتهيأ للنوم، إنها تنام عارية، وحده برج خليفة ينام واقفًا.

الشوارع هنا تضعك أمام خيار صعب، فهي تجبرك على أن تحبها وكأنها أنثى تجبرك على الانتماء إليها، تجبرك أن تهرب منها إليها.

وصلنا الفندق، كان أمام الفندق ساحة كبيرة ممتلئة بالنساء، وقليل من الرجال. كان الجميع في حركة دائرية، بمعنى أن الشخص الواحد يمر بأكثر من امرأة، لم تتضح لي الصورة بعد، من أين أتت كل هذه النساء أمام الفندق؟! أفخم أنواع السيارات التي هي قيد التشغيل، ما يعني أنهم أتوا لمهمة قصيرة وسوف يرحلون.

خرجت من السيارة أتأمل الوجوه، كانوا يتحدثون بأكثر من لغة وبأرقام عجيبة.

قال الدكتور مازن: ندخل؟!

قلت: ليس قبل أن أرى هؤلاء القوم.

قال: إنهن حصيلة المراقص الثلاثة وينتظرن هنا لمن يدفع أكثر.

قلت: إذن هنا بورصة، حركة مستمرة، لا تذهب مجموعة حتى تصل مجموعة أخرى، كأنهم على موعد، ربما تكون هذه المهنة هي الأكثر ترتيبًا من بين المهن الأخرى، ربما تكون مهنة مقدسة من وجهة نظرهم!

قال: هذا عالم كبير لا يدخله إلا هالك، الناجي الوحيد هو العملة التي يتداولونها.

قلت وأنا أتصبب عرقًا وبي من القروية ما يكفي لاعتزال هذا العالم والعيش في جبل يعصمني من الخطيئة والناس:

ماذا لو قمت في هذا الجمع الناعم خطيبًا؟!

ضحك الدكتور مازن حتى دمعت عيناه قال: ما أطيب قلبك يا صاحبي، هؤلاء لا تنقصهم الموعظة، هؤلاء ينقصهم المال، كلهم خريجو جامعات، ويتكلمون ثلاث لغات وأكثر.

قلت: سأكون الجاهل الوحيد بينهم.

قال: أنا وأنت.

قلت: العلم ليس شهادة.

قال: ولكن ماذا كنت ستقول لو حصل لك ذلك؟!

قلت: سوف أزلزل الأرض من تحت أقدامهن، وأرجُّ المدينة رجًّا.

قال: في هذا الزمان امضِ كأنك لم ترَ شيئًا، تجاهل كأنك لم تكن بشرًا ولم تشم عطرًا ولم تحس همسًا؛ فقد رحم الله من تغافل، وغفرالله لمن تعامى، وتعلم دائمًا أن تستر ما واجهت؛ لأجل بقاء الود والمحبة داخل قلبك.

قلت: القرويون إذا لم يشاركوا في الإصلاح يموتون كمدًا؛ لأنهم يعتبرون ذلك جزءًا مهمًّا في حياتهم، مثله مثل إيصال النبع والسيول القادمة من الجبال إلى الحقل.

قال الدكتور وعلامات الحزن تطفو على حاجبيه:

توقف عن لعب القمار بين الأهداب والجفون.

يا صاحبي، لا الواقع قبل بنا، ولا اللا وعي قبلنا به، كنت مفرطًا في الحنين والرغبة والجنون، وفي النية الطيبة، الآن توقف عن الهذيان.

قلت: لكننا تجاوزنا الخطوط الحمراء، وتعدينا حدود الشبهات، وسكنا في مواطن لا تناسب فطرتنا ولا سجيتنا ولا هويتنا ولا ديننا ولا أعرافنا.

قال:

الحياة اختلفت، والعولمة تحاول أن تجعل العالم بمستوى أخلاقي واحد، القاسم المشترك المرأة والكأس.

- هذا يتطلب تقسيم العالم إلى مستويين اجتماعيين.

- طبقة غنية حاكمة تدفع، وطبقة فقيرة محكومة تركع.

- والقرآن والسنة والأولياء والصالحون؟!

- سينقرضون، والقرآن سيكون في الرف أمام عينيك كلما مددت إليه يدك ذهب بك الهاتف ومواقع التواصل إلى الخارج.

- والأحكام؟!

- مثلها مثل أحكام من سبقونا، ستتحول إلى قيود تطوق الفضيلة وتكبل المروءات وتخنق المسافات التي كانت متنفسًا للمعنى.

- وماذا عن مصاصي الدماء؟!

- سيكرمون، وسوف نحتفل بهم كلما نهبوا وقتلوا وسرقوا، لن يكون هناك في قادم الأيام من يحتفل بالعطاء وبالضيف وبالمروءة وبالدعاء وبالإيمان.

- الآن أشعر بالغربة، بالغبن، أشعر بأن الواقع مختلف، كيف به بعد مئة عام؟

- سيكون العالم بمستوى واحد أخلاقيًا ودينيًا.

- والخمر؟!

- نافذة من نوافذ السياحة، ولكنها ستكون الأقل تعاطيًا والأقل ربحًا وسوف يقتصر نشاطها على المناطق النائية فقط، لأن التكنولوجيا ستنتج أساليب تتفوق على المشروب التقليدي.

- والزنا؟!

- سيكون أسلوب حياة، وسيكون هناك منظمات تحميه وتنظمه.

- لم أستطع التعايش مع ما يجري الآن، فكيف بذلك الحين؟!

تجاوزنا البوابة باتجاه الداخل، كان على اليمين امرأة في العقد الثاني كأنها عروسة على وجهها عدة طبقات من مساحيق التجميل.

قال الدكتور مازن: تعال نجلس معها قليلًا.

كانت الحركة عجيبة داخل البهو، والمساحيق معمولة بأسلوب عصري بحت.

سلم عليها الدكتور، ردت السلام. كانت رقيقة وناعمة، وفي قمة نشاطها وحيويتها.

قالت: إنها تنحدر من أب إيراني وأم تركية، كنتُ مرهقًا وعليّ أن أصعد إلى الغرفة، كلما ازدادت نسبة ثقافتك أصبح تقبلك

للأشياء أمرًا طبيعيًّا، وكلما فاضت بك القيم وامتلأت بالعاطفة قد تقول ما لم تكن بالأمس تجرؤ على التفكير فيه.

حاولت أن أفتح باب الغرفة، لكن الكارت لم يعمل، عدت إلى الاستقبال.

قال: إنه عندما يظل بجوار الهاتف النقال يتعطل، عدت إلى الغرفة، صليت الوتر، وفتحت الفيس، لأرى آخر الأخبار والمنشورات، لا جديد.

لم أعرف كيف نمت ولكني صحوت والابتسامة تملأ الغرفة.

لم أكن قد أكملت حلمي، كنت أقود طائرة (إيرباص) كبيرة وسط أمطار وسحب وطيور، لم يكن في الطائرة سواي، هبطت بها بأسلوب سلس ومحترف، ومررت بها وسط الشوارع الصغيرة والكبيرة.

كان الناس شاخصين بأبصارهم، وكانت الطيور باسطات أجنحتهن، وكان النهر ممتدًّا على الأرائك، وكانت النساء يحتضنّ طيفًا نائمًا، وكانت الأشواق تلملم أحزانها من مرايا الغياب، وبين الناس التي وقفت مذهولة وبين الشاطئ وقفت.

تجاوزت المشاعر والمواسم وأسماء جميع النساء، عدا امرأة نقشت اسمها على مقعد خشبي يتضرج بالحكايات الحزينة، بقيت قليلًا داخلها أتأمل الأرض والفضاء، كان الصمت كالظلال مطبقًا على كل شيء، حتى أنك تسمع زبد البحر وهو يغوص في رمال الشاطئ.

ترجلت، كانت أنفاسي مبعثرة، وخطواتي مسروقة، إلا أنها ناعمة وصداها يعود من فتحات الأفق المتدلي كستائر من الزئبق، فكان النهر وأنا وامرأةلم تكتمل ملامحها تغتسل تحت شلال صناعي صغير.

بين الحقيقة والخيال شعرة، وبين الحلم والحلم قروي نبيل.

كلما جئتها حقيقة كانت خيالًا، وكلما جئتها خيالًا كانت حقيقة.

تتداخل الأشواق والأطياف وأكاليل الحب ومدن الانتظار.

كيف أرسمني على جدار القلب، في منحنيات الضلوع، وفي شواطئ الحنين؟!

كيف أكتُبُني قصيدةً مجهولةَ الهويةِ والنسب؟! كيف أُقسّم أنفاسي؟!

هناك سباق أتحدى فيه روحي، وأسبق فيه قلبي، وأهزم فيه نفسي. هنا أعانق النجوم في رحلة عشق لا تنتهي، وهناك أزهر كالحدائق، هنا أغرد كالبلابل، وهناك أنهمِر كنهرٍ أوله في السماء وآخره في البحر، هنا أمسي فصلًا جديدًا في رواية النايات الثلاثة وهناك أصبح عنوانًا كبيرًا في قصيدة الحنين إلى الخلود.

طلبت فنجان قهوة، كيف نرتب الحلم؟ وكيف نستعيد التفاصيل المتدلية على طرفي النهر؟! حين يكون المساء استراحة قلب، ويكون الغد حلمًاجميلًا فإننا نتمنى ألّا نصحو منه.

تستبد بي الرغبة في الانطلاق نحو المجهول الذي هو أنا، نحو الغيمة التي لا تأتي في موعدها، نحو المواسم التي تعتبر الطفولة موسمًا خامسًا لها، نحو المساءات المختبئة بين نهدين من جمر.

كالعادة أشعلت سيجارة كوبية كنت أخبئها للحظة عشق لا تنتهي بانتهاء الدخان الخارج من أعماقي، لملمت كل جراحاتي، ووضعتها في صندوق أسود، وسلمتها للنهر، لمدينة كلما ذاب حلم رسمت في مآقي المساء حلمًا، وأوجدت من التفاؤل سماء، ومن الآمال سحبًا ومن الحب مطرًا. تقاسمنا الوهم، أسكنته بقلب غير ذي حب، سكبت صوتها في قوالب الثلج، وكتبت على أجنحة الفراشات أول المعنى، لك الفضاء الرحب، لك ما تقول الطيور المهاجرة في زمن الصقيع، لك الليل والذكرى ووشم في جدار الوقت، لك الشعر والمغنى وصوت العندليب، ولي تعبي.

على حافة النهر وفي لحظة صدق وأمام امرأة عارية الروح والقلب تأتي الأسئلة التي منها وقود جهنم، كيف نحول أمانينا الجميلة إلى واقع؟

كيف نسقط أحلامنا المعلقة في السماء على هيئة قُبل؟! على هيئة معانٍ؟! على هيئة حمائم تحمل رسائلنا التي كتبناها إلينا؟! على هيئة نديم يقاسمنا الرصيف والكأس ونواصي المدن المكبوتة؟!

كيف نتجاوز الصفوف ونعبر الحواجز ونقطع النهر؟! كيف نولد من جديد كلما مررنا من أقاصي العيون؟! كيف نتجاوز الهضاب والمنحنيات التي بنيناها، نحن في لحظة حب كافرة؟!

أين نخبئ آلهة الحب التي ظللنا نعبدها طوال فترات الجاهلية الأولى والثانية والثالثة؟! كيف جعلنا من العثرات والإحباطات والكسل والوهم والشك، كائنات حية؟!

وهكذا دواليك، من حلم إلى حلم، ومن شجن إلى شجن، ومن وهم إلى وهم أجمل!

الذكريات تتكأ الذكريات، تسافر كالسكين في المخيلة، تسرق منّي كل حروف الأبجدية، إلا حرف الياء فإنه لي، رُفعت الأسماء وجفت الحروف.

كانت العاشرة صباحًا، لتكن بدايتنا اليوم، ليكن ميلادنا اليوم، لتكن إطلالتنا على العالم اليوم، ليكن أصدقاؤنا الحقيقيون: القناعة، الصدق، الإخلاص، الحب، الجهد، العطاء. حتمًا سنصل.

تراودني القصيدة أن أكتب الشعر، وأن أبدأ يومي، طلبت فنجان قهوة آخر، خرجت إلى الشرفة، جلست أتأمل السماء والطيور والسحاب وقدرة الله، اتصلت بالدكتور مازن، لأرى هل قام من نومه أم لا؟! ردّ عليّ.

وقال: ما رأيك نذهب نفطر؟

وافقت؛ لأن هناك مطعمًا في شارع الضيافة أكله طيب ولذيذ.

تهيأت للخروج، ارتديت ملابسي وإذا بالدكتور مازن قد وصل، التقينا في (الهول)، الجو حار، لكنه كان ممتعًا. ابتسامات

الدكتور مازن تملأ المكان، كان حتى وهو يتألم يبتسم، وهذا الرائع في شخص مثله، إنه إنسان لا يمل.

خرجنا مشيًا على الأقدام، كانت المحلات التجارية في شارع الضيافة مغرية، تجذبك إليها بقوة، وصلنا إلى المطعم، تناولنا فطورنا وعدنا، وفي طريقنا مررنا على تلك المعارض واحدًا تلو الآخر، لكن لم يعجبنا شيء، عدنا إلى الفندق، كان الوقت ظهيرة، وكنت أرغب في السباحة كرياضة أولًا وكاستمتاع ثانيًا؛ كون المسابح معمولة بطريقة تشرح الصدر، أخبرني الدكتور مازن أنه لم ينم بعد.

قلت: ما هذا الجنون يا دكتور؟! «هذا فراق بيني وبينك».

سأتوجه إلى المسبح.

قال: وأنا إلى النوم.

دخلت يمينًا، ثم انعطفت شمالًا، كان هناك أكثر من باب، إلى أقصى اليسار هناك رجل وامرأة، بيد الرجل ملابس رياضية، التفت فإذا محل لبيع الملابس الرياضية، دخلت واشتريت سروال سباحة واتجهت للمسبح، لم تكن المرة الأولى التي أجيء فيها إلى هنا، كان المسبح عبارة عن عدة مسابح في مسبح واحد، يتخلله ممرات من الحديد المغطى بطبقة من البلاستيك، بألوان خشبية وأحواض صغيرة منفصلة للأطفال، وتحيط به أشجار النخيل وأشكال مختلفة من الورودوأشجار الزينة.

المسبح كان خلية مكتملة من كل أنحاء المعمورة، وعلى الطريقة الحديثة.

بالإضافة إلى ذلك، فتيات في غاية الجمال يستمتعن بالسباحة، والسباحة فقط، هناك شخصان أنهيا سباحتهما واقترب منهما سبّاح وكانا يرتديان مناشفهما فقط، يقال:

حسن الظن من تمام المروءة.

على الجهة المقابلة طفلة في العاشرة تقريبًا تسبح مع أبيها، بينما أمها في حالة استرخاء، أشارت لأبيها أن ينظر إلى أمها ودفعته بأسلوب طفولي وكأنه صديق، أعادته وأعادتني وأعادت المسبح والمدينة والكون إلى سن الطفولة!

سرقنا الوقت، خرجت من المسبح قرابة الخامسة عصرًا، وفي طريقي مررت بمركز صحي لعمل المساج، أصبحت شبه مدمن بسبب وجود آلام في رقبتي، لكنني لم أجرب عمل مساج بأيدي النواعم، كان العالم يتحرك عن يميني وشمالي وأنا مسكون بالقرية وناسها الطيبين.

قبل أن تصل الساعة السابعة مساءً كنا في «الهول»، كانت السهرة في أولها وكان الفندق خاليًا إلا من النزلاء، وكان الدكتور مازن متخمًا بالنوم، وكنت في قمة سعادتي ونشاطي.

ركبنا سيارتنا، كانت الشوارع بأشجارها وتنسيقها العجيب تلتقي مع الأمواج الصاخبة، الياسمين برائحة البحر، والرمل بندى الشلالات، أما أنا فكنت بنكهة القصيدة المدللة.

كانت الموسيقى هذه المرة أعنف؛ فقد كنت أشعر بجوانب السيارة تهتز.

كان صوتها متناسقًا مع الانتعاش الذي ينبعث من الداخل، وكانت تحاول أن تبدد الصمت المطبق على رؤوسنا، أدخلت القليل من التناغم بيننا وبين الطريق الممتد بامتداد الأحلام والمشاعر التي تصعد من قعر الذاكرة وتنزل من شرفات القمر.

كان للطريق عينان حُفّتا برموش كثيفة، كان للطريق حاجبان مقوسان بإتقان، بشرة سمراء، خدان متوردان، (همهما مخالفة الوصايا)، كتفان من مرمر. كنا نذرع المسافة وكأنني أنتمي إليها، فرح، حزن.

السعادة تملأ جنبات الطريق، ابتسامة تضيء وأخرى تسترخي بين المسطحات الخضراء المحيطة بالروح، بعض الأنغام الكلاسيكية تمنحك الشجاعة على مواصلة الحلم، ربما لا يبدو مناسبًا خلط الأوراق والدخول مع الذاكرة في جدل بيزنطي، قاموس المفردات يختار ما يناسبه وأنت صمتّ أو تحدثت أو ابتسمت، الأمر سيان.

كلما اقتربت من محيط الذاكرة بادرتني بسؤال:

أين تكون فتاة القرية الآن يا ترى؟! أجمل الأماكن هي في الذاكرة، وليست على الواقع.

أوشكت أن أخرج عن الجادة، كان الدكتور مازن والسائق منسجمين مع وقع الموسيقى، المدن التي تجمع كل الأجناس والأعراق والطوائف وتمكن الناس من العيش بسلام تسمى مدنًا

«كوسمبوليتية» ، وقفت السيارة أمام مطعم مشويات، ترجلنا منها ، كان الوقت يمضي بطيئًا وكانت حركة الرياح متفاوتة إلا أنها كانت رياحًا ناعمة دافئة عليلة ، تداعب القلب.

دخلنا المطعم، كان مزدحمًا ، ولكنه كان يبدو أنيقًا ، وكانت أضواء المطعم خافتة ، وكأنه يميل إلى الرومانسية أكثر منه إلى الأكل.

تقدمت فتاة جميلة يبدو أنها عربية الأصل، غربية اللبس والشعر والعدسات واللغة ، للترحيب بنا ، وكأنها المسؤولة عن هذا الركن الغرامي الهادئ.

رفعت النادلة قائمة الطلبات وقبل أن تضع الأكل وصلت الدكتورة أزميرا والفيلسوفة الصغيرة إلينا ، استقبلهما الدكتور مازن عند باب المطعم ومعه المسؤول الأول في المطعم، كان بدينًا وصاحب صلعة تعكس حركة الإضاءة الملونة، بذلته سوداء ، وقميصه أبيض، وربطة عنقه حمراء.

بالنسبة إليّ أنا ، لم توكل لي أي مهمة سوى الانتظار على الطاولة المخصصة لتناول العشاء ، وحين دخلتا سلمت عليهما ، كانت يدا إلينا قطعتين من النار والحرير ، أما عيناها فكانتا أنهارًا ومحيطات وحدائق غلبا ، لا تشبع منهما. كان العشاء تشكيلة من المشاوي العراقية الشهيرة وبعض المقبلات والسلطات وعصير البرتقال الطازج، يمتاز هذا المطعم بتصميمه الفريد؛ ما يساعد على العشق والحب والتحليق في الفضاء.

أحيانًا نشعر بالسعادة بمجرد نظرة، وأحيانًا بمجرد كلمة، وأحيانًا بمجرد موقف.

السعادة الحقيقية هي التي تنبع من داخلك أنت على شكل قشعريرة تسري في الجسد، لا خيار آخر سوى أن أترك اليوم يمضي بكل الأسئلة وبكل الإجابات وأحتفظ بالهذيان.

أنهينا غداءنا، وحمدنا الله وشكرناه على نعمة الأكل ونعمة الجمال، اتجهنا صوب السيارة، قالت إلينا والهواء يحرك خصلات شعرها المنساب على جانبي وجهها ببطء شديد، وقد بدت كأنها نخلة باسقة تعبث الرياح بسعفها:

اعتدت على التعامل مع الرجل الشرقي عن بُعد وبتحفظ زائد، لكن بصراحة أنتم غيرتم نظرتي، ولديك أنت أيها القروي كاريزما قوية، إضافة إلى كمٍّ معرفيّ كبير، لم تكن تتغزل بي بقدر ما كانت تقول ما تشعر به، بينما أنا كانت مشاعري متضاربة وأحاسيسي مشتتة وكان قلبي منهكًا من التعب. ركبت أنا بجوار السائق، وركب ثلاثتهم في الخلف، شعرت بنسمة باردة تلامس قلبي.

حاولت لملمة أفكاري التي بعثرتها نظرة عينيها، استدرت وتوجهت بنظري وحديثي إلى الأوزبكية الصغيرة:

- الشرقي بشكل عام - يا سيدتي - ينفتح على كل الثقافات، وله قدرة عجيبة على التأقلم مع الآخر، كيف لو كان الآخر هو أنت!

نظرت إليّ بابتسامة مفعمة بالامتنان والإعجاب، كنا قد ابتعدنا عن الدكتور والدكتورة، الرياح ذهبت بقاربنا بعيدًا. أنا بحاجة

لشراع يحفظ توازن مراكبي الداخلية، لحظات الجنون أقرب من حبل الوريد.

قال الدكتور مازن: إن أصل السينما عربية، وقد انطلقت البداية الأولى لها على أساس اختراع التصوير الضوئي على يد ابن الهيثم، المؤسس الأول لمبادئ علم البصريات.

قالت الدكتورة أزميرا: كانت السينما وهجًا وزخمًا يملأ النفوس، خصوصًا في مراحل العمر المتوسطة، قبل أن تتحول إلى عوالم من الفضاء المرئي.

قالت إلينا: إنها كانت في فترة من الفترات تميل إلى السينما الهندية، رغم اختلاف ثقافاتنا، السينما التي حكمت العالم في القرن الماضي بتوجهاتها وأفكارها العقدية، إلا أن الحقيقة التي لا ينكرها أحد هي أن الحكمة التي قدمتها السينما والمعالجات الاجتماعية التي ساهمت فيها كان لها أكبر الأثر على مجتمعات القرن الماضي، وأول حكمة تعلمتها من السينما وظلت متقدة بذاكرتي هي (أنك تستطيع الحصول على كل شيء بالقوة إلا الحب والاحترام).

قالت إلينا: في العصر الحديث استطاعت هوليود التفرد والتميز من خلال صناعة السينما، خصوصًا سينما الخيال العلمي، فكرة وأداء، بينما التنافس ظل جليًّا بين السينما المكسيكية والتركية والهندية والغربية والمصرية، من خلال المسلسلات المدبلجة، سواء

كانت تتحدث عن الحب أو تحكي عن قصص إسلامية لعظماء التاريخ، أو عن قصص لعظماء ومشاهيرالدول المنتجة.

وصلنا إلى أمام السينما ، كان هناك مساحة مخصصة للإعلانات تدخل منها إلى صالة أخرى بها باعة متجولون وناس تذهب وأخرى تجيء، وحركة توحي بأن السينما فن سابع رفيع جدًّا.

كنت أتأمل صورة لفيلم الغد ، وفجأة أحسست بيد تمسكني من المعصم الأيسر، التفت وإذا بالرجل العراقي القدير وبجواره امرأة فتية في عنفوان الشباب أصغر منه بسنوات ، وابنته بدت أكثر أناقة من ذي قبل، ما هذه المصادفة؟! مرة أخرى!

سلمت ومراكب الدهشة تسافر بي نحو القرية، نحو المعنى الحقيقي للحب، مددت يدي إلى يدي، نظرت إلى ابتسامتي في المرآة ، كل يوم تفاجئني الحياة بمعنى جديد ، كل يوم أفتح صفحة في دفتر القلب، كل يوم أمارس فيه العشق بطريقة أخرى وبأسلوب مختلف.

قال العراقي القدير: كيف حالك يا ولدي؟!

أجبت: في أحسن حال، الحمدللّٰه والشكر للّٰه.

قال: هذه زوجتي الدكتورة تالين بطرس، طبيبة قلب، وهذه الدكتورة جولي، سبق وأن التقيت بها في القطار.

قلت: تشرفنا.

قالت الدكتورة جولي: لنا الشرف، سعيدة بك.

قلت: من دواعي سروري.

الحكاية عندما تبدأ لن تنتهي، هكذا الحياة، نغادر لنأتي ونصل لنذهب إلى البعيد، اليوم رحلة مع الزمن، وغدًا مع القمر، وبعده مع الموسيقى.

توزع اهتمامي بين الإعلانات المصورة والعيون النعاس، أسوأ اللحظات هي التي يلتقي فيها رجل بفتاتين، هو في مرحلة الشيخوخة المبكرة، وهما في مرحلة المراهقة المتأخرة.

استقر نظري على فيلم هذا المساء والسيدة جولي، فيلمان الأول تشاهده والثاني أنت بطله، القصيدة داخلي لم تستقر، وهذا المساء في حالة دوران عكسي وأنا أتسلق سُلم المعنى. كان شيء من داخلي يشدني أكثر، وآخر يجذبني باتجاه الأفق الممتد من أقاصي عينيها إلى أقاصي السماء.

كانت الدكتورة جولي كنخلة سامقة بين الأشجار، وكان شعرها يتماوج كموسيقى وكنت أنا كتراتيل معبد، كلما اقتربت أكثر أحسست بنار الجوى، قدري يشدني أكثر بين الفرضيات والمعتقدات والشبهات الحلال والاحتلال الحرب والسلم. (إني أرفع الرايات سيدتي).

لا أصعب من التوقف بين زمنين لا تدري أأنت مغادر أم قادم؟!

حين يكون كل شيء على ما يرام عداك أنت، حين يكون الحب سهمًا واحدًا في قلبك.

شوقان يحتدمان

ذاك مسافر،

وهذا يجيء مع المطر.

أشعر بالضياع، كل الطرق تؤدي إلى المجهول. المدن التي لا تزاوج بين الزمن والذاكرة مدن مجنونة، صدى أغنية يذهب بعيدًا، يغرق، وكنت أنا أتوارى خلف عقارب الساعة.

هذا المساء أعاد إليّ الأمل بكتابة رواية عن الكون.

هل هناك صلة ما بين العلوم الطبيعية والنجوم؟ بين الأرض والسماء؟ بين الحب والقدر؟ بين الموج ونبضات قلب دفعت به الحياة إلى شواطئ المعنى؟ بين امرأة من غرب الكون ورجل من شرقه؟!

كلما تحركت الأشياء من حولي حاولت أن أستكين، أن ألتقط ولو بعضًا من الأنسام المعلقة في جدارية المساء، هذه المدينة تأخذ منك كل وقتك وكل اهتمامك وكل أحلامك وطموحاتك، ومن ثم تجعلك تبحث عن طرق لتقتل فيها الوقت.

ماذا تقول إذا استبد بك الهوى وشربت كأسًا من رذاذ عينيها؟! هل يسلم الشرف الرفيع من الندى؟! من القذى؟! ومن الشذى؟!

تكافئنا الحياة أحيانًا بالفرص والحظوظ والمصادفات. ها قد تلاقينا مرة أخرى بلا موعد، وبلا سبب، وبلا قصد.

سيدتي، كم أتمنى أن تكوني أنت المرأة التي في البال وعلى الخاطر، كم أتمنى أن تكوني الصديقة والحبيبة والنبية، كم

أتمنى أن تأتي من بين علم الخرافة وقوانين الطاقات العليا كقصيدة متداخلة البحور.

كم أتمنى أن تأتي من بين الأغاني والموسيقى كموال أندلسي، كم أتمنى أن أراك بامتداد المسافة وليس بتقاطع الكلمات، أتمنى أن تكوني غيمة أو مطرًا، فأنا أحب الاحتفال بين المواسم وتحت المطر، كم أتمنى أن تأتي من بين الحضور والغياب ابتسامة، من بين الأماني والأحلام سنبلة.

كيف سيكون العالم بعد مئة عام من العزلة والتكنولوجيا والسقوط؟!

كيف ستقاس الأشياء والحدود والشبهات؟!

من أين تنحدر احتمالات تنبؤاتك وتخيلاتك؟!

نظرت إليّ نظرة عميقة، عدلت من وقفتها، جالت بنظرها في لوحة الإعلانات، النجوم التي تتلألأ في السماء ستكون بعد مئة عام مطلة على إحدى شرفات حبنا، شرفات منازلنا، الكواكب ستكون على بُعد ركلة القدم لكرة لن يستوعب الناس حديثك وتوقعاتك وجنونك، لن أستمر في اجترار المخيلة والناس، في انتظار ما تخبئه تحت لسانك، ستكون وسائل النقل عربات فضائية أو صواريخ ضوئية، أو سفن فضائية.

وهل كان العالم قبل مئة عام ليصدق أنك ستحدث آخر في قارة أخرى من العالم بالصوت والصورة من خلال جهاز بحجم اليد؟!

صمت الجميع برهة كأنهم ينصتون إليّ، ربما يكون ذلك صحيحًا ولكن، وقبل ذلك، العالم سيشهد حروبًا طاحنة بعدها أمطار وسيول وفيضانات، وستتغير خارطة العالم؛ فأراضي الصحراء ستكون جنات وأنهارًا، والجنات والأنهار ستتحول إلى أراضٍ صحراوية.

اختفت السينما العربية من أمام أعين المشاهد الذي كان يطمح لمشاهدة إنتاج سينمائي عربي قوي، يحاكي الواقع الذي نعيشه، ويجدد النشاط الإنتاجي، قابل ذلك تدهور وانهيار.

في السينما الأوروبية والغربية والآسيوية وصل الإنتاج السينمائي والتلفزيوني إلى ذروته فضلًا عن التنوع، حيث كانت المسلسلات بكل تفاصيلها وأجزائها يصل عدد حلقاتها أحيانًا إلى مئتي حلقة أو أكثر في الجزء الواحد، مع أن كل ما يحدث من إنتاج سينمائي بديع في تلك المجتمعات لم يكن اختراعًا فيزيائيًّا ولا بيولوجيًّا، ولكنهم أخذوا الفكرة والأصل من السينما العربية، كما أخذوا الطب من ابن سينا وأبدعوا فيه، وأصبح أحفاد ابن سينا يتناولون الدواء من تلاميذ كتابه الغربيين، ويحدث ذلك بالفعل مع المشاهد العربي من خلال عشقه واستمتاعه بالسينما الأجنبية وعدم اكتراثه للسينما العربية التي قتلت الحلم وبددت الأفكار واقتصرت فقط على مسلسلات شبه درامية لا تحاكي الواقع ولا تؤثر في المشاهد.

دخلنا السينما، جلسنا في الصف الأخير بعيدًا من شاشة العرض، كانت الأضواء خافتة، الصمت يسود المكان بانتظار

أن يبدأ العرض، ترتيب واكتمال، هدوء وأسماء، ومنتج ومخرج وإضـاءة ومكساج وجرافيك، الجميع من حولي مستمتعون وعيونهم باتجاه الشاشة الحريرية.

بدا الفيلم وبدأت أنا في رحلة أخرى، كانت فتاة القرية تتمنى أن تحضر فيلمًا سينمائيًّا وأن تخرج على الشاطئ والأنسام تداعب خصلات شعرها وهي تغني وترقص.

حين كانت تمر لحظة إغراء، كنت أسترق النظر مجددًا، وأرى ذاك يهمس، وتلك تقبض على يديه، وهذين ينظران لبعض وكأن القصة تحكي عنهما، كنا متجاورين تمامًا لا يفصل بيننا سوى نسيج القطن لقميصي وبلوزتها الحريرية باللون الفوشي المزهر، الأجساد أحيانًا تتوقد حرارة كلما اقترب الظلام، الأنامل الناعمة بين يدي تتابع قصة الفيلم الذي يبدو أنه كان معدًّا لنا.

إننا كالأطفال المدللين في حضرة أُم حنون وأب طيب نستغل تسامحه الدائم معنا.

كان أجمل ما في فيلم هذا المساء هو شعورنا بأجسادنا تطفو هناك في الأعلى، أو تسبح في بحر من وهم، فقط أنا وهي، شعور غريب يتسرب من أُمّ رأسي حتى أخمص قدمي؛ ربما لأن الفيلم شارف على الانتهاء.

انتهى الفيلم، أضيئت القاعة، بدت الملامح مختلفة، السينما الحقيقية هي التي تعيدك إلى ذاتك، إلى إنسانيتك، إلى فطرتك

السليمة. نكأت شجوني شجوني، وتحدت الذكرياتُ الذكرياتِ. السينما ذلك البعد الغائب الحاضر.

قال الدكتور مازن: تخيل عندنا سينما في السعودية؟

قلت: الأمر طبيعي، وسيمارس الناس حياتهم كما هو الحال في كل بقاع الدنيا، لكن كما هو حال أي قادم يحتاج إلى توطين.

فنحن كنا أيام الدراسة في الثانوية العامة نعتبر السينما منتجع نهاية الأسبوع، نقضي فيه إجازتنا، نضع فيه همومنا، نتعلم منه دروسنا، نبكي سرًّا وعلانية.

كانت السينما تجبر كسورنا الداخلية والخارجية، تحكي، تعبّر عنا بشكل عام كمجتمع أو خاص كأفراد، كانت تنكأ جراحنا، حتى نشعر بتجدد وحيوية.

- كان عندكم سينما في اليمن؟

- نعم، من الستينات، لكننا كقرويين لم يكن مشوار الذهاب إلى دور السينما بالمشوار الهين، فقد كان علينا أن نلف ذلك المشوار بغلاف من الحيطة والحذر؛ فالمجتمع المحافظ عينُه واسعة جدًّا على دور السينما والفن بشكل عام.

لم تكن الناس - وخصوصًا القبيلة - على قدر من الوعي، فالفن ومشتقاته كلها مترادفات الضلال والممنوع والحرام!

عليك وأنت تتأهب للخروج إلى دور السينما أن تتأهب للخروج في حفل تنكري، بحيث لايعرفك أحد.

- كان عندكم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

- لا، كان عندنا قبيلة، لم يكن الحرام الذي تشكّل في عقول الناس ونحن ندلف تلك الدار هو همي الوحيد؛ فأنا واحد من قومي ومحكوم بعادات وأعراف وتقاليد قد تعطي القبيلة الحق في إهدار دمي، إلا أن إيماني الراسخ والعميق بالفن الجميل والراقي الذي تعرضه دور السينما جعلني في نزاع فكري وأدبي وأخلاقي وإنساني، جعلني في النهاية أحترم قرار القبيلة وفكرها النابع من الدين والعرف.

كان صديقي أمين يحفظ جدول أفلام الأسبوع أكثر مما يحفظ مقرر المدرسة، بل كان على وشك تعلم اللغة الهندية نظرًا لتأثره الكبير بأفلامهم، ما كان يدرك أن السينما لها وجهان ظاهري وباطني، عسل وسم، جمال وقبح، مثلها مثل الإنسان.

كان يؤمن بها شاشة ونصف، لم يعد ذلك القروي المحض الخالص، كل ما يسيطر على مخيلته هو ذلك الكم الهائل من الطيش والشباب والتهور والتحرر وفك الارتباط بالقبيلة والتخلص من الخيوط التي تربط الفن بالمبادئ.

خرجنا مرة أخرى، التقيت بالعراقي الأنيق، وهذه المرة كنت أنا من سعى إليه؛ لسبب أو من دون سبب.

قال: أنت ضيفنا غدًا يا بني، ننتظرك. قبلت الدعوة، ولكن، ليس غدًا، اعتذرت بشدة، حاولت، التفتت إليّ جولي، قالت: هناك أشخاص حين نلتقي بهم نكفر بالوقت، نخبئ دفتر المواعيد، نتقوى لنمسك بهم بكل ما نستطيع.

قلت لها: أحيانًا نهرب لكي لا تفضحنا مشاعرنا، نهرب ليس خوفًا من مواجهتهم، وإنما رغبة في المحافظة على هذا القادم الجديد؛ فربما كان حلمًا جميلًا، وربما كان وهمًا جميلًا، وربما كان ألمًا لذيذًا.

قالت: هل لديك حساب في تويتر؟

قلت: لا، ولكن في الفيسبوك.

العراقيون رائعون بطباعهم العربية الأصيلة، حين تكون معهم تتقاسم الغربة والحنين والوطن.

فرّقتنا البوابة الخارجية للمول، على أمل اللقاء غدًا في بيت الرجل العراقي العجوز على الغداء. كان الدكتور مازن ينتظرني بالسيارة ومعه الدكتورة أزميرا والأوزبكية الجميلة، لحقت بهم وبودي لو أودعهم، لو يتركونني ويرحلون، لو أدنو قليلًا من الجرح، ثمة سهم أصابني في مقتل. غادرنا المول باتجاه الفندق، دبي في المساء نيويورك صغرى، العالم هنا يمشي بسرعة الضوء، كل شيء مختلف، أتمنى لو أعود إلى القرية، حتمًا سيكون اندهاشي بها أكبر.

في الطريق كانت المفاجأة أن الأوزبكيتين قررتا السفر، وهذا ما صدم الدكتور مازن، كان كمن فقد عقله فجأة، كمن سقط من شاهق، كمن لم يكمل حلمه، كمن لم يشبع من عيون القمر، كمن زاده شرب الماء ظمأ فوق ظمأ، أما أنا فكنت أخفّ حزنًا وأقلّ ألمًا؛ لأنني كنت أتوقع تلك اللحظة، فربما كنت أنا مغادرًا

قبلهم، استغربت الأوزبكية الصغيرة من استقبالي للخبر، وقالت في نفسها وهي تنظر إلى القروي النبيل:

لقد غلب عليه طابع الجبال والصخور؛ لذلك قلبه قاسٍ كالحجارة. صمت جميعنا.

وصلنا إلى أمام الفندق الذي تنزلان فيه، اكتفيت أنا بالخروج من السيارة والسلام عليهما، فيما رافقهما الدكتور مازن إلى باب المصعد، لكنه تأخر وظللنا منتظرين قرابة الساعة.

لست مستعجلًا، عليه أن يتحدث حتى يملأ معدة حبه الفارغة.

اتصل الدكتور مازن، وكان صوته مبحوحًا وحزينًا، اعتذر إليّ وطلب أن أغادر لأنه سيبقى معهما حتى تنخفض حرارة الدكتورة أزميرا التي ارتفعت فجأة على حد قوله، وعليه أن ينتظر حتى تستقر، وطلب منّي ألّا أقلق.

عدت إلى الفندق، كانت الساعة قرابة الثالثة فجرًا، المساحة المخصصة أمام الفندق للجميلات شبه فارغة، كانت رائحة العطور والروج والرقص والأغاني تملأُ المكان، لكنها لم تستطع النفاذ إلى قلبي، وكنت أنا متعبًا. كم أنت شجاع وأنت تواجه العطر والمرايا المصقولة والجدائل المدربة على التحليق في الفضاء، حرب خاسرة وعينان نضاحتان بالأشعة تحت الحمراء.

ترجلت من السيارة، كانت الخطيئة هي أن تشعر بالتعب في مضمار الأنوثة المسلوب، مضمار الأنوثة الذي عبثت به أيدي

المستعمر البلدي، أحيانًا نحاول المحافظة على خيط النقاء الذي داخلنا لعله يكون جسر نجاة منا نحن.

عبرت البهو، كان أمام المصعد فتاة وشاب لا توجد بينهما قواسم مشتركة.

كأن لا سواي.

وصلت الغرفة، لا يتحمل القروي هذا الصخب، وهذا الزحام، وهذا الانفتاح. قبل أن أجلس على الكرسي صعدت من أعماقي نهدة سقطت على إثرها مترنحًا، فتحت الفيس، كانت هناك رسالة من حساب باسم جولي مكتوب باللغة الإنجليزية كانت الرسالة:

«بنسوار. كيفك؟! ».

قبل أن أجيب ذهبت إلى صفحتها وجدت أنها قد أرسلت طلب إضافة، المعلومات المتوفرة أنها بروفيسورة في الفيزياء، عرفت أنها ابنة الرجل العراقي القديرقبلت الإضافة، ورددت على التحية بأحسن منها كما هي عادتي.

- من أين أتيت بكل هؤلاء النساء؟!

- من أرض الله الواسعة.

- ما هو الطعم الذي قدمته لهن حتى أسقطتهن في شباكك؟!

- قلت: البساطة.

- قالت: والحب؟!

- يا سيدتي، الحب معطى إلهي، لا يمنح عن طريق صندوق الرسائل.

- لمن هذه القصائد التي على حائطك؟!

- تقصدين من كتبها أم لمن كتبت؟!

- لمن كتبت؟

- اتقاد وجنون ومشاعر وأمواج عاتية فاضت بي فكانت القصيدة.

-الحب؟

- الحب عندما يأتي فهو سحابة تمطر، فيزهر كل شيء، حتى القلب والشرايين، تكون قصيدة أو رواية أو معادلة لوغاريتمية ليس لها حل، لكن عندما يرحل فإنه كالطوفان كالفيضان، يتركنا خرابًا.

- هل يكون الحب جواز السفر؟

- لا، لأن الحب ليس له تاريخ انتهاء، ولا فترة معينة، ولا يتم استبداله، ولا يمكن لأحد لمسه أو فتحه.

- هل أنت ملول من الأشياء؟

- لا؛ لأنني أعشق القمر.

- كم أحببت من النساء؟

- الحياة محطة قطار، عندما تترجل امرأة تصعد أخرى، لا يستغني الإنسان عن المرأة، ولا عن الحب، ولا عن العيش بين نصر وهزيمة.

الحب حياة، والمرأة هي المعنى الجميل في هذا الكون.

- من أقرب الناس إليك؟

- الذي يأتي متأخرًا.

- ومن أحبهم إلى قلبك؟

- أكذبهم.

- ماذا يعني لك الغياب؟

- ما أجمل الذي لا يأتي حين نعيشه حلمًا.

- لمن المتسع من الذاكرة؟

- للقلق.

- ممَّ تخاف؟!

- من الانتظار؛

لأنه ممل، في الشركة، في المستشفى، في المطار، لكنه في الحب قاتل.

- أين منك الكذب؟!

- بعيد، أنا لا أحبه، لكنه اللغة الرسمية للحب.

- متى تكون في أعلى درجات التجلي؟!

- إذا ذهبت القافلة.

- أين يعيش الحب؟

- في المسافة الفاصلة بين أسئلتك وإجاباتي.

- ما الذي ينقصك الآن؟

- الحلم.

- ماذا يعني لك الصباح؟

- الصباح هو ابتسامتك التي تتبخر من فنجان القهوة، هو انعكاس لك، هو ابتسامتك أنت أعلقها أين أشاء، في مطلع الشمس، أو في أقرب هضبة إلى قلبي.

- والغروب؟

- هو كل أوقاتي حتى لا تشرق من قلبي امرأة أخرى.

- والمساء؟

- المساء هو شاشة ثلاثية الأبعاد أراك من خلالها تجتازين مدن الأحزان، بحار الحب، صحاري الوجع، جبال الندى، شاطئ الذكريات، بوابة البسملة لتستقري في قلبي.

- ما الذي لا ينتهي عندك؟

- شيئان لا ينتهيان عندي: حديثك وقصيدتي.

- متى شعرت بالندم؟

- حين ظننت أن شواطئ عينيك خالية من الملح.

- خلقت المرأة من ضلع أعوج وأنجبت الرجل، فأيهما أكثر اعوجاجًا؟

- الرجل.

- لماذا؟

- لأنه حينما ينتصف المساء، تنتصف الكأس، ينتصف القمر، تأتي المرأة، يكتمل كل شيء.

- أستأذنك الآن، على الموعد، سلم لي على المعجبات.

أغلقت الفيس، توضأت، صليت الوتر، كانت الساعة قرابة الرابعة فجرًا.

بعد ذلك أذّن الفجر، صليت وقبل أن أنام اتصل الدكتور مازن يبشرني أن الأوزبكيتين أجّلتا الرحلة أسبوعًا آخر ليتوافق مع موعد سفرنا.

لم يكن الأمر مهمًّا بالنسبة لي، يبدو أن هناك أشياء أخرى تشغل البال.

قلت له: إننا مدعوان للغداء عند الرجل العراقي، وقد أخبرته عنك وهو ينتظرك.

قال: اعتذر لي يا صاحبي؛ فلقد وعدت الأوزبكيتين أن نذهب غدًا إلى مدينة «أكوافنتشر» المائية.

قلت: خيرًا.

الإنسان هو اللحظة الجميلة السعيدة، هو الأرض المشبعة بالمطر، هو المرح المتعدد الشواطئ والبحار، أحيانًا يكون السهر هو الوسادة

الوحيدة التي تضع عليها رأسك، عندما تكون في مكان وأشواقك في مكان، قلبك في مكان وأنت في مكان آخر، عندما تكون كالعهن المنفوش.

وضعت الهاتف على (الصامت)، النوم شقيق الموت، لا أجمل من أن تكون طفلًا، النعاس يداعب حدقات العينين، لا رغبة لي في مشاهدة ما تبثه قنوات التلفزيون أو الدخول للفيس؛ فما شاهدته اليوم يغطي ثلاثة أرباع البرامج التي سأحتاجها، من علمية وتاريخية وأدبية وترفيهية، ما من شيء يستحق المشاهدة سوى وضع رأسي على الوسادة، وترك شريط الذكريات يعالج نفسه بنفسه.

داعبني الضوء الواقع من خلال فتحة منحرفة في الستارة، والساقط بشكل مباشر على وجنتي، الساعة قرابة السادسة.

لم أكن بحاجة إلى من يوقظني؛ فأنا لا أحب النوم بعد هذا الوقت، لكنني حين قررت الاستيقاظ شعرت بإرهاق شديد، وكأنني قمت بأعمال شاقة ليلة أمس، لا بد أن أستقبل يومًا آخر جديدًا وأنا بكامل أناقتي، أن ألتقي أشعة الشمس الأولى وأنا بكامل لياقتي الذهنية والبدنية.

«عمل دش» ربما يقرب المسافة بيني وبين الزهور التي استيقظت، خرجت إلى الشرفة، هناك من سبقوك إلى المسبح وآخرون إلى الشاطئ، الحياة لا تتوقف عند أحد.

ارتديت ملابسي الرياضية، أخذت نظارتي الشمسية، السباحة في الصباح والجلوس مع الملاح، الهروب من العالم الإسمنتي إلى

أحضان الصباح، ساعة رياضة تكفي القرية، تضج بداخلي، تشدني إلى مراتعها في أبهى حضور للمدينة.

سبحت، استمتعت، ومن ثم اتجهت إلى المطعم، أنهيت برنامجي الصباحي قرابة التاسعة صباحًا، أشعر برغبة في عمل شوط ثانٍ من النوم.

الواحدة ظهرًا اتصل الدكتور مازن، وكنت في البهو أتناول فنجان قهوة تركية.

قال إنه أراد أن يطمئن، فربما أكون نائمًا في الخليج - وخصوصًا في فصل الصيف - لا يقومون بواجبات الضيافة نهارًا بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

قلت له: ما رأيك في أخذ هدية؟

كتعبير أولي عن تقديري وامتناني، كتعبير عن الحال والمقال وأشياء كثيرة لا تقال.

قال: من رأيي تروح تتغدى وإذا خرجت معها ممكن تشتري لها هدية، وما أعرفه أن الهدايا تقدم في المناسبات؛ أعياد، زيارة مريض، عرس، مولود.

كانت المسافة من الفندق إلى منزل الرجل العراقي قصيرة، لكنها في وقت الذروة تطول، وصلت قرابة الساعة الثانية، كان المبنى السكني مكونًا من عشرة طوابق، توقف اللفت عند الرقم 5. استقبلني الرجل العراقي استقبال الفاتحين، استقبال الأنقياء الكرماء الظرفاء.

- تفضل يا بني.

صافحته بحرارة وكأنني أعرفه منذ الطفولة، كانت زوجته الدكتورة تالين تقف على مسافة منه، أناقة، جمال، تجدد، ابتسامة.

كانت الشقة عبارة عن صالة مفتوحة بها من الأثاث واللوحات الفنية ما يفقدك حواسك، كم أنا مولع باللوحات، وبالزخرفة، وبالجمال.

أقبلت جولي، جيوش وفيالق وأساطيل وأمواج ومحيطات من الجمال، ثمة ما يقسم الكون إلى نصفين، ثمة أشعة متداخلة، ثمة إشعاع كوني، كانت الحياة تتوقف كلما تقدمت خطوة، كان بيتهوفن على يساري، وأم كلثوم على يميني، كان الجميع بكامل أناقتهم وبكامل استعدادهم للخروج، لم يتبق سواي.

قالت الدكتورة تالين: لقد غيرنا البرنامج من البيت إلى الخارج، وحددنا المكان ولم يتبق إلا أن نعتذر منك لأننا لم نأخذ رأيك.

قلت: الضيف بحكم المضيف.

قال العم بطرس: على الرغم أن معرفتنا بك بالأمس، لكنني أشعر أنك أحد أفراد الأسرة.

قلت له: أشكرك وهو شعور متبادل.

اتجهنا صوب الخارج، أعلم أن نواياهم صادقة وأن سرائرهم صافية.

وأعلم أنهم أنقياء وكرماء، إلا أن الانتماء إلى عائلة بهذه السرعة يعتبر ضربًا من المحال.

خرجنا من اللفت إلى موقف خاص بسيارة فارهة، اتجهت الدكتورة جولي إلى كرسي القيادة، واتجه العم بطرس وزوجته إلى بابي السيارة الخلفيين، ووقفت أنا بعيدًا عنهم وعن السيارة حتى أعرف المقعد الخاص بي.

لم يكن هناك من مجال للحديث ولا للجدال، ركبت بجوار الدكتورة جولي، وأنا لا أدري ما الذي أتى بي إلى هنا ولا إلى أين أنا ذاهب، لمست مقود السيارة وكأنها تضع يدها داخلي على جرح قديم.

ببطء شديد بدأت السيارة حركتها، يبدو أنها لم تكن مرتبكة أو خائفة أو مستغربة، نظرت إليّ، كان أيضًا ناظم الغزالي يأتي ببطء شديد، يتهجى المسافة، يرتب الأشياء داخلي وأنا أبعثرها، يعيد صياغة الكلمات وأنا أخربشها، يضيء الأماكن المعتمة وأنا أتجه بعيدًا باتجاه الظلام، كنت أرى الأشياء مقلوبة ومعكوسة وملونة، «أبيض وأسود»، كان الشارع يتهجى الأناشيد التي كتبتها الهزائم المجهولة على واجهات المعارض، السماء على غير عادتها تزف النوارس إلى ما تبقى من البحر، لا أدري أين اتجاه البوصلة، كنت في حالة تشتت وغليان وخوف.

وصلنا، توقفت السيارة، ترجلنا، كان أمامنا مطعم بصالة كبيرة تطل على مسابح متعددة الأشكال، ومسطحات خضراء تأسر الألباب، وشلالات تطرزها بأجيج يشعرك بالسعادة والاسترخاء، تناولنا وجبة عشاء خفيفة بطعم بحري فاخر.

اتجهنا سوية إلى خارج المكان مرورًا بممرات تعبق برائحة اللافندر ممزوجة بعطور فرنسية بديعة، إضاءات ملونة تعكس على المرايا جلسات متعددة، هي الأروع والأجمل بجلوس الجميلات وأصدقائهن في الهواء الطلق، كلما اقتربنا من بوابة الخروج تسلل إلى سمعي عباب البحر.

خلعت نعلي لتقبل أقدامي سحر ذرات رمل ذهبية مدهشة، سرَتْ طمأنينة عميقة لمدائن القلب وعرجت لمساكن الروح.

جلسنا على شاطئ البحر المنسجم مع ضوء القمر في السماء، لتقطع جولي لحظات تأملي بجلوسها قِبَلَ وجهي، بينما جلس العم بطرس على يمين جولي وزوجته الدكتورة تالين على يساري، أشعلت سيجارتي بعد أن طلبت براد شاي، وطلب الدكتور علبة بيرة مثلجة وأخرج سيجارته الكوبية، بينما الدكتورة تالين أخرجت من حقيبتها كيس مكسرات وفواكه مجففة، طالما اعتادت على حملها معها أينما ذهبت كما تقول، واكتفت بطلب كأس نبيذ أحمر وشيشة عنب توت، وطلبت جولي عصير برتقال طازج، وشاركت خالتها في كيس المكسرات.

تبادلنا أطراف الحديث، بينما دخان سجائرنا المتصاعد يحجب لمعة النجوم ويرسم صور خيالات مبهمة تترجم أسرار دواخلنا.

عقد من لؤلؤ الدان زين جيد السيدة جولي المترف ببياض مخملي شتت انتباهي، لتبتسم لي بتفاحة تزين خدها، كان الجو لطيفًا، فحولنا دائرة من بخار صناعي التف حولنا بجو ناعم مشبع ببرودة

تشبه طعم حلوى النعناع، يكاد المكان لشدة جماله أن ينسيك الحرارة والطقس. على حين غرة باغتتني الشعر، أخذني إلى بحوره وشواطئه عنوة، لأمج دفء الحروف وتمطر سحابة عينيها على فيافي قلبي الواسعة التي بدت كأرض الصحراء قاحلة ومجدبة.

فجأة عادت الحياة إلى طبيعتها، عاودت الينابيع انتشارها والطيور رقصها والفراشات غناءها، أزهرت الورود وتفتحت السنابل.

عينان شاردتان، وحكاية ممتدة بامتداد الريح، لا شيء إلا أنا ومرآة مقعرة تعكس الأشياء.

كلما ابتعدت قليلًا عن الضوء سكبتني المسافات حلمًا في طريق المساء.

طعم الأشياء مختلف ودقات قلبي مضاعفة، كأنها صدى لقلب غير الذي في صدري.

صوت الموسيقى الحقيقي يأتي من أصابع القدمين، صخب السنوات المريرة يطفو كلما ذهب الوقت باتجاه الحلم.

كعاشق فقد بوصلته في المدينة المسكونة بالصمت والضياع، عليك أن تتحول إلى حب، أو إلى غيمة سداسية الشكل، أو إلى نهر جارٍ، أو إلى نخلة سامقة؛ لكي تشرب نبيذ هذيانك على الضفة قبل أن يسقط المطر.

كيف تكون السعادة امرأة وكيف تكون ملامح، وكيف تكون كأسًا يتصاعد منه الضوء والحب والابتسامة؟!

كان الوقت عطرًا ، وكان العطر بخارًا يرتب خزائن هذا المساء.

كيف تكون أنت ابتسامة مصطنعة ، أم جملة مهرولة باتجاه الأشواق ثنائية اللون؟! كيف تنحني لتقبل الغيم وفي أقاصي شفتيك امرأة؟! كيف تهطل لتمنح الأشجار بريقها وحفيفها وإشراقتها ، كيف؟!

كيف تصل إليك في زمن الحرب والقطيعة؟!

كيف تلملم الممرات والأرصفة لتصبح ضلعًا أعوج يقي قلبك الشمس والحر والحب؟!

كيف وشلالات البخار تبعثر الأيام الطويلة والقصيرة أمامك؟! الأيام التي شبعنا فيها نقاء وصفاء ولعبًا وجِدًّا وهزلًا ، الأيام التي ظمئنا فيها عشقًا تذروها شلالات البخارعلى أعين البحر.

عدت إلى داخلي، إلى حيث الجميل من العمر ، إلى حيث الحزن يترجل عن صهوة جواده، أتنقل في مدن الذكريات، قابلت نفسي عاشقًا ومعشوقًا ، التقيت بأبطال الرواية واحدًا واحدًا ، شاهدت العذابات وهي تنتقي المرارات وتستعيد الحزن من أنياب الفراغ، قابلت الرهانات الخاسرة ، الطفولة ، سنوات العمر المعلقة بين مرايا الفرح وشرفات الحلم.

قابلت الألم الذي حاصر اللحظة الجميلة على رصيف الانتظار.

كانت جولي تقطع المسافات التي داخلي، تملأ المكان جمالًا وعطرًا وأناقة.

كانت المساء، كانت الضوء الذي يأتي من القمر والنقطة التي تنتهي بها الابتسامة.

كنا على شاطئ البحر نحاول أن نلتقي، نحاول أن نحتفل بالظنون التي تملأ الفراغ، وكنت أحاول أن أمد يدًا إلى خاصرة الموج، كعاشق قال للريح:

خذلتني القبيلة وأنا أكتب قصيدتي الأولى.

عليك أن تمسي قيثارة بينها وبين الفراشات، سلسلة من أغاني الجنون، وأن تصبح قصيدة ممهورة بتوقيع فنجان القهوة، كيف تتحول المشاعر إلى قطار يبدأ من عينيها وينتهي في رئتيك؟!

كيف يكون الحلم مأوى وقوس قزح أغنية؟! كيف تكون أنت الكأس الممتلئة بالجراح؟ ببقايا أنثى كانت يومًا ما احتمالًا من احتمالات الربح والخسارة؟! ناتج المسافة بين أصابعك قد يكون غرورًا، وقد يكون شجونًا، وقد يكون رقم جواز سفرك.

الوقت لا يكفي للملمة نسيم البحر الدافئ ليكون أغنية، لا يكفي لكي تتكئ على عطر امرأة يفوح مسرعًا باتجاه قلبك.

هذا المساء يحث خطاه باتجاه الموج، وأنت كعاشق مد يديه إلى الصمت، بلل البخار المتساقط رأسي. وحده الوقت يحرس ذاكرة الليل وهي تنصت لموسيقى البحار.

كانت السماء صافية، هذا النبيذ لا يناسبني، وهذا البحر يثيرني جدًّا، كنت أنا أزرق اللون، وكانت جولي بفستانها الأحمر وكأس النبيذ وشفتين من توت.

كيف أحرر هذا المساء من طبول النبيذ ومن سهام النساء ومن المقارنة الخاسرة؟!

القصيدة في الحلق، لا هي التي خرجت ولا هي التي دخلت، إنها تصيبني بالقلق والتوتر، كيف أهرب من التمزق والانهيار؟!

كيف أكون أنا في حالة استعداد دائم لتباشير الفرح؟!

متى اتسعت دائرة الغربة داخلك انداح مستطيل القبح وزادت البقعة القاتمة اتساعًا، ومتى ما اتسع نطاق الجمال سيأتي من يهديك الحب والابتسامة ويضع في يدك وردة، وهناك من سيملأ حياتك بالمستحيل، فقط أشرع نوافذ المعنى.

كنت كعاشق يجمع بأصابعه «الحلم» القادم إليه من مدن الملح، فتحولت الممرات إلى خيوط رفيعة من الضياع والشرود والتوهان، أجواء رائعة، أصدقاء، عائلات، يجمعهم الحب وتفرقهم المصلحة. كان الجميع مستمتعًا بما هو عليه البحر من هدوء وسحر وجمال، وحده البحر يسمع بوحك وسيتخرج من داخلك الحزن والألم، ويمنح السعادة والطمأنينة، تبادل أطراف الحديث والضحك والوقوف أمام محطات العمر المشتركة وبقايا حكاية على محيا الموج وهو يبتعد باتجاه عينيها.

الاعتراف بالأخطاء غفران، والاعتراف بالحب إيمان، الاعتراف بالأخطاء يحتاج إلى حائط من الأغنيات التي ولدت بين شفتين من جمر، ورفع الراية البيضاء أمام جيوشك، سيدتي، نصر بطعم الهزيمة، ما أجمل الهزائم بين الورود.

كل ما أملكه في هذه الحياة هو قلب يحوي بين دفتيه قصيدة شعر.

كان العم بطرس يتكئ على ذاكرة بامتداد الأفق، تشعر أن وجهه مصدر للحكايات الحزينة، وكانت جولي تحاول أن تستدعي الذكريات، بينما كانت تالين وحيدة كفاصلة بين قطرتي مطر.

كان العم بطرس مجموعة طلاسم، لا أحد يستطيع قراءتها سواه، وكان جليًّا أنه بحاجة إلى الحديث، كان داخله يفيض بالأرقام والأحداث والأماكن والأعشاب والفحم.

كان المسيح يبدو مصلوبًا داخله، كان يكثر من الشرب وكأنه يتعاهد أشجارًا بالسقي أو ينقذ رهبانًا داخله من الموت عطشًا.

في حين غطت حواجبه البيضاء المتداخلة والمقوسة مقدمة رأسه.

قالت جولي: ما أجمل المكان! إنه يتناغم مع الذكريات ويبلسم الجراحات ويتواءم مع الفرح. ما رأيك - يا والدي - أن تحكي لنا جزءًا من ذكرياتك المرة والحلوة؟!

قال: حكيت لكم الكثير.

قالت: أعرف، لكننا نشتاق لسردك ولحديثك المطرز بالحزن وبالشجون وبالحب، وأرى أن المكان مناسب جدًّا للحديث وللاستماع إليك، ليس بآذاننا وإنما بالجوارح.

قال العم بطرس: لقد حكيت لكم كل شيء، ما الذي لم أقله؟!

قالت: لقد كانت حكاياتك عبارة عن نتف وأحداث منفصلة ومواقف مرتجلة.

قال العم بطرس: حاضر، اسألوا وأنا أجيب.

قالت الدكتورة تالين: ما هو أول سؤال قابلك خلال رحلتك الأولى؟

قال: ليس هناك سؤال محدد تفرضه عليك الآهات والمواويل الحزينة، مفارقة الأوطان هو موت صغير، والانتقال من منفى إلى منفى اختياري هو أن نذهب إلى من يستعمرنا بأقدامنا، وهو أسوأ حالات الاستعمار.

الوطن هو المسافة الفاصلة بين اللحم والدم؛ لذلك من الصعب أن يدخل بينهما سؤال أو إجابة.

قالت جولي: في الغربة مذاق الأشياء مختلف، ورائحة التين مختلفة، وطعم القهوة مختلف، كذلك إشراقة الشمس، حرارتها، دفئها، الليل في الغربة يتحول إلى كوابيس وأوهام وسهر، الصباح في الغربة سوط يجلدك على ظهرك لتذهب لخدمة سيدك، الظهيرة في الغربة رغيف خبز تأكله برائحة الخوف، تسكت به ذلك الشبح الذي يطاردك من بلد إلى آخر ومن ألم إلى ألم ومن جرح أصغر إلى جرح أكبر.

عندما تكتشف أن الفراشة لها وطن وأنت بلا وطن، بلا أبناء يجملون الحال ويكفونك الرحيل والترحال.

عندما تكتشف أنك وحيد إلا من جراحك وإلا من حزنك وإلا من هزائمك وإلا من طموحاتك المعاقة وأحلامك العمياء، عندما تكتشف أن أمانيك لم تهاجر ولم تسر لا مع الليل ولا مع النهار ولا مع الشمس ولا مع القمر، وأنها مخبأة بين دفاترك وبين كتبك المترامية تحت الأتربة، في الممرات وفي زوايا البيت المظلمة، حيث تحولت إلى متكأ للدقيق وللسمن وللملح وللفلفل ولأواني المعدن والفخار. هل توقعت كيف سيعاملك العالم؟

قال العم بطرس: وأنت تدير ظهرك لقبر أمك، لا تتوقع من أحد أن ينصرك، ولا تتوقع من أحد أن يستقبلك، ولا تتوقع من أحد أن يمد يده ليصافحك؛ لأنك لا حدود لك، أنت - فقط - مقبل على تحمل أخطاء الآخرين، مقبل على استلام أحلام ذابلة تركها أصحابها على الرصيف وواصلوا سيرهم، أنت مقبل على من يكيل لك التهم، ويقدم لك الحزن على كأس فارغة، وفي كل مرة تسقط فيها، يسقط منك شيء، في كل مرة تتعثر تفقد منك شيئًا، الاستمرار والمثابرة ليست سوى مغالطات نسلي بها أنفسنا.

في الغربة تصغر الأحلام وتكبر التفاهات.

قلت: وأنت متجه نحو المجهول لن تكون مشدودًا إلى صوت الموسيقى المنبعث من الفرقة الموسيقية التي تعزف على ظهر سفينة التايتنك الغارقة، لن تكون سوى ضحية السراب والفصول الباردة التي تمر من بين أصابع قدميك باتجاه القلب.

قال العم بطرس، وهو يحدق نحوي وكأنني على بعد أمتار منه، وقد أخرج نظارته ومسحها بمنديل كان أمامه:

لم أكن أوقف الرعيان لأشرب ماءهم، ولا الصعاليك لأحتسي نبيذهم، لم أكن لأستوقف قافلة ليس لي فيها لا ناقة ولا جمل، لم أتذكر أني دخلت خدر عنيزة ولا كان لي منها ولا من غيرها يوم صالح.

لم أخض معارك مصيرية مع الكلاب ولا الذئاب، ولم أعرض لحيتي السوداء يومًا للشمس. كنت أبحث عن الطريق إلى الكنيسة، إلى مريم العذراء، إلى الله، وأحيانًا كنت (أتجاوز الصليب إلى التل). كنت إذا سهرت صليت، وإذا نمت ناجيت روح القدس، لم أكن شرهًا للأكل؛ فقد تكفيني لقيمات، لكنني كنت أنيقًا حد التعب.

قالت الدكتورة تالين: ما يزيد الجرح إيلامًا، هو انشغالنا بالتفاصيل الصغيرة، وهي التي تقصر العمر!

قال: كنت مشغولًا بالبحث عن الله، كنت أذهب إلى الكنيسة وحيدًا، وفي أوقات الخلوة لعلّي أجده هناك، لعلّي أنفرد به، وكنت أنسى الطريق، ثم أعود لأبحث عني، وأنساني ومن ثم أعود لأبحث عني. كنت كل مساء أعيش حلمًا جديدًا، وكل صباح أعيش سؤالًا أجد.

كنت أتساءل: ما هو أغلى شيء في هذا الكون؟!

وكنت أظنها لعبة، وعندما كبرت عرفت أن أغلى شيء والذي لا يقدر بثمن ليس إلا الحرية، ولا سواها.

كنت أحب زوجة جارنا الجميلة التي كانت تعطيني الحلوى والعصير والقُبَل، وعندما كبرت عرفت الفرق بين الملكيات الخاصة والعامة.

كنت أصغي إلى ظل عصفورة ترتب غرفتها كل صباح، كنت أسامر نفسي، أسمعها الشعر وأسمع منها كل مساء حكاية وأنام. كنت أتحف زاوية مظلمة لا يصل إليها الضوء.

قالت جولي: أحيانًا نكون وسط كومة من الضباب تضيع منا الآهات، ويضيعنا الأصدقاء، ونضيع نحن منا، حتى تأتي اللحظة التي تتمنى أن تعرف من أنت؟

وأين أنت؟

وكم أنت؟ هي أكثر اللحظات بؤسًا وأسى وحزنًا وقساوة على القلب.

قال العم بطرس: هذا السؤال أتعبني كثيرًا وقضّ مضجعي وأبكاني كثيرًا، لم أكن جريئًا حتى أغادر ذاتي المتصحرة إلى مناخات أكثر تصحرًا، لم أكن لأقول لهم:

من حيث لا تنبت الأرض إلا الألم أتيت، ولكنني كنت أقول لكل من سألني: من حيث لا تنبت الأرض إلا الورد أتيت، ومن منابع الماء والحب خرجت، ومن حدائق بابل المعلقة نزلت. لم أتحدث عن الذين عبثوا بالأرواح وبالاقتصاد وبالثقافة، وحولوا مدننا إلى عواصم للحزن والألم، وأغرقوها بالدماء والعويل والبكاء، في طريقهم للبحث عن الحكم أضاعوا الصلاة والحب وصلة ذي القربى والتسامح، أضاعوا الوطن تحت مسمى الحكم الرشيد.

قلت: يا عم بطرس، حتى النصح لم يعد مجديًا في زمن الانحطاط.

قال: صدقت، قلت لهم: يا صديقي، إن ما عند الله خير من قتل العزل، إن عين أخيك هي عينك، وإن يده يدك.

قلت: إن المصاب واحد، والحزن واحد، والجرح واحد، واليتم واحد، والفقد واحد.

قلت لهم: الشجاع لا يقتل أعزل، ولا يحاصر امرأة، ولا يقطع طريقًا.

قالت الدكتورة تالين: قل لنا كيف ودعك بلد وكيف استقبلك آخر؟

قال: بل قولي كيف تلتقي الأحزان المتراكمة بإشراقة البلد الجديد؟

كيف نلملم الذات المبعثرة في لحظة التشظي لنجعل منها ابتسامة؟

كيف نجمع الذكريات على الذكريات لتكون وطنًا؟!

ثم نظر إلينا جميعًا وسبقت حديثه نهدة أظنها لو نزلت على جبل لأصبح ترابًا، اغرورقت عيناه بالدمع، وقال: من أين أبدأ؟! فحياتي كلها ذكريات مؤلمة، ثم التفت إليّ وقال:

يا بني، لا تغدق على نفسك الأمنيات؛ فالألم يكبر حين تمسي الشقوق التي كانت على قدميك وسادة تتوسدها في المحطات والمطارات والموانئ ونقاط التفتيش، بين العيون الخضر والسود والزرق، بين الطوائف والملل والنحل التي أصبحت فيها الشريد والطريد والتائه في نهاراتها والضائع في لياليها.

ما أصعب الخيارات الباردة في ليالي الشتاء، الحارة في ليالي الصيف، إن تحولت أنت إلى جلاد وليس سواك الضحية، وإن تحولت أنت إلى صوفي وليس سواك المحراب والإيمان.

كل شيء مكرور ومعاد ومتشابه ومقلد، إلا تلك الجميلة، لا تشبه من قبلها ولن يشبهها من بعدها؛ إنها الاستثناء الجميل في هذا الكون، سيدة كل النساء، جعلتني أفرح مما أبكاني بالأمس وأضحك مما أوجعني، لقد بلسمت جراحاتي.

قالت جولي: إننا نترضى على أيامكم المريرة!

قال: لا، نحن ولدنا في زمن الحيرة والقلق، التخبط العام والخاص، كنا نخاف أن نصطدم بنا، نذهب، لا نذهب، نقفز، لا نقفز!

آتي مع الصباحات نسمة عليلة أم مع المساءات حلمًا شاردًا؟!

أعشق أم أترك العشق لأهل العشق؟! ليس ترفًا ولكن خوفًا من المجهول.

- حدثنا كيف كان الحال في بغداد؟

- أحزاب، صحف، منظمات مجتمع مدني، مكونات اجتماعية، عشائر، الجميع يلهث بحثًا عن الحرية، ولكن الحرية المرتبطة بالملك أو المرتبطة بالمال؛ لذلك كانت البلاد كلما خرجت من حفرة وقعت في هوة عميقة!

كانت بغداد - في ذلك الحين - عبارة عن كومة من الأحجار والمباني والتاريخ، يركبون على ظهور الناس أيام الاستقرار، وفي

الحرب يقدمونهم قرابين لمصالحهم، لا مشروع لديهم ولا أهداف ولا أخلاق ولا قيم.

ثوريون ملطخة أياديهم بالدماء، تداخلت الأمور بين الغث والسمين، أمسى كل ما يلمع ذهبًا. الجميع يتجه نحو الهاوية، إن سقطت منظومة الأخلاق فلا أفكار ولا خطط لأيام بل لسنوات قادمة.

ثمة خلية نحل لا تكف عن العمل، ترى من المسؤول عن كل هذا الضجيج المرتب أحيانًا والفوضوي أحايين كثيرة؟!

قلت: أما أنا في هكذا حالة فأحاول أن أهرب إلى داخلي، وأبحث عن لحظة صفاء، لحظة نقاء، لحظة صدق مع النفس، أرتب فيها الأسئلة مع الأسئلة، والأفكار الإيجابية مع الإجابات المضيئة.

قال العم بطرس: المؤلم هو أن تكون الذاكرة ممتلئة وتكون أنت منهمكًا في ترتيب داخلك، عندها تكون كفارس هزمته الفراشات، وكعاشق خذلته المسافات.

كيف أعود إليّ؟

متى أتشرف بالنوم على شغاف القلب؟ كيف تكون الصلاة وكيف يكون الدعاء في أعماقي؟ كيف يكون الحج والطواف والصوم والبكاء على أقاصي الروح؟

ثمة أحرف تتسابق خارجي، وحنين يتلاحق داخلي، كلما حاولت أن أمد يدي إليّ، أقبل الحزن يصلح هيئته، يمسح عن شاربيه التراب.

هذا النبيذ بعثر كل شيء داخل العم بطرس، كل جملة بإيقاع، وكل معنى بلحن، ما يتبقى من الشفق يلمع في صدر جولي، السماء تقترب، والبحر يبتعد أكثر، وأنا أحاول أن أستفيق من الحلم، والعم بطرس يستأنف رحلته باتجاه الروح القدس، والدكتورة تالين ما زالت عائدة الآن لتتشبث بكأس النبيذ الأحمر.

واصل العم بطرس قائلًا:

رغم ما حدث، بغداد متمردة ولا تعترف بالقبح والدمامة، ولا بالعسكر والفقر، ولا بجواز السفر، كل شيء في بغداد يعبق بالأصالة، بالحب، بالجمال. كلما زادت الأزمات تظل بغداد كعودٍ زاده الإحراق طيبًا.

كانت بغداد عاصمة القصيدة والشعر والحب والسياسة، كان الناس يتمنون قبل المنيّة شيئًا واحدًا فقط، هو زيارة بغداد، كانتفي كل غروب شمس تفقد بعضًا منها؛ توهجها، بريقها، ألقها، كانت تتساقط كأوراق الخريف ورقة ورقة، استعاض البغداديون بماضيهم حتى صار الحاضر مجرد وقت ينتظر مروره من أمام مقهى أو شرفة أو حديقة منزل.

التاريخ حتى وإن كان بعيدًا، هو الزاوية الدافئة في ليل شتائي بغدادي قارس، كانت بغداد كل يوم تشرق فيه شمسًا تخسر لونًا من ألوانها المئة، وكلما حاولنا إعادة صياغة الواقع شوهناه أكثر.

كانت كل يوم تسقط، تارة بيد التتار، وتارة بيد المغول، وتارة بيد الغرب وتارة بيد الشرق، وتارة بيد أبنائها، وهو السقوط المرير بل الأمَرّ، كانت كل يوم تنزل في سلم الانحطاط درجة.

- ياعم بطرس، ذابت القواسم المشتركة من دين وقربى وجوار.

- نعم أفرغت من دواخلنا أشياء كثيرة، وطنية ودينية وتاريخية، النخبة قلبت الحقائق وزورت التاريخ، حتى التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والسنة النبوية، سخروها لمنافعهم الدنيوية، الجهة الوحيدة التي لم يستطيعوا حجبها عنا واعتبارها منجزا من منجزاتهم هي السماء بشمسها وقمرها ونجومها، كانت متنفسنا وفضاءنا وصلاتنا وحبنا وسعادتنا ودعاءنا، كنا نخاف أن نقطع الشارع من مواكبهم، نخاف أن نلتفت نحو قصورهم فنسجن بتهمة الخيانة العظمى.

قالت جولي: متى يصبح العمر فنجان قهوة؟

تمنحنا الشعور بالسيادة على الأرض والعرض بمزاج عالٍ، تعيد إلينا ما تمرد من الحلم، تجمع ما تكسر من زجاج القلب، تلملم نصف الهزيمة عطرًا ونصف الخسارة حبرًا ونصف القصيدة بهاء، وما تبقى من الوقت أغنية من ألم.

قال العم بطرس: كنا دائمًا مغرمين حد الثمالة بقلب كبير، بوطن يجمعنا، بفنجان قهوة يسافر بنا نحو المحيطات والخلجان، بابتسامة تكون بحجم السماء لا لها بداية ولا لها نهاية، بقصيدة تكون بحجم الكون تسمى وطنًا، لكننا وفي لحظة صادقة، وجدنا أنفسنا لسنا بالهامش بل خارج مدارات الزمن، خارج عقارب الساعة، بعيدًا عن

المشاركة في صنع مستقبلنا، نحن وحياتنا، نحن ومسؤولياتنا، نحن وجدنا أنفسنا أمام خيارين: الغربة أو المنفى، السفر أو الرحيل، الابتعاد أو الإبعاد، الهجرة أو التهجير!

كان القمر يتوسط سماءنا، وكان البحر يعيد تشكيل ذاته في كل لحظة لنستغرق نحن في الضياع بين دروب المتاهات، كنت أرى البحر في عيني جولي، وكنت أرى سفرًا يتعلق في ساعة الأفق، كان الصمت يشاركنا كل شيء؛ الخوف من المجهول، الرغبة في الرقص، البكاء على أشرعة السفن القادمة من مدن الوقت ومن جزر الموسيقى.

قالت الدكتورة جولي: أحيانًا تكون العتمة هي المكان الوحيد الذي نهرب إليه، فنلتقي فيها بالفرح، بالابتسامات القادمة من حقول الياسمين، بالضحكات الكبيرة التي سقطت منا سهوًا ونحن نرتب الأحزان المتعبة.

- متى استيقظ كبرياؤك؟

قال العم بطرس: في التاسع والعشرين من آذار، مارس 1954م، كانت بغداد على موعد مع غزو جديد واحتلال من نوع آخر، أحد أخطر أنواع الكوارث الطبيعية التي منيت بها بغدادفيضان نهر دجلة، والذي ترافق مع سقوط الثلوج، الأنهار رمز الحياة ونشوء الحضارات، وهي ذاتها مصدر الهلاك والدمار والخطر على البشر والحياة، هذه إحدى المفارقات العجيبة في الحياة.

29 آذار مارس كان يومًا كارثيًّا بكل المقاييس، فقد ارتفع منسوب المياه في نهر دجلة فوق المعدل الاعتيادي، وسقوط الثلوج قرب الحدود الإيرانية سبّب فيضانًا هائلًا قضى على كل معالم الحياة، قدمت الحكومة كل السبل لمنع ذلك الفيضان من الوصول إلى المساكن العامة، لكن أنى لقوة في الدنيا أن توقف ثورة الماء؟! استطاعت السلطات نقل البعض من الرصافة إلى جانب الكرخ، كنت الناجي الوحيد لأسرة مكونة من أم وأب وبنتين وولد، كان والدي مريضًا وكانوا يعلقون الآمال الكبيرة علَيّ لتحمل المسؤولية، كنت قد اجتزت اختبارات السنة الثالثة في الجامعة في قسم اللغة العربية، الكثير من الحقائق الصادمة وقعت ذلك اليوم.

ربع مليون نسمة نكبوا في يوم واحد، كارثة بكل المقاييس، لم أعد أمتلك أي شيء إلا وثيقة يتيمة هي شهادة الثانوية العامة، وجواز سفر ساعدني على استخراجه لاحقًا خالي بواسطة صديق له كان يعمل في دائرة الهجرة والجوازات.

أصبحت في حالة لم أستطع معها التفكير بالمطلق، سدت أمامي جميع الأبواب، لم يعد أمامي من حل غير البكاء على قبر أمي، ومن ثم الرحيل والهجرة. «الهم سيف بارد في الضلوع الدافئة»، أصبحت آثار الفيضان المدمرة حزنًا يمشي على الأرض، يطاردنا في الأزقة والشوارع، وهاجسًا حزينًا لأغلب الأسر العراقية، علامات الحزن والألم اجتاحت القلوب والوجدان في أقل من أربع وعشرين ساعة، القاسم المشترك بين الجميع كان الهجرة، ولكن إلى أين؟

الكل أصابهم الخرس، ولكنني عقدت العزم على الرحيل، أريد الهرب إلى حيث لا أرى حتى نفسي، ما من تعابير تسعفنا ونحن على مراكب الوداع.

الربيع الأخير من سنوات الحلم تحول إلى معنى، رفعت نظري باتجاه الأفق لأرى كيف انحنى المساء، كيف وجدته راكعًا على تضاريس الهزيع الأخير من الوجد؟!

تغيرت الأشياء، ذابت بهجة البحر، طار عبق الياسمين.

أصبحت الجراح مأوى وعيون السامرية سكنًا، كان البهاء والمساء والتلال والجبال والحصون والنجوم والقمر، كلها تحوم على طاولتنا.

كيف تحول المساء إلى غربال؟ وكيف تحولت اللغة إلى أنثى، والبحر إلى وجع، والقصيدة إلى ملح، والصمت إلى طائر يحلق فوق رؤوسنا؟!

اقتربت منظومة النجوم من روحي، كيف يمكنني إعادة صياغة اليقين الذي يتوسط سلسلة الأوهام التي تطوف من حولي؟! كيف يمكن إعادة اللحظة التي ولدنا فيها لكي نختار التاريخ الذي يجعل دوران الكواكب محصورًا بين الحب والحب؟!

ابتعدت كثيرًا، حيث أصبح صوت العم بطرس يتلاشى، وجولي تقترب، لقد أنساني هذا البحر أنني هنا، عندما يفيض الحزن تصبح الجراحات سُلّمًا نحو السماء.

نظر إلـيّ العم بطرس وقـال: لا تذهب نفسك حسرات يا بني؛ فالإيمان الحقيقي يعيد ترتيب الأشياء وفق «ما للّٰه للّٰه، وما لقيصر لقيصر»، الإيمان الحقيقي يجعل الكواكب والنجوم والشمس والقمر تسطع من داخلك، يجعل الجنة في أقاصي أصابعك.

قلت: يا عم بطرس، الإيمان والحب لا يلتقيان ولا ينتظران ولا ينتهيان.

- ولكنهما يكبران.

- عندما نكون بينهما.

- وعندما نكون على مشارف الألم، نقضي أوقاتنا المتعبة وتذوي أجسادنا، أنفسنا التي خارت قواها وأصبحت جاثية على ركبتيها. أن تفارق وطنك وترحل، يعني أن تفارق الروح ويبقى الجسد هائمًا في بلاد اللّٰه، أن ترحل وأنت على مشارف العشرين لم تخبر الحياة وكل ما لديك هو ثورة الشباب وحلم خبأته أمك ذات شتاء قارس تحت وسادتك.

كأنك تساق لقدر لا تعلمه، أن تترك الحي الذي ترعرعت فيه، الشارع، المدينة، الأصدقاء، الصباحات الجميلة، والمساءات المختالة على نهر دجلة، المواويل العراقية، أن ترحل عن عالمك، عن مدينتك معشوقتك الأولى، الرصافة بشوارعها الممتدة بامتداد الذاكرة، الجسر بانحناءاته، مواسمه، وتضاريسه، مواعيده ولقاءاته، النهر الذي أوله في قلبي وآخره في شواطئ روحي.

وأنت تشرع في المضي نحو الغربة ترفع شراع قاربك الصغير، تلملم سكرات الرحيل، تجمع المعنى على جناحيك، متاعان لا

ثالث لهما؛ صبر على الماضي، وأمل بميلاد جديد، حياة جديدة، لا أصدقاء يعيدون إليك الماضي والذكريات ويرتبون الأحداث والمواقف، ولا أحبة يذهبون بك إلى المستقبل والحياة التي تشبهك أنت، حياة لا تتنكر لوجودك فيها.

وهو يتحدث، رن هاتفي للمرة الثالثة، الدكتور مازن - سامحه اللّٰه - أحيانًا يكون مزعجًا! ابتعدت خطوات، وقلت لهم: عن إذنكم أرد على التليفون.

وحدها جولي تركت العم بطرس يسرد قصته الجميلة وأسلوبه الشائق ولحقتني بحسها وحواسها، كانت عيونها تطاردني، أنفاسها، كان الممر يتحرك، وكانت الورود وقناديل الزينة المضاءة المختلفة الأحجام والأشكال في حديث جانبي لا علاقة لنا نحن به.

المكان يغري على التجوال، ثلاثة أنواع ورد: صناعي، طبيعي، رباني.

الإيمان والحب هما المكون الأساسي للإنسان، وهما الجذور العميقة لحياة جميلة وسعادة لا سقف لها. كم يكون مؤلمًا أن تلتقي داخلك عوالم متناقضة، وأن يتحول داخلك إلى مخابئ ومدن وجزر وأنهار ممتلئة بالحب، وأنت يكاد يقتلك الظمأ.

أبعدت هاتفي عن أذني، كأني أرى امرأة القطار، امرأة المئة عام من العزلة، تذهب باتجاه البحر، كأني أرى القصيدة، الكلمات، الألم، المسافة، الحضور، الغياب، الذاكرة، الإحساس، المشاعر، الجامعة، جميعها تتجه نحو البحر، أصغيت

إلى وقع أقدامها الذي تماهى مع الرمل، كنت أراها تتحرك، أشم عطرها يسافر داخلي، ربما يكون إحساس الأبله الذي يرى الأمطار والأنهار تجري من نافذته في يوم مشمس.

مؤسف أن تعيش بين الحلم واللا حلم، وأكثر أسفًا أن تبحث عن امرأة أكثر ما قدمته لك جرحًا يتجدد مع إشراقة كل صباح!

تنفست بعمق، وتابعت خطواتي المثقلة بسيرة العراقي وقصته، قابلت نادلة كانت تعتمر طبقًا من الحلوى، وتغني وهي تتمايل، (البحر لا يسرق الجميلات ولكنه يخبئهن بين ذراعيه خوفًا من الظلام)!

رفعت نظري أبحث في كل مكان، لا أدري كيف يتبخر هذا الاهتمام من داخلي، كيف؟!

لست من عشاق المفاجآت والمغامرات والفوضى، كانت القرية توزع مفاجآتها بالتساوي، أحيانًا كانت المفاجآت سلبية وأحيانًا إيجابية. اعتدت أن أهرب من مفاجآت الآخرين غير السارة إلى ليل أم كلثوم، لم أكن أعرف الشك ولا ما يقول الناس ولا الخيانة.

كنت فقط أغمض عيني وأترك لأم كلثوم حرية التنقل داخلي، بين الشرايين والأوردة، شعور جميل وإحساس مفرط.

كان لكل أغنية رائحتها ونكهتها مثل المدن، ولها مداخل ومخارج ومتنزهات وحدائق، أحيانًا كانت تلتقي داخلي أكثر من أغنية في مكان واحد، وأكثر من رقصة، وأكثر من نصر، وأكثر من هزيمة.

اعتذرت من الدكتور مازن، أقفلت هاتفي، أشعر أنني فقدت اتزاني، وكان الفندق يتهيأ ليبدأ الاحتفال، فقد اكتمل بوجودها كل شيء.

لم أعِ ماذا قلت للدكتور مازن ولم أعرف ماذا يريد؟

أينما وجهت ناظريك يأتي عطرها، وتأتي ابتسامتها. النخيل مثقل ببهائها، والورد بعطرها، والموج بجمالها، والندى بأناقتها، والسماء بشموخها، والممرات بخطواتها، والمساء بهمسها. على بُعد ابتسامتها وغمازة خدّيها يتدحرج المساء باتجاه الشاطئ كتفاحة سقطت على كومة من الثلج.

عد إلى حيث السحاب والمطر مرة أخرى، هناك ضوء لسفينة في عمق البحر عابرة باتجاه الميناء، أحيانًا تكون المرأة سفينة تحمل همومنا وقلقنا وتربيتنا وخدمتنا وحبنا وتمضي.

عدت إلى كرسيي كعصفور بلّله المطر، اعتذرت وواصل العم بطرس حديثه.

إلى أين يمضي بنا شريط الذكريات؟!

قال العم بطرس: كنا نخاف ألّا نمنحهم أصواتنا في انتخابات مزورة وصورية، كنا نختبر الثانوية وليس لنا طموح في دخول الكليات السيادية؛ لأننا لسنا من أصحاب المصالح المرتجلة، كنا نخاف أن نكون مسؤولين سرقًا أو تجارًا محتالين، كنا نخاف حتى من الظلال التي يعتبرونها منجزًا من منجزاتهم، كنا نخاف

أن نفقد كرامتنا أمام قسم شرطة أو موكب أو حتى في جنازة، وعندما قبلنا بالهامش ضاق بنا، كما ضاقت بنا من قبله البلاد.

عندما قررنا الغربة لم يكن خيارًا بل كان قدرًا مُرًّا، وكان الأمرّ منه أن نقسم إلى ثلاثة أجزاء؛ جزء في الغربة، وجزء في الوطن، وجزء في القبر مع أمي.

كانت خطواتي باتجاه الغربة أشبه بشخص مغمض العينين يمشي إلى الوراء، لا يعلم أين يذهب؟ الزاد الوحيد لرحلة لا تعرف منتهاها هو قُبلة أمك الوحيدة. بدأت فروة الرأس بالتساقط واشتعل البقية شيبًا.

ما الذي أنت فاعله؟!

لا شهادة تحملها ولا خبرة تملكها ولا رفيق يؤنس وحدتك.

لم نكن نبحث عن مبررات البقاء أو عن مسببات المشاركة أو المحاصصة أو حتى البقاء كمراقبين، لكننا بحثنا عن طريقٍ آمن نستطيع من خلاله الخروج بما تبقى لدينا من قيمٍ وحبٍّ وأناقة روح.

كنا كل يوم يمر نفقد فيه قيمة أو نخسر فيه مروءة، كنا نحاول الخروج قبل أن نفقد الإيمان بالله ويدخل الشك في قلوبنا، وقبل أن نصل إلى (الشعور باللا قيمة).

القاسم المشترك للمنتمين للهامش.

كل خطوة تخطوها باتجاه الغربة على جمر، وكل نظرة تنظرها إلى الأفق إلى كسوف، وكل نهدة تخرج من أخمص قدميك، وكل دمعة هي جرح سائل. التفت إلى الوراء مرة واحدة حين تأملت

مدينتي الصغيرة، قبر أمي الحزين، كانت تنظر لي نظرة مُودِّع وهي مستلقية في قبرها على إستبرق من نور.

كانت الوحيدة التي تعلم أن أحدنا لن يرى الآخر بعد ذلك، كانت دموعها تتساقط كالمطر وهي تودعني إلى الجامعة، قبل أن يفيض النهر بيومٍ كنت لا أفكر في شيء سوى في النار التي تحت قدمي.

لم أكن خائفًا من الغربة؛ فقد كانت تسكنني، ولا من الهموم؛ فقد كانت تستوطنني، ولا من الألم؛ فقد كان يستبد بي، ولا من الخوف من المعلوم ولا من المجهول؛ فقد كان الرفيق والصديق، حتى الشك في اللا شيء لم يعد يساورني، حتى القلق أصبح مجرد زائر لطيف.

قالت جولي: ما الذي صنعته وماذا كانوا يريدون منك؟

قال: يريدونني أن أموت دفاعًا عنهم وعن كراسيهم، أو خوفًا منهم أو جوعًا بسببهم؟

- لماذا لم تقل لهم: إن الله واحد، والدم واحد، والعرض واحد، والمستقبل واحد؟! فلا تقطع يدك ولا تبتر رجلك ولا تفقأ عينك، لماذا لم تقل لهم إن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة؟!

قال العم بطرس: قلت لهم، وقلت، وقلت، وقلت، قلت لهم: إن الرحى سوف تتوقف، والشاة العرجاء ستصبح في المقدمة، فلا تجعلوا في كل قلب مقبرة.

قلت لهم: إن الناس سيقاتلون دون عرضهم، ودون دينهم، ودون مدنهم، ودون عقائدهم، ودون، ودون، ودون، فلا تستحقروا الحبة التي تمرون بسيارتكم الفارهة من فوقها، فغدًا ستمطر، وستكون سنبلة.

قلت لهم: إن السماء لا تمطر مطرًا فحسب، لكنها تمطر حبًّا وصدقًا وعـدلًا، والناس ليسوا بمستعجلين لكن عندما يتحول الوطن إلى وحل يحوي المتآمر والعميل والكذاب والفاجر، عندها لن تكون أنت قديسًا، فقد تكون أحدهم. كنت أشعر أن داخلي فوضى، وأنني يجب أن أتحرر منها، لم أكن أعرف معنى الهجرة والرحيل والسفر.

كنت أعـرف أن المكان الـذي لا يقبل بي أتركه، المكان الذي يضيق بي أهاجر منه، المدينة التي لا تحتضنك في الشتاء غادرها في الصيف، أرض الله واسعة ومناكبها شاسعة.

كنت أعرف أن الذي يدير لك ظهره صديقًا كان أو أخًا تجاوزه إلى حيث الأخ والصديق والرفيق، كنت أعرف الإحباط، الفقر، الحزن، البؤس، قابلتهم واحدًا واحـدًا، وجالستهم ليالي وأيامًا وسنوات، وكنت أصدقهم، كانت أغانيهم تطربني وإطلالتهم تشجيني.

قالت جولي: لقد كنت عاصفة فكرية عاتية. ما هي الكتب التي تشكّل منها وعيك؟

قال: عندما وصلت إلى الثانوية العامة كنت قد قرأت أغلب كتب التراث، وجـزءًا كبيرًا من الفلسفة، لكن التناقض الذي كنت أعيشه خلق داخلي سلسلة من الهزائم، دائـرة من الانكسارات، جميعها كوّنت شخصية مختلفة عني تمامًا، وتفكيرًا سلبيًّا أمسى يطاردني في الأزقة والممرات، حتى التقينا معًا في الجامعة، وتحولت أنا إلى إيجابي، وظل هو سلبيًّا، مما خلق توازنًا في التفكير وفي

قوى الخير والشر داخلي مع خارجي، التفكير السلبي يطارد الجميع لذلك نجد الجميع يتنصل من المسؤولية، الجميع يشكو، يتحدث بمرارة. الجميع أنبياء، الجميع شياطين، الجميع ملائكة، الجميع مصلحون اجتماعيون.

الحقيقة لم تكن خيارًا أبدًا، فنحن لا نعادي اللّه، لكن مع الدين تحت مسمى التدين، شركاء المصلحة بالأمس هم شركاء الدمار والخراب اليوم، كل يوم كنت في صراع مع الحلم والذات والفقر وكتب المدرسة، وكل يوم قبل أن تدلف الشمس إلى مسرح الغروب كنت أحاول أن أكون أنا. أبحث عن ذاتي التي ضلت هي أيضًا طريقها في شعب مرجانية ممتدة بامتداد آلامنا، متعرجة كخطايانا، بقدر ما تسعدنا الأقدار تؤلمنا.

اتصل الدكتور مازن، لن تتوقف موجة الأسئلة، ولن تتوقف موجة الإجابة متعددة الأوجه وهي تصعقنا كالكهرباء. هذا العجوز يضع يده على أكثر الجراحات غورًا داخلي، إنه يتأبط عمرًا ويتوكأ على ماضٍ كان أنا.

قال العم بطرس: مللتم من الحديث؟! وأخذ رشفة كانت متبقية في الكأس، أشعل سيجارة جديدة.

قالت جولي: عن نفسي مندهشة، لكن القروي النبيل، الاتصال الأخير غيّره، لم يعد كما كان. هناك شيء ما، أليس كذلك؟!

قلت: صحيح، سأحكي لك لاحقًا.

واصل العم بطرس حديثه، كلما تعثرنا أصبحت الفضيلة تحت أقدامنا، لا أجيد الحديث عن أشياء آلمتني ثم تحولت إلى مد، إلى ريشة، إلى وتر، إلى صفحة بيضاء، أو حتى أسطر متخمة بالنوارس.

الواحدة صباحًا، ثمة أنامل باردة تلامس وجهي، ثمة وقت مقرور يبحث عن معطف امرأة نصف شرقية.

في فصل الشتاء نادرًا ما تنظر إلى ساعتك، العشاق يحسبون الوقت بعيون من عشقوا فقط.

قلت: هل كنت تدون كتاباتك وقصائدك؟

- أسوأ حالات الكتابة عندما يفاجئك الشعر وأنت تلملم الوجوه التي في الطريق، في حقيبة للسفر، تفاوض الحزن، تعقد صفقة مع ذاتك حتى تنتهي من تلحين أغنيتك الجديدة. للسفر رائحة تشبه رائحة الموتى. وقفت أمام النافذة أنظر تارة إلى النهر، وتارة إلى الرصافة، وتارة إلى الكرخ، وتارة أخرى إلى قبر أمي.

أنا لا أنتمي إلى هذه الأرض، تحسست اللحظة التي أمامي، لست في حالة مقارنة بين الأشياء والأشياء، أنا في عجلة من أمري ولم يعد يعنيني أمر آلهة البقاء.

كان الوقت يجلدني على قدمي. لا أجيد الكتابة عن الألم، لكنه يجيد كتابتي باحتراف، يصنع منّي أحرفًا هشّة وومضات مؤلمة، يتوقف هنا للحظات لرسم ملامحي، وهناك لثوانٍ، وبذات الريشة يرسم طريقي إلى المجهول، يجعل من تأوهاتي الحائرة

بندقية صيد مصوبة نحو الذات الباحثة عن المعنى المتدلي من السماء بعد سقوط المطر.

قالت الدكتورة تالين: هل سافرت عن طريق البحر؟

قال: لا، عن طريق الجو، الطريق إلى المطار مثقلة بآهات المسافرين وابتسامات القادمين، الحزن سيد المواقف، والأرصفة منبع السعادة، الحزن يصنع مفردات الحب أيضًا، وهو الوحيد الذي عليك أن تعيش في عهده وأنت بكامل أناقتك، تودعه في بوابة المغادرة وتستقبله في بوابة القدوم. كان المطار يتراءى من بعيد أكبر حجمًا وأكثر قتامة، كأنه طائر جاثم في الصحراء، كان ينصت لموسيقى قادمة من ثنايا السحاب، نقطة مستكينة قد تتحول لفاصلة أو ربما علامة تعجب، وداخل تلك الدائرة المحتوم أمرها خياران لا ثالث لهما:

إما أن تكون ساذجًا وتعطي رغم يقينك أنه لا أحد يستحق، وإما أن تتعلم معنى الشُّح ومعنى اللؤم ومعنى القسوة ومعنى الشك ومعنى الانحطاط، وتخفي كل معالم الجمال، كل المباني الشامخة وكل المعاني النبيلة التي داخلك.

قالت جولي: متى تكون الحياة سفرًا؟ متى تأتي إليك في رحلة العمر؟ متى تعود إليك في سفر جديد؟

سأبدأ يومي بالتوقف أمام المرآة، أتأمل وجهي عبر خطوط الزمن الموجودة على المرآة، سأتوقف عن الحب المشروط برائحة القهوة وبقايا العطر وصدى صوت فيروز، سأكون مغامرًا. هذه

المرة سأتوقف عن الهذيان، عن الشعر، عن القلق. العمر يمضي في طريق وأنا وأحلامي كلٌّ في طريق، لا أريد أن أكون شاهدًا على الأحداث ولا تكون الأحداث شاهدة عليّ.

سأضع هنا جزءًا منّي، وسأقول لبقايا ظلال تحاول أن تمتد حولي:

قفي عند أول نقطة في مضمار العمر.

قلت ياعم بطرس،

في زمن الحرب، يكون التفاؤل سلسلة ذهبية تطوق أعناق المتفائلين فقط، أحيانًا أكون غير متفائل. كلما وقفت أمام المرآة، يبدأ شريط طويل جدًّامن الذكريات، بعضها لا يزال طريًّا أو نازفًا، والبعض الآخر تحت سقوط المطر. توقد ذاكرة شخص أنهكته الغربة وهدته المنافي، أمر غريب، ولكن أن تقتات على الذاكرة خير لك من الأشياء التي تحمل على غلافها تاريخ انتهاء.

قال: ليس هناك وقت للتفكير.

ما الذي تحمله حقيبتك؟ ساعة يد تنظم دقات قلبك؟! تذكرك بك، الشاهد الوحيد على المواعيد الاستثنائية، إشارة البدء والختام على أرصفة الحزن.

ما الذي يبدأ به شريط الذكريات وما الذي ينتهي إليه؟!

تحتل أمي نسبة كبيرة، فبدايته هي ونهايته هي، متى يكون تفاؤلك بطعم البُن وأناقتك برائحة البخور؟! متى تكون أنت مطرًا وتكون هي وطنًا؟!

قالت الدكتورة تالين: نحب السفر لأنه يضاعف المعنى، ويسري في الأماكن التي لا يصلها الدم، نتغلب فيه على مخاوفنا؛ لأننا نقابل المختلف، ونصبح شخصًا آخر.

قال العم بطرس:

لأننا نترك جميع المصطلحات الفاسدة في المطار، مثل: التشاؤم، الكذب، الحجج، كل الأحكام السابقة؛ لأننا نلتقي بنا في لحظات هادئة، نكشف الستار عن دواخلنا المكبوتة، نعطي الفرصة للذات بالتعري على الشواطئ الأكثر أناقة.

عندما تكتمل الأشياء نحتفل بها، ولكن خارج حدود الزمان والمكان.

الأشياء الجميلة تأتي مرة واحدة، وبمركب واحد. الرقص، الرسم، الحب، الغناء، أحتاج إلى مدينةٍ تراقصني، وأنثى تضع يدها على كتفي، لتقول الحقيقة ما أجمل الفراغ الذي تعلمناه في الجامعة، أن تكون ممتلئًا بلا شيء خير من معرفة تقودك إلى العبودية، البكاء على أسنة الرماح، ما قبل الحب وما بعد الحرب، ما لا يفقهه الساسة ولا يتقنه العشاق. قالت جولي ما الذي تمنيته ولم تحصل عليه؟

قال العم بطرس:

ثلاث روايات تمنيت أن أكتبها ذات مساء في عينيي امرأة نصف قروية لا تعرف الحب.

تمنيت أن ترافقني في السفر، لكنها لن تترك قوانينها في المطار، كل شيء عندها دين، وقاعدتها أن المرأة هي مجموعة من النسكلا تعترف بالمتغير الذي يأتي على حساب الدين والشرف.

قالت ذات مساء ما الذي تحمله إلى منفى لا تعرف منتهاه؟!

قلت ويداي تشتعلان حبا ووجدا وجنونا، سوف أدعو السنابل كي تشاركنا ساعة الرحيل، تخرج من دارك، تركب سيارتك، يأتي الشعر، تأتي طاقة إيجابية. هناك شيء ما ينتظرك، هناك قدرك، هناك سماء مرسوم عليها صورتك، ونهر مكتوب عليه اسمك، هناك بناء هندسي مكون من أربعة حروف، توقفت في إشارة المرور، لكن المعنى لم يتوقف، الصورة في حركة دائرية، الوقت يبدد كل العصور أمامي، المعنى يتراقص حولنا، الغجر وحدهم لن يمنحوك فرصة لكتابة كلمة واحدة على الطريق.

كم تبقى من النبض حتى نصل؟! كل الصراعات التي داخلك توحدت في استقبال المجهول، كل المواد التي تعلمتها في الحياة، في البيت، في الجامعة، أصبحت مادة واحدة، الإشارة بوجه يبخط مستقيم، وأنا مقابل فضاء مفتوح. ما أصعب انتظار الوجع القادم!

قلت ياعم بطرس، لقد أثقلنا كاهلنا بالحديث عن الماضي والحديث عن الحاضر والحديث عن المستقبل.

انتقلنا من ساعة العسرة إلى عصر العسرة، نتفاخر بالفوضى، نشعر بالفخر؛ لأننا أهنّا الرصيف الذي يحملنا، نشعر بالسعادة لأننا تحولنا إلى مجهول، نشعر بالفرح لأننا أصبحنا عنصر مفاجأة سالبًا، امتلأنا

بشظايا بارود الحربين العالميتين فقط؛ لذلك لم يعد لدينا مشكلة مع الآخر، مشكلتنا مع أنفسنا، عجزنا فينا، هزمنا أنفسنا بقوة.

قال: صدقت، في الشارع الممتد من المدينة إلى المطار الجميع في حالة سفر، وحده النخيل ينتظر المواسم تأتي إليه، الرصيف في حالة قلق، السيارات في دورة مستمرة، الأتربة القادمة من السماء تنتظر المطر، درجة الحرارة العالية لن تسمح لك بفتح زجاج النافذة.

هل ثمة ندى، مطر؟!

لماذا تطاردك الأسئلة؟ تقطع الطريق أمامك؟

يفسح لنا الطريق مسافة تكفينا، لكننا نسعى إلى التعدي على ملكية الآخرين، فطرتنا سوية وتفكيرنا متخثر، الطرقات أيضًا بحاجة إلى عناية، إذا كان للطريق نقيض فهو أنت، وإذا كان له رديف فهو أنت، وإذا كان له عدو فهو أنت، وإذا كان له مشكلة فهو أنت.

الطريق له دين، وله مذهب، وله طائفة، وله إحساس، وله كبرياء، وله دستور ينظم حياته، وله برلمان، من القادم ينفي الطريق بقايانا، وفيه ما يفيض منا سواء كان حبًّا أو حقدًا، كرمًا أو بخلًا، سعادة أو جنونًا.

الطريق ليس البداية كما يظن البعض، إنهالنهايات التي تحدد مصيرك.

أحيانًا تستوقفنا فراشة تغني، تطربنا، تلملمنا، كلما اقتربنا من الوقت بعثرتنا، كلما قال الشتات: هنا مغرب الشمس، شرقنا

الظلال من الياسمين، المطر المنهمر لا يعرف الحب، في العاصفة لا الليل أضواني، ولا بسطت يدي للهوى.

نافذتان متساويتان أمامك يا فتى: منفى، ووطن ليس لك.

وهناك أنت،

نصف قصيدة،

نصف مدينة،

نصف عشيقة، ولا وطن.

إلى أين أيتها الرياح المكفهرة؟!

قالت جولي: متى كنت تأتي إليك، وتذهب كالرياح بلا مطر؟

متى خذلتك أسئلة المساء؟

قال العم بطرس: نعم، وخذلتني تباريح الندى، خذلني حلم كان يبرق في المدى حتى وإن كنت مفرطًا في التفاؤل والرغبة والجنون، توقف عن الهذيان، توقف عن لعب القمار بين الأهداب والجفون، ولا تَمُدنّ يدك إلى عينين شاردتين، ولا تتسول الحب، أو الموسيقى.

قلب امرأة مصلوب على جسر معلق من الذكريات إلى أين؟!

ويأتي الصدى، آتي أنا.

تتعارك الكلمات في حلقي، أشعر بغصص، تتناقص التفاصيل الجميلة كلما اتجهنا نحو المطار الذي تحول إلى نافذة كبيرة للرحيل، للمغادرة، للحزن.

كمسافرٍ اشتدّت به الريح في يومٍ عاصفٍ، كغيثٍ أتعب الزُّراع غيابه.

كجدولٍ أكل عليه الدهر وشرب، كموجٍ يتراقص على صدى صوتها.

كورقةٍ وحيدةٍ على غصنٍ مكتوب عليها: سفر بعيد!

قالت الدكتورة تالين: لذلك أغلب قصص الحب العربية وُلدت مشوهة.

نظرت إلى جولي، لقد اختصرت الدكتورة تالين حياة ربع مليار عربي في سطر، للحظات وروحي في عالم الحزن، ووجداني في شواطئ الذكريات، بينما جولي تتجاوز المكان إليَّ. أين تقف بنا الظنون؟!

إلى أين تسري بنا المواسم، وإلى أين أيتها المساءات المالحة؟!

إلى أين أيتها الكلمة السقيمة؟!

بالقرب منا، أمام شاشة كبيرة للإعلانات، امرأة تكاد تكون عارية، نظر إليها العم بطرس وقال: بعض النساء لديها رغبة في التعري، للكشف عن أماكن كانت تسمى في السابق أماكن الاحتشام، بمقابل مادي زهيد، كانت الإعلانات في السابق على أيامنا لوحة خشبية فيها من الاحتشام ومراعاة مشاعر الآخرين الدينية والقبلية الكثير.

قالت جولي: المرأة يقع على عاتقها واجبات أثقل من الإعلانات وأكبر من الدينار والدرهم، مسؤولية تجاه نفسها وأسرتها ومجتمعها.

لماذا أصبحت الإعلانات من دون حسيب ولا رقيب، ولا وازع ديني، ولا ضمير إنساني؟!

قلت: الأمور نحت منحى ماديًّا، ما أفقدها بهاءها ونقاءها، وما جعل الأشياء تتحول إلى متعة حسية عابرة فقط، الانحدار مستمر والهبوط متواصل.

من بعيد اقترب صدى موسيقى من أذني، توقفت عن الحديث، عليَّ أن أصغي إلى نعومة الصوت القادم من ضوء المصابيح الخافتة، الحب والغربة شيء واحد، أحيانًا تبدد الموسيقى الوحشة التي داخلنا وتعيد التوازن إلى كريات الدم الحمراء والبيضاء وفق إيقاعها هي، إلى أين أيها الصدى الأعرج؟!

- أعتذر يا دكتور عن المقاطعة، لكن أعتقد أنه لا مقارنة بين زمانكم وزماننا من كل النواحي.

- أنتم لم تصلوا رغم ما تتوافر لكم من وسائل، أما نحن فقد فشلنا في التوفيق بين الغاية والوسيلة، الدين والدنيا، المال والشرف، الهوية والمدنية. الجميع في شفاه الريح، توجهنا شمالاً أو جنوبًا.

- كيف كان المطار في ذلك الحين؟

- كان عبارة عن صالة بسيطة وكونترات وعمال يحملون الحقائب، وكان كل شيء يدون يدويًّا، لكننا لم نفقد كرامتنا ولا إنسانيتنا، ولم نشعر بالإهانة التي هي حاصلة اليوم في كل مطارات العالم.

المسافرون اليوم أشبه بكلاب بين المطر، تفتيش، إهانات، خوف من تفجير هنا أو عبوة هناك.

قالت جولي: سرقت منا الابتسامة يوم سرق الدين.

بالسابق كان يكفي الكلب المضروب إخراج السوط فقط.

قالت الدكتورة تالين: صحيح، فارق التطور والسرعة يحسب علينا لا لنا.

قال العم بطرس: أنت من المخضرمين، أخذت من الماضي الأصالة ومن الحاضر التطور.

كان على مشارف الساحة الخارجية للمطار أتربة متطايرة في الفضاء، سيارة واحدة رابضة عند البوابة، ترجّل منها رجل مسنّ. الوضع أشبه باحتفال رأس السنة، يمنح الكثيرين فرصة التنفس ولو على غير هدى.

ترجلت من السيارة، وقفت أتأمل السماء، المطار، الناس، الأتربة، الرصافة، دجلة، كما هي عادتي، أقف على مشارف التقدير المتبادل مع الذات ولا أتجاوزها.

قالت الدكتورة تالين: الآن أصبحت صالات المطارات تنافس النساء في التجمل والزينة.

قال العم بطرس: نعم، نهتمُّ بواجهات منازلنا، مبانينا، أبراجنا، مطاراتنا، ماركات سياراتنا، ساعاتنا، عطورنا، أحذيتنا،

نظاراتنا، لكننا لم نهتم بواجهات نفوسنا، قلوبنا، أرواحنا؛ لذلك تبدو الحياة جافة قاتمة، كلها حواجز صناعية. التفت إليَّ، لا تقل:

ذهب من كل شيء أجمله، حتى السهر لم أعد أحتاجه، أحتاج إلى جرعة أخرى من الحزن. في كل قلب مساحة كبيرة وورد وياسمين وأنهار وصحارٍ، لكن المساحة الأكبر هي صحراء قاحلة. لا تقل ذلك؛ لأنك حين تحاول الفرار من الواقع المرير سوف تجد داخلك أمرّ.

لا تقل عندما يصبح الوطن جسر عبور نحو المال والنفوذ لن تنبت النظرات سنبلة بين العيون، ولكن عليك إعادة قراءة المنظومة الأخلاقية، فربما تعرضت بعض بنودها لهطول المطر.

قالت الدكتورة تالين: بين كل هذا الضياع أين تكون السعادة؟

قال العم بطرس:

السعادة توأم الإيمان، وهي (تتعارض مع قانون الجاذبية، فكلما تقاسمتها مع الآخرين تضاعفت)، كل صباح كنت أبحث عن السعادة، ولما لم أجدها كنت أنتظر المساء لأتساءل:

هل ثمة ما يبهج؟!

أحيانًا كنت متفائلًا حد الهذيان؛ لأنني سوف أسافر وأحلق في الفضاء وأغني مع الطيور، وإن كنت أعرف سلفًا أن السحب المحملة بالمطر ستؤجل احتفالها بالذكرى الأولى لسقوطه.

كنت متفائلًا لشعور داخلي بأنني لن أكون جزءًا من هذا النسيج، لن أكون غصنًا يرتوي بمياه القبيلة ورحيق الفتوى ومخلوط السياسة، كنت أتألم لأن أجمل اللحظات نعيشها مع أشياء لا نملكها، كنت متفائلًا لأن كل يوم جديد هو تاريخ ميلادي، وكل نظرة لا تنتهي هي عمري، وكل ابتسامة ناصعة البياض هي توقيعي الخاص.

على مقربة من بوابة المغادرة ما من كلمات تفترش لحظاتي، صمت مطبق، كأن شيئًا عظيمًا ينتظرني في الداخل، شعرت برهبة وخوف، بشوق وحنين، وجوه الناس عامرة بالابتسامة، عمال رفع الحقائب في حوارات لم تنته.

سنوات الضياع أول القادمين إلى قلبك، في لحظة كهذه زخات مطر تمنح الجو برودة، أكثر ما أريده الآن بعد أخذ بطاقة صعود الطائرة هو فنجان قهوة لأستعيد توازني الذي فقدته بسبب أحاسيس غيبية، استشعرت اغتراب الروح والتياع النفس واختلاج الوجدان، تأملت طويلًا في المطار، الحركة، الحياة، كأنك لم تذهبولم تأتِ، كأنك أمام جبل يتساقط حجرًا، حجرًا، بينما الناس في حالة ذهول. كان نصفك الآخر في الجهة الأخرى من النهر.

مؤلم حين تتساقط الروح أمامك قطعة قطعة وأنت مسافرستعود إلى هنا.

أخذ منّي الحقائب ووضعها على عربة صغيرة، كان هنديًا بسيطًا لا يفكر بشيء سوى كم ستعطيه، وهو أسوأ تفكير من وجهة

نظري، في الهند 36 مليون إله، لكنني لا أعرف سوى (غاندي) و(طاغور) و(أوشو)، قد يكون هذا العامل الفقير هناك نبيًّا أو حتى نصف إله! لا تدري.

في بوابة المطار تكاد الأشياء أن تتكلم، أن تغني، أن تقول شيئًا ما. بقايا العطر تضوع في المكان، أثر الأقدام على الرخام، إنه الانتصار لقواعد العشق ومعاني الحب السامية ومسلمات الحنين إلى الأتربة التي تتطاير في الهواء.

ما أجمل الشعور بالهذيان، معاقرة الخيال، الانتماء إلى عالم المُثُل. أن تكون أنت نصف الحياة، ونصف العالم، وكل الحب.

قالت جولي: عندما يكون الرحيل هو الخيار الوحيد، تتأخر خطواتك، وكبرياؤك، تمتلئ ملابسك بالحزن، لذلك تصبح ثقيلة، فترى الضحك حماقة، تبحث عن عمود من الرخام تستند عليه، تكتب عليه قصيدتك الجديدة.

ببطء شديد، تمد يدك تتحسس قلبك، فتكتشف أنك بلا صبر، وبلا انتظار، وبلا معنى، وبلا حب، وبلا ذكريات. فجأة تكتشف أنك أشبه بمزهرية فارغة، وأن الطريق قد سرق منك صوتك وأحلامك ومناسك الوطن والغربة. فجأة تكتشف أنك تصغي لأغنية الحزن وتنسى أنك قد هربت منك إلى ما تبقى من الحب.

قال العم بطرس: الحب مشاعر تلقائية، شعلة عندما تأتي لا تنطفئ، يتغير وهجه ولكنه مثل الكهرباء يبقى تيارها إلى الأبد.

الحب الحقيقي هو الحب المستقل عن المصلحة، والمتجرد من الأنانية، وغير المشروط بردة فعل الطرف الآخر، مطر يداعب سعف النخيل، ويباب يراقص حبات المطر، وأزهار تتفتح، وعبير يسافر في الممرات والأمكنة، أشواق وأشجان وسلوى.

يبدو أنني لست بخير، أتحدث عن الحب وآخر عهدي به كان قبل الطوفان، أتوقف عن الحركة وأمنح الأفق البعيد نظرة استثنائية، لا يزال المطار مطوقًا بآثار الفيضان.

ماذا يختلج في الأعماق؟!

شوق أم حنين؟! وجع أم جراح؟! رغبة في سفر جديد أم هروب من الواقع المرير؟! ثورة تقتلع الماضي من الجذور أم تأصيل لما هو موجود؟!

لم يعد ثمة ذاكرة فتية، أتعبت بالرحيل والسفر والحب والفراق وعذابات الوطن والغربة.

تسكبني قصيدة تفعيلة، وأشربها قصيدة نثر، كل قطرة من قطرات المطر تحمل صورتها، تجاوزنا بوابة المطار، المسافة الفاصلة بين الحزن والحزن، بين الصوت والصدى. لست على ما يرام، إحساس مختلف، ودقات قلب تكاد أن تكون طائرًا يغرد من غصن إلى غصن، الصالة كانت متخمة بالمسافرين، لكنني أشتمّ رائحة عطر قديم، أكاد أجزم أنني أعرفه، تجاوزت الجميع. بين حضورها وحبات المطر علاقة استثنائية؛ فكلاهما رباني، وكلاهما موسمي، وكلاهما بحاجة إلى صلاة استسقاء. ثمة حزن أنيق.

هناك بالقرب (كوفي شوب) صغير يبيع الشاي والسندوتش بطريقة بدائية، لكنها تؤدي الغرض. متى تتحول الحواس الخمس إلى غمزة؟

هذه المرأة كالقمر كلما ابتعدت عنها أضاءت مساحة أكبر في قلبي.

وجودها حلم، وغيابها حقيقة مرة، توقفت قدماي عن الحركة، قائلًا للوقت:

هلا تأخرت كي نستعيد التوازن ونأتي إلينا؟!

أيتها الصباحات المستلقية على مقاعد المسافرين، تنحَّي قليلًا، فبي رغبة في الجلوس واستعادتي من أيادي الريح، بي رغبة في الغناء ولكن في شفتي جمر.

تفاؤل بحجم الكون،

موسم الهجرة إلى القمر، صالة المطار تحولت إلى قلق، شوك، برد قارس، اختبار آخر، يعود الجنون، تعود الأماني التي في السماء في حقيبة للسفر، ويعود الحزن، الخوف من المجهول، يعود حبها مشلولًا مقسومًا نصفين، يأتي صوتها مبحوحًا مجنونًا مسمومًا، تأتي الأماني، يأتي الغيم، يأتي المطر، يأتي البرد، تأتي على شكل قوس قزح.

بعض الألوان تؤذي العين، أيها الحلم، يا وجعي ويا وجع النايات، صدق الصينيون (البحر والنار والمرأة شرور ثلاثة) من أين أبدأ؟

كان آخر لقاء لنا في شفتيها، ثلاثة أعوام من الحب والحزن والانتظار، تغيرت، أصبحت كائنًا مختلفًا تمامًا، ربما لن تعرفني. كيف أكل الدهر عليَّ وشرب!

سأقول لها: شيخوخة مبكرة وأصابتني، سألقي اللوم على الطوفان، على النهر، على الحب، على الفراق، على الزمن، على السهر، على النساء اللائي تعاقبن بعد رحليها.

توقفي أيتها اللحظة، فما أعجلك!

تسافر بنا كالأطباق الطائرة، لا ندري أين هو اتجاه الرياح! لماذا يكون للعيون النرجسية بريق أخّاذ ثم يخفت كلما اقتربنا؟!

لماذا يكون للصدى المبحوح وقع أينما ذهبنا وحين تداهمنا يد الصباح يختفي؟!

إلى متى تظل العيون الكحيلة مسكونة بالسفر؟! أنا لن أسافر، لن أغادر، لن أكون على موعد آخر مع الحب. هذا النبيذ أساء للعم بطرس، ربما لم يعد يشعر بنا.

كيف يحكي تفاصيل العشق المنمق؟! إنه يطير ونطير معه في سماوات الحب العليا.

- ياعم بطرس، كان الحب خالصًا ونقيًّا، الآن أصبحت محطات العمر مجرد منشورات على صفحات التواصل الاجتماعي.

قالوهو يصلح من جلسته، يتحسس الذكريات بسيجارته، يتجلى، يتصبب عرقًا كأنّ وحيًا يتنزل عليه:

حين لا وقت إلا الصباح، ولا همّ إلا اللقاء، ولا خوف إلا العيون الجميلة، ولا حب إلا الجنون، ولا سهم إلا المنون، ولا بعد إلا الذي قد مضى، وإلا الذي قد رحل.

حين لا بعد إلا أنا،

حين لا قبل إلا أنا،

حين لا أفق إلا وميض ابتسامة،

حين لا بعد إلا الصباح القريب من دفتر الذكريات الحزينة.

قلت لجولي: لماذا تكذب المرأة في سنها ولون عينيها وراتب زوجها؟!

لكنها كانت مشتتة وخائفة أو منسجمة مع السرد الجميل لوالدها، كأننا نتابع فيلمًا رومانسيًّا. واصل العم بطرس حديثه:

توقف العمر عندها، لا تزال تحتفظ برونقها وجمالها وحسنها وبهائها وصفائها، اقتربت منها، كانت تقف مع فتاة وصبي، طفلان يشبهانني أنا، كأنهما فلقتا قمر، وكانت هي بجوارهما قمرًا مكتملًا، غطت على كل الحضور، لم يغير من حالها حال، ولم تتأثر بمجريات الليالي والأيام، تملك ثلاثة أشياء قلّ أن تجتمع: المال والجمال والتواضع.

بيضاء تكاد ترى الدم يجري في الشرايين، وطويلة كأنها في سفر متواصل إلى النجوم والقمر، كان فمها صغيرًا وقلبها كبيرًا، كانت عيناها أجمل عينين عرفتها البشرية، فمرة تراها سوداء ومره

عسلية، ومرة تكون مزيجًا كألوان الطيف، أما ابتسامتها فكانت مصحوبة بصوت موسيقي لا سواها يملكه.

أول مرة قابلتها بالجامعة كانت في الممر، أذهلتني، فاتنة ومتدينة، ولها مناسمها نصيب: شيراز، لم أستطع إخفاء إعجابي؛ لذلك كنت كلما قابلتها ابتعدت عنها، أخشى الوقوع في حبٍّ لا أعلم خاتمته، وكنت كلما ابتعدت عنها جمعتنا الأقدار وعدت إليها.

كانت أيضًا تبادلني ذات الشعور، وفي كل مرة نلتقي كنت أتمرد أو ربما كان هروبًا من عينيها، أو ربما كبرياء مراهق. عام كامل، لا هي كسرت حاجز الحياء، ولا أنا ملكت الجرأة، وقلت لها: صباح الخير. أحيانًا تضيق بنا الأرض فتسعدنا «كلمة».

كنت في السنة الأولى وكانت في السنة الثانية، آداب لغة عربية، وكنت أحب القراءة وأعشق المبيت بين دفتي كتاب، أسافر بين الأسطر وخلف الفواصل والكلمات.

الكتاب هو محرابي المقدس، مدينتي الفاضلة، طائرتي الخاصة، كرتي الذهبية، ميداليتي الفضية، ولذلك أرتاد المكتبة، حتى أصبح لي ركن خاص بي وبصديقي الشاعر، وفي صباح يوم جميل تفاجأت بها تقرأ كتابًا أمامي.

نظرت إليّ، نظرت إليها، أصبحت تقرأ في عيني وأقرأ في عينيها، كانت رواية محسوسة وديوانًا ملموسًا، هي نبيذ، كلما سافرت في شواطئه زدت عطشًا.

أحببت المكتبة وأحبّتها هي، أكملنا عامنا الأول، قلنا فيه الكثير والكثير دون أن نقول كلمة واحدة، لغة العيون أجمل اللغات، كل شيء زائل عدا لحظة حب صادقة، حتى الحديث مع النجوم يحتاج إلى لغات.

توطدت العلاقة، أصبحنا نمضي أغلب وقتنا في المكتبة، قرأنا أغلب كتب التراث، سافرنا مع الشعراء، عشنا مع أبطال الروايات، ناقشنا الفلاسفة في أفكارهم، جلسنا على الأرصفة، تعرفنا الأماكن والشواطئ.

كان كل شيء في المكتبة شاهدَ حالٍ على حبنا، وكان صديقي الشاعر هو الشاهد الوحيد على هزيمتي. أحببتها في المكتبة وبين صفحات الكتب وعناوينها، في الشارع وفي الصيف وفي الشتاء، سكنتها حلمًا جميلًا، واستوطنتني حقيقة مُرّة.

في الإجازة ضاقت بي الأرض بما رحبت، وضاقت بها كما قالت لي لاحقًا، كانت الأشواق تسافر في قلبي كهواء حار يشوى البطون، لم يكن هناك جوالات ولا (واتس آب) ولا (فيس بوك)، ولا (تويتر)، وحتى إن كان، لم نكن في تواصل سوى بالعيون.

كل صباح أحتسي كوب المرارات، خيبات الأمل، انكسارات الذات المكلومة، كل مساء أقطع المسافة الفاصلة بين الحزن والحزن مشيًا على الأقدام.

كل صباح أجمع من أشعة الشمس مظلتي، ومن قطرات المطر قاربًا للنجاة، ومن عثرات العابرين حقيبة للسفر، ومن سنوات الضياع ساعة للتفاؤل.

في المساء أبحث عن الحقيقة المرة، أتأمل زاوية ترتجف من البرد، لمّا تصلها أنامل الشمس الدافئة بعد.

لم أكن أعرف معنى الذكريات، لكنني كنت أشعر أن الأمس هو الأجمل؛ لذلك كنت أحرص أن أعيش اللحظة بكل تجلياتها.

وفي اليوم الدراسي الأول من السنة الثانية، أصبح لدي ذكريات، أمسى لدي قلق، وكانت الجامعة بممراتها وأشجارها ومكتبتها ترحب بي، تنتظر منّي تكرار التجربة، ربما تستمتع الأماكن بالحب عن بعد، بدندنة العشاق وهيام المغرمين.

عام جديد نستشرف قدومه، وعام راحل بلحظاته السعيدة والحزينة، المُرة والحلوة، القاسية وشديدة القسوة، عام (ودّعناه)، التقينا بأناس وودعنا آخرين، والبعض ما سلم حتى ودع، هكذا هي الحياة، أحببنا بكل جوارحنا، بكل حواسنا، بكل مشاعرنا، وكرهنا بقدر طاقتنا، تظاهرنا بالسعادة وقلوبنا تقطر دمًا، ابتسمنا وجراحاتنا غائرة، بكينا يوم النوى، حتى العام برمته، لحظات وداع وهزيمة وانكسار، فرحنا، تملكتنا السعادة، عشنا اللحظة بكل تجلياتها، وقفنا واستوقفنا، وبكينا، لكننا لم نستبكِ أحدًا.

عام راحل لكنه إلى المتسع من الذاكرة، حيث يتحول إلى ذكريات تنكأ ما قبلها من الذكريات، هكذا هي الحياة، عام

راحل، لا شيء تبقى سوى المروءة في مقامها، الكرم في برجه المعروف، في قمته الخير، سماء تحت السماء، الحب باعتباره وطنًا. يبقى صوتها نغمًا، ونظرتها سفرًا، وماعدا ذلك سيرحل مع الراحلين. في كل زاوية من زوايا الجامعة اختلج الوجدان وفاضت المشاعر.

استبد بي الشوق إلى الوقوف أمام عينيها لقراءة كل مدوناتها، تمنيت أن أبكي وأن أفرح، أن أغيب وأن أحضر، وأن أسافر لأفسر المعنى، وأسرح مع الطيور صباحًا وأعود مع ابتسامتها مساءً.

تمنيت أن تكون كل أماني الدنيا أمنية واحدة، تمنيت أن أسمع كلمة منها، تمنيت أن يكون لي جناحان كلما استبد بي الحنين أطير إليها، أقف على شرفتها، أسمعها وهي تغني (اسأل قلبك اسأل روحك)، تمنيت أن تتقارب المسافات وتضيق الطرقات حتى أراها، أرى شعرها الغجري يلوح بالسلام.

في طريقي إلى الجامعة كل شيء لا حدود له، طموح ليس له سقف، ذات مغرمة بكل ما هو بعيد، وطن يراوح بين الغربة والسفر، أجواء (لا صفت غيّمت)، رصيف كلما أتعبه العابرون أرسى وسادته في الطريق ونام، هكذا أرى الأشياء بتفاؤل عجيب، الذين سقطوا في بداية الطريق لا نعرفهم، الذين يحملون معاول الهدم تحت شعارات التغيير والبناء والديمقراطية هم الذين سرقوا البلاد ونهبوا العباد، هكذا عنوان إحدى الصحف وآخر، ليس هناك تناغم بين التعليم والواقع. الصحافة قد تجعلك تشعر بالاغتراب في

داخلك والتوحد في عالم أوله صخب وآخره ثرثرة، سأحتفل بمواسم الزهور. أنا فقط، وعلى العالم القبيح أن يذهب إلى الجحيم.

في أول يوم دراسي، أقبلت باكرًا، تجولت في الجامعة، لما تأتِ بعد، رائحة عطرها القديم يملأُ الممرات والأمكنة، أينما توجهت خيالها يملأ المكان، ومذاق الحب يقترب من شفتي.

الندى لا يزال على أشجار اللوز(الأماكن كلها مشتاقة لها)، العصافير تنتظر قدومها لتعزف لحنها المعتاد.

كانت أشعة الشمس ترسل أشعتها لتغسل الأشجار والأحجار والإنسان من ليالي الخطيئة.

اتجهت إلى المكتبة، اتجهت إلى المحراب الذي ظللت أتعبد فيه طيلة عام كامل.

اتجهت إلى المكتبة لتكون القصيدة والرواية شاهد حبنا الأول، دخلت المكتبة، وما إن فتحت (رسالة الغفران) للمعري حتى وجدتها أمامي، شعرت بحمى، التهاب بالمفاصل، كحة، عطاس، صداع، عيني، أذني، تداعى لها سائر الجسد، نظرت إليها نظرة المستغيث من الرمضاء بالنار، نظرة المغبون من الأيام والليالي، نظرة المشتاق إلى النوم في عينيها بعد طول السفر.

قابلت النظرة بالنظرة، والنهدة بالنهدة، والغمزة بالغمزة، وزادت أن رفعت لثامها لتشرب الماء، فزادت أشواقي جنونًا وهيامًا وزدت أنا ظمأ على ظمئي.

قالت الدكتورة تالين: هل تتذكر أول لقاء لنا؟

قال: نعم، كان في محطة قطار بروكسل.

قالت جولي: أعتقد أنها الرحلة الوحيدة التي لم أرافقك فيها.

قال العم بطرس: نعم.

قالت: كنت حدثتني عن انتقالك من بغداد إلى باريس، لكنك لم تقل لي كيف وصلت، ومن الذي استقبلك؟! كانت جولي قد فطنت للأمر وأرادت تغيير سياق الحديث.

- وأعتقد أن المكان هنا مناسب، إلا إذا اعترض الفتى النبيل.

قلت لها: بالعكس، أرحب بحديث الخبرة والطموح والنجوم.

قال العم بطرس: لا تستعجلي يا جولي، سآتي إلى ذلك، لقد كنت عاجزًا عن تقديم نفسي بعد مرور ثلاث ساعات وربما أكثر.

قلت لصديقي الشاعر: هذه الجميلة لمن تبعث بالسهام تلو السهام؟!

قال: لقلبك!

قلت: إنني خائف يا صديقي.

قال: إذا أردت أن تتأكد من أنها مغرمة بك، عليك أن تترك المكتبة وتذهب إلى الخارج، فإن لحقت بك فهي متيمة.

تركت مقعدي في المكتبة بعد تململ وتمهل وتقلقل، اتجهت إلى الفناء الخارجي كي أتنفس وأبلّ ريقي برشفة هواء طرية، كي أهرب من عينيها وخديها وصوتها الذي يسافر بصمت كالناي

الفيروزي داخلي، كي أمنح نفسي فرصة أخرى للوقوف، وكانت أشجار الفناء الخارجي للمكتبة أكثر شاعرية من الشعراء، وأكثر عشقًا من الأدباء، وأكثر ابتهاجًا من العصافير التي تتخذ من صدورها سكنًا لها.

وقفت خلفها وقبل أن أردّ أنفاسي المبعثرة كانت قد وصلت خلفي على الفور، لم تستطع مكافحة النار التي بداخلها، لم تتمكن من إخماد الحرائق التي أحدثتها ابتسامة عابرة لمراهق مكلوم.

وقفت بجوار شجرة فُل كانت أمام المكتبة، فتوقفت الأرض عن الدوران، وتجمدت الدماء في العروق، رغبة في التحليق في الفضاء، كأنه لا أحد سوانا في الكون.

هذا الكوكب لي أنا، وهذه المرأة الضوء والشعر والحب، لي أنا.

أشعر بالغياب.

إنها تجول بنظرها في المكان تبحث عنك يا فتى، اقترب من عينيها، من شفتيها، من سلالم ضفيرتها، كلما استنشقت أنسام الحب طارت من صدري باتجاه ابتسامتها.

كلما توكأت على القصيدة قفزت باتجاه العطر.

كانت عقارب الساعة تنكسر شمالًا باتجاه القلب، وكان المكان فوضى تعانق فوضى، أصحاب الكتب خرجوا من بين صفحات كتبهم مهطعين، الرواة أشعلوا النار في سراب المعاني، وأنا أكاد أكون مصلوبًا بين شفتين.

كيف أنتمي إلى الألوان؟!

كيف أنفض الغبار عن قلبي؟! كيف (أصدق هذا الجنون الذي يعتريني)؟!

باغتني الشعر.

يا جارة الفل هل تؤوين من عَشقا؟! وتنقذين فؤادًا ذاب واحترقا؟!

سهام عينيك لم تخطئ مقاصدها
كذا هواك يذيب القلب إن علقا
يومًا رأيتكِ قرب الفل ساقية
إياه والعطر عباقًا ومعتبقا
والشهد ينساب توّاقًا لنظرتها
والفُلّ يرقص معشوقًا كمن عشقا
فقلت أختلق الأعذار أسألها:
ياجارة الفل مَن للفل قد سرقا؟!
فالتف جسمكِ في لين وفي غضب
كالطير في الماء مبتلًا وقد رشقا
قالت ومفترق تحت اللثام يضيء
وجه الصباح وريح الفم قد عبقا
يامَن رحلت إلينا دونما عرض
العيش تبغي أم الموت الذي سبقا؟!
قال الفؤاد وجفن العين مغتمض
ياليت شعري أيخشى الموت من عشقا؟!

تركت المكان، اتجهت نحو سوق عكاظ وأنا أرقبها من بعيد ، لم أعد قادرًا على مواجهة أحد ، حتى أنا أشعر بالتعب، اتجهت إلى الممر باتجاه بوابة الخروج الشمالية ، عادت إلى أمام القسم، اتجهت إلى أمام المكتبة تتفحص الأشجار والأحجار والقاعات والطلاب، تناظر في أشعة الشمس الباردة ، كانت تمشي ببطء ، بعجلة ، ببطء.

اتجهت مرة أخرى إلى الممر الخارجي باتجاه بوابة الخروج الغربية، يبدو أنها قررت المغادرة، اتجهت إلى البوابة الشمالية، غادرت الجامعة وأنا منهك، متعب، حزين، سعيد.

لو لدي سوط لجلدت نفسي، ولو وجدت محلًا لبيع الورود لأهديت نفسي باقة ورد.

تناقض حد الجنون.

في اليوم الثاني جمعت كل قواي وحملت القصيدة كعصاة أتوكأ عليها ، لعل لحظة تكون كفيلة بتوقيف الزمن ولو لمرة واحدة ، كان الصباح كعادته ينتظرها على بوابة الجامعة، بينما أنا لم تسعني المكتبة ولا الجامعة ولا الكرة الأرضية، شوق على شوق، خوف على جنون مراهقة متأخرة، على أحلام متوهجة، كبت على انفصام بالشخصية ، ستأتي هكذا ، تقول أحاسيسي وتقول الحاسة السادسة ، أعرف مواقيت حضورها ومواقيت مطرها ومواقيت جنونها ومواقيت ابتسامتها.

كانت متميزة في كل شيء ، لا أحد يمشي كمشيتها ، كانت وهي تمشي تتنصب كنخلة باسقة ، كأنها حرف الألف. كانت وهي

تمشي يخيل إليك أنها تمشي على صرحٍ مُمرّد من قوارير، كانت تجيد عكس الألوان ومقابلة الأضدادٍ، في اللبس واللغة والشعر والحب، وكانت ساعاتها أقل ثمنًا وأكثر أناقة، كانت عطورها تشبهها، متمردة وهادئة وأصيلة، ناعمة، كانت خطاها كشكل هندسي متقن، ويدها اليسرى تتحرك بأسلوب رباني بديع، إحساسي أنها تقترب أكثر، أشعر عندما تأتي بأن احتفالًا سيكون مقره قلبي.

هناك من بعيد بين دفعة من الطالبات تتوسط كملكة، كانت حادة الذكاء، تعرف أين أكون أنا ومن أين تأتي هي، تعرف أنني لن أتوارى هذه المرة، لن أسافر بين عينيها عن بُعد، لن أتأمل جسدها وهو يبحث عني بين الجموع وخلف الأشجار وبين الكتب.

هذه المرة إحساسها كان صادقًا، فقد انتهى زمن الحرب الباردة، لا بد أن نجعل حوارنا متواصلًا مع النجوم، ونوافذنا مشرعة للسماء، وقلوبنا مترعة بالكأس.

لنترك الحب يملأ مسافاتنا الفارغة، يجلو الصدأ، يرتب خزائن المعنى، يبدد الحزن، يدفع عنا درك الشقاء وشماتة الأعداء، لنمتلك السعادة ولو ليوم واحد، ولو للحظة واحدة.

لا زلت عاجزًا وتجربتي أصغر من مغامرة كهذه؛ لذلك لا بد من حجة وسبب، يشفع لي أن

أقول لها: صباح الفل.

على مقربة، عيناي في عينيها، كلما اقتربت ضاق الكون واتسعت شجوني.

أغمضت عيني، تمسكت بكتف اللحظة، أخذت نفسًا عميقًا.

قلت لها:

أستاذة، صباح الخير.

قفزت كمُهرة تتدرب على السباق أو على الحب، ردت:

صباح الفل والورد والياسمين، كيف حالك؟

لم أصدق، ولم أستطع الوقوف، أنا بحاجة إلى جبل يسندني، إلى عصا أتوكأ عليها، إلى كأس ليمون يهدئ من روعي.

لم أحس بمرور الزملاء رغم أنني كنت على قارعة الممر، لم أشعر بالطلبة والطالبات، الحب أوله قصيدة وآخره منفى، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة.

كان كل شيء في حالة ذهول، الممر، الرصيف، الوقت، أنا، هي، مقررات الجامعة، زادت سرعة دوران الأرض.

لا يوجد خط فاصل بين أحلامنا وخيالاتنا، أتفاءل وأغرق في بحار التفاؤل، كل شيء ينتهي قبل أن يبدأ، وقد يكسف الكون فقط حين تغيب. كان أول لقاء، وكنا نقف على حافة الممر العلوي للكلية، كأننا في قارب صغير في يوم شديد الرياح.

كنت أبحث عن الشاطئ في عينيها، عن اليابسة في شفتيها، عن الجزيرة في خديها، الشتاء يؤدي رقصته على أطراف عباءتها المميزة، كل شيء مختلف؛ خطوات الناس، ارتباكي، الظلال تبدو مائلة وخفيفة، القصيدة مالحة وحامضة ومسكرة، كان

حديثها ممزوجًا برائحة عطرها. وكان خليطًا من الشعر والنثر والحكمة والبيان والعجلة والجنون والنظرات القاتلة، كانت مثقفة حد الغليان، وجميلة حد الجنون، وجذابة حد الدهشة، كانت حرارة أنفاسها تتدلى من شفتيها كعناقيد العنب، بينما على شواطئ عينيها كشف الحب عن ساقيه.

لا شيء على وجه التحديد تناولناه في حديثنا الأول، كان مجرد لقاء وانطباعات وتعارف وخوف وخجل، لكنها كانت السباقة إلى معرفة مَن أنا؟

كنت أنيقًا في عينيها ووسيمًا وشاعرًا، وربما كنت الرجل الوحيد، بينما هي كانت الأنثى الأخيرة.

كانت تقرأ في عيني كل ما قاله عمر بن أبي ربيعة وكل ما قاله نزار، وكنت أرى في عينيها أحلامي ومملكتي، كنت أقرأ في عينيها ما قالته ولّادة وأكثر.

كان كلانا قد مر بتجربة وإن لم تكن مكتملة الأركان، ولكنها كانت كافية لضرب أوتاد الحب، تجربة مثلت القاعدة الصلبة للحب الخالد، كانت تقف كسارية العلم تعبث الرياح بما تسنى لها من خصلات شعرها، مع كل كلمة يتقاطر الشهد من شفتيها. كانت كعصفور يطير من صدري إلى كتفي، إلى رأسي، إلى شفتي، وكنت كسيارة فقدت توازنها في طريق ترابي، كنت كثير الحركة، كلما ضاق الممر وازدحم بالطلبة أصبحنا

وحيدين، لا سوانا، لم أعد أسمع حتى تحايا الزملاء، الذين لا همَّ لهم إلا معرفة مَن تكون هذه الجميلة.

كان الشتاء في طريقه إلينا، كان كل شيء ممتلئًا بالدهشة، مثخنًا بالحلم، تتسع السماوات الخمس لأحلامك للحظة واحدة، وتتوقف الأرض عن الدوران بمجرد نظرة.

ماذا لو كان هذا اللقاء حلمًا وكانت هذه الابتسامة وهذا العطر وهذا الجنون رؤيا؟

ماذا لو كانت قصيدتك الأخيرة مجرد خربشة على جدار الوقت؟!

كنت أحاول أن أجيب عن أسئلتها، لكنني لم أستطع، لقد اختبأ صوتي خلف ضباب الإجابات المقروءة، قلت لها وأشعة الشمس تتأرجح بين الأغصان وتتنقل بين العيون:

الحمد لله، أنا بخير، وأنتم كيف أحوالكم؟

- الحمد لله.

- أستاذة.

- نعم.

- أحتاج مساعدتك.

- من العينين.

- لدي قصيدة وأنا ركيك بوزن الشعر.

- أبشر.

سلمتها القصيدة، كانت مكتوبة بخط يدي، وكنت ضعيفًا في الخط، حين كتبت القصيدة سكنتني الأوهام والأحلام والخوف والرجاء، فكان الورق أشبه بخربشات على طريق مهجور، أمضيت الليل بطوله أكتب، وعندما أقرأها أمزقها، حتى أشرق الصباح ولاح مع أشعة الشمس الأولى وجهها الوضاح، كتبت القصيدة كأجمل ما يكتبه الكاتبون.

مدت يدها الناعمة الطرية واستلمت القصيدة، وتمنيت أن تعيدها لي كي أسلمها لها مرة أخرى، أخذت القصيدة وقلبي وذاكرة كنت أتوكأ عليها، كلما ضاقت بي الممرات والبلدانتوقف الكلام، انعقد لساني، عاد الصمت ليملأ المساحة الفارغة التي بيننا.

قالت وأنا أغترف من عينيها الحب وأسقي أشجار البن التي داخلي:

غدًا - إن شاء اللّه - لنا لقاء.

قلت وأنا أتمنى أن تبقى ولو للحظة واحدة فقط: في رعاية اللّه وحفظه.

استندت إلى دربزين الممر، كانت وجوه العابرين تتناقص والساعة تسابق ظلال الأشياء، تعكس الإحساس بالفقد، بالفراق، بالألم. بين الرحيل والرحيل يُولد الحب.

كيف نعيد جدولة الطقس، ترتيب الأوقات، مداخلة الألوان؟

كيف أصبحت معلقًا بين برد الشتاء وابتسامتها الجميلة؟

في الجامعة القاسم المشترك بين الجميع هو الحب، البساطة، العفوية، السذاجة، الحلم، الرغبة في السفر، البحث عن وسيلة

للهجرة، حتى الزميلات لا يرغبن في الزواج أو الدخول في علاقة مع المحبطين وأعداء الهجرة، كلما مر طائر مهاجرحملته سلامي، كلما هبت نسمة ساحرة سلمتها أشواقي، كلما هلت سحابة خير أودعتها قلبي وأسئلتي وحبي.

(كلما نسنس من المشرق هبوب) بحثت عنها.

كلما غنى الصدى طربًا أتاني طيفها.

(كلما قال الصدى، كلما، كلما) تنسى أن هناك واقعًا عصيبًا، هناك رياح تعصف بكل ما هو جميل، تشرذم في زمن التكتلات، تفرق في زمن الاتحادات، علماء مختلفون في الأصول، أنظمة تتصارع فيما بينها، مجتمعات متناقضة مع ذاتها، نخب مشلولة. الذكريات الراهنة مثل العطور المقلدة سرعان ما تذهب مع أول هبة ريح.

تحاصرني الأشياء، أخاف أن تذهب ولا تعود، كالأمس الجميل، أن تضيع منّي في زحمة الحلم وفوضى العابرين. الأشياء الجميلة التي تذهب إلى السماء لن تعود. حين لا يتسع قلبك لسجادة الصلاة فلا تتأخر، اترك كل شيء وارحل. تكفي ابتسامتها زادًا، سأحملها معي، ابتسامة أنثى تحاول أن تجمع الضوء والياسمين، الوقت والانتظار، البرد والناي، البرق والحب، أول الأبجدية وآخرما قالت الريح لي.

أكثر الفروق وضوحًا بين ابتسامة صادقة وأخرى زائفة هي فترتها الزمنية.

متى وكيف تفيض بالبِشر والبشاشة؛ إذا امتلأت القلوب بالسرور الذي نالته عيونهم، فإن سرورهم يفيض بالابتسامة على شفاههم، فكأنّ ابتسامتهم تنطق(يااااه إنني أحب ما أرى)!

لا سواه الوقت، شاهد الحال الوحيد على حديثنا الذي يشبه قراءة رواية مقلوبة، لغة مكسرة، لا وجود للمعنى، ولا ترتيب للحواس الخمس، هي تسمع بشفتيها، وأنا أتكلم بعيني. عندما يمر الغيث من شواطئ عينيها يصبح الوقت ممتلئًا بالسنابل.

يبدو أن العم بطرس قد بدأ بالذبول، انخفض صوته، العمر هو اللحظة الجميلة التي نعيشها بكامل أناقتنا مع من نحب، هو اللحظة السعيدة التي يتوقف عندها الزمان ويرقص أمامها المكان.

كانت جولي أمامي كأنها كل نساء الكون، الطائفية المقيتة، يا سيدتي، مصدرها عيناك. عندما تأملت وجهها تأكدت أنها مصدر الأناقة.

من سوء الطالع أن تنبجس جراحاتك في وجه لحظة أمضيت عمرًا في انتظارها.

عندما نعجز عن التعبير عما يختلج به وجداننا نصمت، وحينما يفيض الصمت تتكاثرالجراحات ويجثو الحزن على الركب، كلانا حمل صاحبه، وحزن مدائني في جبينك يسطعأيها القادم من فضاء الكلام، واللون، والورد، والزنجبيل. لم يعد في القلب مأوى للجراح، لم يعد في الروح شوق للقاء.

اذهبي أنَّى شئتِ، قبلات الصباح سأقتسمها مع العصافير، وقبلات المساء سأقتسمها مع القمر، الصباح مبتدأ وأنت الخبر.

أشعل سيجارة أخرى، لست مدخنًا، لكني كلما تذكرتك بحثت عن التبغ، عن كرة أركلها في الشارع المزدحم بالسيارات والمارة، عن فرصة أدفع بها الشخص الواقف على المسبح القريب بملابسه الأنيقة إلى الماء.

إنها نشوة اللقاء بك في محيط الذاكرة الممتلئة، سأكتب عنك قصيدة جديدة تكون بداية عصر الجنون، فلا تشربي نخب هذا الزمان، ولا تلعبي في مآقي العيون.

إلى أين أنت راحل؟!

سأرحل خلف سرب الطيور، سأرحل إلى أرض أجد الله فيها ينتظرني ويجدني ممتلئًا به، إلى بلد لا يقر ارتكاب الخطايا، إلى اللّه، إلى مدن الصمت والصلاة، إلى نهرها العذب، إلى دجلة عينيها وإلى فرات مقلتيها، إلى سعة المحيطات، إلى نافذة المدى، إلى شرفة البحر.

ابتسمت نصف ابتسامة كمن عثر على فقده منذ أعوام لكنه لم يعد كما كان، آخر مرة مدت بصرها إليّ ألهمتني الشعر والنثر والرواية، وبعضًا من تراتيل الغواية. كان الحزن يحلّق كطائرة مروحية في شواطئ عينيها، يرسم آخر بريق في أقاصي المقل، كأنها ستفيض بالدمع، اغرورقتا، تلونتا بالأحمر الأرجواني، نظرت نحو النوارس التي كانت تنطلق بعيدًا، ثم تصدر صوتًا تشقُّ به البحر نصفين، وتبعثرنا كأوراق الخريف، كأنها تستمد منها النطق.

قالت وساد الكون صمت وسكون، ودخلت أنا في حسابات الليل والنهار، الزهرة والمريخ:

لا تغرق نفسك بالنرجسية - يا عزيزي - أخشى أن تأخذك قدماك إلى مدن أكثر إسمنتية، وإلى واقع أكثر مرارة، وإلى البراري الأكثر غليانًا.

إلى مدن تختفي فيها الإنسانية، ولا ترى سوى القوالب والأسلاك والأرقام وقوانين الفيزياء. كل من سبقوك لم يجدوا في طريقهم مدن أفلاطون الفاضلة، ولا قوانين حمورابي، ولا أخلاق السيدة العذراء، ولا شريعة محمد الغراء. كانت التعبير الإنساني الأعمق تأثيرًا والأكثر نفاذًا إلى الروح، طقوس وألوان وظلال وإيحاء وحواجز وأمكنة وأزمنة وتصريح وتلميح ومواجهة وغياب وانزياح وتراسل، تقترب وتبتعد. أنا بحاجة إلى قراءتك بروية، لا بعجالة وسطحية أو اجتزاء.

الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، الأضواء البراقة بدأت بالخفوت، راوي الحكايات الحزينة يتجه نحو الغياب، ضاعت الكلمات من شفتيه، أما عيناه كان عليها لاصق كلما حاول فتحها أغمضها النبيذ.

وجدت نفسي في القطار المتجه إلى عيني جولي، تتناوبني أحاسيس كثيرة، ومشاعر متفاوتة، أحلام وطموحات. ويا خوفي أن يكون حبًّا. سحبت بساط الحديث من العم بطرس، توجهت إلى الدكتورة جولي، عادت النادلة بيدها اليمنى إبريق شاي آخر، ورأس شيشة بنكهة عنب التوت، وبيدها الأخرى جمر.

قلت لجولي: ثمة غصة في الحلق تسبق ما يستحق القراءة، تسبق أشرعة الدخان القادمة من صحاري الآهـات، ثمة حلم ينام على صدري، ثمة أسئلة معقدة تستوقفنا في هذا السياق، أولها: مَن أنت؟

قالت: كنت نخلة سامقة في شواطئ دجلة، صعدت للسماء على هيئة دعاء، هبطت مع المطر فكانت أنا.

أنا امرأة تاهت في ضباب المرايا، ضاعت في غابات الذكريات، عملت عارضة لأزياء الندى، راقصة في مدن النايات، ومن ثم اعتزلت الحب والشعر والأمنيات، اعتكفت في صومعة الحلم حتى التقت عيناي عينيك، فكنت كمن فتح بابًا أغلقه ذو القرنين. ثمة بناء هندسي، كاد أن يتهاوى. أخذت رشفة من الشاي، مددت يدي إلى مبسم الشيشة.

الدخان والبحر وعيناها الحارقتان المارقتان، وأنا شِبابٌ في شفاه الجمر تشتعلُ.

أيتها المرأة الدخان، من أين أتيتِني؟

قالت: من بلاد الحضارتين، من بلاد النهرين، من بلاد المعلقات البابلية، من البلاد التي تموت وتحيا في كل عام آلاف المرات، من عروش ومنافٍ وشواطئ الحب، أتيت من بلاد الرصافة التي انبجس من ترابها أول الهمس وأول اللحظ، من طرقها المرصوفة بالحنين إلى الحنين، من عيون الندى، وتراتيل الصمت، وقطرات المطر التي فاض بها يومًا دجلة والفرات.

أتيت من بقايا الحضارات القديمة، من آلامها في مخاضها الأخير.

كان المكان أشبه بحفلة رومانسية، الجميلات وذوو الوسامة البراقة، النسيم، الطيور، امتزاج العطر النسائي برائحة البحر بنكهات المعسلات، لكن جمالها طغى وعطرها تميّز وأناقتها جعلتنا نُحلق فوق أيكِ الأفق، كانت أشمل وأكثر قدرة على سبر أغوار النتوءات التي أحدثتها حركة الحياة اليومية.

كيف حولت الرغبات الملحة واللغات المختلفة والقبائل التي تتصارع داخلي إلى حب وقناعات راسخة؟ أظننا الوحيدين هنا على شواطئ الجميرا. المعارك عديدة التي خضتها، وفي كل مرة كنت أخرج منتصرًا. اليوم تبدو هزيمتي بطعم المعسل ورائحة القهوة.

سألتها: كيف أثرت التكنولوجيا على منابع الثقافة؟

قالت: لقد أثرت إيجابًا في أماكن وسلبًا في أماكن أخرى، جففت العيون، أصبحت الجوالات رفيقة الدروب وصديقة الطرقات ووليفة الفراش.

الوحدة حاضرة وسط عالم ممعن في الغياب، عالم مسافر في اللا وعي، عالم مسكون بالسفر ولو عبر الشبكة العنكبوتية.

هذا الجيل أمره عجيب، لا فن ولا سياسة ولا حب ولا مروءة ولا مرجعية دينية ولا قناعة ولا إعلام ولا سفر ولا علم ولا علماء، القبح هو الأكثر شيوعًا في المنعطفات والممرات والساحات والمطارات وفي حقائب السفر وبين رموش الجميلات؛ لذلك الدول في سعي دؤوب لتجميل مداخل المدن والشوارع.

لا الحنين الحنين، ولا الذكريات الذكريات، ولا هديل الحمام هو الهديل، لا حديث الروح للروح، ولا آهات القلب للقلب. لم يعد هناك من ينصت لك، حتى أنت بحاجة إلى أن تنصت لنفسك!

كل شيء في طريقه إلى البحر، حيث الأمواج العاتية والرحيل المسكون بالمفاجآت والمغامرات. كلما قلت هذه سدرة المنتهى في أقاصي الروح قال حُلُمٌ جديدٌ أنت في أول الوهم.

اقترحت الدكتورة تالين العودة، قالت جولي ما رأيك؟

قلت: يكفي ما قضينا من وقت جميل هذا المساء، ولنا لقاءات أخرى، أنا وأنت فقط.

قالت: اتفقنا، أخذنا العم بطرس إلى السيارة، تحركنا على أنغام ثورة الشك، كانت أم كلثوم تدندن وكانت جولي بصوتها الجميل تغني، كانت في قمة نشاطها وحيويتها وجنونها.

كنت أمر على سلسلة الأبراج أشبه بسوبرمان، كنا نتحدى الجاذبية، نرقص، نغني، نسبح في الهواء الطلق كطائرين عائدين من المهجر.

وصلنا إلى أمام الفندق، أوقفت السيارة بالمواقف، طلبت منها ألّا تنزل لكنها ترجلت، حاولت إقناعها أن تذهب لكنها رفضت.

قالت: لماذا سكنت هنا، عدمت عليك المطارح؟

تعال اسكن عندنا، ضحكت وأنا أتجاوز الهول باتجاه المصعد وهناك تفاجأت أنها خلفي.

مدت يدها لتصافحني، قلت لها وأنا أوزع نظري في شواطئ عينيها:

لا أجمل من اللقاء والحب إلا الغيرة. ضحكت.

قالت: لن أودعك لأننا سنلتقي إن شاء الله.

في حفظ الله ورعايته.

صعدت إلى الغرفة، لا أرغب في سماع شيء ولا قراءة شيء ولا التحدث عن شيء، صليت، خلدت إلى الفراش، بدأت باستعادة شريط الذكريات.

نمت، رأيت فيما يرى النائم أن الدكتور مازن مر عليّ وقال:

إنه رأى رؤيا غريبة، وأن هناك عرافة نذهب إليها فربما نجد تفسيرًا عندها. لم أعارضه ولم أحاول إقناعه أن من أتى عرافًا أو كاهنًا لم تقبل صلاته لمدة أربعين يومًا.

فلما وصلنا كان البيت مزدحمًا بالمرضى والعشاق والفضوليين والحساد والمحسودين، تحلقوا جماعاتٍ وفرادى، كانت العرافة طويلة القامة، عيناها واسعتان، قمحية اللون، أقدامها بحجم كفها، جمال مشتق من السحر والشعر ومن العالم الآخر، مزيج من النور والنار، من الطين والصلصال، من الضوء والاشتعال، من البحر والأنهار، من الموج والقشعريرة، من الصخب الجميل والاستكانة المدوية. كانت كأنها لوحة فنية متحركة، شعرها مجموعة جدائل، في كل جديلة ورقة معمولة بإحكام، تقدمنا خطوة حيث كانت تجلس على كرسي كبير امرأتان كأنهما مساعدتان،

رئيسية على يمينها وثانوية على يسارها، يتوسطهما مندل رطب، البخور يملأ الأرجاء، يداعب الزوار، يبعث الرغبة والرهبة، ويشيع الحقيقة المزيفة في المكان.

قلت للدكتور مازن: هل تؤمن بالعرافات والمنجمين وعلم التنجيم؟!

كان البخور يقف على كتفيها، يلامس يدي، يغزو خصلات شعرها الكستنائي المثير.

قال: لا.

إنها المرة الأولى التي أزور فيها عرافة، لكنني أستمتع بحديث العرافات وخصوصًا الغجر، وكذلك القادمين من بلاد ما وراء الجهل.

- هل تدري أن خاتم الأنبياء والرسل قال: (من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد)؟!

- نعم يراد منه: أن من سأل الكاهن معتقدًا صدقه بعلم الغيب فإنه يكفر؛ لأن هناك خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله، جاء ذكرها في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾.

- ما شاء الله عليك، إنها في سورة لقمان، وقد سمّاها العلماء مفاتيح الغيب الخمسة: قيام الساعة مفتاح لليوم الآخر، ونزول الغيث مفتاح لحياة الأرض، وعلم ما في الأرحام مفتاح لحياة المخلوقات،

وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا مفتاح للأرزاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت مفتاح للقيامة الصغرى لكل إنسان بحسبه.

- هناك حديث آخر ما معناه: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة).

- نعم؛ لأن حديثهم يترك بصمة في القلب وصدى في الذاكرة، يتجرؤون بالحديث عن أشياء مصيرية، تقضي بموت شخص أو حياة آخر، إنها توغل في عالم الغيب. مدهشة ثقافتك الدينية.

- المدهش والغريب هو الإقبال العجيب على سوق العرافات في القرن الحادي والعشرين، واقفون وجالسون بمختلف طبقاتهم وفئاتهم ومستوياتهم العلمية والعمرية، حتى نحن، لم تقنعني المبررات التي ساقتني إلى هنا.

- الناس مجبولون على التعلق بالغريب وبالعجيب، وينجذبون للخرافة أكثر، ينساقون خلف مفاتيح الأسرار.

كان هناك شاب بجواره فتاة مائلة برأسها على صدره وعيناها معلقتان بعيني العرافة، وقد مدا أيديهما لقراءة الخطوط. في البدء تفحصت وجهيهما بدقة، ومن ثم خطوط يديهما، بدأت تتمتم بكلمات غريبة. نظرت للشاب وقالت له:

ستتزوج قريبًا، وسينال قلبك من تحب، وبالنسبة للعمل المعمول لكما فقد عملت له ما يفسده. تبسما وعانقا بعضهما، وسألها الشاب: من غريمنا؟ قالت:

الأقـارب عـقـارب يـا ولـدي، هـنـاك مـن يسعى لتفريقكما، لتشريدكما، لتحطيم قلبيكما؛ ولولا أنكما أتيتما إلى هنا لكنتَ في الشرق مجنونًا، وكانت هي في الغرب متزوجة!

رسمت العرافة ابتسامة على شفتين من خوف، وتنبأت بزواج قريب. تقدم آخر إلا أنها مطت شفتيها طويلًا ونظرت إليه نظرة السهول للحقول، نظرة البحر للسفن، نظرة السماء للسحاب، نظرة قليلها مسكر وكثيرها قاتل.

قالت: يا بني، احذر من قيادة الشاحنة في المساء، فسوف يقطع طريقك جرو صغير أو قطة برية أو أرنب صحراوي، ثم صمتت ولم تكمل، وساد الصمت المكان.

قال لها: هل تقصدين أنني سأموت بحادث في الطريق؟ والتحف معطفه سريعًا ومضى بين البشر الرابضين، يا له من مسكين، إنها لم تكمل حديثها، حتى قضت على أحلامه!

التفت إليّ الدكتور مازن وقال: أتدري! دعنا نمشي، كذب المنجمون ولو صدقوا.

- إنها محض افتراءات ولا يعلم الغيب إلا اللّه، لو كانت تعلم الغيب لاستكثرت من الخير.

- إذن لماذا أتيت بنا إلى هنا؟!

- أنا لا أبحث عن عرافة، أنا أبحث عن صرح، لعلّي أبعث رسالة إلى اللّه؛ فأشكو إليه حالنا ومآلنا، إنسنا وجننا.

- قروي نبيل، لو سمعك غيري لكفَّروك!

قالت العرافة: أهـلًا بك أيها القروي في عالم الغيب والشيب والعيب والريب، عالم السحر والشعر والوتر والجفر، بينكشف المستور وإزالة الحجاب، رفع الضر، دفع الهم، وقراءة الكف. أهلًا بك أيها الباحث عن الحقيقة، وعن الطريقة!

شعرت بالحرج أمام جموع المنتظرين، لقد اعتدنا على كره الذين يسبقوننا، الذين يتجاوزوننا، نكرههم لأنهم يأخذون جزءًا من جهدنا، حقًّا من ملكنا، شيئًا من حقوقنا، نكرههم لأننا تربينا على الإيثار والعطاء والمنح، تربينا على أن نفسح للآخرين في المجلس وفي الطريق وفي الأماكن العامة، شاب في العقد الثاني ذو سحنة شرق آسيوية، ملامح الدهشة والتأمل في وجهه، كانت صورته غبرة ترهقها قترة.

- ما بالك يا سامي؟! هكذا بادرت اقترابه منها بسؤال، فأجاب:

- أبحث عن إجابة، مصير أيامي عجاف، وأحوالي في خلاف، أمي للدواء محتاجة، وأنا في ضيق وهم وحاجة.

قالت:

- همك مرفوع، وضيقك مدفوع، وعلاج أمك على الرف موضوع.

اذهب واجمع من الطير منقارا، ومن الحمام ريشا، ومن البلبل البغدادي نغما، ومن العصفور وقيتين من لبن، احمل أمك على كتفيك كل صباح ثلاث ساعات لمدة سبعة أيام متوالية على أطراف

المدينة، وفي اليوم الثامن اجعل مما جمعت تميمة توضع على كتف أمك اليمنى، واقطع المدينة من الشرق إلى الغرب ثم ضع التميمة في الكتف اليسرى، واقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب.

كانت العرافة لا تنظر إلى مرتاديها، لكن القروي لم تفارق عيناها عينيه، من أول ما وصل أشعلت النار وأشبعتها بخورا.

قالت: نهرٌ جارف، وسرٌّ واقف، جبل عظيم، وحلم قديم، طير سلالته معدومة، ويوم شمسه مسمومة، وقية من مغنم، وهمة من أيهم، كنزك موجود، وحبك موعود، وتاجك مفقود.

ثم بكت حتى أبكت الحضور والبخور!

وقالت: النار تحشد جيشها، والشر يشحذ جنده، والموت يلبس جبة شرقية!

أيها القروي، افتح ذراعك للعجائب، وشراعك للنوائب، وجناحك للمصاعب.

ثم قامت من مقامها، كان غابة بأكملها، تحركت حفيف الأشجار، تدحرج الأحجار، زئير الأسود، انبعاث اللحود، الظلام يجر الظلام، برق على شفتين تحترقان، رعود ترقص في زجاج النافذة، أخدود يسامر أخدودًا. هبط صمت مخيف، تقدمت خطوة، عادت الأصوات والحيات والأحياء والأموات.

سألت الدكتور مازن وأنا أستنشق الخرافة والسحر والبخور:

هل تحس بشيء؟

قال:

نعم، لا أستطيع التنفس أكاد أختنق.

قلت له:

لقد رمى الجميع مشاكلهم على المندل الرطب وهي تتبخر دخانًا مسمومًا.

أشارت العرافة إلى الجميع بالهدوء والبقاء. تقدمت خطوة، ابتعدت، اقتربت، مدت يدها، أخذتني باتجاه الباب الذي دلفنا منه ومنه إلى مصعد بانوراما، الضوء كان خافتا، وكان عبارة عن مقصورة بها كرسيان من برق، وما إن استقررنا وربطنا الأحزمة حتى تحول المحيط من الزجاج إلى شاشة تعمل وفق الأشعة تحت الحمراء وفوق الضوء.

من أين ينبثق الحلم؟ من الإسراء أم من المعراج؟ من الأرض أم من السماء؟

من سقوطك في البئر أم قذفك في الحطب المشتعل؟

من ضياعك في القفار والبراري أم صعودك إلى مقصورة الأوهام والأحلام؟!

وصلنا إلى السماء الأولى وجدناها قد ملئت حرسًا شديدًا وشُهبا. استأذنت،

قيل: من؟

قالت: العرافة.

قيل: ومن معك؟

قالت: القروي النبيل.

قيل: أهلًا بك وبمن معك! فلما دخلنا وجدنا أقوامًا لا هم إنس ولا هم جان، عيونهم صغيرة ورؤوسهم كبيرة، أياديهم كبيرة وسيقانهم صغيرة، يمشون كالبغال، وفوق ظهورهم الرمال والأثقال، فقلت: من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنهم وكلاء الشيطان وسرقة الأوطان.

ثم تقدمنا فوجدنا نهرًا من لبن، ونهرًا من عسل مصفى، ونهرًا من عطر، تتوسطها مملكة يتزين أبناؤها بالديباج والحرير، كلما شربوا من اللبن ازدادوا بياضًا، وكلما اغتسلوا بالنهر عادوا شبابًا، وكلما تعطروا ازدادوا جمالًا.

فقلت: من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنهم عبيد الدنيا وقليلو الحظ من الخدم والحشم. فتقدمنا فوجدنا أقوامًا يتحدثون من أطراف أصابعهم،

فقلت: من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: الشعراء.

ثم تقدمنا فوجدنا شيخًا كبيرًا وصل به الحال إلى أرذل العمر، كأنّ وجهه سواقي ينابيع صغيرة وحواجبه ابيضت من الحزن ومن

الأيام والليالي، وعيناه جاحظتان ولحيته غانمة وبيده عصا من زئبق، فتقدمت العرافة ووقفت مكاني.

قالت: سلام عليك أيها الشيخ الجليل منّي ومن القروي النبيل.

فقال: أهلًا بكما، سنبلة وقنديل.

قالت: حدثنا. قال: بماذا أحدثك؟

تحاربتم على الكلأ والماء، ظلمتم الآباء فظلمكم الأبناء، بعتم الأرض فباعتكم السماء.

قالت: ما تبقى من الخير؟

قال: سبع، وسبع، وسبع، السبع الأولى جمر، والسبع الثانية خمر، والسبع الثالثة تمر.

قالت: هذا ما قاله الرب؟

قال: هذا ما قاله الكتالوج.

قالت: المسألة.

قال: المراكب مثقلة، والموج يزلزل زلزلة، والريح من قلق تجر أذيال الوله، سنوات غريبة، وأعوام عصيبة، رياح تعصف بكم، نيران تحرق سعفكم، وتهزم جندكم، وأنتم في عمه وسفه وعته، شلل وخلل وضلال مبين.

قالت: حدثنا عن العرافين.

قال: قوم ضلوا وأضلوا، يخطئون وإن أصابوا، ويبتعدون وإن قربوا، يعيشون بين مفتاح الأمان وأسنة الشيطان، لا يندمون على ما فات، ولا يحلمون بما هو آت، أعمارهم ممدودة، وحياتهم محدودة، وطنهم مهد، وغدهم لحد، ويومهم وعد.

أقصاهم مسلوب، وأدناهم محلوب، بلورة من نار، وسيف من قار، عذال وأنذال، أهواء وأنواء، أسياد عليكم وعبيد لغيركم، جهلهم موقر، وعلمهم مشفر.

جهل وفقر وكفر، ثراء وعلم وسكر، يركبون قاربهم في وقت شديد الرياح، يسعون لإعادة المياه الآسنة إلى النبع.

في الصباح يذهبون شرقًا وفي المساء يتجهون غربًا، بوصلتهم لم تكن الوحيدة التي تخطئ، فساعتهم أيضًا، كل توقيتاتها خاطئة.

يفسرون الحلم بالحلم، والكذب بالكذب، ويضحون بالخير فوق حبال الشر، يؤمنون بالمعبد، وينسون الله. السفر عندهم استثناء، والإيمان عندهم مأساة، يرتقون إلى أنفسهم نهارًا، ويهبطون إلى صدور الشياطين مساءً.

أولهم ماكر، وآخرهم كافر، علمهم خرافة، وجهلهم ظرافة. محبتهم لعنة، وصلاتهم تهمة. قلب غافل، وعمل زائل. وسيلتهم شر، وغايتهم خير.

استقامتهم للشيطان، ووعظهم للإنسان. المكان عندهم فنجان، والزمان برج.

تقدم شاب ذو سحنة إفريقية يعتمر طاقية ملونة كأنه من جماعة الحضارم التي استقرت في إفريقيا الوسطى، قال:

حدثنا عن (الكتالوج). قال:

هو الكتاب الذي فيه علمكم وعلم من قبلكم وعلم من بعدكم، البداية والنهاية، الجنة والنار، فيه أخبار خالقكم، ونبيكم، ودينكم، ليلكم ونهاركم، فيه أحكام وقوانين حياتكم، قول حق وإعجاز كوني، بلاغة الحرف وإنصاف المعنى.

عجزت العرب أن تأتي بمثله وهم أهل الفصاحة والبلاغة والأدب.

وعجزت الغرب أن تأتي بظله وهم أهل علم وفلسفة وفكر.

سحق الباطل وتجاوز الشعر وأسقط المعلقات والأصنام من حول الكعبة، وبنى مجدًا وأعز أمة ورفع شأن الإنسان الذي عمل به، الجامع لكل ما ورد في الكتب السماوية والصحف والتراتيل الإنجيلية. نظم الكون، بدءًا من الوقت، ومرورًا بالفصول والسنين، وانتهاء بالكواكب والنجوم والمجرات. يتكون من ثلاثة أجزاء:

الأول: لغة واختص من قبلنا.

الثاني: فقه واختصنّا نحن.

الثالث: علم واختص من بعدنا.

إنه الكتالوج الوحيد لهذا الكون، للشمس وللقمر وللنجوم وللأرض وللجن والإنس، وفر علينا الوقت والاجتهاد والبحث عن قوانين تسير بها الحياة، ولكنكم لمّا أعرضتم عنه تاهت بكم الدروب.

ذاكرة تحمل في طياتها الكثير والكثير، في الأدب واللغة والتاريخ والحب والجمال، وكلما أقبلت عليه كان جديدًا بأسلوبه، ثريًّا في صوره، دقيقًا في معلوماته، شائقًا في سرده.

الكتالوج وعد، رعد، مطر، روح، قداسة، فكر فردي - جمعي، حركة، لغة، ظاهر، باطن، أول، آخر، ما قبل الثورة، وما بعد الفن، كلما اقترب منك كبرت، وكلما ابتعدت عنه صغرت، يأتي بالكون من أقصاه إلى أقصاه في جملة، ويذهب به في معنى.

كل الأرقام وكل الحروف وكل اللغات وكل الصفات وكل التفكير وكل التعليم، كلما عاد بك للماضي وجدت مستقبلك، وكلما ذهب بك للمستقبل رأيت ماضيك، نافذة إلى الحياة، وطريق إلى الموت، وممر إلى الآخرة.

الكتالوج أوله إعجاز، وأوسطه تحدٍّ، وآخره برهان. أوله فضيلة، وأوسطه توبة، وآخره مغفرة.

قامت فتاة دون العشرين تعتمر طبقًا من سعف النخل، بين يديها طفل رضيع.

شعثاء غبراء عليها أثر السفر، قالت: حدّثنا عن الأبناء.

قال: الأبناء أربعة؛ صغيرهم سارّ، وكبيرهم بارّ، أولهم محسود، وثانيهم محمود، ثالثهم ودود، ورابعهم عنود. نساؤهم مرايا، وأزواجهم رعايا.

الأبناء هم نسيج القلب، خلاصة الخلاصة، خلاصة الحياة، خلاصة الوقت، خلاصة الحب، خلاصة العمل، خلاصة النجاح، وعمق الجمال، هم الزمن الحقيقي الذي يبدأ من الحب وينتهي بالحب. هم تذكرة الخلود، بوابة الفرح، نافذة السعادة.

هم الدرجة القصوى للمعنى.

الأبناء هم الظل الذي تأتي منه الموسيقى والهواء والمطر، والشعر والابتسامة والفن، هم الغاية وهم الوسيلة، هم الضوء وهم الظلام، وهم الاستثناء الجميل في هذا الراهن، وكل راهن. هم الأصل وهم الناصر وهم الإنجاز وهم الوعد، هم الجديد وهم الأجدّ، هم العطاء وهم الندى وهم الرغد، هم المصلحة ومصلحة المصلحة.

الأبناء هم المستقبل، وهم السنابل التي غرسناها في فيافي الحب ومراتع الفرح، إنهم الأجنحة التي نطير بها، والمظلة التي نستظل بها من الشمس ومن المطر ومن الأيام. إنهم الشفق الذي نأوي إليه، والنجم الذي نهتدي به، والنار التي منها نصطلي، والقمر الذي به نسير.

الأبناء هم النبع الذي منه نشرب ولا نظمأ، وهم الفكاهة التي منها نضحك ولا نبكي أبدًا، وهم الحب الذي منه نعشق وبه ننعم، وهم الأرض التي بها نحلم. هم الحياة التي نجلس إليها، والكَرْمة التي منها نبيذنا، والليل الذي فيه هجوعنا، والصباح الذي منه شروقنا.

الأبناء هم الخير إن صلّينا لأجلهم، وهم الحب إن سامحنا لأجلهم، وهم الوفاء إن عفونا لأجلهم. الأبناء هم العطر والندى.

الأبناء هم المطر إن كنا السحاب، وهم السنابل إن كنا بذرة الخير الطيبة، وهم الحصاد إن كنا الزرع المبارك.

الأبناء هم العطاء إن كنا السخاء، وهم المعنى إن كنا الكرم السرمديّ، وهم التهذيب إن كنا نحن أنبياءهم.

التقط أنفاسه، وتقدم خطوة رجل أعرج كأنه من رعاة الإبل، كان يرتدي ثوبًا ملونًا ويعتمر شالا كشميريا تقول ملامحه إنه غير عربي.

قال: حدثنا عن العدل.

قال: العدل من أسماء اللّه الحسنى.

شوكة الميزان بين الإنسان والإنسان، تشريع وسلطان، تاريخ وعنوان، سيف مَن لا سيف له، مرآة أحيانًا تصيب وأحايين كثيرة تخيب، دار للأيتام، وبيت للحكام، وجنَّة للعوام. لا يؤمن بالوصايا ولا بالقبيلة ولا بالحظ ولا بالصحافة ولا بالشعر ولا بالحب، ولا بالأشخاص، يدرك أن المرور على الجمر ليس كالسقوط في النهر، وأن انتظار الفرص قدر مَن لا فئة تنصره ولا قبيلة تشد من أزره، ولا حزب يكفيه السنبلة الوحيدة الأطول عمرًا على مدى أربعة مليار عام.

العدل هو السيف القاطع بين الحق والباطل، والحد الفاصل بين الخصم والحكم.

العدل نجم بدأ يتهاوى، وشمس آلت باتجاه الغروب، قانون علت عليه القوانين، كفتان مائلتان، نافذتان موصدتان، جناحان يكاد

ريشهما أن ينفد، سهمان لا قوس لهما، وكلما كثرت القوانين وزاد المشتغلون به كثر المظلومون، تخلى عنه الجميع لثقله.

القوانين تسنُّ، والعالم يفيض بمكاتب الحقوق ومنظمات الحريات والجامعات والحقوقيين والأكاديميين والوزراء والوزارات، والعالم أيضًا يضيق ذرعًا بالمظلومين، فكان العدل أول المظلومين، فلم ينصفه البشر.

العدل هو أنت إذا خلصت نواياك وصدقت أعمالك وكملت صلاتك واستوفيت زكاتك وسلم منك جيرانك وأكرمت ضيوفك وباعدت بينك وبين خطاياك.

العدل هو أن تعطي أكثر مما تأخذ، وتصلي أكثر مما تنام، وتتصدق أكثر مما تأكل وتلبس، وتساعد أكثر مما تتحدث، وتبكي أكثر مما تضحك.

العدل هو أنت؛ فأنت من ينصف الناس، وأنت من يوفي الكيل، وأنت من يحفظ العهد، وأنت من يؤدي الحقوق، وأنت من يحفظ الوصايا، وأنت من يأمن جارك بوائقك.

العدل هو الثوب الذي تلبسه أنت، فإذا انقطع بانت سوءتك، هو القلم الذي تكتب به فإذا انكسر ضاعت حجتك، هو اللسان الذي تتحدث به، وهو الجادة التي تمشي عليها إلى الصلاة وإلى العمل وإلى الحقل.

العدل هو النبع الذي تسقون به زرعكم، وهو إماطة الأذى عن الطريق وإفشاء السلام.

اقترب شخص قصير القامة، طويل اللسان، أصلع الرأس، هزيل البنيان، قال:

حدثنا عن السياسة، قال:

هي المساواة والعدل والتنمية المتوازنة، وهي الضحك على الشعوب، الكذب، النصب والاحتيال، هي أقوال بلا أفعال، هي الحواجز والمطبات والأسلاك الشائكة والحراسات والمصفحات والمجنزرات التي تقيدك تحت مسمى حمايتك.

هي الدكتاتوريات المغلفة بالجمهوريات، واليَهْوَدة المغلفة بالإسلام، والاستعمار المغلف بالوطنية، والظلم المغلف بالشراكة بصندوق الاقتراع، الرجل غير المناسب في الوقت المناسب.

هي الفن الثامن، وهي الحلم والعلم، تعترف بالشعار ولا تعترف بالشعائر. المكان المفضل لديها الشارع، ثقتها بالشيطان، وإيمانها بالنسيان، وفعلها بالإنسان.

السياسة بحر من زئبق، وبر من رونق، دين مهمته الإساءة للدين، السياسة أربعة أجزاء؛ الأول كذب والثاني كذب والثالث كذب والرابع كذب!

السياسة سلطة الجمر الملتهب، ولعبة الطائر البعيد، القريب، والنادر. مؤنث الأشياء، فلسفة الفلسفة، أدبية الأدب، وغرامية الغرام، وصحافة الصحافة.

السياسة هي فن اقتياد القطيع إلى المقصلة وهو يهتف بحياة الجلاد، هي درجة حرارة تنخفض في الصيف وترتفع في الشتاء، هي موجة من الولاءات، هي الضحك في مواطن البكاء والبكاء في مواطن الضحك.

السياسة هي علم الدراية بالمراوغة والمخادعة، واحتراف سوء الظن، والتربص بالآخر، ونصب فخاخ للعوام والهوام، هي فن التمثيل والادعاء النبيل، هي لوك الكلام وتحويل الجراح إلى مُدام.

هي السير في كل اتجاه من اتجاه واحد، هي التربص بالآخرين بحجة الخوف عليهم، وهي استنفار الحواس بحجة الدفاع عن النفس، وهي اقتناص الفكرة، وتنميق البؤرة، وتسويق الوهم، وهزيمة الحلم، وتشريد القيم، وتكميم الأفواه تحت مبرر الخوف على المستقبل.

السياسة هي حالة استنفار دائم، ومتواليات واختراعات وأوهام وديمقراطيات كهلة، وفتية مريضة، وصحيحة مشلولة، وعرجاء تسير على عكاز الوطن إن وجد.

السياسة أمنيات كلما أقبلت سرقتها العيون، لذلك هي انتظار دائم للذي لا يجيء من الحب والصدق والكذب والمواعيد المالحة والمسكرة!

السياسة هي تموجات وتعرجات لا تعرف الخط المستقيم، ولا تفقه معنى الانتصار للجميل إلا إذا أرادت مكرًا.

السياسة أن تكون في وطن قابل لأن يكون!

تقدمت امرأة عليها أثر الحزن، تناهز الثمانين، يبدو أنها من عرب ثمانية وأربعين.

قالت: حدثنا عن القدس.

قال: القدس. المسجد الأقصى، الحرم الإبراهيمي، مسرى خاتم الأنبياء، مدينة الصلاة، مدينة السلام، مدينة الحب، الأرض التي بارك اللّه حولها أنهكها التاريخ، أتعبها العشق؛ كل من تعلق بها سدد لها طعنة في الأحشاء.

تارة بيد اليهود وتارة بيد المسلمين، وتارة بيد الرومان، وتارة بيد الكنعانيين، وتارة بيد السبئيين، وكلما احتلها قوم شرّدوا أهلها وأسروا علماءها وقتلوا شبابها وفتيانها، تيتمت الأطفال، ثكلت النساء، أهلك الحرث والنسل، وفي كل مرة تطمس كل المعالم؛ مسيحية، إسلامية، عربية، صليبية، تنكيل بالأحجار والأشجار والتاريخ والحضارة.

القدس مستعمرة في الشكل والمضمون، شعب أعزل يواجه كل حقبة مستعمرًا، وبصدور عارية وقلوب ممزقة وأجساد أنهكها التعب.

القدس مدينة منهوبة، ندفع بها كل يوم إلى المشنقة، ونطلب منها أن تصمت، أن تفاوض. نتجاوز جراحاتها بالشجب والكذب والتنديد، قدرها أن تأكل الخبز ملطخًا بالدماء، وتشرب الماء بطعم البارود، وتنام على أشلاء وجثث الضحايا.

القدس مشروع حلم للمسلمين، للمسيحيين، لليهود؛ وفي كل مرة ينتهي في بداياته ويتحول إلى جراحات لا تندمل.

القدس قضية مسجلة ضد مجهول في دفتر النكسات والهزائم.

القدس أسئلة كثيرة تركها العالم دون إجابة وعادوا إلى قصورهم، تتفاوت هممهم في الدفاع عنها ونصرتها بمقابل ما ينعمون به من متع الحياة وخيراتها ، وما تعيشه قصورهم من ألوان الحبور ورنين السعادة، الخضرة والماء والوجه الحسن، المزيد - يا جارية - توفرها لهم شعوب ضربها الفقر في مقتل، فيهيمون بين الخمائل والجمال والأصوات العذبة والورد والنرجس.

القدس في المعركة وحيد لا مجيب لأنينه ولا مغيث لصراخه.

القدس تاريخ ممتلئ بالانتكاسات والمرارات، احتضان الألم، اعتناق البؤس، لتبقى الهزيمة في قلب الأمة ما دامت السماوات والأرض.

القدس هي المدينة التي تشقق الذاكرة بالحنين والآهات، والرغبة في الانعتاق من المزري والمخيف، والذهاب إلى مستوى أن يكون الإنسان إنسانًا يتعايش مع ذاته والعالم، وينجز أحلامه بضميرٍ خلّاق وانتماء إلى المعنى النبيل للإنسان.

القدس هي الشاهد الوحيد على تلاشي الضمير الإنساني، والنفاق الأممي، والعجز عن مواجهة الحق، والاشتغال من أجل العدل كقيمة إنسانية عظمى.

القدس إدانة للضمير العاجز، للضمير الأعرج، للضمير الذي يرى بعين واحدة.

القدس ستظل تنزف إلى ما شاء الله احتجاجًا على العالم المليء بالشرور والآثام، والذي يتوارى من الخوف خلف الغطرسة والكبرياء.

القدس مدينة الله فينا؛ لذلك نذوب فيها ولها، ونشعر أنها كياننا الذي لم نصله، ورئتنا التي نحاول أن نتنفس بها.

القدس هي المدينة الوحيدة التي علينا أن نبقى فيها لتظل فينا.

تقدم رجل أبيض كأنه اللبن المتخثر، نصف أصلع، لا شوارب ولا لحية، بيده اليمنى سيجارة كوبية واليسرى قداحة، قال:

- حدثنا عن الأحزاب.

قال: الأحزاب تركيبة اجتماعية، تتكون من أغنياء وفقراء، متعلمين وجهلة، أقوياء وضعفاء، تقوم على مجموعة من الأهداف والطموحات والغايات والشعارات التي تخدم ولا تخدم المجتمع، لعبة جميلة بين أطفال كبار، بين قبائل وعسكر، بين الأذكياء والأغبياء، بين الداخل والخارج، بين الريف والمدينة.

الأحـزاب كتل وتيـارات وصـراعـات، يعتلي صاحب القاعدة الجماهيرية، ويسحق من لا يملك قاعدة، سلطات نافذة، وحياة أخرى لساسة يمارسون برامجهم بمقتضى مصالحهم، أموال تكسب وأموال تسحب، جمهور بداخل جمهور، وسلطة داخل سلطة أخرى.

الأحزاب هي العائق الذي لا يريد أن يتكون في الاتجاه الصحيح، لتبقى المداهنة والمداراة والمجاملة والنفاق هي المكون الأساس على حساب المقدرات، البشر، الوطن.

الأحـزاب هـي الـوجـه الآخـر الأكـثـر مـأسـاة؛ فهي أرض خصبة للتشظي والتشرذم، وتكوين العصابات بأسلوب معاصر، وتحت مسميات ناعمة ودافئة.

الأحـزاب هـي القبيلة والمناطقية والعصبوية، مهما تسترت بالتذاكي ومهما كان خطابها مدغدغًا للمشاعر؛ فهي العالة، وهي الارتهان، وهي الارتزاق بأفكار وتوجهات ونظريات الآخرين.

الأحـزاب هي الاحتقانات والمكايدات، والتُّهَم الملقاة جزافًا على الآخرين، هي احتكار الحقيقة، وممارسة الفوضى، وادعاء الوطنية الزائفة.

الأحـزاب هـي الـدوغـمـا الـذي يصيب الـوطـن بالمأساة، وهي الكوميديا السوداء التي جاءت إلينا من الغرب بشكلها المزري المشوه الذي لا يمكن أن يكون جميلًا في ظل التخلف والأمية التي تمتد من أقصى البلاد إلى أقصاها.

الأحزاب هي البرامج المخادعة، والأيديولوجيا الزائفة، والقادة العاطلون عن العمل إلا من الكذب واقتناء الثمن.

الأحزاب هي العدوى المقيتة، هي كل هذا التخلف الذي نعيشه ولا يقبل أن يندحر أو يغيب، ويحضر بلهف من أجل مكاسب ذاتية على حساب الجغرافيا والتاريخ والإنسان.

تقدم شخص على كرسي متحرك كأنه مشلول، كان عليه أثر التعب لا تكاد تراه.

قال: حدثنا عن الإنسان.

قال: الإنسان هو القيم، النبل، الوقت، الصلاة.

هو الليل والنهار، الخير والشر، الحب والكره، البر والبحر، الشمس والقمر، الكفر والإيمان، الحرب والسلام، الناي والصدى. الإنسان يتخذ من الحب بيتًا، يجعل الليل سُباتًا، والنهار معاشًا. الخير قبله والشر بعده، ويتخذ من الكره حدودًا، ومن المروءة حلمًا، ومن البحر جودًا، ومن السماء النقاء والصفاء والجمال.

الإنسان هو الذي يجعل الشمس عن يمينه والقمر عن يساره، الإيمان في القلب، والكفر في الدرب.

الإنسان هو الحياة من دون إثبات، أو نفيمن نجم ثاقب إلى كوكب مشع، من وطن معطاء إلى مدن عمياء، من سماء ذات أبراج إلى أرض ذات فجاج، من بحر لُجّيإلى نهر من الدماء، من واضح كالشمس إلى مظلم كالليل البهيم. خارجه زجاج، وداخله رماد، أعلاه جنة، وأسفله نار، يمسي مع الدهشة ويصبح مع الحلم، يسكن إلى الوقار، ويسري مع السراب، كريم يغيره صباح، وشجاع يرعبه مساء. الفعل الجميل صار ذكرى، والقبيح وطنًا، يناصر البذل حتى يموت، ويعظم الكرم حتى يهلك، ويشجع النخوة حتى تضيع، يعتبر نفسه صراطًا مستقيمًا وغيره ضلعًا أعوج، عندما يكون مظلومًا يكون ديمقراطيًّا حتى النخاع، وعندما يكون ظالمًا يكون ديكتاتوريًّا حتى العظم، وعندما يكون مرؤوسًا يكون ثوريًّا حد الجنون، وعندما يكون رئيسًا يكون بربريًّا حد

الانفصام، وعندما يكون فقيرًا يكون طيّبًا حد السذاجة، وعندما يكون غنيًّا يكون فارس الصحراء.

الإنسان رسالة الله في الأرض، وعنوان للكون. خُلق هلوعًا إذا مسه الخير، وإذا مسه الشر جزوعًا. مزيج من الحب والكره، الخوف والأمان، الابتسامة والألم، الأمل واليأس، الحزن والفرح.

الإنسان طاعون في زمن الكوليرا، مثقف في زمن الظلام، ومحارب في زمن الخوف، يصلي فوق سجادة الغرق، ويرقص فوق شواطئ الألم.

الإنسان من دون دين عبارة عن ذاكرة من ملح.

تقدم كهل يرتدي بذلة صوف باهظة الثمن، وربطة عنق معمولة بطريقة أنيقة، كان معجبًا بنفسه حد الغرور.

قال: حدثنا عن السياسي.

قال: السياسي، هو إنسان مصلحته قبل الله.

يسعى أن يكون رجل دين، فيه الخير ومنه الخير، ولكنه لا يستطيع؛ يريد أن يكون شيخًا نبيلًا خيره لغيره ولكنه لا يستطيع، يحاول أن يكون تاجرًا شعاره عدم الثقة مقابل الثقة لكنه لا يستطيع، لا يؤمن بالمشاعر، ولا بالظروف ولا بالحتميات، ولا بالسلوكيات، ولا بالحيثيات، ولا بمن فوقه، ولا بمن تحته، ولا بمن أتى به إلى السلطة، ولا بمن أخرجه منها، يؤمن بمنبه الساعة فقط.

تلميذ نجيب كلما سنحت له الفرصة تجاوز أساتذته، كل عاداته مكتسبة. عسكري طموحه مدني، قبيلي غروره عسكري، وطني ولاؤه لنفسه. حينما يعترف يضع الآخرين في مرمى القوس، وعندما ينكر يضع الآخرين في فوهة البندقية. رقم صعب، لا يستطيع أحد حفظه ولا جمعه ولا طرحه، يقبل القسمة على ثلاثة ولا يقبلها على اثنين، لا فيه كسر ولا ربع ولا خمس، ضد الحب وضد التعليم وضد السلام وضد الأخلاق وضد الآداب وضد المنطق، إنه قائمة طويلة من المصائب والمحن والأمراض، نهر داخله كل شيء؛ سواقٍ، شلالات، ينابيع، منها الحار ومنها البارد، ومنها العذب، ومنها المالح، ومنها الصافي ومنها الملوث، مراوغ، حصيف، حريص، نابغة، ذكي، يلعب بخيوط العنكبوت، يقتل دودة القز ليستخرج الحرير منها.

اليد اليمنى للدولة واليسرى للوطن، شاهد عيان على كل شيء، إن صعد السهم للأعلى قال: أنا، أنا، وإن اتجه للأسفل قال: أنتم، أنتم، هم، هم.

الرقم الأصعب في سياسة الثابت والمتحول من الزمن، لا يعادي الشيطان ولا يصاحب الملائكة، صديقه الأول مصلحته، قانونه في الحياة أنا ومن بعدي الطوفان، مرجعية للوطن، للديمقراطية، للمذاهب، للطوائف، للفهلوة، للتحدي، للمغامرة، للشجاعة.

وقف رجل في العقد الخامس من عمره يعتمر عمامة بيضاء، أسمر اللون، له لحية بيضاء كأنه من عرب السودان قال:

حدثنا عن العرب، قال:

ملامح متقاربة، ومشاعر متباعدة، أقوالهم حِكم، وأفعالهم نِقم، أفراحهم بذخ، وأحزانهم عويل، يتوحدون شِعرًا وخطابة ويتفرقون أرضًا وإنسانًا، يفاخرون بماضيهم، ويدفنون حاضرهم، يعظمون بعيدهم، ويحقرون قريبهم، ويتآمرون على بعضهم.

مصالحهم في جيوب غيرهم، ومعابدهم في أراضي خصومهم، في النهار ملائكة، وفي الليل شياطين، في الضحى متبوعون وفي الليل تابعون، ثرواتهم نساء، وشهاداتهم إماء، صمتهم بلاء، وقولهم رياء، توسطوا الجهات الأربع، كانوا أمة وسطًا، لم يكن لهم نصيب من النهوض سوى الانتقال من وضعية الجلوس إلى وضعية الوقوف، عُرفوا برجال البحر وخاضوا عبابه إلا أن سفينتهم ظلت تائهة؛ لا هي التي غرقت، ولا هي التي وصلت، أضاعوا مجاديفهم وقيمهم النبيلة، العرب أمة واحدة وقبائل شتى وطوائف ومذاهب وعشائر وأحزاب.

قامت امرأة لباسها بنطلون جينز وقميص تركوازي اللون، لها شعر غجري أشقر زاد جمالها، أنفها طويل، يبدو أنها من عرب المغرب من بني هلال.

قالت: حدثنا عن العربي.

قال: مجموعة إنسان. انحدر من آية في سورة التوبة، تلتقي في وجهه براءة الأطفال وبساطة الشعراء ولؤم التجار وحقد الساسة، ليبرالي يستورد النظريات ويصدرها، واقعي إلى درجة الغليان وسريالي إلى درجة التجمد، يجيد التلحين ولا يجيد الغناء، صوفي بطبعه، ليست مشكلته مع الدين ولكن مع الأنبياء، مزيج من

الحزبية والبرجوازية والبروليتاريا والحب والبؤس، طموحه مسلوب وقناعته مصادرة، توجهه في أحايين كثيرة، صائب وحظه عاثر، تأتيه اللحظة التاريخية على طبق من ذهب فيحتويها بطبق من خزف، تضعه الساحات بوصلة على سجادها المخملي فيقفل صوب المجهول ويعيد ترميم ذاكرته داخل النفق، شعبيته في الشرق وحنينه للغرب، كلما ظللته سحابة قالت لها الأيام: اذهبي، وطنيّ بمزاج صعب، وحزبيّ بثقافة معقدة، وشجاع بما يستوجب الخوف، ذاكرة غائبة، معادلة نصفها مفقود، قصيدة يتيمة، يلتقي مع النضال والحب والوطن في دائرة الضيق والحزن والألم، تذهب به الرياح يمنة ويسرة وتعود به عصا الطاعة.

جسد خالٍ من الأحاسيس والمشاعر، يجيد اللعب في جميع الاتجاهات، لكنه لا يجيد التهديف، ومناصروه يتهمون الحظ في ذلك.

أغنية حزينة كتب كلماتها غراب البين، روّضته الأشجان، الحروب، الأحزان، الصحراء، الجبال، البحر. احتضنته ابتسامة شاردة، متعب من الرحيل، من الأسئلة، من الحروف المهملة، من دواعي القبيلة.

حِرفي يصنع قاربه بيده، لكنه لا يثق بركوبه، توكأ على عصاة مكسورة، يعشق القمم، ويتهيب صعود الجبال؛ لذا نجده في كل مرحلة يهرول نحو السهل. سباح ماهر لكنه يستمتع بالبقاء على الشاطئ، علماني على استحياء؛ فهو لا يولي وجهه شطر الديمقراطية بالمطلق ولا يعلن ولاءه لمبادئ الدولة المدنية، يسعى إلى إنتاج ثقافة قد تكون مزيفة، تتماشى مع كل ألوان

الطيف، أصيلة بجذور التاريخ، وعصرية من قلب العولمة. يعيش في العمق من الأحداث، وفي كل مرة يخرج منتصرًا ، حيث تشير التقارير إلى نزاهته، وفي كل خطوة يخطوها إلى الأمام كان يحتفظ بأخرى إلى الخلف!

خيم الصمت في أرجاء المكان، وتوقف الجميع عن الحركة لو سقطت من رأس أحدهم شعرة لسمعت صوت ارتطامها بالأرض

قالت العرافة للشيخ الفضيل: نستأذنك الرحيل أنا والقروي النبيل.

قال: في حفظ المولى ورعاية الجليل.

ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فاستأذنتْ، قيل: مَن؟

قالت: العرافة.

قيل: ومن معك؟

قالت: القروي النبيل.

قيل: أهلًا بك وبمن معك.

فلما دخلنا وجدنا حلبة عليها أسوار عالية من الأشعة تحت الحمراء، ومدرجات من الأشعة السينية ممتلئة بالمتفرجين من كل الأجناس؛ بشر، حيوانات، جن، نبات في الحلبة، ثيران تتصارع وتتناطح والدماء تسيل منها ، وكلما توقفت نهضت من جديد ، فقلت:

من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: السنة والشيعة، ثم تقدمنا فوجدنا شبابًا لا أفواه لهم، كأنهم ولدان مخلدون، يأكلون بأقدامهم ويتحدثون من رؤوسهم، فقلت:

من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: لاعبو كرة القدم.

فتقدمنا فوجدنا نهرًا من الدماء وعلى طول شاطئه الأيمن جثث حوّلتها الأحزمة الناسفة إلى أشلاء، وعلى شاطئه الأيسر أناس يجلدون ظهورهم بأيديهم، منهم بالسياط ومنهم بالسيوف، حتى يفيض النهر بدمائهم، فقلت:

من هؤلاء يا أختي يا بلقيس؟

قالت: هؤلاء مسلمو آخر الزمان.

ثم تقدمنا فوجدنا مكانًا لا هو بالحوزة ولا هو بالكنيسة ولا هو بالمسجد، وفي مقدمته منصة خطابة معمولة بأسلوب منمق، يجلس عليها شاب فوق العشرين ودون الثلاثين.

كان المكان مزدحمًا بالحضور، فحاولنا تجاوز الصفوف والتقدم إلى الجهة اليمنى من المنصة.

قلت: من هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنه ابن خلدون الحضرمي، يحاضر في علم الاجتماع الحضرمي.

قام طفل كان يتوسط رجلًا وامرأة، ولم يكمل عامه التاسع، لكن ثقته بنفسه كانت أكبر من عمره.

قال: حدثنا عن الرئيس.

قال: الرئيس إنسان استوى على الكرسي، شرب القهوة مرة ومسكرة، لعب البيلوت والشطرنج والبولنج، ركب كل شيء ابتداء من الخيل المُسوَّمة إلى الطائرة الخاصة، سنحت له الظروف، فتحت له السعادة نوافذها والحياة نهديها والدنيا أحضانها.

أخذ ثلاثًا، وترك للشعب ثلاثًا؛ أخذ الكرسي والثروة والجاه، وترك الطاعة والدين والصدق، أتى إلى السلطة هرولة، طاف وحج واعتمر بين الكرسي والكرسي، أحلامه تسبقه وطموحاته تتعداه والهموم تتمناه، توقعاته في جانب والفقر في جانب، تنظيراته في جانب والفساد في جانب، وتوجهاته في جانب والقوم في كل جانب، عندما أتى لينتخب نفسه أحرق أصابعه، لم يصدق نفسه التي حدثته ذات مساء أنهم لن يسمحوا له أن يضع الورد على الطريق وإن كان طريقهم هم، يصلي الفجر في المسجد، جنرال مهاب، لا يرجع إلى الوراء، كل حساباتهدقيقة وبالآلة الحاسبة.

تلتقي فيه كل شخصيات الواقع؛ فهو في المعسكر قائد، وفي البيت الرجل الكريم في الزمن اللئيم، وفي السفر الصديق الحميم، وفي الكرسي وحش كاسر، وكأنه ملك الأرض، يغير ألف خارطة، شوكة الميزان بين الإنسان والحيوان، متطرف، أساس

وعمود الاعتدال والوسطية، قريب وبعيد، متواضع ومتغطرس، ليس مغرورًا ولكنه يدّعي النبوة!

الوحيد الذي يملك رقعة الشطرنج، لاعب محترف، صانع ألعاب، يجيد التهديف من بُعد، ويتصدى لكل الكرات العالية رغم اقترابه من الأرض، مجموعة من القيم والمبادئ والأخلاق والمروءة والدين تمشي على الأرض.

ذهب حميري قديم قيمته ليست في وزنه، لا يحتاج إلى ضوء أو إلى رخصة قيادة أو جواز سفر، إنه بحاجة إلى لحظة صدق مع نفسه، وإلى موقف صارم ضد الأنا المتضخمة وضد الجنون الداخلي وضد التهور القادم من الأعماق.

وأنت تكرهه لا بد أن تحبه، وأنت تحاربه لا بد أن تنصره، وأنت تحكم عليه بالإعدام عليك أن تمنحه صك براءة. الرياح والشمس والحصان مسخرة له، ونوائب الدهر وشدائد الأيام لا تعرف الطريق إليه.

فوضوي، له قدرة على إعادة تنظيم الفوضى، مستخرجًا منها نظامًا أو بعض نظام، يتنقل من مناخ إلى آخر بأسلوب مدهش، وفي طول الطريق وعرضها يصنع خصومه بيده ويعجن أعداءه بأصابعه، وفي كل مرة يخرج منتصرًا!

عنوان لسمو الأخلاق والتميز للجمال الروحي، للانضباط نبراس لمن حوله، قدوة، بطولات وجولات سامية، احتفالات، خير ومكانة ورفعة وشرف وسلطة وحلمه قوانينه، له مملكته الخاصة وأسلوبه الخاص.

يحب أعداءه، ويبارك لاعنيه، ويصلي من أجل الذين يسيئون إليه، القانون والمبادئ والمواقف الوطنية والنبل الرمز، والمواطن رقم واحد.

هو اللوحة الفنية الوحيدة المعلقة على جدار الكعبة.

هو المحامي وهو القاضي الذي يحكم عليك وأنت تبتسم!

وقفت فتاة طويلة القامة، زرقاء العينين، شعرها على هيئة ضفائر طويلة، تلبس عباءة سوداء كأنها من عرب الترك.

قالت: حدثنا عن السعادة.

قال: السعادة هي الإيمان المطلق، الموسيقى التي تأتي من أوبرا الروح، الشرارة التي تنتج من اصطدام الحزن بالألم، هي الجمال الذي نستمع إليه في لحظة هزيمة، هي الشك الذي ينبجس منه اليقين، هي البداية التي توصلنا إلى النهاية، الهزل الذي ينتج عنه الجد، السفر باتجاه الاستقرار، الشبق لأجل الحب الكأس والغواني والليالي الملاح، التمرد والاستسلام، الصمت والكلام، القبح والجمال، الأخذ والعطاء، الرفض والقبول، الأحلام والأمنيات، التكامل والتفاضل، هي تحول المحبِّين إلى واحد.

السعادة هي تلك المملكة التي لا يصل إليها إلا مؤمن، ولا يدخلها إلا شجاع، ولا يحياها إلا حالم.

السعادة هي القانون الطبيعي لحياة الجنون المعلن، هي الإحساس بالأخطاء والمرور بلحظة التوازن المقدس، هي أحلامنا التي أضعناها

في رحلة صيد ولقيناها في رحلة ترفيهية، هي القرار المفرط، وهي النسيان المبجل، وهي الوقت المصلوب على ضفائر الحبيبة.

السعادة هي رقصة الموت والحياة، هي نافذة المستحيل، معاشرة الموجب والسالب، هي العالم القديم والجديد في بساط واحد، هي الخط الذي إن أتيناه رأسيًا أتى أفقيًا، وإن أتيناه أفقيًا أتى رأسيًا، هي لحظة صواب قاتل في حق أنفسنا، هي الاعتناء بمدرجاتنا الداخلية واحدة واحدة، تعاهدها بالحب وبالصفو وبالهدوء.

السعادة عطاء من لا يملك إلى من يملك، وهي قُبلة من ليس له فم لمن له فم، هي مساعدة من ليس له يد لمن له يد، هي شكر من يسيء فهمك، والعفو عمّن سرق حلمك، هي نقطة بين الشفقة والانتصار، هي الكتابة على كتفي الوداع.

السعادة هي أنت خاليًا من كل العالم، هي المشي بين المطر.

السعادة هي الخرقة الحمراء التي يبحث عنها الثور الأسود.

السعادة هي الخرافة عند الرومان، والأسطورة عند الإغريق، والحب عند العرب.

السعادة هي الثقة بأن الشارع الذي تمشي عليه هو ملكك أنت، وأن السماء التي تظلك هي سماؤك أنت وحدك.

السعادة هي الحياة التي نحياها كما نتمنى، هي في الصباح شمس وفي المساء قبلة، هي السيجارة التي تتناولها قبل أن تنام، هي كأس القهوة الذي تتناوله وأنت تقرأ جريدة الصباح، هي الدعاء،

هي الصيام، هي الصلاة، هي التوازن بين الداخل والخارج، بين المادي والروحي.

تقدم كهل يرتدي بُردة عمانية، كأنه رحّالة موكل بفضاء اللّٰه يزرعه، قال:

حدثنا عن القلق، قال:

القلق هو أنت، يستوطنك طفل وشيخ، مؤمن وكافر، صادق وكاذب، عاقل ومجنون. هو أنت في مقابر الوقت بين الصلب والترائب، بين الشريان والصمام، بين الجفن والرمش، هو تصرف شجاع في طريق الجبن، وهو تصرف أحمق في مدارج الصالحين.

القلق هو سكين تسافر داخلك كلما عدت إلى ذاتك، هو جرس يدق كلما فاضت الأشياء وكلما نقصت.

القلق هو انعدام الثقة وهو زيادتها.

القلق هو أن تنجب طفلًا من السهر، وطفلًا من القراءة، وطفلًا من الحب.

القلق هو قيامة صغرى تنام داخلك، وثورة كبرى تقوم خارجك.

القلق هو مركب فارغ كلما ركبته غرقت، هو تلك الحروب التي تدور داخلك بين قبائل وشعوب وأعراق خلقتها أنت، هو لوحة فنية كلما أنزلتها من جدار قلبك علقها العابرون هو الازدواج الأخلاقي والعاطفي والفكري والسياسي والطائفي، هو المتاجرة بالأحاسيس والمشاعر، هو اعتراض الأنهار التي تجري داخلك وأنت

تحت المطر، هو العضو المنتدب للقلب، هو الكراهية المحضة، وهو الحب الخالص، هو التطرف في الفرح، وهو المغالاة في الحزن، هو موسيقى الكم، فلسفة الإيقاع، نقص الفائض، زيادة الكم، هذيان العطور التي داخلك.

القلق هو ذكريات تصحو عندما تنام أنت وتنام عندما تصحو أنت.

القلق هي أحاسيس صوتها عال، ومشاعر أسنانها حادة.

تقدم شاب في العقد الثاني من عمره يعتمر قبعة كأنها من بقايا اليونانيين القدماء.

قال: حدثنا عن الفلسفة، قال:

علم العلوم ومدينة الهموم، مرآة اللا شيء في زمن اللا شيء، اللا مكان، اللا زمان. ضيعت التاريخ، وغطت على النجوم بمنخل، تبحث عن الجديد، وتقف على أرض رخوة الطائر الذي بيدك مقابل عشرة ليست على الشجرة. الفلسفة حديث آخر وصورة أخرى للحقيقة، للحياة، للعلم، لو تعمقت بها لعلمت أنك في جهل، ولو تركتها لعلمت أنك في ضلال مبين؛ فالحب فلسفة، والجمال فلسفة، والهذيان فلسفة، والجنون فلسفة، والغباء فلسفة، والحماقة فلسفة، والتناقض فلسفة، والإلحاد فلسفة، والتصوف فلسفة، والإبداع فلسفة، والسلوك فلسفة.

الفلسفة حقيقة كلما وصلت إليها اختفت، سؤال ليس له جواب، وجواب ليس له معنى، ومعنى ليس له مبنى، ومبنى ليس له أس، وأس ليس له أساس.

الفلسفة هي السؤال حين يفلت منك الجواب، وهي الغامض حد الدهشة والمدهش حد الغموض.

اقتربت امرأة بين يديها طفل لا يتجاوز عمره الربيع السادس، يغطي وجهها الحزن وجسمها النحول، قالت: حدثنا عن الأب.

قال: الأب كتاب في سطر، ديوان في بيت شعر، رواية في جملة، عام في ثانية، سيل من الأحلام، ونهر من الأماني، وبحر من التحديات، وأرخبيل من الابتسامات.

سبع سماوات من الحب، سبع أرضين من الحلم، وسبعة محيطات من العفو.

كل روايات العالم من الجريمة والعقاب، إلى مواسم الهذيان.

متصوف يعيش بين المعقول والمنقول، التأويل والتهويل، التجريب والتخريب، يتماهى بين عينيه العالم، الأبراج، ناطحات السحاب، المولات، الفنادق، اليخوت، الطائرات والسيارات، بقعة الضوء الوحيدة في هذا الكون.

كل حقول النفط وكل مناجم الذهب وكل مدخرات البحار وكل قارات العالم، ثروة قومية وجيل بأكمله، أكثر الناس مالاً ووقارًا، كريم لا يخشى الفقر، شجاع لا يهاب المنايا.

خُلقُه القرآن وفعله الإحسان، كاسر القواعد ومؤخر الفصول، مقدم النتائج، تلقائي، متصلب، عفوي، شديد، يتناغم مع الأشياء،

سهل ممتنع، قوي حد المكر، وشجاع حد الغدر، وكريم حد النهب، ومؤمن حد الغرور.

سلطة قبلية وسلطة أسرية وسلطة دينية وسلطة ربانية، حكاية أخرى في العرف والكرم والجود والتفاخر، المثل الأعلى، المدينة الكبيرة التي نأمن إذا وصلنا إليها، نشبع إذا أتينا إليها، كل ما فيها متاح لنا.

كلما زاد العالم قبحًا عدنا إلى شواطئ عينيه، كلما ازداد العالم كراهية عدنا لننام على صدره، وكلما ازداد العالم سقوطًا عدنا لنتمسك بكفيه ونتعلق بكتفيه.

الأب هو الغلاف لكل ما هو جميل، وهو القلب للحب، للذكريات، للزمان، للمكان، للفرحة.

الأب هو المسرح، وهو الدرس الأول في الموسيقى، في التاريخ، في الفن، هو المزحة الجميلة، المدينة الفاضلة، هو الأبراج التي تشدنا إليها كلما اتجهنا صوب المدهش والعجيب من الأشياء.

الأب هو الذي يستمع إلى هذيانك، ينصت إلى سخافتك، ويستمع إلى تأتأتك وهو يبتسم.

هو الشفقة المحضة، وهو العطف الكبير، وهو الحب الجارف، وهو الإنسانية البحتة.

هو الرجاء، العطاء، الثناء، والوفاء، هوالشفاء، الدواء، والعزاء.

هو ظاهرة تلتقي بك ما بين البراءة والحلم، هو الراوي الوحيد لسلسلة كتاب جمهرة الخالدين.

اقتربت امرأة مظهرها حسن ولباسها أنيق، على عينيها نظارة طبية، يبدو من ملامحها أنها إعلامية.

قالت: حدثنا عن الإعلام، قال:

الإعلام هو الوسيلة الوحيدة التي تعبر عنا، تربطنا بالآخرين، تجعلنا إما أولياء وإما أدعياء، ملائكة أو شياطين، تابعين أو مأجورين، الإعلام تحريض وكراهية وحرب، هو الفتيل، وهوالقاتل والقتيل.

أول من يعلن أن كل شيء قد سقط، وأن زمن التهذيب والالتزام قد انتهى، يعيش في سطح الأشياء، لذلك لم يترك وراءه موروثًا سياسيًّا أو ثقافيًّا، استأنس بظلال الأشياء، وخاف من العمق، لم يستغل قامته لتسلق الجبال والوصول إلى القمة.

كلما أضاع الهدايا التي جمعها في عيد ميلاده بحث عن مذنب، عن متهم، عن شماعة البلداء، حين تكون في حديقته الخلفية تشعر أنه بسيط، وتحس أنه قريب وأنه لطيف وأنه بين يديك، أما حين تكون وجهًا لوجه معه فإنه يتحول إلى عاصفة استوائية هوجاء، كلما فتحت عينيك كي تراه لا تجده، يشبه الزئبق في التركيز، والذهب في اللمعان، والصخر في الصلابة، والبُراق في السرعة.

غامض حتى مع نفسه، فحين ينوي يضع الفواصل بين أصابعك، والورود على قلبك، يضعك بين المضاف والمضاف إليه، المبادئ والمصالح، الصداقة والعمل، السياسة والعلاقات الإنسانية.

الإعلام سم قاتل لكننا نشتريه كل يوم، نشرع له نوافذنا وآذاننا وقلوبنا، يأكل عشاءنا ويسرق نومنا، ونحن نتهم الكلاب التي تحرسنا.

الإعلام واحد، سواء قديم أو جديد، محافظ أو جريء، إسلامي أو غير إسلامي، لا يملك مواقيت للفرح وأخرى للحزن والبكاء، كلما تداخلت الأمور وتشابه البقر زادت الأمور تعقيدًا، لا يعرف أين حدود الأخلاق، ولا عمق المروءة، ولا أطراف المعروف، عندما يكون معكِ فهو ضدك وعندما يكون ضدك فهو معك.

وقفت فتاة كانت بجوار سائق تاكسي، ممتلئة حيوية ونشاطًا، في يدها اليمنى ساعة ثمينة وفي اليسرى خاتم من الزمرد الخالص.

قالت: حدثنا عن الأصدقاء.

قال: الأصدقاء هم الدعاء ونحن الإجابة، نحن السحاب وهم المطر، هم البدء ونحن مسك الختام، هم الحياة الجميلة، ونحن إشراقة الشمس وتجلي السحاب ونفع المطر.

الأصدقاء هم كنوز البحر وبنوك البر، ما أجمل الأصدقاء وما أجمل الوقت بهم والسفرمعهم.

الحياة لن تكون جميلة دون أصدقاء، ودون حب، ودون صباح الفل، ومساء الفل، الصباحات لن تذهب بنا إلى فضاءاتها، إلى شرفاتها، دون أصدقاء، دون ابتسامات تتقاطع في الفضاء، المساءات لن تحتضنني، ولن تدفع عن قلبي السأم والضجر والاحتباس الحراري، إذا لم يكن من نديم، وإذا لم يكن لي من صاحب. السحاب لن يكون على رأسي، لن يكون على كتفي، لن يظلل المسافة الفاصلة بيننا، حيث تتجانس الأحلام وتتماهى النزاعات وتكبر المودة. النهار سيكون مملًّا، بل لن يكون له ضوء، إن لم يكن لي أصدقاء يرددون أغنيتي القادمة مع أشعة الشمس، ويعزفون على أوتار الضوء المنهمر.

الأصدقاء ظلك في الصيف، خارطتك حين تضيع عينيك، حين تأتي العاصفة الترابية.

هم أطراف الحديث وملح الكلام وزبدة القول، أول اللقاء وآخر المعنى.

اقترب رجل في العقد السابع من العمر مظهره حسن، يتوكأ على عصا، في يده اليسرى غليون واليمنى قداحة ثمينة.

قال: سعيدة؟

قالت: سعيدة.

قال: حدثنا عن الكنيسة.

قالت: عالم من المتناقضات والسياسات والمسلمات التي تقبل القسمة ولا تقبل القسمة، ماراثون بشري، القليل يدور حوله، نجحت محاولات ترويضها بعيدًا عن قناعات البابا، كما أخفقت كل محاولات استفزازها في حرب لا تزال مستمرة، حيث منحت البقاء مقابل لعب دور ثانوي، يتعامل مع الواقع بالممكن ويتجنب المستحيل، مبرمجة على الضياع، مصلوبة على حلم جميل، بين ضدين، تفسير موسى وقراءة هارون، لا تزال تحمل رايتها حائرة بين زمنين، ماضٍ تظن أنه معها، وحاضر تعتقد أنه ضدها، مسمومة بحبر القبيلة، كلما أسدلت ستائرها عن درب التوحد كشفتها الرياح المرسلة، تسعى إلى الحوارات المبطنة التي ترمي بنتائجها هنا وهناك، فارغة من كل شيء، من الحب والفرح والسلام؛ لأنها حالات عميقة، وتأتي من وراء العقل، وكلما فاضت اتجهت بصاحبها إلى مناخات الجمال والتصالح مع الذات ومع الآخر، ويكون الخير أكثر من الشر، لو جمعت كل أحاديثها وكل لقاءاتها وكل تصريحاتها وكل ثقافتها لوجدت أنها مفرغة من أي معنًى وغير ضرورية وغير ذات جدوى، طاقة، لكنها للأسف سلبية، فهي في سعي مستمر لتدمير من حولها وتحطيم كل من يقابلها، تعيش الأمرين؛ الحكم والمنفى، الوطن والغربة، ولدت في أحضان الشرق، وترعرعت في الغرب، ثم عادت للشرق، ثم انتقلت إلى الغرب، حتى ضيعت الطريق، لا تتعامل مع الثائر اللطيف، والحر المهذب، والطامح المتأني، والعاشق الخجول.

الكنيسة مجرد أجراستقرع، ومبنى يزار، وإنجيل وصحف مكتوبة ترتل بما يشبه أناشيد الأطفال في المدارس، الإله مجرد

لوحة فنية، والنبي عبارة عن جدارية من الطين، والعذراء عبارة عن تمثال من الرخام.

قامت العرافة بين يدي ابن خلدون الحضرمي، ثم قالت له بأدبٍ جمٍّ:

نستأذنك الرحيل أيها العالم القدير، أنا والقروي النبيل،

فقام من مقامه ومدت يده وصافحني وأومأ لنا بالوداع.

صعدنا إلى السماء الثالثة فاستأذنت.

فقيل: من؟

قالت: العرافة.

قيل: ومن معك؟

قالت: القروي النبيل.

قيل: أهلًا بك وبمن معكِ فلما دخلنا كان المكان عبارة عن صالة كبيرة كأنها معلقة في الفضاء، ترى من خلالها كل شيء يخصك أنت فقط، المعنى الذي انبثق منك وإليك، تعاقب الليل والنهار بين يديك، تماهي المحسوس مع الملموس، جمال السهول وكبرياء الجبال وطراوة الوديان وأناقة الصحاري، كل ما هو فطري ومقدس، كل شيء عنك في أرشيف إلكتروني فريد.

قلت: ما هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنه منزل المستقبل.

قلت: وكيف يتعامل الأميون والجهلة مع هذه الأجهزة الذكية؟

قالت: كل شيء هنا يعتمد على الخدمة الذاتية، حيث كل شيء مبرمج على (d. n. a)،

كل الأجهزة وكل الإشارات وكل الإضاءات مهيأة لك.

لبيت المستقبل، نظامان يعملان عن طريق النانو:

الأول يجعل البيت قصرًا.

الثاني يجعل منه حبة ذرة.

كنا كمن يطير على بساط يحلق على مستويات قريبة من الجنة ونعيمها، مجموعة الخير والحب والصلاة والإيمان والابتسامات، شعور لا يوصف، ومقام لا يقدر بثمن، كمن يتنقل بين حلم وحلم.

قلت: كم تستغرق الرحلة في المستقبل يا أختي يا بلقيس؟

قالت: كل شيء يتم في سرعة الضوء.

يوجد صخرة كبيرة منحوتة بشكل أسطواني، داخلها أشكال هندسية بديعة، فلما دنونا منها،

قلت: ماهذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنها جميع أنواع الآلهة التي عبدت في الدنيا، من العجل مرورًا بهبل والعزى وانتهاء بالأبقار والحيوانات، يتوسطها رجل آلي يعمل الشاي، لشابة جميلة لم تبلغ العشرين بعدُ، وهي بكامل زينتها وأناقتها وجمالها، وحولها النساء والرجال من كل جنس ولون عرايا، كأن أجسادهن مرايا.

فقلت: من هذه يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنها مخترعة موقع التواصل الاجتماعي الجديد الذي يعمل بالضوء.

استقامت العرافة ثم تقدمت، قالت بصوت مزيج من الخوف والخجل:

عمت مساء أيتها الأميرة، منّي ومن القروي النبيل.

قالت: أهلًا بكما في عالم المرايا والعرايا، الصداقة والأناقة، الحب والجب.

قالت العرافة: أهلًا بك، حدثينا عن الدماغ.

قالت: الدماغ هو الكمبيوتر الإلهي، دينمو الإنسان الحصين، ولسان حاله الرصين، ناعم في ملمسه، صعب في ممسكه، سهل تفريغه، وصعب شحنه، ليس له مترجم.

ينتمي إلى اللحظة، يجر وراءه كل هوامش الحياة، حمل داخله كل شيء، تركيزه عالٍ، يستطيع التعامل مع أحاسيسه حتى في العتمة، ليس نظامًا مغلقًا ولا حجة مكتملة، كما أنه ليس حربًا ضد كائن من كان بقدر ما هو إعجاز وإنجاز.

يشير إلى قضايا عشناها ونعيشها، وحلول توافقية بين الممارسة والنظرية، صندوق أسود، يملك تقنية عالية في استرداد الملفات المحذوفة وإلغاء وتفعيل البرامج القديمة والجديدة آليًّا، يتعامل مع الأشياء وفق «ما للّه للّه، وما للّه للّه»، له عقل باطن وذاكرة داخلية،

يحب الأماكن والأشخاص، ويضع في كل مكان جزءًا منه، في حالة وداع مستمر، لا ينتظر الأشياء إنما هي من تنتظره.

يقيم دولًا ويسقط أخرى، يسيّر الجيوش ويحرر الكلمات الحبيسة في عالم الغيب، يسيّر الجسد ويحتفظ بملايين اللقطات، والذكريات الموحشة والسعيدة، ويمكنه استعادتها في ثوانٍ.

كل حواس الجسد وأجهزته تدور وفق وظائفها، تعبيرات الوجه، آلام العالم، أشواق العاشقين، تأوهات المحبين، دموع الثكالى، الاختراعات العظيمة التي أفادت البشرية، وتلك التي دمرتها، لا تتحرك ما لم يعطِها إشارة بذلك، حتى الابتسامة.

ذكرياتنا المخبأة في منعطفات الأيام، ضحكاتنا المغمورة، الذكريات الجميلة، الخيانة والوفاء، الشك، الغيرة، الجنون، الألم، مخططات البشر.

حين يكون الأمر سخيفًا ومضحكًا ومبكيًا ومريبًا ومسليًا، يكتب رسالة إلى الله، عندما تكون الأرض قاحلة والسماء غاضبة والحب أشبه بكرة من الثلج، يقدم استقالته، ويتجه نحو الجنون.

تقدمت امرأة كأنها آية في الجمال، ترتدي عباءة سوداء، ومكشوف وجهها كأنها من عرب الأهواز:

قالت حدثينا عن الإنترنت.

قالت: الإنترنت قريب حد العمى وبعيد حد السماء، ناجح في الأخذ وفاشل في العطاء، ديناميكي عندما يطفو على الأشياء

لكنه في العمق خامل، آفة الزمان، عاليه إنسان وأسفله بركان، يخدم الإنسان في سبيل تحويله إلى حيوان، الغياب عنوان، والعقل حيران، لا يغير ولا يسير ولا يسيطر، قرب البعيد وبعد القريب، أطال عمر اللحظة وقصر عمر الزمان، جعل العالم قرية واحدة، أخذنا منها الجانب المظلم.

خدمة، نقمة، سؤال، جواب، هم، فرح، فقر، غنى، كاشف، ظاهر، رفيق في الحل ومستحكم في الترحال، وما بينهما يملكك ويملك وقتك وجهدك وقيمتك، خصوصيتك بداخله، أفكاره بداخلك، ميلادك، عنوانك، وفاتك.

سلاح ذو حدين، ومنطق ذو فكين، حكيم إن أدركك، وذليل إن أدركته. صديق في الصباح وعدو في المساء، تشتريه لخدمتك، ولكنه في الحال يصبح سيدك، يتناول وجباته بانتظام، ويتعامل مع الوجبات المليئة بالكوليسترول بحذر شديد، زنزانة متنقلة، لا لها رقم سري ولا أحد يستطيع فتحها.

شوكة الميزان بين العنوان والعنوان، مرجعية استخباراتية، حقيبة ممتلئة بالمشكلات والحلول. قدم عمرًا بأكمله قربانًا لهوى عقائدي يسكن أحشاءه، لا يأتي به الشوق ولا الحب ولا إشراقة الشمس ولا هطول المطر ولا عبق الفل والورد، لا يأتي به انحدار الموج نحو الشاطئ ومداعبته لأسماك القرش في العمق.

الإنترنت هو المسافة التي وجدنا أنفسنا فيها، كبرنا فيها، لعبنا فيها، التقينا بأصدقائنا فيها، لامسنا جراحاتنا، تجمدنا فيها بالشتاء، وتساقطت أحلامنا في الخريف، وازدهرت أشواقنا في الربيع.

الإنترنت كالبحر ليس له حد ، وكالوقت ليس له مد ، وكالغيم ليس له سد ، وكالحلم ليس له ند ، وكالغربة ليس لها بعد.

الإنترنت هو الوقت المستقطع من الـروح، من السعادة، من الحب، من العمل، من الثرثرة ، من الظلال، من الحلم، من اليقظة ، من المستحيل، من الجمال، من القبح، من الفصول، من الحنين، من الطمأنينة ، من النسيان، من المرايا ، من الانتظار ، من الجنون.

الإنترنت هو الوقت الذي يسرق منا إشراقة الشمس وضوء القمر وثرثرة العواصف وهواجس العتمة.

تقدم شخص شعره منكوش، قصير القامة كأنه يمشي حبوًا ، يبدو أنه من بقايا عرب الأندلس، أشار بعصاه.

قال حدثينا عن الموت.

قالت: الموت هوالفراق، هو الانتقال من حال إلى حال، من الإيمان إلى الكفر ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض، ومن النصر إلى الهزيمة ، ومن السعادة إلى الحزن. الموت هو الطفولة البائسة ، وهو المنفى غير الاختياري، هو بداية النهاية ، حكاية البداية. هو الورقة وهو القدر ، وهو ابتداء حياتك الفعلية ومحصود الحياة.

الموت أن تكون على يقين أن البقاء ليس لأحد ، وأنك إن رحلت سترحل بمفردك، وإن نطقت ستكون شاهدًا على نفسك فقط، وإن استعنت فبعملك، وإن بكيت فلا ينفع بكاء ولا حزن ولا جاه ولا مال.

الموت لا يكون بنزع الـروح فقط، هناك أنـواع للموت؛ موت القلوب، موت الضمائر، موت المشاعر، موت العيون، موت الحواس.

الموت لا يعتبر نهاية بل بداية النهاية.

الموت هو انتقال لا إرادي، يجبرك أن تكون أنت كما يجب، يحدد ماهيتك، يضعك على أول السلم الحقيقي في معنى النبض، في معنى البقاء. هو أنت ولكن دونما سفر، وهو السفر ولكن دونما عودة، وهو الولوج إلى عوالم أخرى فيك ومنك.

الموت راية القادم الحقيقي الخالي من البهرجة والزيف والادعاء المتعلق بالساقط من الأشياء، هو إيقاظ الروح لتدرك مكامن الحياة التي أنت جدير بها وتستحقها، هو الأقرب من حبل الوريد.

الموتهو البداية القهرية لتشتت الأشياء التي من حولنا، التخلص من ذبذباتها، من كل مغرٍ فيها، من العالق بلا معنى من فرح لا يعنينا، ومن عوالم ليست إلا مرافئ انتظار للحظة لا بد منها.

هو الخلاص مما علق فينا من غبار ومشاعر وفوضى واضطرابات، ومن اللا متناهي من الأحاسيس، ومن بقايا تذمر وترهل وتخبط واحتجاج واستنكار وإدانـة وشجب وجنون، وكل ماهو مربك، ليسقط في لحظة، ولتبقى أنـت، أنت وحدك، تستيقظ لتلامس الروح الروح.

اقتربت عجوز تتوكأ على مظلة، ترتدي عباءة من المخمل سوداء عليها بعض الفصوص. قالت: حدثينا عن الطب.

قالت: الطب رسالة إنسانية، محبة، نبوة، يد اللّه في الأرض. الطب دين، عقيدة، مذهب، صلاة، زكاة، ابتسامة. الطب انتماء إلى السماء، إلى العالي من الأخلاق ومن المكارم.

حين تصير الأسرة بلون البياض، وحين يتحول الأمل إلى ألم وتغدو الحياة افتراض قابل للزوال في أي لحظة، لأن ثمة من يزف إليك الموت ولأن ثمة جشع تكون أنت ضحيته، لأن ثمة احتيال تكون أنت فريسته، لأن ثمة نذر تكون أنت قربانه.

المزيد من العبثي وكثير من المحاليل التي تؤدي إلى الغياب المطلق لمعنى أن تكون نابضًا بما هو استحقاق بشري لك.

الطب الذي يزيدك آلامًا وتعبًا وبحثًا عن مفقود، وسرعة تحصيل الفاتورة المتعبة لقلبك، ومائدة أفراد أسرتك الطبية التي يتصدرها هذا الجنون حين لا يُفقه معنى إنساني ويصبح أقرب إلى الشيطان وهو يستنزف كل ما لديك مستلذًا بالآه وكله سعادة، إن كنت مفقودًا أو منقولاً إلى رحمته تعالى.

الطب هو الذي يساومك على حياتك من أول فرصة تأتيه، ويخاتل ويناور ويخادع، لتصبح الحياة بطعم العلقم، والكثير متّشحون بالسواد وأنت وحدك بخطوات حيرى وثقل على الأكتاف تمضي إلى حيث ما لا بد منه، لكن من بوابة ما كان جديرًا أن يحتفي بالحياة لو كان ثمة انتهاء لما هو إنساني.

الطب الأكثر فتكًا وغدرًا بالحياة وبالإيمان وبكل ماهو إنساني وصالح لأن يستقيم، فيغدو مجرد خوف حقيقي، خوف منه عليك وهو يراك أقرب إلى أن تكون فريسته التالية بعد من سبقك!

الطب الذي لم يكن في بلدي إلا كمن يرتاد الظلام أوهو الظلام ذاته.

قام رجل في العقد الرابع من عمره تكاد صلعته أن تغطي فروة رأسه، يبدو أنه من عرب الموصل.

قال: حدثينا عن الشيطان.

قالت: الشيطان هو مدرسة في الشر ومشتقاته، لا يلزمه تعريف علمي يسبق اسمه، ولا توصيف سياسي يسبق رسمه، ولا تقديم أدبي يسبق علمه.

مخلوق عجيب وكائن غريب، لم يعرف خجل يلام به، ولا حياء يرد إليه، ولا حشمة ينتمي إليها، لا دين يظله، ولا ضمير يرده، ولا مبادئ يخاف منها، ولا أعراف يستحي منها، ولا خطوط حمراء ولا خضراء ولا صفراء، ولا حتى بنية اللون.

انحدر من لمعة البرق، ليّن يصعب كسره، وخفيف يصعب حمله، وسهل يصعب رده، نجمه قاهر، وحظه غالب، وطالعه حسن. اسم ارتبط بذاكرة الإنسان، يملك مفاتيح كل شيء عدا المسجد، عنان اللحظة في يده ورسنها في يدك، في حرب مع المؤمن، مع المبادئ، مع الأعراف، مع السلوك.

أول العدوان، أول العاصفة، صاعق الصاروخ وفتيل القنبلة، فكرة المصيبة، رسول الفجيعة، المسوق الحصري لجهنم.

تجده أينما حل القبح، كلما اقتربت منه توسعت دائرة أعدائك وانداحت مربعات خطاياك، يسرق الابتسامة من شفاه الأطفال صباح يوم العيد.

امتلأ بما هو غير صواب، وسلاحه ناعسات الطرف ذوات الأكعاب، فاضت به الأشياء القبيحة وفاض بها، معتاد على التحليق في الفضاء بحرية مطلقة، على التقدم إلى الوراء، يمتلك قدرة فائقة وحظه عجيب في الحصول والوصول إلى الأشياء، لكن سرعان ما تذوب أو تتطاير من بين أصابعه، صانع نجومية المنضوين تحت لوائه، بهلواني يجيد اللعب على الحبال.

أول من اخترع السياسة، الكذب، الحيلة، الخديعة، التمرد، تبريري بقدرة فائقة، حين يهزم خصومه يوقعهم في وهم الانتصار، لا يقف على أمر إلا واستدعى نقيضه، تفكيكي وبراجماتي في آن، كلما تشرب الغرب انتمى للشرق، لذلك يحفل بالشيء ونقيضه.

خذلته القوى المؤمنة بهجراتها إلى المبهر من العبادة والدعاء والأمن والأمان والسعادة المطلقة، المتشيعون لمدرسته صاروا كفارًا، والمتمالئون على نهجه غدوا ضحايا.

هو كل الفساد، وكل الهراء، وكل السخافة، وكل التفاهة، وكل اللعنات، وكل الطعنات، وكل الظلم.

في الفلسفة معنى وفي الواقع نظرية، نقيض الإيمان، كلما نقص الإيمان كبر الشيطان داخلك!

تقدمت فتاة لا هي سمراء ولا هي بيضاء، وشعرها كأنه الليل الأليل، ترتدي جاكيتا أنيقًا من الجلد وبفمها علك، قالت حدثينا عن الخطيئة.

- قالت: الخطيئة هي أنت بشكل آخر، هي فعل مخالف للفطرة، ذنب مقترف، وكسر للشرف، يضيق لها الصدر وتخشى أن يطلع عليها الناس، بركان، زلزال، فيضان، فتيل أوله في صدرك وآخره في نحرك.

الخطيئة نتيجة وأنت احتمالاتها، بحر أنت شواطئه، مدينة أنت بابها، وادٍ أنت سفحه، وبركان أنت كبريته، ونار أنت حطبها.

الخطيئة حجة وأنت مسلماتها، ورقة وأنت حبرها، متعة غير مرتبطة بقيمة، هي ما يعتمل فينا من آثام تجعلنا نفر إلى ما يغري لنتحاذق في صنعها وإجادتها وإتقان مغازيها.

الخطيئة هي الزائف من الحطام الدنيوي، وهي الشوق إلى الندم بإصرار شديد لا نعرفه إلا حين نفلت من ذات اللحظة، وحين نعاقرها فتخصب خطيئة أخرى.

الخطيئة هي أن نبقى في اللا إنساني ويستوطننا الظلامي حين يموت النبل وتذوي الأحلام ويذبل الورد، هي وأد ما هو ملائكي، ودخول في متاهات الألم ووقوع في براثن الشيطان ليبقى حافزًا في إراقة الحياة ونفي كل ما هو نقي إلى مدن النايات والموسيقى.

الخطيئة هي أنك لا تدع الإنسان يعبر إليك، هي التمرد على قوانين الإيمان والحب والقيم والسلام والخير والجمال.

الخطيئة فعل الشيطان، ولها ذريتها وقوانينها ومدنها وعالمها العام والخاص.

الخطيئة هي أن تغويك الجهات الأربع دون أن تعرف وجهتك للسماء.

وضعت يدي على صدري وتقدمت، قلت: حدثينا عن التواضع.

قالت: التواضع أخلاق الأنبياء والرسل، النقطة المركزية لكل أمر، الدائرة التي يحوم حولها الإنسان والدين والمال والوقت.

التواضع خصلة الكرام وأناقة الإنسان وهوية المسلم، لباس المتقين، عطر المثقفين، وشماعة المؤمنين، وسيرة الشرفاء، ونياشين العسكري، وشرف القادة، ومرآة الطامحين.

هو مجموعة الأعمال الفنية الجميلة التي تزين داخلك، هو حرب بين الممكن والمستحيل تنتهي بهزيمة الجميع، هو جميع الأخطاء المكررة، هو الفضيلة كاملة، هو جندي مجهول داخلك يقاتل على جبهتين.

التواضع هو لحظة الصعود إلى الأعلى، وهو فاصلة بين العنف والخوف، هو انتظام القوانين التي فطر عليها الإنسان، هو طرد كل شيء من الذاكرة عدا الحب.

هو الفردوس الأعلى من الأخلاق، هو عذر لكل الأخطاء وغفران لكل الأوزار.

التواضع ظاهره ساطع وباطنه نقي، منقح، مشذب، هو اكتمال الدائرة الإيمانية حول قلبك، هو ابتسامة الأرض التي منها معدنك،

هو معرفة القيمة الحقيقية للرقم صفر، هو موهبة، صنعة، تعلم، مذاكرة، معاملة.

التواضع هو تصفيد كل المنظمات والأحزاب والعادات والتقاليد التي داخلك بالأغلال، وجعلها منطقة مقدسة.

التواضع هو الغنى، وهو القناعة، وهو الرضا، وهو الاكتفاء.

- تقدم سائق تاكسي لهجته تقول إنه من السكان الأصليين لجزيرة سقطري.

قال: حدثينا عن المرأة.

- قالت: المرأة بندقية تدافع عمن يجيد الإمساك بها، تغطي حزنها بابتسامة وألمها بقصيدة، ووجعها بموسيقى في البيت مربية، وفي العمل معلمة، وفي الحقل سنبلة.

هي ربان القارب الأسري باتجاه الأجمل والأحسن، باتجاه المستقبل المشرق.

هي البذل والخير والعطاء، وهي نقاوة المعنى وبهاء الحياة وروعتها، وهي العطر الذي يلامس شغاف القلب، وهي الحلم وما تبقى من الآهات، وهي السفر إلى الضوء وياقوت الدنيا.

المرأة هي الصلاة في خشوع، والإصغاء للكون وهو ينبض بأسراره ويفتح مغاليق الغامض، وهي الأرائك والحرير والديباج، وهي كحل العيون وإشراقة الخد هي المقدس، وهي ما نرجوه من ولع وفرح وتجاذب أطراف ملح الكلام.

هي قصيدة حب، هي بخور يطيب حالنا وأحوالنا، هي الدهاء والغباء في آن.

هي المهارة والبطالة، هي الإغراء والإغواء هي شيطنة المكان.

المرأة إيقاع الحياة في إقبالها وإدبارها في رخائها وشدتها، فرحها وحزنها في حظها العاثر وطالعها الحسن، هي التناغم حد الانسجام، والنشاز حد الجنون، هي التي تربك العالم أو تعيد ترتيبه.

المرأة هي الدين وهي الفجور، قد لا تكون موسيقى تصدح بما في أعماقك، كما يمكنها أن تزين الروح وتهذب الوجدان.

المرأة ألوان متداخلة، غابة شائكة، فصول أربعة في فصل واحد، هي زمهرير الوقت وربيعه، حين تقبل يصير العالم دهشة، وحين تدبر تكون الحياة كجبل تصدع في يوم عاصف!

- تقدمت امرأة تقول ملامحها إنها من العرب المستعربة.

قالت حدثينا عن الشرف.

قالت: الشرف قانون وعرف ومعيار، مذهب، معتقد، دين.

الشرف ليس حكرًا على المرأة، كلما سمعنا كلمة «شرف» تبادر إلى ذهننا المرأة، بينما الرجل يسرح ويمرح، يصول ويجول مستفيدًا من الجهات الأربع ومن الفصول الأربعة، ثم يطلق شعار (النار ولا العار)!

قد يصلح العطار ما أفسده الدهر، ولكن لا يصلح الدهر زجاج الشرف المكسور!

«لن يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم».

هل هناك شرف رفيع وآخر وضيع؟ أم أن هناك أزمة مصطلح؟!
«شرف الإنسان - رجلًا أو امرأة - هو الصدق، صدق التفكير وصدق الإحساس وصدق الأفعال».

الإنسان الشريف هو الذي لا يعيش حياة مزدوجة، واحدة في العلانية وأخرى في الخفاء.

الشرف هو أنت في اكتمال المعنى القيمي الخلاق، في الإخلاص والحب والعدل والانتماء إلى الجميل من الفعل والقول، معانقة الحياة بنقاء وسريرة، هو الترفع عن الابتذال واللا موقف وتحديد الإنساني فيك حين يجب.

الشرف هو رأس الأمر، وعموده الإيمان، وذروة سنامه الكرم.

هو قُبلة مستمرة على جبين الوقت، هو وردة على طريق العدالة والحرية والاستقامة الصحيحة.

الشرف هو التعامل مع الآخر، وهو الفضيلة التي تدفع عنك صدق الأعداء وكذب الأصدقاء، الشرف لا يقبل القسمة على اثنين، وهو الانتماء الذي يقيك السقوط على أرصفة المبهر من المزيف.

الشرف هو زوّادتك في أن تبقى محاطًا بهالة حب حين تغزو العالم الكراهية.

تقدم فتى كأن وجهه فلقة القمر، يرتدي ثوبًا أبيض مطرزًا ودشداشة بنية اللون وشماغًا وعقالًا ، بدا كأنه يوم زفافه الميمون، قال حدثينا عن القمر.

قالت: القمر سطوع ووضوح، ومضرب الأمثال، عبده العشاق وقدسه الشعراء.

آية من آيات الله، صديق الشتاء وحبيب الأنقياء وملهم الأدباء، أشعته طاعة وضياؤه عبادة، جدل ينتهي بالحب وحب ينتهي بالحب، حكاية الأرض، النبات، الإنسان والحيوان.

حلم جميل لدى البعض وساعة يد أنيقة لدى البعض الآخر، صورة منحت الكثيرين الفخر والاعتزاز وهي معلقة فوق سمائهم، فالقمر أنيس الشعراء ومرافق العاشقين وهادي العابرين السبيل.

هو للسماء زينة وللأرض جمال ونور، ولا يكتمل محيا الأرض وخدود السماء إلا به، يتسرب إلى القلوب، مشاعرالشعراء يختارونه لشبهه بالحبيب، الأدباء يتباهون بزخرفة أحرفهم على شرفاته والعاشقون يعلقون أمنياتهم به، والليل يشكو له، وله يشكو البحر، حنين الروح وسلوان المجروح.

القمر قصة لا تنتهي وحكاية لا تمل، وتاريخ لا يمحى، شريك المرأة في الجمال، والأرض في الدوران، والمساء في السكون، والحب في السهر، والحزن في الجراح، والكبرياء بالتباريح.

القمر رحلة الشتاء وهي رحلة الصيف، هو من علم الريح، السفر والسحاب، المطر والنساء، الجنون، القمر حنين انحدر من نظرية

التباين، نقيّ، وفيّ، سخيّ، بهيّ، ذو كاريزما خاصة، حسن النوايا، محظوظ، المنقذ للكون والمخلص والنبي والمهدي المنتظر لطائفة العشق والغرام، مستودع المبادئ والقيم النبيلة، بل ويتغنى بها.

أول من اخترع منسوب الوفاء، وأول من ارتدى معطفًا من الحب، وأول من ارتدى سترة واقية ضد الشمس، أول من وقع على قرار خسوفه بنفسه، بدأ حياته مغرمًا وأنهاها نبيًّا للحب، ناضل وقاتل وجاهد ونافح من أجل نور السماء، من أجل رسالته إلى العالم، إلى الأرض، خارجه ضوء وداخله فيء، تذهب به الرياح وتعود به الأقدار، تحمله الفراشات على أجنحتها ويسقط مع المطر.

تقدم شخص منتفخ البطن متورم الأوداج، قال حدثينا عن الدراهم.

قالت الدراهم: أسرار وخبايا، تجمع القوانين والمساواة والعدل والعدالة، تصنع من الوهم حكومة، ومن الحلم شعبًا، ومن الخيال منصبًا، ومن الليل اقتصادًا، ومن الفجر سياسة عمياء أو مستنيرة.

تصنع ثورة، خطباء ودعاة، جزء من ذاكرة الوطن يمسي مخاضًا عسيرًا ويصبح قضية وطنية، حراك ثقافي وسياسي، حلم دولة ذو المناطق مكتظة بالصراعات والحلول المتدفقة من تداعيات المعنى تمثل محورًا أساسيًّا في ملعب الخلافات والصراعات والتجاذبات والمراهنات والنزاعات.

الأمل لدى البعض هو النافذة الوحيدة لدى البعض الآخر، الدراهم هي سلعة السلع، بيت القصيد في العمران والخراب، في التوجس والارتياب، في فقدان الذات لذاتها، في إعلان الثورة والخروج منها،

هي انتصار آخر للذات وهزيمة أخرى لها في آن، هي اللغة الأقوى، الصرير الذي يقض مضاجع ويشعل حرائق ويطفئ أوارها.

الدراهم تنال منا حين نتقن تجويد الموت والمؤامرة والسطو واستلاب البشر أحلامهم، والبناء على ذات الأحلام شرفا تقهر وإذلال وتَعالٍ يناطح السحاب.

الدراهم هي التحول الذي يلامس شغاف القلب، وهي الانكسار الذي لا يرحم، بقدر حضورها تتجمد الأصابع وترتعش التساؤلات وتنهار معالم لتبنى قداسات إضافية بدلًا عنها.

الدراهم هي كل هذا اللاتوازن والشتات والتمزق والانصياع ومتواليات الحزن وصناعة الفرح، وكثير من الاختلالات والاضطرابات والاحتشاد على اللاشيء من الشيء ذاته، مزيج من البؤس والتعب والراحة، كلما اقتربت منها تفتحت دروب وتاهت خطى وضاعت مسافات الدراهم، حين نؤمن بها نكون أكثر التصاقًا بالتعب والتخلص من المقدس والالتحاق بقوافل الضياع وموت الضمير.

اقتربت فتاة شقراء، كأن عينيها سهام نواهل وضفائرها جدائل.

قالت: حدثينا عن الفنان.

قالت: الفنان رسام، ممثل، أديب.

انحدر من ريشته واستقر بين الوتر والنغم، الريشة والألوان، القصيدة والعين.

سافر مع اللحن وعاد مع الكلمات، قاتل بريشته وناضل بصوته، حلق في سماء الفن كطائر زاده الوصل حنينًا، عاش بين الدامغة ودامغتها، دندن للروح، لكؤوس الطلا التي لامست فاها، اعتنق علم الدراية والكناية، كتب أغانيه بكل الخطوط القديمة والحديثة، وسجلها بكل لغات العالم، غنى للتلال الخضراء، ورقص للراعية الحسناء، وأنشد للوطن الغالي، امتزجت روحه بصدى صوتها، وعانقت ريشته جدائلها الغجرية فأثار شجونًا افتقدناها في معترك الحياة وزحمة الماديات، كلما عزت الحياة وضاقت الدروب فتح نافذة الضوء على القلب.

مثل الفنان مع ريشته وصوته الجميل وأدائه المبهر، ثلاثيًّا استطاع أن يحتوي اللحظة، وأن يكون وطنًا لها نافذة، استطاع من خلالها الفن أن يصل إلى الجهات الأربع، يشرق الصبح من روحه الريفية النقية، لتشرق صباحاتنا في كل أرجاء المعمورة.

لصوته الصداح علاقة حميمة مع الأرض، مع عرش بلقيس، مع عمق الذاكرة، كلما لمسنا البحر وجدنا صوتًا، وكلما تحسسنا الأشواق وجدنا لوحة، تذكرته صدى، صوته الشجي يرتقي بالروح في سلم الشوق والحنين.

كيف غادرنا الزمان وولى دون رجعة؟!

كيف يورق الصبح جنات تجري من تحتها الأنهار؟!

تغني من نور بهجته الأغاني وتستمد أشعة الشمس المنسدلة على الروح منه وهجها.

الفنان استطاع أن يجعل من هديل الحمام ومن المطر ومن الضباب ومن بوابات القلب الثمان ومن السائلة، من حقول اللوز والزبيب والعنب، من الحصون والقلاع، من الصباحات، من القمر، من عيون المها، أغنية متفردة!

الفنان نبيذ معتق يصنعه العامة ويشربه الخاصة ويثمل به القياصرة، يملك ثمان طبقات، ثمانية مخارج من التحدي، ومثلها من الخبرة، ومثلها من الكرم، ومثلها من الحب، ومثلها من الشجاعة، ومثلها من الدراهم، ومثلها من الحلم. موسوعة في الأخذ، وفي الربح، وفي العطاء.

في اللحظة التي يقف أمامك ليقول قصيدته تكون سفينته قد استقرت في الشاطئ الآخر، ناضل عمرًا ونطق شعرًا، مثقف حد البلادة، تضعه الحياة على أجنحة الياسمين في الفضاء ويضع نفسه خارج حدود الأشياء.

الفنان شيخ ليس له قبيلة، وزعيم ليس له حزب، ومايسترو ليس له فرقة موسيقية، ولاعب رأس حربة ليس له عراب، وصياد في مواسم انعدام الصيد، يستطيع أن يجمع الشيء ونقيضه، الشتاء والصيف، عندما يقف لا تدري هل الحقيقة وراءه أم هو وراء الحقيقة!

تقدم شيخ محدوب الظهر، ضعيف النظر، لم يعد يفرق بين الألوان.

قال: حدثينا عن السفر.

قالت: السفر يضاعف المعنى، يسري في الأماكن التي لا يصلها الدم، نتغلب فيه على مخاوفنا، لأننا نادرًا ما نقابل المختلف، لأننا

نصبح شخصًا آخر، لأننا نترك جميع المصطلحات الفاسدة في المطار مثل التشاؤم، الكذب، الحجج، كل الأحكام السابقة، لأننا نلتقي بنا في لحظات هادئة، نكشف الستار عن دواخلنا المكبوتة، نعطي الفرصة للذات بالتعري على الشواطئ الأكثر أناقة.

السفر اكتشاف الذات في عالمها، قراءة للمكان من قلب المستحيل، نكهة فرح وتساؤل ودهشة واغتراب، هو امتلاء بالآخر واحتضان للمعقد في قلب البسيط.

السفر مغامرة نتوق إليها، نتمناها، نتوجس منها، نعلن فرحنا وخيباتنا حين نتحسس ذواتنا، نسأل أين نحن بالضبط وأين تكمن المشكلة فينا!

السفر أسئلة لا تقف عند إجابة، وفضاء ليس له سقف، صداقات لا تنتهي، وانتظار يعقبه انتظار، وتعرجات على اليومي، تفاصيل ما إن تغيب حتى تعود.

السفر عنوان الذات في رحيلها اللا مستقر، في احتضانها للحلم وهو يتلاشى مع كل نسمة هواء أو خطوة حيرى، هو هذا الذي ننشده ونداريه ونقبل عليه ونفر منه، وننهزم في محيطه حين يتعرى كفتاة حلم توشك أن تكون.

السفر غياب حد الجنون، وحضور مُركز حد الذوبان، والوله لكل ما يأتي ويغادر، هو الذكرى قبل أن تبدأ، وهو الذكريات قبل أن تلتقي في المحطات والمطارات والقطارات، هو عوالم نفرّ منها، ودروب تفرّ منا.

السفر رحلة العمر من محطات الغياب إلى محطات الحضور!

وقفت العرافة وقفة المهر الأصيل وقالت:

نستأذنك الرحيل أنا والقروي النبيل، وصلنا إلى السماء الرابعة، استأذنت.

قيل: من؟

قالت: العرافة.

قيل: ومن معك؟

قالت: القروي النبيل.

قيل: أهلًا بك وبمن معك.

فلما دخلنا وجدنا آثار الدمار والخراب، ولا رائحة لبارود ولا دماء، ومسرح الأحداث لا يزال طريًا. أجمل الحروب هي التي تجعلك تهرب إليها كأن الحرب مستمرة، لا أصوات رصاص، ولا قنابل، ولا طائرات، ولا متفجرات، ولا ألغام.

الجثث كالعهن المنفوش، الشيء الذي نعرفه أننا وقودها السرمدي، أقصى ما تخبئه الحروب حلم، وأدنى ما تجود به صاع من رماد.

تقدمنا خطوة، كانت الأجواء ملونة بالأزرق والأحمر والأرجواني، وكل الألوان الجميلة، لكنها هنا موحشة والأماكن مقفرة والخوف ظلال الأشياء.

قلت: ما هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنها الحرب العالمية الأولى بين الإنس والجن.

تقدمنا خطوة باتجاه النيران المشتعلة، كان هناك بالقرب منها سلم بجناحين من شمع، كانت المدينة كلما لملمت هزائمها أرخت ضفيرتها ومشطت شعرها بالنار، كيف تقابل الأشياء وكيف تنام مدينة سرقت بكارتها الحروب؟!

المشاعر كالرماد، والخريف سهام تتساقط وحراب تدمي القلوب الجميلة، من يروي الحكايات القديمة؟ كيف تلتقي الأحزان في الشاطئ الغربي ولا عيون؟!

كيف أصبح للبكاء طفل وللمصيبة شاعر وللسعادة حطام وللأغنية عتمة وللفراغ ذكريات وللماضي أبواب خرساء؟!

الحرب قد تأتي على هيئة فتاة مراهقة، تركتها الأقدار بين الفوضى والحماقة، وقد تأتي على هيئة عابد متنسك ترك صوته المبحوح ممتدًّا بين الظلام وضوء المصابيح وصعد إلى اللّٰه، وقد تأتي على هيئة سؤال تركه معلم الصبيان على قارعة الطريق، كلما اقتربت منه الفراشات مشى مسرعًا باتجاه أحذية العابرين، وقد تأتي على هيئة سبيكة ذهب جرفتها السيول من قصور الخليفة إلى مدن الفقراء.

صوت يستغيث، يستنجد، يصرخ، كان يختبئ في ماسورة مياه ري الأشجار.

قالت له العرافة: من أنت؟

قال: عفريت من الجن.

قالت: ولِمَ أنت هنا؟

قال: هارب.

قالت ممّن؟

قال من الإنس، كل الطرق كانت تؤدي إلى الخير وإلى الشر وكنا طرائق قددًا، عندما سبقنا الإنس بالعلم أصبحت كل الطرق تؤدي إلى الجحيم، كنا عالمًا مختلفًا ومتميزًا، حتى تقدم الإنس بالعلم ووصلوا إلى كشف الستار الذي بيننا، وأصبحنا غير قادرين على الاختفاء، وأصبحوا يطيرون مثلنا، ويكبرون ويصغرون، وواصلوا تطورهم العلمي حتى سخّروا الضوء والريح لهم، فجعلوا منه طاقة وسلاحًا وجندًا حتى أصبحنا لا قِبَل لنا بهم.

اتجهنا غربًا سلكنا ممرًا آمنًا تنتهي به حديقة عامة، أطفال يركضون، أزهار عن اليمين وورود عن اليسار، تنشر العطر وتتراقص على أنغام الندى، ملامح حكايات، حب، هدوءآ من بعيدًا عن ضجيج الحياة، بعيدًا عن الحرب والخوف والظلم، ابتسامة امرأة ترى أطفالها يمرحون، أب يلعب مع أطفاله، يمسك هذا، يضحك مع هذا.

فتاة بالعشرينيات من العمر تتجول وهي ترسم خطى مستقبلها فوق مرجيحة هنا ونطيطة هناك.

وأخرى أصغر منها، لما تعرف بعد ماهي متاعب الحياة ولا قسوة الظروف، قلبها مازال الأبيض الذي يغفر لهذه الحياة قسوتها وشاب يمضي ويتأمل كأنه يقول ترى ماذا ينتظرني غدًا، وآخر مع أهله متململ.

أصوات وضحكات وبكاء صغار، وحكايات في كل أسرة أتت لترفه عن نفسها.

آخر يتأمل، يقتنص الفرصة، يفكر، يصقل موهبته بالاستمتاع بالغناء والرقص.

كنت أتجول وعيناي تكتب وذاكرتي تحفظ.

بائع التذاكر إنسان متفوق على نفسه، متصالح مع ذاته، رداؤه القناعة، وكنزه الابتسامة، وتذكرته القول الحسن، يحبه الصغار والكبار، تحتفل به الحديقة كل يوم.

لا شيء يروق لي مثل احتساء كأس من الشاي على مقعد خزفي في حديقة عامة.

هنا فقط أختلي بذاتي وأتحدث معها وأرى البشر قادمين وذاهبين، والأطفال يمرحون كالفراشات، لاقوانين تتبعهم ولا مصائد فكرية ورقابية تلتقط الكلمات والهفوات، لا منظار يراقب عباءات النساء ولا قانون يفسد اللحظة الجميلة.

كنا بالقرب من مقعد خشبي، يجلس عليه شاب يرتدي ملابس بيضاء كأنه قالب من الثلج.

قلت: من هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: عفريت من الجان.

تقدم بائع التذاكر وبنبرة مهذبة قال:

طالعي حسن وسعادتي اليوم لا تقدر بثمن، منذ زمن وأنا أنتظر شاعر الإنس وعرّافة الجن، أيها العفريت حدثني عن الجنون.

قال: الجنون هو نتيجة، الجنون أسفار متعددة ومقعد واحد، جدل بين الوعي واللا وعي، سباق في العالم الآخر، احتدام، تصادم، تضاد في عالم الخيال، متعة.

كلما قلت: ياسحابة أمطري، أمطرت، وكلما قلت:

أيها البحر، خذني إليك، لبَّى النداء، النوافذ مشرعة، والمسافات تأتي وتذهب وأنت تحلق فوق السحاب حبًّا وسعادة وجنونًا.

الجنون لحظة يتوقف فيها الزمن، تمتد يد لتربت على كتفك ولكن بعد فوات الأوان، تستقر حينها الجراح ويسقط المطر، حين تفتح جراحاتك مع كل صباح يطلع وتنتزع روحك مع كل غروب شمس، عندها تصبح الحياة مجرد ورق تقويم، تطويها الرياح المهاجرة باتجاه المجهول.

الجنون نتيجة لكل هذا الصخب، هو تطور الإرادة القوية باتجاه إلغاء السلطة المركزية، هو الفردوس الأعلى من الرحمة، الحب، الانتصار.

الجنون معنى، قصة، زمن، تفرغ الأشياء من محتواها والحياة من حواسها، هو الاستغناء عن الكذب، عن الصدق، عن الحق، عن الباطل، عن الكهنة، عن الأنبياء.

هو الانتماء إلى عالم المُثل، الانتماء إلى الغياب، هو لحظة التقاء الصواب بالخطأ، النفي بالإثبات، الحقيقة بالنظرية، العالم الداخلي

بالعالم الخارجي، الخطيئة بالإيمان، هو عالم قيمته أعلى، وهو خالٍ من التناقضات والاشتراطات.

الجنون هو آخر ابتسامة في شفاه الوقت.

الجنون تفرد، حرية لا سقف لها، عالم خاص لا يقبل المساومة، انتقال من النحن إلى الأنا بتميز.

الجنون انتصار على المحيط، واحتجاج على المقيد السرمدي والمعقد التقليدي الآسر، هو خروج إلى حيث الذات ترى ذاتها، إلى عالم لا يراه سواك.

الجنون هو احتفال خارج إشارات المرور وانضباطية المعنى، هو خربشة متقنة وإتقان خربشة، هو انتقال بالجمال إلى تجليات اللامحدود.

الجنون غياب حقيقي عن الواقع، وانتقال إلى عالم خاص بالذات لا يعنيها الآخر ولا تؤمن به، لا تؤمن بالأعراف ولا بالتقاليد ولا بالوقت ولا بالمجتمع، فقط يسبح بحمد نفسه ويرتل صدى الأغاني الحزينة في لحظة خروج إلى اللامعقول، هو تواصل مع الذات وذاتها بمعزل عن التكوينات الأخرى، فن التعالي على الواقع، وانتقال من الغامض إلى الواضح، وتجاوز للمنقول والمعقول والمتشكل والمغلق.

الجنون رؤية العالم من زاوية واحدة لا تقبل ازدواجية ولا تراتبية ولا طبقية، هو العالم متناغمًا متجانسًا متساويًا، من هذا الجنون يبدو الآخر باهتًا لا معنى له.

الجنون ضد التغليف والتزييف والمداهنة والمجاملة والنفاق.

الجنون مسافة انتقال كبيرة بين عالم مقنن وعالم مبعثر الحرية فيه أكبر من القوانين، الجنون هو ألّا يكون سواك أنت خاليًا من الزجر والردع والقوانين والمفاوضات، ومما يجعل الود عبئًا ثقيلًا، عالم يختص بك وتختص به أنت فقط.

الجنون هو العالم من تصميم المفرد وليس المتعدد.

الجنون من يمنح الذات القدرة على التمرد دونما خجل.

الجنون نحترمه ولا نقدر عليه؛ فهو تحدي التحدي!

تقدمت العرافة قالت: حدثنا عن الحرب.

قال: الحرب لم تعد صراعات ولا انكسارات ولا لاجئين ولا أيتام ولا أرامل ولا معاقين ولا أحقاد ولا ضغائن ولا كراهية، لم تعد بدايات ولا نهايات، ولا الربح ولا الخسارة، لا الهزيمة ولا الانتصار.

الحرب أصبحت الفن الثامن، إنها موجات صوتية عالية، ترددات كهرومغناطيسية، عواصف ضوئية عاتية.

الحرب لا وقت لها ولا أيام، فإن بدأت فإنها لن تنتهي، النهايات دائمًا خسارة.

الحرب مشتتة الأذهان، أعداء اليوم أصدقاء الغد، تمضي الحرب بأثقالها وأحزانها وعلمها لا تراعي قوانين ولا تحترم أعرافًا، ولا يكتب لها قضاء ولا تنصف أرضًا.

الحرب المنتصر فيها خسران، مكيال إن ازداد دمرنا، وإن نقص قتلنا.

الحرب عقاب الإنسان لنفسه، الحكاية التي لا تنتهي فصولها.

الحرب إن سقط الراء سهوًا جاز لك فيهما ما شئت، لا يوجد وسطاء يبحثون لكم عن حصانة! عن ضمانة! عن مصالحة سياسية!

هناك فرق كبير بيننا وبينكم، حياتكم مبنية على التنبؤات، وهذه مرحلة فاسدة، وتلك مرحلة قادمة أكثر فسادًا، هنا دين ظاهر، وهناك كفر باطن وقيم مدمرة وحكومات مهترئة، مقايضة في زمن الانحطاط، وإفلاس في القيم، قوانين الامتياز للنُّخبة فقط.

المصالحات السياسية استغلال، والتسويات السياسية ابتزاز، وحقن الدماء كذبة كبيرة.

جثت العرّافة على ركبتيها تبكي وتقول:

إلا أنا،

أحمل في روحي إنسانًا

في جرحي أوطانًا، أجمع خطواتي كيما أرحل

يستصرخ وطني أن: «لا أتعجل»!

اقترب طفل بيده مسدس لرش الماءيلبس قناع دب على كامل جسده، قال: حدثنا عن الجن.

قال: الجن عالم آخر، نار وشرار، ثلاثة أقسام، قوتهم بضعفهم، وضعفهم بقوتهم.

حديثهم لهم، وعلمهم لهم، وتطورهم لهم، مجرد أوهام يزينها الخيال، خلقوا من أجل أنفسهم، عندما يحتفلون بالسعادة لن يغمرنا ضوء الخريف، ولن تصلنا موجات الموسيقى ولا عبق النبيذ مرة أخرى، ولن تتساقط عناقيد العنب من بساتينهم إلى شفتيك، قادرون على التلون والتشكل والاختفاء والظهور والتمدد والانكماش في وقت واحد.

إن مر في سمائك فإما مطر أو رعد أو برق أو صاعقة تحرق الأخضر واليابس.

استثناء الاستثناء، خلاصة الخلاصة، حيثيات التجربة المرة والمريرة.

الجان يعيش في المسافة الفاصلة بين الإدراك والواقع، لا تكوين ولا حتمية، لا معنى ولا طموح، بين يقينية نيوتن ولا يقينية هيسنبرج، بين عالم الكواركات المتناهي في الصغر وبين الكون الواسع المرئي وما يليه المتناهي في الكبر، تحليلي ثاقب، يملك بصيرة نافذة ناقدة، ذو ذهن متفتح، ضليع باللغة والأماكن، بل ويعتبر مرجعًا لكثير من المجرات، فقيهٌ في السياسة، وجاهل في الحب وفنونه، مجتهد، يؤمن بولاية العلم، ويرى الأمور وفق قانون العجلة.

الجن، هذا اللا مرئي فينا، المعبر عنا في متسع الفضاء وملاحقة الغامض والاشتعال، هو المارج من نار، الذي يوقظفينا الأسى من قناعته، ويبعثر الحاضر ويجعل القادم مسدسًا مصوبًا على الروح أو رمحًا باتجاه المعنى.

هم الفعل الذي يغري بالخديعة والتحول والتقلب والتلاشي أيضًا، هكذا نجده حين لا نستطيع إلا أن نشيع حظنا معه إلى حيث الألم، هم تداخل بين الذات وعالمها، مرتع خصب للقهرية وما يصدر من وساوس وعلل وانتحار.

الجان هو الإنسان بلحاف خفي يتدثر به لينسى أنه إنسان.

اقتربت فتاة كانت تعتمر خوذة الفرسان، ترتدي جاكيتا من الجلد بني اللون وبنطلونَ جينز أبيض وحذاءً يغطي كامل ساقها، قالت: حدثنا عن السيف.

قال: السيف، أول من صرخ صرخة مدوية في وجه الإنسان، وضد المنطق، وضد المشرق، وضد المغرب، وضد المفتوح، وضد المغلق، وضد الديمقراطية، وضد الملكية، وضد من وضع ملعقة الذهب تحت لسانه وضد من سرقها.

تراه القاعدة فيكون الاستثناء، كلما اقترب من الأشياء بدت له معكوسة على صفحة الماء، قاطع عظيم وحازم أمين، كاتب بدايات التاريخ ونهايته، محدث الغرائب ومنزل العجائب، صديق وعدو في آن، لدود ورحيم، صلب ولين.

قوته في يدك وحدته في صلبه، يحكي وينطق ويظهر ويخفي أسراره، صاحبه عزيز وتاركه هالك، له قدر وثمن وطالع حسن.

لا يعرف سوى الشجعان، ولا يعرفه سوى الفرسان، رمز للعدل والاضطهاد، الحاكم بأمره، الناهي بفعله، بيد الظالم صولة،

وبيد المظلوم جولة، لغته أسرع من لغة المنطق والإقناع، مصدر للعز وللعدل والإنصاف.

يمتلك قوة سحرية في قراءة ما يجول بخاطرك، قال القليل وأخذ الكثير ويحلم بالأكثر، أعماله مقرونة بالدرهم وأحلامه بالجنيه وطموحاته بسبائك الذهب.

السيف هو الأصدق من التنبؤ، الأسبق من النبوءات، أحد من السلطان وأشد من التنابلة، يجاري الموت ويداري الأجل في آن، يخوض غمار الصعب ويرهن المستحيل، يفتح المغلق ويسبر أعماق الإنسان في تمرده، يصلح المعوج ويقوم المائل، صوت الغلظة وسلطان القهر والاستبداد.

السيف بارقة موت وصريره دم ووميضه قوة وعزيمة، لذلك يصنعه الإنسان من نار السموم، ويحده ليشحذ به الهمم ويقوم به الذمم ويخمد به الحمم ويرفع به الأمم.

فاتح رابح، ومروض ذكي، وفارس بارع، وميدان واسع، جمهور يصفق ومدرجات تهتز، هواية أصحاب النفوس السامية والهمم العالية، يرتبط بالفارس، أن يصادقه وينافس، أن يجعله حبيبًا وأنيسًا، وهو قمرة لأصحاب الفخامة ومناظير لتتابع المشهد، عرف قديمًا في الشعر والأدب، «فالخيل والليل والبيداء تعرفه» سيرة من سير العرب، وكان على الكرم خير شاهد.

السيف أصدق إنباء من الكتب، صاحب قدرة وقليل الغضب، متمرد صادق الوعد والخطب.

السيف بحاجة إلى سايس يتحكم في ترويضه.

السيف مخلوق من الريح، معقود في نواصيه النصر إلى قيام الساعة.

السيف هو الغزوات، وهو النزوات، وهو اللاعب الأمهر في الميدان، فتح أمصارًا، وأغلق أبوابًا، وأقام مشاعل، وأنار دروبًا، هكذا هو والإنسان، على درب واحد، كلما ازداد طموحًا ازدادت ولعًا به، إنه رفيق العاديات وصديق المُوريات وخال المغيرات وابن المُثيرات للنقع.

السيف هو الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار، وهو التاريخ، انتصارات وهزائم.

اقتربت امرأة هزيلة الجسم شاحبة الوجه،

قالت: حدّثنا عن الثورة.

قال: الثورة مخلوق تأتي في لحظة لا تسمح بالمقارنة بين ماضٍ وحاضر، بين جيل سكنته الهزيمة طموحًا، وآخر استوطنته الحقيقة مستقبلًا.

الثورة هي التي لا تنتظر اعترافًا من أحد، هي من تنتزع شرعية وجودها على الخارطة، شعار الكل من أجل الكل، تجلد ذاتها بالأهداف والإنصاف والشعارات.

نقطة تحول في الكثير من المنعطفات، ومحور الانعتاق لوطنٍ كلما اندملت جراح فيه نُكِئت جراحا تتأتي في اللحظة التي يصبح

فيها البكاء على الأطلال عبادة، وكتابة التاريخ صلاة، والرقص على حافة العمر مجرد سرد للحكايات الحزينة على نوافذ المستحيل.

تأتي في اللحظة التي تتجزأ فيها المبادئ، وتدنس فيها القيم، وتنقص فيها الأشياء من أطرافها؛ فلا ملكية أصلحت البلاد، ولا جمهورية أصلحت العباد.

الثورة بركان، الثورة طغيان، الثورة عصيان، الثورة مصيرحياة أخرى.

الثورة يصلح بها شأن، ويعلو بها أمر، صلح وغفران، ألف معنى ومعنى، ثورة مشاعر وثورة حب وثورة جنون، ثورة قلب ووريد وشريان.

الثورة أن يتغير كل شيء من أجل كل شيء.

الثورة أن توسع مصنعًا لا أن تدمره، الثورة أن تسقي الأشجار لا أن تقتلعها، الثورة هي عدم الرضا عن الرضا.

الثورة أن توفر العلاج لأمراض السكر والضغط والقلب، وليس أن ترفع الضغط والسكر وأمراض القلب، والموت والحزن واليتم والألم!

الثورة حلم، رغبة في التغيير، طموح.

الثورة هي لقمة العيش، هي الدمعة التي تمسحها من قلوب الأيتام، ومن صدور الأرامل.

الثورة هي اليد التي تمتد لانتزاع الغصة من حناجر المكبوتين والمظلومين والمغلوبين على أمرهم.

الثورة هي العلاج الذي تقدمه لمرضى السرطان.

الثورة هي الفراش الذي تقدمه لأقدام ترتعش من البرد.

الثورة هي مقعد الدراسة الذي توفره لمجتهد من عامة الناس.

الثورة هي انتصار للفلاح في الحقل، وللعامل في المصنع، الثورة هي المعاملة، هي الصدق، هي النوايا الصادقة، هي الحب، هي الابتسامة.

الثورة هي اللغة التي تميز الساعين إلى الإصلاح من الفاسدين.

هي التي تقوم باختيار المفردات والمصطلحات والأشخاص الذين يسعون لخدمة الناس وإصلاح شؤونهم.

الثورة هي التي تفصل بين الغث والسمين، بين من يصدقهم الناس ومن يكذبهم.

بين اللغة الهابطة والمنطق السوقي والفعل العدائي، بين الذين يسعون للتصحيح والإصلاح ووزن القيم وتهذيب الخطاب، بين من يقنعوننا بسقوطهم ومن نقنعهم بتسامحنا وعفونا.

الثورة ليست شعلة، وليست شعارًا، الثورة عبادة مبادئ وطن.

هي استبدال سيطرة الفرد بسيطرة مجموعة من الناس لإدارة شؤونهم ومصالحهم ومراقبة ثرواتهم، هي تغيير الوجهة من التسابق والتزاحم على تقبيل أيادي الوالي إلى تقبيل أقدام المصنع وتلميع أحذية الحقل.

الثورة تغيير من قراءة المدائح والخطب في البلاط إلى قراءة القرآن والعمل به، من تبجيل العباد إلى عبادة رب العباد.

تقدمت فتاة كأنها البدر الساطع، ترتدي بلوزة إلى فوق الركبة وتنورة إلى منتصف الساق، قالت حدثنا عن الحب.

قال: الحب هو الفردوس المفقود، كلما بحثنا عنه سرق منا اللحظة التي كنا بانتظارها ورحل، كلما بحثنا عنه سرق منا بقايا الوهج المشتعل وصعد للسماء.

الحب هو القبس الذي نستضيء به في ليل الحياة الموحش، كلما بحثنا عنه سرق فرحنا وترك لنا ما يقض المضجع ويجرح الحشا ويؤلم الوجدان.

الحب هو الذي يتراقص كالثعبان بين الشريان والصمام.

الحب الذي نسعى إليه هو الذي يجعل الأشياء تنطق من حولنا، والخطوات تتناغم، يعترف بالألوان، يمنحنا الدفء في النهار والبرد في المساء.

الحب الذي يلتف حولك كمعطف في الصباح، وفي المساء يتحول إلى سهر.

الحب الذي يمنحك البرد في عز الصيف.

الحب الذي يتسلق جدران القلب وكلما حاولنا أن يكون قصيدة تحول إلى لبان.

الحب الأخرس، الأبكم، المعاق الذي لا يعرف الفرح ولا يعرف الحزن ولا يجيد الغناء ولا الرقص ولا البكاء.

الحب ثقافة، الحب فن، الحب تميز، الحب غياب، الحب حضور، الحب بداية، الحب نهاية، الحب أول، الحب آخر، الحب معنى، الحب وهم، الحب سلوك، الحب فوضى، الحب استقرار، الحب سفر، الحب هو الغياب الحقيقي الذي يمرغ وجهك في التراب، ويجوب بك الأرجاء بحثًا عن مكان يتسع للوعتك، ومدى يستغرق أنفاسك وموج يستمع لأنينك.

الحب هو الشعر وهو الرواية وهو الحكاية التي جسدتها أزمنة وأمكنة مختلفة، شجون متنوعة، جراحات متعددة.

الحب طاقة روحية عليا، تتكون بين البطين الأيمن والبطين الأيسر، تجعلك تقرر الرحيل عن جسدك والاغتراب داخل الآخر والالتحام معه.

الحب هو الذي يدمي الروح ويهشم زجاج القلب، الحب تأصل مما لا نهاية إلى ما لا نهاية، (أنا أنت وأنت أنا)، والذين يفتقدون القدرة على حب النساء بالتأكيد يفتقدون القدرة على حب الله؛ لأن الذين لم يتمرسوا على حب المخلوق ببساطته ومحدودية جماله، يكون من الصعب عليهم الولوج في حب الخالق بعظمته وكماله.

عندما يأتي الحب تأتي الابتسامة والسعادة، وتصبح الصحراء جنات وأنهارًا، تصبح بيوت الطين قصورًا ممردة من قوارير، تتهذب الطباع، يأتي الرضا، يأتي الحمام إلى النوافذ، عندما يأتي الحبتأتي

الفصول الأربعة، يأتي الصوت، يأتي الصدى، يأتي الشعر ويأتي الكلام المنمق، يكتمل البدر، تزهو النجوم، تقترب المسافات، ويقصر عمر الزمن، وعندما يذهب فإنه كالفيضان، كالنيران، كالزلزال، يتركنا خرابًا.

اقترب شاب يرتدي ثوبًا ويعتمر عمامة صغيرة كأنه المهدي المنتظر.

قال: حدثنا عن الأم.

قال: الأم جنة الدنيا ونعيم الآخرة، لا سابق أوفاها حقها، ولا لاحق أعطاها قدرها، مقدسة وقديسة وقداسة، نبع الحنان ومصدر الحب، وكنز المشاعر الفطرية، تنحني لها الحروف وتصغر أمامها العظائم، مدرسة في كل مناحي الحياة؛ في الجد، والاجتهاد، والصبر، والحب، والحرب، والثقافة، والابتسامة، والتحدي، والمغامرة.

تمردت على التمرد، وجعلت من ابتكاراتها ونظرياتها وعلمها وأنوثتها وطموحها وجمالها جيشًا لا قبل لأحد بمنازلته، سافرت بين الجراحات وجعلت من آلامها جوادًا امتطته لتسابق الحلم وتتحدى الوهم وتتجاوز الجنون، كل النساء وكل العصور وكل القصائد وكل الحب وكل البحار وكل النبيذ وكل الأغاني وكل النقاء وكل المرايا وكل الهدايا وكل الاتجاهات.

إنها ذاكرة كل الرجال، وعطر كل الأماكن، وزهرة كل المدائن، وقصيدة كل الأزمان، وطن للنجوم، وشاطئ للكواكب، وملتقى للعلم، وتذكرة للفصول.

إنها المسافة التي جمعت بين عرش بلقيس ومعلقات بابل، قصر غمدان وأهـرامـات مصر، بين جنة عـدن وسـور الصين العظيم، سيمفونية تناغمت بين الشمس والمطر، الحب والسفر، العلم والبشر، القضاء والقدر.

عندما تغيب شمس العالم تشرق هي، عندما يصمت العالم تغني، وعندما يفقد العالم بريقه تتلألأ، حينما تعز الأماني عن التحقق تتجلى في أبهى الصور وأجملها.

حينما تخذلنا قوارب الحظ كانت تجمل حالنا، حينما كانت تفيض بنا جراحاتنا كانت بلسمًا ودواءً، حينما كنا نصاب بالبرد كانت تمنحنا الدفء.

قطعة رخام نادرة، لم تتأثر بالرياح ولا بالشمس ولا بالمطر ولا بالكتابة عليها، كلما تهالكت زاد بريقها، فصيل نادر، الجميع ضده، البرد والجوع والخوف، المذاهب الأربعة والفصول الأربعة والجهات الأربع، حتى رحلتا الشتاء والصيف ضدها.

ظلت تمارس العزف على آلتها المهترئة وتغني بلغة إلى الآن لم يفهمها أحد، قيثارة ليست من الخشب، راهبة، متعبدة، ناسكة، تجيد الرقص بكل أنواعه وفنونه، وورقة اختبارسقط أمامها تنظيم بأكمله فشل في إيصالهم إليه، وفشلوا في هضم قناعاته وتوجهاته!

تقدم فتى فوق العاشرة ودون الخامسة عشرة يرتدي بذلة رياضية وبين أقدامه كرة يداعبها، قال حدثنا عن الزواج.

قال: الزواج شركة رأسمالها المودة، الصدق، الابتسامة، النقاء، الصبر.

الزواج شراكة ومصلحة، ميثاق عظيم وعلاقة مقدسة، وأمر من اللّه، وعهد بين قلبين، وثيقة من الطهر والنقاء.

الزواج رسالة سامية لعلاقة إنسانية عظيمة، مؤسسة لتنظيم دورة الحياة، تبدأ من إعداد فنجان القهوة وتنتهي بمسؤولية تربية الأبناء.

الزواج ارتباط، سنةحياة، قلوب وإشراقة المعنى «وجعل بينكم مودة ورحمة».

الزواج في القرية تقليدي، لا الزوج يعرفها ولا الزوجة تعرفه، هو اعتمد على وصف أمه وهي على ذكائها، فهي لا يمكن أن تقبل مغمضة العينين دون أن تراه من زقاق الجدران أو مفترق الستائر المدلاة على النوافذ، أو بلمحة خاطفة وهو خارج بين جموع المصلين.

الزواج هو ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة، هو مصافحة أزهار الياسمين والرقص مع النوارس والغناء مع العصافير والتجلي في ساعات السحر ولحظات الفجر الأولى.

الزواج في القرية غالبًا ما يكون تقليديًّا، عدا بعض الحالات النادرة التي يختلس فيها الشاب نظرة إلى فتاة بين سنابل القمح والأقحوان أو المدرجات الزراعية أو الطريق بين الروابي والسهول، أغلب حالات الزواج يغلب عليها قوانين وأعراف القبيلة، فهو يعتمد على وصف والدته لأنها أقرب النساء إليه، وأول حب ترعرع في قلبه.

الزواج في القرية لا يهم أن تعرفك الفتاة ولا تعرفها، فالمهم أمها وأبوها وأمك وأبوك؛ لأن الغرض الأساسي هو بناء أسرة، ويتم اللقاء التاريخي وسط فرحة عارمة من الجميع، وأفراح لا يمكن مقارنتها بأي طقوس، يجتمع فيها الحبيبان، وأول ما تلتقي العيون يبحث الزوج عن الفانوس السحري، أين هي كتب فن الإيتيكيت؟ أين هي السعادة؟

في أي درج من أدراج السماء؟ أين كتاب اللقاء الأول؟

أين كتاب الابتسامة الأولى؟ أين كتاب القُبلة الأولى؟

اقترب شخص على كتفه اليمنى فأس وبيده اليمنى ترمس ماء واليسرى حبل.

قال حدثنا عن الزوجة.

قال: الزوجة هي الجنة إن أنت زرعتها تمرًا ورطبًا جنيّا، وهي الجحيم إن أنت فرشتها جمرًا، هي السكنى، الملاذ، الدفء، الحنان، السعادة، الابتسامة الجميلة.

الزوجة هي المرأة والطفل والهوية والوطن.

هي وصية الوصايا، الخيار الصعب والقدر الأمر، هي المصير، والضمير، وهي العمق والحب، وهي العنوان الأول والأخير، هي الحنين وهي السفر، وهي الابتسامة الأولى والأخيرة، وهي الحياة العادية والملونة.

الزوجة هي التي تجعلك تترك كل ما في يديك لتعود إلى المدرسة، إلى الجامعة، لتتعلم من جديد. تمنحك الرغبة في

التحدي، في الاستقصاء، في البحث عن العلاقة بين الفضاء وبين السماء، بين البحر وبين النهر، بين القضاء وبين القدر.

تجعلك في حيرة بين شك مدقع ويقين فاقع لونه، هي العنوان السامي لمرحلة الحنين، التعب، الألم، الغفران. هي الحياة الأخرى، الروح التي تسكنها أرواح، القلب الذي يعدل في محبته القلوب، العين التي ترى وتسمع، اللسان الذي لا ينطق إلا خيرًا مهما تكالبت عليها سنين الحياة ومشقة العمر، تراها بالابتسامة أُمًّا، وبالحياة حبيبة، وبالحزن طفلة، بكاؤها غير مسموع إلا لربها.

اقتربت امرأة تعتمر جرة من الفخار وفي يدها اليمنى منجل واليسرى ربطة حشائش خضراء. قالت: حدثنا عن الزوج.

قال: الزوج مناضل في طريق مسدود، مجاهد في دائرة مغلقة، عاشق في مدن لا تعرف العشق، ولا يؤمن بالوحدة وهو من شهد عليها، دينمو يعمل بكل خطوط الضغط.

كلما وصل إلى رأس السلم انحدر إلى الأسفل، يحتفظ بنوافذه مغلقة عندما تكون درجة حرارة الجو العالية، ويشرعها عندما يعتدل الطقس، أفكاره هادئة وتفكيره صافٍ، لكنه غير محظوظ بل فاشل في وضع التصور النهائي للعبة.

تلتقي في وجهه دمعة وابتسامة في آن، يمتلك قدرة عجيبة على مراقبة الطيور ورصد حركاتها والتحدث معها، لكنه لا يجيد التحليق والطيران في رحلة العمر.

أكثر من صحافي، وأكثر من شاعر، وأكثر من عاشق، وأكثر من رسام، وأكثر من عازف على الجيتار، كلما وصلت به الحال إلى اللحظة الحرجة لن يقول الحقيقة التي بداخله.

يكابر حتى على جراحاته الغائرة، أحلامه ناقصة التكوين، وطموحاته مشلولة الجناحين، وحبه مكسور، وخيالاته مشوشة.

الانكسار، الخيبة، الجراح التي لا تندمل، المصيبة التي ليس لها حل، هو العيد والحب، والفرحة والمسؤولية. هو العهد، الوفاء، الإخلاص، الأمانة.

هو الخلق الكريم، وهو الالتزام، وهو الوعد السابق، وهو الشرف والصلاة، الدعاء، الإيمان، اليقين من الأرض إلى عنان السماء، شكور، صبور، عابد، حامد.

استقامت العرافة وقالت: نستأذنك الرحيل أيها العفريت الجليل، ونتمنى لك السلامة أنا والقروي النبيل، ثم صعدنا إلى السماء الخامسة، استأذنت.

قيل: من؟

قالت: العرافة، قيل: ومن معك؟

قالت: القروي النبيل.

قيل أهلًا بك وبمن معك.

فلما وصلنا وجدنا طريقًا يتوسط أرضًا خصبة، فمضينا على أطراف أقدامنا حتى وصلنا إلى بوابة كبيرة، كانت عبارة عن

عقود من اللؤلؤ المخلوط باليسر والكهرمان، فلما تجاوزناها ظهرنا على ساحة كبيرة مكتظة بالبشر، وكانت عبارة عن سوق يتوسط مدينتين كبيرتين عن اليمين وعن الشمال، فلما دخلنا وجدنا صرحًا ممردًا بالقوارير، وعلى يميننا ومن فوقنا الأشجار المثمرة، وعن شمالنا الورود والياسمين.

أخذت العرافة عنبًا وأخذت لوزًا، ومضينا حتى وصلنا إلى مفترق طرق.

قالت العرافة: خير الأمور أوسطها، وقبل أن نتقدم خطوة انبرى لنا شيخ يتزر بجلد غزال وعليه لحية طويلة تكاد تغطي صدره العاري، يتوكأ على عصا وبجواره عجل له خوار.

قال: من أنتما؟

قالت: عرافة وشاعر.

قال: أهلًا بكما.

قالت: أهلًا بك يا سامري.

قال: هل تبحثون عن إله؟

قالت: نعم، ولكن ليس عجلًا!

فانطلقنا حتى وجدنا بابًا أشبه بالباب السابق، تجاوزناه حتى وجدنا فيلًا عظيمًا ينام بالقرب منه رجل، ما من بقعة في جسده إلا وبها أثر من جراح، فلما اقتربنا منه قام على مراحل ثم قال: هل تبحثون عن كعبة؟

قالت العرافة: نعم، ولكن ليست كعبتك، فلما ابتعدنا عنه.

قلت: من هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إنه أبرهة الحبشي.

فتقدمنا فوجدنا سوقًا وحوانيت ومعارض.

فقالت العرافة: اتبعني ولا تسألني عن شيء؛ فعرجنا على معرض يشتري منك دينك مقابل جنسية، وبجواره آخر يشتري منك دينك مقابل امرأة، وثالث يقدم لك امرأة وجنسية، ورابع يقدم لك امرأة وجنسية ومالًا.

التفتت العرافة وأشارت برمش طرفها أن سنتجه للجهة المقابلة، فعرجنا على معرض تتوسطه امرأة في غاية الجمال تشتري منك عرضك مقابل جرام من الذهب، وبجواره معرض يشتري منك قيمك ومروءتك مقابل رحلة إلى نادي العراة، وبجواره معرض يشتري منك صدقك وأمانتك بقُبلة، وبجواره معرض يشترى منك تاريخك وموروثك مقابل ابتسامة.

أشارت العرافة بطرفها أن من هنا اتجهنا يمينًا حتى وصلنا إلى بوابة خرجنا منها إلى بطحاء، كانت سيول بشرية تنحدر من كل جانب، وما إن تختفي حتى تأتي أخرى، فتقدمنا فمررنا من أقاصي تل قومه يعبدون الشمس.

قلت: ما هذا يا أختي يا بلقيس؟

قالت: إن الحياة أكملت دورتها، وإن الصورة تتكرر والأحداث تعيد نفسها، والحقيقة نزعت من الماء إلى السماء، والحياء رفع من الفرش إلى العرش.

ثم تقدمنا فوجدنا قومًا يعبدون القمر وينسبون إليه الأساطير والشعر والحب والجمال، وقومًا يعبدون النجوم ويسمون أنفسهم بأسماء النجوم ويتبركون بها ويتطيرون بها.

ثم تقدمنا فوجدنا أقوامًا يعبدون البقر ويعتبرون أنفسهم أحسن حظًّا وأجمل وعدًا وأكثر سعدًا من غيرهم، فالبقرة رمز للعطاء والخير والنماء، والعلاقة بينهم مباشرة؛ لأنهم يشربون لبنها ويأكلون روثها.

ثم مررنا بقوم يعبدون الكلاب، يعتبرون أنفسهم عبادًا للوفاء وسدنة للمعروف وخدامًا للمروءة، ثم مررنا بأقوام يعبدون الأصنام، وقوم يعبدون بوذا بل ويحجون ويطوفون حوله، وقوم يعبدون هُبل، وقوم يعبدون اللات والعزى.

قالت العرافة: إننا في جاهلية أعظم من جاهلية أبي جهل.

وصلنا إلى ساحة تسمى ميدان التحرير، وهو المكان الذي قتل فيه هابيل قابيل، وفيه تقام ذكرى سنوية تقدم فيها الأعمال الإبداعية من أدب ولغات وفلكلور وثقافات مختلفة، وكل سنة يقوم من كل قبيلة خطيب يقدم الجوائز والشهادات التقديرية.

فلما اقتربنا قال شيخ طويل القامة يكاد ما بين عينيه أن يفصح أنه فارس لا ندَّ له.

اليوم دورك أيتها العرافة.

قلت: من هذا يا أختي يابلقيس؟ قالت عمرو بن معد يكرب الزبيدي، والسيف الذي في وسطه يسمى الصمصامة وقد فتح به أغلب الأمصار.

قالت العرافة: مكانك هنا وتقدمت لتتوسط الجموع.

قال عمرو بن معد يكرب، حدثينا عن التاريخ.

قالت: التاريخ ذاكرة مشبعة بالألم، فإما أن تكون مجرد آلة عرض لاستذكار ما مرَّ بنا من أمجاد ونظل حبيسي فكرة كنا وكانوا وتمجيد لأحداث مضت، وإما تنقلنا للراهن.

التاريخ تكرار الوقائع والأحداث، النفس البشرية الأمارة بالسوء هي من تتولى تكرار شريط الأحداث وتكرار البشر السيئين صانعي التاريخ الدامي، الذين يرتدون أقنعة زائفة تحت شعار الوطن أو الدين.

التاريخ مدرسة بلا عنوان، لا يعرف طريقها إلا العاشق الحقيقي، أما الساسة والجلادون والمنافقون من يخطفون التاريخ عنوة، ويحكمون العالم بالقتل والإرهاب؛ فهم لا يقرأون التاريخ مع أنهم المعنيون بالكتابة إليهم؛ لأن التاريخ للاتعاظ وليس للتكرار.

التاريخ استدعاء حياة، قراءة الآخر، آهة نفرّ إليها من حاضر أوجعنا ومستقبل ضيّعنا.

التاريخ ميلادنا(نحن) في هذا الزمن، أسوياء وأدعياء.

التاريخ هو الذي يشكل الرغبة حيث نريد ، فعل الإنسان في الـزمـن، وفعل الـزمـن فـي الإنـسـان، التاريخ هـو كـل مـا فينا من هواجس وظنون وآمـال وآلام وتطلعات وهـروب إلى حيث الأول من المجد ، حين لا نكون في الحاضر إلا مجرد بشر عابرين.

التاريخ وجع الحاضر، والتوق إلى المستقبل، لعل شيئًا ما نستطيع إحضاره لنكون - ولو مرة واحدة - نشبه الماضي البهيّ.

الـتـاريـخ هـو صفحة النسيان والـتـذكـر فـي آن، هـو الأصـالـة والمعاصرة، هو البكاء على الأطلال، هو الماء والرونق والبهاء، كما هو الدم والدموع والنزق والسطو وإرهاق العالم. التاريخ إيقاع الحياة والعالم وما فيه من تموجات ومعانٍ وفضاءات.

التاريخ لعبة أتقنها السابق ولغز محير لنا جميعًا ، وهو ما خلفه الأول للآخر من هذا التعب والتوجس، ورغبة الإنجاز والتعثر، وبقايا كلام لم يستطع السابقون الإفصاح عنه.

ظهر السامري من وسط الزحام قال: حدثينا عن الروائي.

قالت العرافة:

الروائي إنسان فاضت به الأحداث والوقائع وفاض بها ، لا تربطه مع ذاتـه علاقة حميمة، لذلك يبعثرها هنا وهناك، متصالح مع الذات المتمردة، وفي تحدٍّ مع الذات المتضخمة، يلجأ إلى الذات المنكسرة ويهرب إلى الذات الطامحة.

يعترف بالهزيمة، ويعظم الفشل، ويـأوي إلـى السقوط، مثله الأعلى أبطال روايته، يعشق السفر بين الكلمات، ولا يستطيع مفارقة المسافات، وطنه بين كتبه، وحقيقته هي منظومة اللحظات المتواصلة والمنفصلة التي يعيشها بين فواصل الكلمات. سابق عصره في التفكير والتنوير، نقي عصي، عاقل مجنون، طفل، وأحيانًا امـرأة، جناح كتاب أو سطر في رواية، قاص، حكيم، قلب يسكن القلوب وحلم يتوسط المدى، لا يعرف القيود، ولا يلتزم بالحدود، ملامحه تتشكل من أعماق الذاكرة الملتوية بين منعطفات مجموعة المشاعر والأحاسيس المرهفة أو الصلبة.

فنان في أدائه، أب في تصرفاته، تجرد من نفسه ليكون الناس جميعًا، اكتفى بقلوب الآخرين، كسر قيود القادرين، رسم حياته وربطها مع بساتين العنبومزارع اللوز.

يملك مفاتيح اللغة، وجداول المطر، ونوافذ القصيدة، وتلال الشعر، ومنحدرات الكلمات، لغته عذبة كالماء الزلال، عباراته كبناء حميري قديم، لا تتأثر بعوادي الدهر ولا بنوائب الأيـام، عنوان لكل ماهو قبيح.

احتياطي قومي من الحب والطيبة والأخلاق والنبل، قوله نادرًا ما يوافق داخله، يتنقل بين الأحداث على عجل، يتقاسم مع أبطاله الحب والقات والحزن والموسيقى، امتزجت سعادته بالآهات القادمة من عمق المأساة، أحيانًا يجعلك تقترب من كل شيء حتى السماء، وأحيانًا يهوي بك إلى الجحيم، تتقاطر الكلمات من شفتيه كالنبيذ،

أسرج خيالك وابدأ رحلتك التاريخية والأدبية والفنية والموسيقية في جلسة مقيل تتمنى أن تعود إليها وأنت لا تزال فيها.

- اقترب أبرهة الحبشي، أخذ نفسًا عميقًا، قال حدثينا عن الصلاة.

قالت:

الصلاة وصية الله لجميع الأنبياء، الطريق للوصول إلى الجنة، والنجاة من النار.

الصلاة هي القناة، هي الاتصال المباشر بين العبد والرب، أمر بها عيسى وهو بالمهد صغيرًا ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، سعادة فوق الأرض ونور تحت الأرض، ونجاة يوم العرض، إبراهيم - عليه السلام - ترك أهله بصحراء قاحلة، وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. الصلاة آخر ما وصى به نبينا محمد - صَلى الله عليه وسلم - وهو على فراش الموت.

الصلاة دعاء وشكر لله الذي أنعم علينا بالكثير، إنها العلاقة الخفية التي تجمع العبد بالرب وتحيي النفوس وتطهرها، الصلاة رسالة امتنان وشكر لله، الصلاة نور وضياء وبركة وابتسامة من القلب تقضي على منابت الألم والقلق.

- أقبلت خيول وجندأثارت النقع فوق رؤوسنا، تقدم سيف بن ذي يزن.

قال: حدثينا عن الحلم، قالت:

الحلم هو الشيء الوحيد الذي نعيش عليه في هذا الكون، يجيد مسح الدمعة من القلوب والآهات من الصدور، ينتزع الغصة من الحناجر، ينتصر لك وهو ينتصر عليك، يملك مفاتيح البراءة، الصدق، الدين، الأخلاق، الحب، الابتسامة والتجارة.

أمام مصلحتك محبة لا حدود لها، وأمام عشيقتك ابتسامته نادرة، وأمام مستقبلك حديث لا يملغناه في نومك ونداه، في صحوك، باطنه لك وظاهره عليك.

يختار لنفسه ترتيب الأمور على ضوء النجوم والقمر بينما الفاشلون يرتبون أمورهم في الظلام، يأتي متواترًا بحكايات مضت وروايات ستأتي، أغنية تنافس أغنية، وقصيدة تعارض معلقة، ليكون حلمًا ولعبة تتحدى لعبة، وحكاية تتجاوز حكاية ليكون حلمًا.

الحلم وحده يقرأ نافلة الرغبة وعبق الأماني، فرار إلى حيث نحن نريد معالجة ذات هدهدها السير في المزدحم من عناء.

الحلم هو المكبوت فينا من وجع المَعيش، حين لا يستقيم كما نريد، هو موقف الواقع البطيء في التكوين، هو مدعاة لنحلق عاليًا في حالة هروب مما فينا من عجز في الإنجاز، وتعطيل المستقبل حين يتوقف العمل ويغدو الشعار زيفًا، وهو بارق غيث لنفس من حقها أن تهدأ وتغفو قليلًا.

الحلم وحده الذي يبقى مجانيًّا نسعى إليه أصحاء أو مرضى لمعالجة ما فينا من نكد الحياة!

اقترب زهير بن أبي سلمى، قال حدثينا عن السلام.

قالت:

السلام هوابتسامة الفرسان الأخيرة، وهو الغنيمة الفريدة.

السلام هو الوئام، هو الوسام، وهو الصيام، وهو العيد، وهو الحب. السلام سلام الروح، سلام الأرض، سلام الجسد، سلام النفس. السلام أن تمضي في طريق لم يمسسك فيه وجع، ولم تقابل فيه جراحًا أو ضغينة، السلام أن تعتلي بسمو أخلاقك، أن تبدو كحمامة تمر بأنغام جميلة، السلام ينشده الكثير وقليل من يحصل عليه، السلام وجد منذ خلق البشرية ولكن عصيان البشر أضاع معناه. السلام فتح اللّه على القلب، نور نتهجَّاه ونرجوه، هو المطر وما ينبت من خيرهو الزرع والضرع، وآيات اللّه في الحب ومستودع النقاء ورؤيتنا إلى اللّه بأن اللّه حب وصفاء، السلام التحية التي تليق بأهل الجنة.

السلام نشيد الأرض، حنين الروح، سلامة النفس من علل الكراهية والادعاء. السلام تحية التشهد الأول من الحياة، تحية التشهد الأخير من الصلاة، هو الصلاة والدعاء والاستقرار وقيم الحق والخير والجمال فينا، هو القصيدة ولحنها الجميل، وورونق الوقت، وبهاء المعمورة. السلام هو اللّه.

كان بالقرب مني مبنى كأنه صلاةنور على نور، تركت العرافة وجمع غفير من عوالم شتى واتجهت نحو هذا الإيمان، كان المكان عبارة عن مزيج من أشعة أسطع من النور وأقوى من الضوء.

وصلت سمّيت باسم اللّه مالك الملك، دخلت كان المكان عبارة عن خلاصة لهذا الكون، محراب، سجادة للصلاة، صليت ركعتين خفيفتين وبعد السلام اتجهت إلى مكتب صغير عليه ورقة واحدة ومحبرة وريشة.

جلست على المكتب، وجهت وجهي إلى القبلة وكتبت رسالة إلى اللّه.

إلهي، سلام عليك في الأولين والآخرين.

إلهي أتيت إليك، مُتضرّعًا راجيًا، معتذرًا، متوسلًا.

إلهي، أتيت إليك بلا ماضٍ وبلا حاضر وبلا مستقبل، بلا وقت وبلا موعد وبلا لغة.

إلهي، قبل أن يقتص منا الوجع المسافر، وقبل أن تتعثر بنا جرار العدم، وقبل أن تصلبنا أحزاننا على شفة الوهم، قبل أن تسكبنا أحلامنا أحرفًا على ورق الوداع.

قبل أن يلفنا الشوق معطفًا على عنق الشتاء، قبل أن نتراكم كالضباب في فضاء الانتظار، قبل أن تعترف عطورنا القديمة أنها تنحني أمام المرايا،

قبل أن تكتب الوردة قصيدتها للمطر، قبل أن يلتقي الصمت بأغاني الحزن،

قبل أن يلتقط الغياب أنفاسه،

قبل أن يسبقني النسيان إلى النوم تحت شجرة الذكريات،

قبل أن يخذلنا الأصدقاء في منتصف الطريق،

أتيت إليك،

أتيت إليك محمّلًا بخيبات الفقراء، وأماني الأغنياء، وآهات المحبطين، وتعب العاجزين، وحنين العاشقين، وصمت الراحلين، وخطايا الظالمين، وسؤال المحرومين، وبؤس الخائفين، وسهر الليالي، وتعب النهار.

أتيت إليك محمّلًا بظلي وموشحًا بنوافذ الحزن، بالتعب المخملي، بأهداب البخور، بهمس القوافل، بوجع الحلم، بزخرفة الضوء وأنين الغيمة البِكر.

إلهي، كلما حاولنا أن نقترب منك ابتعدنا عنك، شتت الحياة حسّنا وحواسنا.

إلهي، إلى من تكلنا؟! إلى سابق يتوسدنا أم إلى قادم جاء يبغي المزيد؟!

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وضعت الريشة في مكانها والورقة في مكانها والحبر في مكانه، وقبل أن أتجه إلى الخارج عدت إلى المحراب، صليت ركعتين ثم توليت إلى الفناء الخارجي.

توليت وعيناي تفيضان من الدمع إيمانًا وخشوعًا، توليت وعيناي تفيضان من الدمع حزنًا، خجلًا من البؤساء الذين حملوني بؤسهم من مدن الصفيح والأسقف المهترئة والجدران المطلية بالأسى والحزن.

قالت العرافة: أصبحت الهموم وجبة يومية نقتاتها بانتظام، البائسون هم الذين يعيشون الواقع، وهم الذين يواجهون الحقيقة، أما نحن فنهرول باتجاه اللاشيء.

قلت لها: طوبى للبائسين، كنت في مراحل التجلي الأعظم.

قلت لها وأنا في منزلة بين المنزلتين، الصحو والمنام.

هذا فراق بيني وبينك، صحيت، كانت الساعة العاشرة صباحًا، النوم سلطان، بالمقابل الجوع كافر.

كنت مرعوبًا وسعيدًا، خائفًا وراضيًا، متوترًا ومبتسمًا.

هل كان ذلك حلمًا أم أنه حقيقة؟

الهاتف، القميص، الغرفة، الفراش، القلق، كلها شاهدة على أنني كنت نائمًا.

يا للهول لا بد من استعادة الأحداث وتسجيلها.

وحده الحلم يوقظ الإنسان، يجعله يفرّ من الرؤيا إلى الواقع، من الـ«أنا» إلى الذات، يفتح نوافذ الأسرار المغلقة.

طلبت فنجان قهوة، صليت الضحى، تصفحت النت، كانت هناك رسالة بالفيس من صديقة كنت أتمنى أن أبادلها المشاعر الحية، لكنني لم أستطع، كنت أتمنى أن أحبها ولكنني لم أستطع إقناع قلبي.

كنت أتمنى حتى أن يبتسم لها قلبي لكنه لم يستطع، كنت أتمنى أن أرفرف في سمائها كطائر حملته الأشواق على بساط الحب لكنني فشلت، كنت أتمنى أن أعزف سيمفونيتي الجديدة أمام عينيها السوداوين لكنني عجزت، كنت أتمنى أن أبكي وأن أفرحلكنني لم أستطع.

كنت أشفق عليها من جهة ومن جهة أخرى على نفسي، كيف تقرأ رسالة غرامية على الريق؟! وكيف تتعامل مع مشاعر متناثرة وأنت جائع؟!

ادفع بالتي هي حب!

كنت أتعامل معها بلطف كغالبية الجنس الناعم اللاتي جمعتنا بهن رياح الكبت في هذا الفضاء الرحب، كنت أظن أن اللطف مروءة، وأن الابتسامة كرم وأن الاحترام رقي.

لكنني عرفت بعد ذلك أن احترام المرأة هو في البعد عنها، وأن احترام الرجل هو في القرب منه، الابتسامة للرجل صدقة وللمرأة إثم مبين!

الحب لا يطير، إنه كنز والكنوز لا تأتي مع المطر ولا تأتي مع النت ولا تأتي مع الضوء.

الحب أسمى من أن يحتكره شخص، الحب فضيلة، الحب قضية.

الحب دين، الحب دعاء، الحب صلاة، لكن بإمكاننا أن نجامل بكل شيء إلا بالمشاعر.

كانت رسالتها كتابة على الماء، كسراب على نافذة الغروب.

نحن ننتظر الرسائل ممن نحبهم لكي نتطهّر من عتمة المساء، من لغة الفرح المزيفة الجاثمة على رصيف حياتنا.

(عزيزي الأنيق،

أشعر أنني الآن أغرق في محيط من الحب والشوق، الحزن والفرح، الحلم والوهم،

المقام والغربة، لن تستطيع قوة في الأرض أن تنتشلني وتنقذني سوى أنت،

كلما منيت نفسي بالنسيان أبت ذاكرتي إلا استحضارك في كل منعطف وأمام كل برهة ملامحك، ابتسامتك، قساوة قلبك، طيبتك، حلاوة لسانك.

عزيزي، أصبح صمتي يؤلمني وحنيني يؤرقني ومشاعري تعذبني.

هل فعلًا تركتني أغرق فيبحر عميق من الأمنيات التي لا حدود لمنتهاها؟!

عندما التقيتك لأول مرة كنت الموسيقى التي حملتني من مكان إلى آخر، عانقت فيَّ كل شيء.

كم هو مؤلم أن ترى أيام العمر تتساقط كأوراق الخريف وما زال قلبك بكرًا وأحلامك مؤجلة، كان الحب في نظري عالمًا من السحر والجمال والغموض، وقصصًا خرافية لا توجد إلا على شاشات العرض وأفلام هوليوود وروايات العشق الرائعة، ويبدو أنه في نظرك

قصيدة تكتبها في لحظة التقاء الدهشة بالقشعريرة، المرأة بقوس قزح، وهو ما لم أكنه أنا؛ لذلك كنت سيلًا جارفًا ذهب بي إلى المحيط ولما لملمت نفسي وجمعت أشلائي وفتحت عيني لأراكلم أجدك، سبعة أعوام مضت ومازالت آلام الحرب داخلي مستعرة، ذاكرتي عالقة بذكرياتي، اللحظة باللحظة والجراح بالجراح، وطن أدمى الجميع، حروب غير عادلة أودت بحياة الكثير من الأبرياء، إلا أنني كنت أوفر حظًّا منهم، فقد اخترت من يقتلني، اخترتك أنت، قصيدتي ورواياتي ومكتبتي وتاريخي المنتصر أو المهزوم، فحين كانت المدينة تحذرني والأرصفة تنصحني، اخترتك فارسًا لم يشهر سلاحه إلا عليّ.

لم أكن مخدوعة بك؟!

كنت النسيم الذي يعبث بشعري صيفًا والمعطف الذي يلتف حول عنقي شتاءً.

كنت أجوب الأرصفة والشوارع باحثة عنك، حكاية أسامرها، ولما لم أجدك كنت أعود إلى صفحتك بالفيس وأعيش مع صورك الأمرّين الحب والغربة، أما الآن فقد أمسيت أنت الكتاب وأنت الرواية وأنت الليل الطويل والنسيم العليل والأحلام القصيرة والكوابيس المؤجلة.

عزيزي، أخشى أن أكون لدى عاهتين؛ أحلامي ويقظتك. حبي

أثرت فيَّ الرسالة، جعلتني بين مشفق ومغبون، بين متعب ومحزون. أحيانًا نتعامل بلطف مع النساء فيحملن الطيبة والابتسامة

ولين الخاطر محمل الحب، أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي لمن لا يفهمها عبئًا ثقيلًا وعاهة ربما تكون مستدامة، كيف ستتعامل مع أصدقاء الفيس؟!

لمن تبعث قصيدة الحب المترفة بالمشاعر والممتلئة بالأحاسيس، لمن ترسل حزنك الأنيق بداخل قفص صدرك، كل منشوراتك موجهة وكل تعليقاتك مقصودة وكل إعجاباتك رسائل.

مواقع التواصل الاجتماعي نافذة نصدر منها آهاتنا، أحزاننا، أشواقنا، ابتساماتنا، جراحاتنا، مشاكلنا، مشاعرنا، أحاسيسنا، وبالمقابل نستقبل منها مشكلات الآخرين وأحاسيسهم. كتبت لها:

(مساء الفل،

أتمنى أن تكوني بخير، أنا في سفر وإن شاء اللّٰه عما قريب أعود،

خالص تحياتي وتقديري وامتناني).

كانت رسالة مقتضبة، تعني قلة الاهتمام وكثرة الاحترام.

أغلقت الهاتف وقت تناول الفطور، كان المطعم بالدور الثاني أغلبه أجانب، وقد يأتون بملابس النوم الضيقة الشفافة الحمراء والملونة المثيرة، وأنا قروي، الحشمة هي الأغنية الوحيدة التي أحفظها عن ظهر قلب.

تربيتنا تقف حائلًا بيننا وبين النساء، بيننا وبين الخمر، بيننا وبين الإلحاد، بيننا وبين الوقوف في مواطن الشبهات.

وصلت المطعم، كان عبارة عن صالة متوسطة تحتوي على بوفيه مفتوح، اخترت الطاولة البعيدة وجلست إليها، بيضة مسلوقة وحمص أضفت عليه قليلًا من زيت الزيتون وخبزتين صغيرتين، وكوب شاي.

أنهيت فطوري، كان بجواري شقراء سبقتني، أخرجت سيجارة، سألتني:

هل لديك قداحة؟! قلت لها بأدبٍ جمّ: لا، لست منحرفًا. تبسمت، وقالت:

إلا واضح من عيونك أنك قابل للانحراف، فقط تحتاج مَن يوجهك. شكرتها بأسلوب مزيج من القروية والمدنية والسخرية. تقبلت الأمر بابتسامة. أحيانًا علينا أن نتقبل النصح ممن هم أكثر خبرة منا، هؤلاء يقيسون المسافات التي بين ضلوعنا.

هذا الصباح يزهر حيادية؛ فلا أحلام المساء تعبر منه ولا تعب النهار يلهث وراءه.

صعدت إلى الغرفة، «عملت دشًّا» بدأت الأفكار تتماوج تحت الدش. أشعر بأكثر من شخص يتحمم معي، فهذايقول لي:

عليك أن تدون أحلامك في دفتر الذكريات، وأخرى تقول الأحلام ملحوقة.

الليلة عليك أن تجلس هنا وتستمتع بالرقص فأنا سأكون ضمن طاقم هذا المساء، ثلاثة مراقص تكفي لقضاء سهرة ممتعة، وثانٍ يقول:

اتصل بالدكتورة جولي واقض معها سهرة ممتعة على البحر واستفد منها معلومات فلكية عن الكون تخدم روايتك، وثالثة تقول:

أنت قروي نبيل، مصدر للنقاء والصفاء والطهر والعفة، إذا كان ولا بد عليك أن تذهب إلى السينما فهو المكان الذي يتناسب مع تفكيرك، وآخر يقول لم يتبق ما يستحق البقاء، عليك أن تنزل إلى دبي مول لتتسوق لزوجتك وأبنائك، ومن ثم تحزم أمتعتك وتعود. أطفالك ينتظرونك على أحر من الجمر، خرجت من الحمام وأنا أمام مجموعة من الآراء والأفكار المشتتة والخلافات والصدامات، النظريات والفرضيات والتساؤلات، منها ماله جواب ومنها ما لا نستطيع الجواب عنه.

اتصلت بالدكتور مازن، رد: كنت سوف أتصل بك الآن، قلت له:

ما هو برنامجك هذا المساء؟

قال: الليلة الدكتورة أزميرا مدعوة على العشاء عند السفير الأوزبكي، وحاولت أن أذهب معها ورفضت، وأريد أن أستشيرك، ما رأيك نكسر الروتين؟!

أجبته: تمام، ولكن الروتين مكسور من أساسه، كيف نكسره الليلة؟

رد: نروح مرقص.

قلت: هي ثقافة وإذا أردت أن تعلو وتسمو لا بد أن تبدأ من الصفر، وأنا اتصلت عليك لهذا السبب، أنا أشعر بالخوف، لم أذهب إلى مرقص قط، أخشى أن تأتي المنية وأنا هناك بين راقصتين.

قال: اللّه يهديك هذي الساعة وقت الوعظ والإرشـاد، سأنام إلى الخامسة مساء ومن ثم آتي إليك، فصَّلت نظارة نمرٌّ نأخذها ثم نذهب نتعشى ومن ثم إلى الرقص، ضحكت من قلبي.

قلت: سلام.

لم ترسل الدكتورة جولي، ولم تسأل، يفترض بك - أيها الفتى - أن تبادر، النساء يتمنعن وهن راغبات، صليت الظهر وعدت إلى النوم، الذين لا نستطيع الوصول إليهم في الحقيقة نقضي معهم أجمل الأوقات في الحلم!

صحوت على رنين الهاتف، كانت الساعة الرابعة والنصف، صليت العصر، أخذت التليفون، رن هاتف الغرفة، رددت، قال الدكتور مازن: أنا تحت.

قلت: دقائق أصلي وأنزل حالًا، لبست وتعطرت وتأنقت، وقفت أمام المرآة، أصلحت من تموجات شعري، اتجهت إلى المصعد، بالقرب منه امرأة عجوز بيدها كتاب، هذا ما لا نتقنه نحن؛ مصاحبة الكتاب. ليت الكتاب يعيرني سمعه، كلماته، شجونه، بداياته ونهاياته، ليته يعلمني كيف يكون الرقص بين سطور الكلمات وكيف يكون الحب بين سراب الأوهام وكيف يكون الشعر بين يدي المعنى.

وصلت الهول، كنت مشتاقًا للدكتور مازن، تعانقنا، انتقلنا إلى الفناء الخارجي للفندق. الصيف على أشده.

قال: بعد أن أنهيت اتصالي بك هويت إلى السرير، نمت نومًا عميقًا، ولم تمض الدقائق حتى ركبت سيارتي واتجهت إلى البحر، انتهى بي

طريق طويل معبد بالثلوج إلى هاوية عمقها لا يكاد يرى، كانت أضلاعها غير متساوية، ولكن الأقرب كان على شكل مثلث، وكان في الزوايا الثلاث تلابيب، كان في الأفق البعيد سحابة كبيرة من نار لا تشتعل، لكنها تقترب باتجاه البحيرة.

لا أدري كيف صرت في طرف الزاوية الحادة، وكانت الأزوبكيتان كل واحدة معلقة في زاوية من زوايا المثلث وتستغيثان بي، ويا لهول صراخهما، فكلما نظرت إلى السماء استبد بي الخوف، وكلما نظرت إلى الأوزبكيتين رحمتهما وهممت أن أقفز لإنقاذهما.

وبينما أنا بين اليأس والرجاء، بين الخوف والشجاعة، بين الجبن والمروءة، خرج من بين السحاب النارية تنين من نار، متعدد الرؤوس، منطلق بسرعة الضوء، وكلما اقترب زاد صراخهما، فقررت أن أقفز لكنني تفاجأت أنني مثبت على قاعدة كأنها من الذهب الخالص، وبدأت أصرخ ولا أحد يسمعني سوى التنين، فكلما صرخت ابتسم كأنه يطمئنني.

فجأة قبل أن يقترب التنين حصل دوي انفجار عظيم اهتزت له السماوات والأرض، وأصبح رأسي متدليًا للأسفل وقدماي بالأعلى، وتحتي هناك في البعيد، نهر وشلالات وروابي وقصور كأنها جنات عدن.

صمتت الأوزبكيتان، هبت نسائم ريح باردة، فجأة هوى المثلث باتجاه النهر بسرعة الصاروخ وعاد الصراخ، ورغم أني أغمضت عيني إلا أني كنت أشعر بدوران الأرض والسماء من شدة السرعة.

شعرت بنار تقترب، فتحت عيني وإذا بنا عدنا للوضع الأول، أنا والمثلث والأوزبكيتان على ظهر التنين وهو منطلق باتجاه السحاب الناري، كلما اقتربنا من السحاب تحولت إلى بلورات من نار داخلها ماء يغلي، داخل الماء حبيبات صغيرة ملونة، تسمع أصوات اصطكاكها، من شدة النار عيون الأوزبكيتين أصبحتا ناريتين. جسر يهوي، وآخر يتهشم، وثالث يذوب، وحوش وحيوانات من نار، ولما اقتربنا من السحاب الناري، فتحت أبوابها، وقبل أن ندخل صحوت وأنا أتصبب عرقًا، هل من تفسير لهذا الجنون الذي عشته حلمًا؟!

قلت: هذا حلم واللا فيلم أكشن؟! شكلك تفرجت فيلم ونمت.

قال: لا يا رجل!

قلت: عاد حلم أهون من حلم، أما أنا فقد رأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال: الجنة؟

قلت: لا، أبعد من الخيال وأقرب من الحقيقة، بحاجة إلى متسع من الوقت كي أقول لك ماذا رأيت وربما أقدمها لك مكتوبة على هيئة رواية.

قال: إن شاء الله.

استقللنا سيارتنا، ذهبنا باتجاه الطريق المنحدر كما يقول (متحدث ال جيبي إس)، كانت الساعة السادسة مساء، وكان الشارع في بدايات الوله.

وصلنا إلى معرض النظارات، أخذ الدكتور مازن النظارة وقمت أنا بجولة في المعرض، تغيرت الأشكال وتبدلت الموديلات، وأصبحت الموضة أردى مما كانت عليه منذ زمن، لم أقف على جديد النظارات.

قال الدكتور مازن: تدري أن النظارات والمخدرات والأدوية أعلى أرباح في هذا الكون؟! قلت له: الحياة أصبحت برمتها بزنس ألا تشعر بالجوع؟!

قال: بلى، ما رأيك نتعشى بمطعم هندي؟

قلت: لا رأي يخالف رأيك.

السفر يجعلك تشتهي كل شيء تراه، كانت عينا الدكتور مازن تقطران سعادة وخوفًا، ما زال متأثرًا بالحلم، وكنت كلما لمحت ابتسامته الجميلة كنت أيضًا أكثر سعادة واندهاشًا، ما زلت في المسافة الفاصلة بين الحلم والواقع.

سألنا السائق عن أقرب مطعم هندي، قال:

على بعد عشر دقائق، ولما وصلنا المطعم الهندي كان على مقربة منه مطعم كشري، ترجلنا من السيارة ببطء، اتجهنا نحوه، كأننا لأول مرة نرى مطعمًا.

كان الشارع يعمل بصمت، إضاءته نصف خافتة، المارة ينسابون كالماء، كانت الموسيقى تملأ الأرجاء لكن لا يسمعها سواي.

العصافير تتنقل بين الأشجار، وكان هناك أوركسترا خفية تتناوب على عزف سيمفونيات المساء.

قال الدكتور مازن: أنا لم آكل الكشري قط، فما رأيك نجربه؟!

قلت: تمام.

دخلنا المطعم، طلبنا «كشري بالكبدة» وقبل أن ينزل الطلب،

قلت: هل تعرف من أين أتى الكشري؟

قال: لا. قلت له:

أحكي لك، أعتقد أن أول من ذكر الكشري في التاريخ هو ابن بطوطة في معرض حديثه عن الهند.

كانوايطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن، وكلمة كشري مشتقة من اللغة السنسكريتية وتعني الأرز مع أشياء أخرى، وفي بلاد الشام يسمى المجدّرة، يطبخ ويقدم بطريقتين؛ بالبرغل أو بالأرز، وفي العراق يطبخ بالأرز والعدس الأصفر المجروش ويقدم عادة مع كبة الحامض ويعتبر مكملًا لها.

أحضر النادل الطلب، قال الدكتور مازن: أنت موسوعة.

قلت: وأما الطبخ فله حكاية أخرى.

قال: من أين أتى المصريون؟ لا يكونوا من الهند!

قلت له: يا دكتور، المصريون القدماء هاجروا من بلاد الرافدين التي قدموا إليها من اليمن،

ولكنهم بنوا حضارة مستقلة، أسسوا لهم معالم تبدأ لتنتهي عندهم، أعادوا إنتاج الحضارة وفق هويتهم هم، ووفق تفكيرهم هم، ووفق طموحهم هم.

بالغوافي التركيز، ولم يخطئوا في الحساب، مصر تقف على أقاصي الغار كناسكٍ مُتعبدٍ صائم، ينتظر فجر يوم العيد، لديه ثقة عجيبة أن الأمور تبدأ وتنتهي عنده، تنتظر قطار العودة لتقول وصاياها العشر في حجة الوداع.

مصر هي المزيج الفوضوي من الأهـرامـات، النيل، الأدب، والحب. ذاكـرة عربية شئنا أم أبينا، رقم مهم ممهور في دفتر المذكرات العربية، مساحة سواء كانت ممتلئة أو فارغة، كذبة أبريل أو حديث قدسي، حلم الأمس أو قدر اليوم.

أنهينا عشاءنا.

قـال الدكتور مـازن: يفترض الكشري من مقبلات العشاء. خرجنا من المطعم، ركبنا سيارتنا باتجاه الفندق، كانت الساعة قرابة التاسعة.

وصلنا أمام الفندق، كان هناك من وصل قبلنا والحركة بدأت تدب، الثقة قافلة تحملك للأمام، ولكن ليس دائمًا، أحيانًا تخذلك المواقف المنتهية الصلاحية، أحيانًا يكون الترف باللبس وأحيانًا بالمسكن وأحيانًا بالسيارات، لكن كيف يكون باللهو والطرب؟!

قد تكون التسلية مرضًا إذا اتجهت لنزع رداء الشعور الأخلاقي الجميل، أو عمدت إلى استنزاف الذات بالمغريات، وهي أكبر حرب

نفسية يقوم بها الإنسان على نفسه؛ لذلك أحيانًا نفقد الإحساس بالمتعة فندعي كذبًا ابتهاجنا وفرحنا وسعادتنا!

ملهى عربي، صبايا عرب، وكؤوس عربية، والأغاني عربية، والراقصات من العرب الأقحاح، قال الدكتور مازن:

هـذا يتناسب مع جنوننا، ولكن تعال نعمل جولة، سأريك اللاتيني، كان عبارة عن مكان أصغر والبنات الموجودات كنّ في حالة إحباط ويأس وبؤس، يتصنعن الابتسامة وهن غير راضيات، كان الملل يدب في أجسادهن البيضاء الرشيقة، لا وجود لمرتادين كثر، خصوصية أكثر، لهم نوعية معينة من الناس، ضاق بي المكان وأنا رِجل داخله ورِجل خارجه، كيف بمن هم في الداخل؟ كان بجواري بودي جارد أسود بملابس سوداء، لم أشاهد مثله في حياتي حتى في التلفاز!

خرجنا، تنفست الصعداء، اتجهنا إلى ملهى روسي، وكان على بابه رجل ضخم أكثر سوادًا وأطول قامة من الأول، دخلنا وكان أقرب إلى بار منه إلى مرقص.

قال الدكتور مازن: ما رأيك؟

قلت: نحن لا نبحث عن مكان شاعري ولا عن أجساد من الزئبق، هدوء المكان لا يعطي انطباعًا لليلة مجنونة، عد بنا إلى المرقص العربي، دخلنا والابتسامة على محيا الدكتور مازن، كان لا يفكر باللحظة القادمة ولا يأبه للحظة السابقة، أما أنا فكنت أشعر بأنني في المكان الخطأ، الوقت الخطأ، مع الصديق الصح.

وقف الدكتور مازن أمام طاولة بالأمام قريب من المرقص وتكلم بلغة الإشارة، ولكنني رفضت واتجهت به إلى زاوية نصفها مظلم ونصفها مضيء، حيث نرى الناس ولا يروننا ولسان حاله يقول:

اللي تشوفه! جلسنا، كان كل شيء متوفرًا، والدخان سيد المكان.

تولى الدكتور مازن مسألة الطلب والحساب والرقص والشرب والحديث، أما أنا فقد كنت ضيف شرف، لن أتصنع، قبل أن أوزع احترامي على الآخرين أبدأ بي أنا.

هناك حالات نقف فيها حيارى، خصوصًا بين النضج المبكر والمراهقة المتأخرة، كنت مندهشًا جدًّا، كيف وصلت إلى هنا؟ وكيف نتناقض؟ بالنهار ندّعي الفضيلة ونرتدي الأقنعة وفي المساء نجلس في أقاصي الموج. للكأس غواية ولليل حكاية وللرقص معنى وللعيون سهام، بين خطوات تمضي بنا وأخرى تعود، ألوان وأشجان، ورد ووجد، أكواب وولدان وقوارير مرصوصة وغير مرصوصة، وواقفة وغير واقفة، لم ترمش عينا الدكتور مازن، ولم تقف الدهشة أمامه كما هو حال القروي النبيل مذهولاً من أصوات الموسيقى الصاخبة والفتيات حوله كاسيات عاريات راغبات مشاكسات غاويات مائلات مميلات، كانت صاحبة المرقص تأتي ومعها كأس وتذهب ومعها أخرى، تقترب نادلة لترفع الطلب وما إن تذهب حتى تستدير أنثى بغاية الجمال، تشرب، تتمايل، تمد يديها نحوي للرقص معها ولكني اعتذرت ووضعت يدها في يد جاري في الطاولة.

ودفعت به إلى هناك؛ حيث تلتقي الألوان بالشباب بالخبرة بالشعر بالقصات، تجره نحوها بكل رفق وتحنو عليه كما لم يشعر بذاك الشعور من قبل، تغني وترقص وتعبث بقميصه ولكن بنعومة، وتعود لتشرب كأسًا أخرى ولكنها بصحته هذه المرة، ويشرب هو كأسًا بصحتها، في المرقص الداخل مفقود والخارج مولود، رقص، فنون، جنون. في زاوية أخرى فتاة شقراء بين يدي رجل مسن، قد نسي وقاره واستدار بين نهدين يجران أيامه من سنوات الضياع إلى أرذل العمر في منحدرات الحياة، الحياة لحظة وقار، والعمر لحظة، وقارورة وراء قارورة، ونهدة يتبعها نهدة، وأينما وجّهت عينيك تجد حكاية. ما أجمل طعم الدخان على أصوات الموسيقى!

لم تعد الذاكرة قادرة على استيعاب الكثير من المشاهد والمواقف، الخوف من الغرق في بركة دون ماء.

فتاة تكاد أن تشتعل، كلما عاد النظر إليها وهي ثملة، غاب عنها وعيناها معلقتان في زوايا الدخان، يداها تلتقيان، تبتعدان، تلتحمان، كانت تصعد مع الكأس وتنزل مع الموسيقى تاركة خلف ثمالتها كل شيء، لتعيش لحظتها الجميلة.

كلما غابت عن نظري شقراء في سحب الدخان العائم بين الصدور وبين الأقدام أقبلت سمراء تخطو بقلق وترقص بجنون وتجلس بخوف، الأحاسيس هنا منهوبة، والمشاعر مهاجرة في الفضاء، المعنى المشترك بين المرايا والحلم.

قال الدكتور مازن: أفضل راقصة صاحبة الفستان الأسود، جسد مُغرٍ وابتسامة ساحرة وقوام رشيق وأنوثة طاغية وثقافة عالية ورقص يستفز مشاعر القلب وانحناءات تجعل الروح أسيرة لهكذا فن، الرقص يحتاج إلى مقومات كثيرة، يحتاج لدراسة وتمارين ولياقة وقوام، عالم كبير وله أسرار وخبايا، ويحتاج منا فقط كشف الغطاء عنه؛ لأنه - مع الأسف - في الحقب الأخيرة تحول إلى تجارة.

قلت: فعلًا، أصبح تجار الأجساد أكثر تطورًا وأكثر قدرة على اختيار فرائسهم بأسلوب عجيب، لكن الغريب كيف يتم تطويع هؤلاء الجميلات لهذه المهنة؟! المرأة بطبيعتها خجولة، فكيف تتجرد من هذه الصفة بسهولة حين تصعد على منصة الرقص؟!

قال الدكتور مازن:

الأغنية حين تعزف يسقط كل شيء من خجل وحشمة ودين وشرف، ليصبح كل ما فيها مرتهنًا للموسيقى، حيث تبدو العلاقة بينهما أكثر من علاقتك بجسدك، لهذه الدرجة الراقصة أسيرة الآلة الموسيقية؟ حين تحب شيئًا ستكون أسيرًا له، ولا أختلف معكِ بأن من يحب عمله سيتفنن وسيبدع لدرجة أنه يضحي بنفسه لأجل رغبة!

قلت: لا أعتقد بأن مصطلح تضحية هنا مناسب، ولكن لنقل إتقانًا؛ فالإنسان عندما يحب عمله يعطي بإخلاص وتفانٍ.

قال: المجتمع العربي عجيب، لا أحد يقبل أن تكون ابنته راقصة، لكنه يحب الرقص ويسعى إلى المراقص.

قلت: لأنه مجتمع ذكوري، يستخدم المرأة مثلها مثل أي منتج، ومن ثم يذهب ليبحث عن زوجة لا عن راقصة، وإن اكتملت فيها مواصفات الجمال وإن تركت الرقص وأصبحت ربة بيت.

قال الدكتور مازن: النظرة الدونية إلى الراقصة قديمة في كل الأعراق والملل والنحل؛ لأن الإنسان طبع على الفطرة السليمة، وهذا يتنافى مع الفطرة.

قلت: يا دكتور، ألا تلاحظ أنه أصبح الآن فنًّا يدرس بمعاهد ومدارس خاصة؟

قال الدكتورمازن: لا يوجد تاريخ مشرف تصنعه راقصة.

قلت له: يا دكتور، أنت الرجل المثقف المستنير المتربع على عرش النخبة، تقول هذا الكلام؟!

قال: أنا أحترم الحياة التي وجدت بها وما يليق باسمي ويناسب مجتمعي، وهذا ليس قراري ولا اختياري ولا قناعتي، ولكنها محددات ومبادئ تربينا عليها. الإبداع قد يكون تمردًا، والخروج عن القبيلة قد يكون تمردًا، لكنك لا تستطيع التمرد عليها مجتمعة؛ الدين والأعراف والعادات والتقاليد، لن تستطيع أن تشرح لجميع الناس ولا أن تقنعهم أن هذا فن يدرس؟

قلت: صحيح، وفي نفس الوقت على المجتمع ألَّا يحكم على الجميع بالموت، فهناك فتيات تم التغرير بهن، لِمَ لا نحاول استعادتهن؟!

قال: الناس لا تستعيد حطبًا من أفواه النار، ولا تستعيد رمادًا. الناس يطربون حين يرون جسدًا يسلب العقول، كما أن الراقصة لا تهتم لذلك ما دامت مقتنعة بما تفعل.

من باب المرقص قدمت فتاة في نهاية العقد الثاني من عمرها، جميلة، تبدو بتقاسيم وملامح شرق آسيوية، طويلة، وهي في حكم النادر؛ إذ يغلب عليهم القصر، بدأت بجولة على الطاولات، الجدران، الإنارة، أقدام الراقصات، قوارير النبيذ، الفرقة الموسيقية، عيون العملاء الزرقاء والحمراء تفحصتهم واحدًا واحدًا، وواحدة واحدة، الدخان، الجمر. تقدمت نحو الطاولة التي نجلس عليها، نظرت إلى الدكتور مازن كأنها تعرفه، هذا الفتى علاقته بالجنس الناعم عجيبة، أزاحت المقعد قليلًا ليفسح لجسدها النحيل بالجلوس، كانت ترتدي تنورة قصيرة، ساقان كأنهما ثلج خالطه ضباب، كانت نحيفة، لو وجهت لها المروحة لطارت، أصابع كفيها كأنها الأقلام الرصاص، عيونها كانت ناعسة ممتلئة بالنوم، صدرها كان مرتفعًا وبكتفين ليستا عريضتين وفم كان أقرب إلى حبة زبيب مرّ عليها مشرط، كانت تتصرف كمدعو على العشاء.

أحيانًا تكون الثقة مصطنعة، ولو رميت حصاة صغيرة في بركتها فقد تثير ضجيجًا حولها، نظرت إليها، ردت النظرة بابتسامة. لم تتحدث ولكنها واصلت نظراتها المشتتة، لا يبدو عليها أنها تنتظر أحدًا بعينه، رحب بها الدكتورمازن بأسلوب راقٍ كما هي عادته.

إنه إنسان نبيل، كريم بأناقة، ومعطاء بحب، ومبادر بابتسامة. أومأ للنادل، وطلب منه أن يقدم حيالها واجب الضيافة، ودون ارتباك أو بحث في قائمة المشروبات اختارت مشروبًا لكنه رديء، كأنها بذلك لا تريد إزعاجنا، ربما.

اعترض الدكتور مازن على ذلك الطلب وقال لها:

بما إنك جلست هنا فسوف تشربين أفضل ما هو موجود، تنفست الصعداء وأخرجت سيجارًا من حقيبتها، وأشعلته بهدوء ولا مبالاة، أضرمت النار في أحشائها لتزيد واقعًا تعيسًا احتراقًا، ربما كانت تتمنى لو أنها أشعلت سيجارتها وشربت كأسها في مكان أجمل من هذا، ليس بإمكان البشر البقاء في الأماكن المزيفة كثيرًا، قد يخسر البعض مواقعهم الحقيقية مقابل أماكن مؤقتة. مؤلم الشعور بالتفاهات في زمن الكوليرا، شعرت بتفاهة بعض أفكاري، صمتتْ. عرفت من صمتها أنها تعاني، ولكن من ماذا؟

من الصعب أن تسأل فتاة في بار، من أنت؟

ولكن من السهل أن تقول لها من أنت، تحدثها عنك، شخص مكتمل الرجولة، رجل شتَّتَتْه المنافي وتوزّعته الأقدار، رجل يمنح نفسه صكوك الغفران ويحمل في فكره المزيف حقيبة من التبريرات ومن الفتاوى الجاهزة، رجل يبحث عن وطن ولما لم يجده قرر البحث عن امرأة ولما لم يجدها اتجه إلى المنفى، بحث عن السعادة في الطرقات وفي الأرصفة وفي الممرات وفي الشواطئ وفي أعماق البحار وفي الجزر، ولما لم يجدها أتى إلى هنا؛ لذلك كلما

قابل امرأة قال هذا وطني، هذا ربي، فلما رحلت قال: أنا لا أحب الراحلين، كلما قابل صديقًا قال:

هذا أخي، هذا أبي، هذا ربي، فلما غاب، قال: لا أحب الغائبين.

من السهل أن تخبرها أنك أول مرة تدخل مكانًا كهذا وأنك إنسان يفيض بك النبل ويفيض بك الحب ويفيض بك الإيمان، لكنك أتيت إلى هنا، انتظر قليلًا حتى يسبقك النبيذ المعتق وتصبح مهيأة لاستقبال حديثك الجد والهزل، حديثك المطرز بالشجون وبالعيون.

حديثك المر، ليس من طبعي الاستهتار بالآخرين حتى ولو كانت بغيا.

تركنا الدكتورمازن وقام بعمل جولة من الرقص، كم هو بشوش هذا الكائن، إنه رقيق وورومانسي وأخلاقه نادرة في صحوه، أما في سكره فيكون أجمل!

عندما يغيب الدكتورمازن أغيب أنا، هذه الفتاة إنجليزيتها مكسرة وأنا إنجليزيتي مكسرة، مرتان لذلك عندما يغيب الدكتور مازن في هكذا موقف أضرب أخماسًا في أسداس.

واصلنا حديثنا ولكن بصمت، عاد الدكتور مازن يجمع أنفاسه المتقطعة، ينظر إلينا كأننافرقاء، تناول رشفة صغيرة لبقية النبيذ التي في الكأس، ابتسم ابتسامة عريضة وكأنها كناية عن تعب واستغراب.

قال لي: ما الذي جرى في غيابي؟

قلت: لا شيء سوى أنني ليس عندي ما أقوله لا بالعربي ولا بأي لغة كانت، صحيح أنها تجلس بالقرب مني لكنني أراها بعيدة جدًّا، إن بيننا مسافة كبيرة، أنا هنا لا أشبه أحدًا، إنني مخطوطة لا يستطيع أحد قراءتها، ربما تكون أنت - يا صديقي - أكثر الناس قربًا وأكثرهم قدرة على فك بعض الطلاسم، ولكن ليس كلها، إنني أحب الصمت الذي يطوقني من الحنين إلى الحنين، ومن الشك إلى اليقين، ومن خفقان القلب إلى ذوبان الكلمات، قد أكون خاليًا من المعنى ولكنني أقف على حقيقة مرة وهي أنني لا أنتمي إلى هذا العالم، لي عالمي، ولي مدني وأنهاري، ولي أنشطتي ولي مناسباتي ولي جمهوري، فعندما ألوذ بالصمت لا يعني أنني أعيش في محيط من الفراغ، لكنني أحاول أن أقترب مما يعتمل داخلي وأعيد الأشياء إلى أماكنها، أملأ الكؤوس الفارغة، وأعيد فتح النوافذ التي أغلقتها الرياح وأرتب الأوراق التي تطايرت.

ابتسم الدكتور مازن، فتح قارورة النبيذ، ملأ كأس الفتاة ومن ثم ملأ كأسه، تبادلا الابتسامة، كان يتهيأ لجولة أخرى من الرقص، لكنه هذه المرة مد يده إلى يدها وطلب منها أن ترقص معه، وقفت كمهرة أصيلة.

نظرت إلى نفسها ومن ثم إليّ، وأخيرًا وضعت عينيها في عينيه ويديها في يديه، قال لها ما اسمك ولم أسمع الإجابة لصوت الموسيقى، ولأنهما ابتعداكانا متناغمين طولًا وابتسامة، ورقصًا وعمرًا، وكانت الأنفاس تنضح خمرًا والأجساد عطرًا، وأنا دخانًا.

كنا نذهب مع النبيذ ونعود مع الموسيقى، هنا رفاق سوء وهناك رفاق أكثر سوءًا، ولكن أخطر أنواع الرفاق هم الأكثر انحطاطًا، كيف لشاب يتصف بالتقوى والورع والعفاف والدين أن يأتي إلى هنا؟

الجميع هنا مجانين، وكأن لا شيء في هذا الكون أجمل من هذا المكان، أما أنا لا أستطيع إلا أن أكون مشاهدًا فقط. كانت الراقصات من كل البلدان، ربما إنهن يمثلن وحدة وطنية أفضل من السياسيين المتآمرين.

لم يعد هذا الفن يثير فضولي حتى وإن كان سببا في انهيار الدول أو هزيمة الجيوش، كانت الفنانة تغني بحماس، وكانت طويلة القامة وترتدي بذلة حمراء، نصفها العلوي فستان والسفلي بنطلون، كانت سرتها مكشوفة، الأشياء العادية كثرت في حياتنا، وكلما تطور العالم واقترب أكثر تساقطت أوراق الأشياء الجميلة في حياتنا، ظهرت عيوبنا، ظهرت جراحاتنا الغائرة.

كلما أفرطوا في الشرب كان الرقص أجمل، وكلما أفرطن في الشرب كانت أجسادهن كالحرير، نكاية بأشواقي وشجوني يجب أن أنضم إلى قافلة الرقص ولو عن بعد، لماذا لا أرقص هنا على طاولتي؟! كم يبدو الأمر سخيفًا حين تكتشف أنك لا تجيد الرقص ولا تجيد الغناء؛ فلقد كانت نشأتك ببيت يعتبر التمايل مع الريح من المحرمات وسماع صوت العصافير رِدّة.

لتكن ليلة مترعة بالرقص، مترعة بسراب الكؤوس المتواترة وظلال الأغاني المنتشرة فوق طاولات المعنى، تربط الأسر المحافظة

الرقص والغناء بالشرف وبالانحطاط والسقوط، كل شيء عندهم صلاة، وكل أمر عندهم عبادة، وكل معنى عندهم ذكر، وكل حركة عندهم طاعة. التعامل بالجملة طريق إلى الكبت والانغلاق.

لا بد أن يكون هناك فرق في التعامل من السوق، إلى المنزل، إلى المسجد، إلى المسرح، إلى المدرسة. لكل مكان قدسيته، ولكل مكان حرمته، ولكل مكان قوانينه ووضعه.

كيف يتذوق الرقص مطارد من داخله؟ وكيف يتذوق الموسيقى منفي من داخله؟ وكيف يحلق في سماء النايات من يتقاتل داخله الدين والقبيلة؟

عاد الدكتور والفتاة، جلسا، مدا أيديهما إلى كأسيهما بوقت واحد كأنهما التقيا عند نقطة معينة، كأنهما وجدا نفسيهما هنا، تحدثا، تعارفا، رقصا ولعبا ولم يتبق سوى أن يشربا نخب ذلك الجسد، مهم، فالذين لا أجساد لهم هم الذين أطلقوا إشاعة الجمال جمال الروح، لن يكون جميلًا لوأتينا بقرد إلى حلبة الرقص وقلنا المهم الرقص، لن يكون فنًّا إذ ذاك.

كانت الفتاة تتحدث إلى الدكتور مازن كأنه استمرار لحديث بدأ هناك، يبدو أنني بحاجة إلى رأس شيشة آخر، كأس شاي، أتى العامل الهندي معه موقد صغير من الحديد به جمر وأخذ الموقد القديم، قال الدكتور مازن وهو يمد يده إلى الشيشة ليشرب:

هذه الفتاة صينية وهي تعمل مسؤولة تسويق في إحدى الشركات، تحمل شهادة ماجستير في التسويق من أفضل جامعة في الصين،

وهي الآن بصدد الحصول على الدكتوراه، لكنها تأتي إلى هنا، حسب قولها، لزيادة دخلها والتحسين من مستواها المادي، وأيضًا لإشباع رغبة جنسية!

قلت له: قل لها لو حضرت الدكتوراه أين ستذهب؟

- ستظل بنفس العمل ونفس المكان؛ الدخل الذي تحصل عليه أفضل بكثير من دخل الجامعات أو الشركات، وهي فترة مؤقتة تستغل فيها شبابها، تعمل فيها مشروعًا صغيرًا لأنها حين يتقدم بها العمر، لا قريب يهتم ولا بعيد يتمنى جسدها.

كيف يفكر هؤلاء؟!

يحز بالنفس أن تكون عاجزًا عن إقناع أصحاب هذا التفكير أنهم يبعدون كثيرًا عن المبادئ والدين والمعاني الجميلة، القرويون يموتون ولا يتكسبون بأجسادهم، والقرويات يمتن إذا خرجن من دائرة الدين والحشمة والحياء، في المدينة كل شيء قابل للبيع والشراء، كل شيء له ثمن، كل شيء يدخل في إطار المصالح.

قلت لها: يكمن الفرق في المهنة، والفرق في القيمة المهنية، والفرق في رغيف الخبز الذي تأكلينه بمقابل عمل أو محاضرة أو إدارة أو تسويق، الفرق في طعم الخبز المغموس بالجهد والمثابرة والإرادة، فضلًا عن كونها عملًا غير مُرضٍ ومهنة ليست شريفة ودخلًا قذرًا.

قالت: يختلف التفكير من شخص إلى آخر، وتختلف طرق العيش المنشودة وتختلف الوسائل، البعض لا يأبه للمال ولا يبحث عن الرفاهية ولا يفكر بالكماليات، ويكفيه ما يسد رمقه، وهذا

النوع لا يتأثر بعذابات الحياة وأسواطها التي تجلدنا على ظهورنا؛ لأن عزيمتهم وإيمانهم وإرادتهم أقوى من تحسين مظهر أو إغداق وجبة.

قلت لها: صحيح؛ لذلك الذين يحتويهم الفقر على أطباق من جمر يهربون إلى هنا، حيث يجتمع الأشرار والفجار!

قالت: لا أحد يأتي إلى هنا إلا وهو يدرك الدرجة التي وصل إليها، فقاع القِدر دائمًا للبصل، ولذلك هذا قدري، أنا قشرة البصل التي تحترق بالزيت وبالنار لأمنح الآخرين نكهة مؤقتة.

أنا مضطرة لتحمل هذا الوضع، كل يوم أحترق، وكل يوم أفتح داخلي جرحًا جديدًا، وكل يوم أحصل فيه على مبلغ زهيد من المال أفقد فيه جزءًا كبيرًا من أنوثتي، ومن ثقتي، ومن كرامتي، ومن إنسانيتي، ومن سعادتي، ومن شرفي، كل يوم أخسر فيه عمرًا بأكمله.

كل يوم يُحصَّل فيه مبلغ زهيد من المال، يُحصَّل مقابله الكآبة، والهم والغم. كل يوم أقابل فيه شخصًا للحظات أكره من خلاله العالم، الرجال، العطر، الثراء، بل يصل الأمر أن أكره نفسي؛ لذلك عندما آتي إلى هنا، فأنا أهرب منكم، لأقع مرة أخرى فريسة بين يديكم.

قلت: على المرأة ألّا تنشغل بجدول الحسابات القذرة، لو عدت طفلة هل ستختارين هذا المكان؟!

قالت: لقد صار الأمر أكثر صعوبة، حين تغادر طفولتنا سفينة الأقدار في وقت لم يتحددبالنسبة لي، فقد حملتني السفينة ووجدت نفسي هنا؛ لذلك لو عدت طفلة وحملتني سفينة الأقدار مرة أخرى

لوجدت نفسي هنا، العوامل المناخية التي أحاطت نشأتي هي التي دفعت السفينة بهذا الاتجاه.

قلت لها: لو تصورت نفسك عنصرًا فعالًا في هذا الكون لاستطعت ركوب سفينتك في وقت شديد الرياح ولجعلتِ طواحين الهواء تعمل لصالحك أنت.

ولو قسمتني الحياة إلى قسمين، نادي الشهوات والغرائز الجنسية والمنزل المبارك.

قال الدكتور مازن: بي رغبة لعمل جولة جديدة من الرقص، وقبل أن يمد يديه إليها مدت إليه يديها الاثنتين.

الحياة الأرستقراطية لها تقاليدها ومفاهيمها، ولها أيضًا ثمنها الباهظ، هي في مجملها تتجه للتستر وراء الأقنعة الزائفة، تزداد عيناي اتساعًا كلما اتسعت دائرة الرقص بين اثنين وأمست الأيادي لغة مشتركة، علامات الاستفهام تتقافز بين عيني وشفتي، هزت كتفيها وأشاحت بشعرها المصفف بعناية تامة إلى الخلف وزمّت شفتيها الممتلئتين كحبات الكرز، وقفت، خامرني الشك، تبدو بريئة، تعلم تمام المعرفة ما يدور بخلدي من تساؤلات، تيقنت أننا نعيش في عالم نرجسي، نصنعه حول أنفسنا وننسى العالم من حولنا، كم هو مؤلم هذا الشعور.

كيف لي أن أقنعها بأن ما تفعله سقوطًا، إن لم تكن قد سقطت يجب أن تعود لذاتها، حتى وإن سقطت يجب أن تمارس حياتها كفتاة وليس كمتسولة والثمن جسدها، حتى لو أخرجتها من هنا اليوم ستأتي غدًا.

الرذيلة مستقرها في الدم، كيف أجعلها تفكر جيدًا بعمل آخر يحفظ لها ذاتها واحترامها لنفسها الرائعة الجميلة؟

الحياة جميلة، عليها أن تدع جسدها ينعم بطفولته ويتحرر من العبودية الآثمة التي يصنعها الذئاب من حولها. الحياة جميلة، ولكننا نفسح الطريق للظلم أحيانًا بالنفوذ إلينا بتنازلنا عن المقدس فينا.

شعرت بالدوار، أنا الوحيد الذي أمامه كأس شاي قرابة الثانية صباحًا.

استأذنت من الدكتور، أشرت للفتاة الجميلة بالتحية، خرجت، اتجهت إلى الغرفة، لاشيء أراه، كل الأشياء أراها مجزأة مقسمة وغير ثابتة.

وصلت الغرفة لا أدري كيف وصلت ولا كيف نمت، ولكنني صحوت، الوقت ظهرًا، الساعة تجاوزت الواحدة، كنت متعبًا أخذت دشًّا. صليت.

ما زلت على سجادة الصلاة، تبقى ركعتان أصليهما وأتصل على الدكتور مازن كي أرى برنامجه هذا المساء، كان الصيف كمن تراه من بعيد، التكييف بارد ومزعج ولذيذ، نوم النهار لا يغذي الجسم وحتى حينما تصحو تشعر أن هناك علاقة حميمة بينك وبين الفراش، أقرب الأشياء إليّ هاتفي، وأول عمل أقوم به هو تغيير الوضع من صامت إلى عام.

لا مكالمات جديدة، رسالة يتيمة من شركة الاتصالات تتحدث عن إمكانية رفع الحد الائتماني في حالة رغبت في ذلك.

اتجهت إلى الفيس، كان صندوق الوارد كالعادة متخمًا بالرسائل، ولكن الجديد هو رسالة من الدكتورة جولي، العلاقات غير الجادة مضيعة للوقت، والجادة مضيعة للعمرككل الأشياء. نحاول إحداث ثقب في الجدار المائل (نحاول ملكا أو نموت فنعذرا).

حين يتعلق الأمر بالحب، فإننا نتجاوز الماضي وننسى الحاضر ونقفز من فوق المستقبل، ننسى الألم وننسى الجراحات التي لم تندمل بعد.

ربما هي رغبة في الاسترخاء تحت ظلال السعادة ولو كان ذلك مؤقتًا، وسواء أدركنا أم لم ندرك أننا نوسع دائرة جراحاتنا الغائرة، نظلم أنفسنا مرة أخرى أننا نعيد صلب الذات وتوثيقها من جديد على مقامات الانتظار.

(صباح الفل،

العاشرة صباحًا ولم أنم، كلما وضعت رأسي على الوسادة طرقت باب غرفتي، باب نافذتي، باب قلبي، باب أشواقي، باب أحلامي، باب أوهامي، أجفان عيوني.

وقلت: يا جولي،

(الرقص لم يبدأ، الشوق لم يهدأ، وعلى الربى الجذلى حبي وأحزاني)

سيدي، كيف تسللت إلى مملكتي وحصوني عالية، وكيف سرقتني وأنا مخبأة في عيون القدر، كيف زلزلت الأرض من تحت أقدامي؟!

أيها الأنيق رفقًا بقارورة الزهور الوحيدة، رفقًا بقلبي، رفقًا بهذا الكون.

كان الليل طويلًا جدًّا ومملًا جدًّا وخجولًا جدًّا، وما من شيء يجعله مبهجًا وجميلًا، حتى ظهرت أنت كنجم أضاء الجزء المظلم من الكون، لقد أمسيت أتصفحك حرفًا حرفًا، كلمة كلمة، ابتسامة ابتسامة، وأعيد تجليات اللحظة التي سطعت فيها، التي أشرقت فيها، التي نظرت فيها إليّ ونظرت فيها إليك.

اللحظة التي وجدت فيها ذاتي، وجدت فيها الأنثى الحقيقية التي داخلي، اللحظة التي ولدت فيها أنا من جديد، اللحظة التي وجدتني أنا في عينيك، بين الأمس الغائب والغد الحاضر

سيدي، بين اللحظة التيكنت أبحث فيها عني واللحظة التي كنت تبحث فيها عنك، كيف كتبتني، وكيف رسمتني، وكيف بعثرتني قصاصات شعر ثم جمعتني قصيدة، كيف؟

كيف أشعلت النار في أطراف ملابسي، وقلت لي:

إنك من يطفئها وأنا أصدقك!

قلت لي: لا أحد يشبهني وأنا أصدقك!

وقلت لي: إنني سوف أنام كفاصلة بين حروفك وقصائدك وأنا أصدقك!

وقلت لي: إنك ما أحببتَ امرأة قبلي ولن تحب امرأة بعدي وأنا أشك في ذلك!

الأنيق بلا حدود ،

كان دخولك عالمي إيذانًا بأن كل شيء أصبح رائعًا ، من فنجان القهوة في أول الغيم إلى صدى الناي في آخر الحلم، من إشراقة الوقت في مدن الياسمين إلى تراجيديا غفوتي وكوميديا استيقاظي من صباحاتي إلى هطول المطر، من دغدغات العصافير في ردهات المساء البنفسجي إلى همهمات الجرح بين جوارحي.

سيدي،

كطفلة برية بريئة أشعر بأن هناك قوة تدفعني للالتقاء بك وسرد كل تفاصيل يومي.

أشعر أنني بحاجة للبكاء على كتفيك للاعتراف بين يديك.

لذلك لم أستطع إلا أن أكتب لي؛ فرسالتي هذه ليست إليك فقط، بل هي بمثابة مصل جديد لي يقيني رتابة الحياة ويدفع عني بؤس الأحلام المؤجلة.

لا أستطيع قول أكثر مما قلت.

تمنيت للحظة أن أجدك أمامي، بين عيني، وأغلقهما حتى لا أرى سواك إلى الأبد ، نصمت معًا ونبحر معًا ونغرق معًا.

سأترك ما ستقول العصافير لي هذا الصباح وأصغي لتلك القوة الهائلة، البركان الذي يقذف بي إليك بجنون.

آمل أن تكون دائمًا وأبدًا بخير أيها القيصر.

إلى حب.

كانت الرسالة بمثابة جرح جديد فتحته في بداية العقد الرابع من عمري.

عندما يسقط الحب من السماء كمطر الاستسقاء فإن سنبلة واحدة تكفينا إلى قيام الساعة، منذ الطفولة وأنت تحارب، وكل معركة خضتها خرجت منها مهزومًا.

الحب هو قضيتنا الكبرى، هزيمتنا الكبرى، وهو أرضنا المغتصبة، وهو قريتنا السعيدة، وهو مدينتنا المنكوبة، موكل بفضاء الله، أذرع الهواء، الأفق، قلبك، السماوات، الأربعين التي تحت السحاب.

قف بباب عرشها ولو مرة واحدة، قل للعجوز الذي نصب خيمته على صدرك وجلس يستمع لأم كلثوم: لقد رحل هولاكو ورحل المغول، ورحل الأتراك، وبقيت أنت وأم كلثوم.

اللحظات الثمينة نصغر أمامها، نبدو أطفالاً؛ لذلك كثيرًا ما تذهب سدى.

الرسالة الحقيقية هي التي تسقي الورد في أعماقي فيتضوع العطر ليملأ المكان، هي التي تخمد الحرائق المشتعلة في صحاري قلبي لينبت الخزامى، تسلقت الرسالة إلى هضبة الذكريات، الممرات الخالية من العواطف والانفعالات هي أماكن حدودية بين الحب والموت. أعدت قراءة الرسالة، توقفت أمامها مرة، مرتين، ثلاثًا.

وفي كل مرة أصابتني قشعريرة، فمرة قشعريرة الحب، ومرة قشعريرة الخوف، ومرة قشعريرة الغرور. الحياة أحيانًا تكون قشعريرة قسرية، وأحيانًا تكون قشعريرة قدرية، وأحيانًا تكون قشعريرة اختيارية.

المصير هو الدخان الذي يتصاعد من خطواتنا كلما اقتربنا منه وجدناه امرأة.

ذهبت إلى الشرفة أنظر إلى الناس، إلى سلسلة الأبراج، إلى البحر.

هل من مُتعَب سواي؟

هل من مجنون سواي؟

هل من معشوق سواي؟

هل من شاعر سواي يجلس القرفصاء بالمنطقة الفاصلة بين المرأة والقصيدة، بين الحنين والحب، بين الجرح والجرح، وبين جدار الوقت وفلزات الانتظار؟!

كان الشارع يعمل بأعلى طاقاته، والجو الحار يكاد يلفح نصف جسدي العاري، عدت إلى الغرفةأبحث عن سيجارة واحدة، اتصلت بالمقهى، طلبت فنجان قهوة. سيظل لهذه الرحلة نكهتها وصداها.

أحيانًا نحتفل ولكن بعد فوات الأوان، وأحيانًا نحمل الذكريات فوق ظهورنا كشجرة الميلاد للطمأنينة فقط، بينما تظل هي غيمة في السماء تظللنا من أخطائنا ومن أوهامنا ومن أصدقائنا الطيبين، أما نحن فمن غابة إلى مدينة، ومن قرية إلى صحراء، ومن بحيرة إلى

نهر، ومن رصيف إلى شارع، كلما اقتربنا من الحلم تساقط العمر على هيئة كلمات من شفتيها.

وجدت السيجار وضاعت القداحة، الطريق الصحيح هو الذي يلتقي فيه العلم بالحب، الإيمان بالدعاء، حرارة الصيف بابتسامة أنثى قروية.

كيف يكون الحب مسيحيًّا؟

بل كيف تكون أنت مسلمًا سنيًّا ومصلوبًا في قلب السيدة العذراء، كيف؟

ليس مهمًّا أن تكون مسلمًا أو كاثوليكيًّا أو يهوديًّا، المهم أن تكون إنسانًا يسلم الناس من لسانك ويدك، هذا كلام مرسل على عواهنه، كيف لك بمن لا دين له، لا بد من إعادة ترتيب الأوراق.

الإيمان هو الحافظة التي نودع فيها الحب والأحلام والذكريات.

لقد أفسدت هذه المرأة عليّ وقاري، أفسدت عليّ قرار اعتزال الناس والخلوة، واقتفاء أثر الصوفي النبيل الذي داخلي، كنت بدأت خطواتي الأولى نحو العزلة بالزهد عن ملذات الحياة، كانت الخطوة الثانية الانسحاب بهدوء من مسرح الحياة الذي يعتمد على السطحية في كل شيء، وكانت الخطوة الثالثة هي السعي إلى حياة مختلفة تمامًا، حياة أستمتع فيها بالقمر، بالسماء، بالنجوم.

حياة أستمتع فيها بطعم القهوة، بجمع الأحرف التي تتبخر منها كلما التقت شفتاي حياة ليس فيها مواجهة مع الشمس ولا تحدٍّ مع القمر، كلما سكنت إلى التلال وإلى المساء وإلى العيون النرجسية.

حياة بعيدة عن الرقص مع الأمواج ومداعبة الرمال على الشاطئ، حياة لا يتكلم فيها كل شيء حولي دفعة واحدة، الصباح والمساء، الطريق والغصون، النجوم والعيون.

حياة تستمر في رحلة لا تتوقف، وحديث لا ينتهي، حياة أتجاوز فيها المعبد والكنيسة والمسجد إلى بقعة خالية إلا من الله!

حياة لا أصغي فيها إلا إلى ما يقوله الخير وإلى ما تقوله الموسيقى، إلى ما تقوله النجوم، وإلى ما يقوله القمر، وإلى ما يقوله الندى، حياة كل ما فيها رواية أكتبها أنا، تكون جسرًا بيني وبيني فقط.

وصلت القهوة، طلبت منه أن يحضر قداحة وفنجان قهوة آخر.

كيف يكون الحب بين نبيين؟ وبين كتابين؟ وبين ساقيتين من خمر وأخرى من لبن مصفى؟!

كيف تكون قديسًا وقرويًّا؟!

قالت ذات ظهيرة والسحب المحملة بالحب وبالحنين تقترب من جدائلها المتكورة الملونة المثيرة: ما الأجمل الذي تنتظره؟

قلت: والسراب الذي في عينيها يظهر ويختفي والضباب يلف ما تبقى من الكلمات باتجاه السماء: أنا.

لا أجمل من أن تكون عاشقًا ولكن لذاتك، لروحك، لأشجار الصنوبر التي نبتت داخلك في زمن خالٍ من النساء، زمن القحط، زمن ما قبل النبوة الأولى!

أن تكون عاشقًا لهمس الحروف المتلاصقة والكلمات المعلقة بقلبك، والقصائد التي كانت نبيذك في المساء وقهوتك في الصباح ومناجاتك في الأسحار.

أن تكون عاشقًا لخطواتك في الرصيف الممتد داخلك بين أحلامك وشجونك، أن تكون عاشقًا لإمبراطوريتك الداخلية، لحديقة الزهور التي تحيط بالأماكن المقدسة، بمدن الذكريات.

هذا الفنجان لامس أحاسيسي ومشاعري، أضاء طرقات العتمة التي داخلي، الهروب من مواكب الحب هو الطريقة الوحيدة للنجاة، والحب هو الجرح الذي يسيل على أوتار قلبك قطرة قطرة، فيكون أغنية.

قالت وحبيبات المطر تتساقط: كم سيكون جميلًا حين تمارس عشقك وغوايتك وجنونك بالمساحات المتوافرة داخلك، تتسلق أسوار قلبك، تقفز، ومن ثم تتسلق لتسقط مضرجًا بحلمك.

كم سيكون جميلًا حين لا سواك تترنح على الممرات وفي أبواب المعابد وعلى أحداق الكنائس كإمام وقديس وراهب وشاعر وروائي ومؤمن لا سقف لإيمانه.

كم سيكون جميلًا وأنت تضرب أوتاد خيمتك وتدنو قليلًا قليلًا من سبحات روحك، تتحدث إلى الكحة قبل أن تخرج من كوخها، وإلى العطسة قبل أن تصعد من كهفها، وإلى النهدة قبل أن تلبس ثيابها.

كم سيكون جميلًا وأنت تسند ظهرك إلى الخيمة وتواجه الحنين والأشواق والمساء بحقيقة النساء.

لقد أربكتني هذه الرسالة جدًّا، وعطلت تفكيري وشردت أفكاري، وأعادتني إلى حقب الحب الأولى، لقد وضعتني هذه الفتاة الشقية أمام تحدٍّ كبير، وأنا ممن يعشقون الضرب بالكلمات والمبارزة بالعيون، ذهبت إلى الشرفة، عدت إلى الغرفة.

رجعت إلى الصالة، شربت القهوة، لا بد من الرد على الرسالة؛

أولًا: كتصرف أدبي.

ثانيا: كبح هذا القلق وهذا الجنون الذي يعتريني.

وصلت القهوة ومعها القداحة، أشعلت سيجارتي، قررت أن أرد على رسالتها برسالة أكثر تهذيبًا وأكثر صدقًا وأكثر شوقًا وأغدق ندًى.

قررت أن أهرب من القرية الصغيرة إلى عينيها الواسعتين، أهرب من المدينة المترامية الأطراف إلى قلبها الكبير.

لقد فتحت لي الباب على مصراعيه، إنها دعوة صريحة للحب، مشكلتنا عندما نحتفظ بالأشياء داخلنا ولم نتركها تعبر إلى الضفة الأخرى من العمر.

إلى تلك التي اجترحت قلبي ذات مساء فاشتعل قلبها دخانًا،

- (سيدتي الجميلة، مساء الورد والياسمين،

قرأت رسالتك وكنت أتمنى أن تقرأها معي العصافير والصباحات الخالية من الحب والكؤوس الفارغة من النبيذ والحنين والأشواق، قرأت رسالتك وعلى يميني القصيدة وعلى يساري الألم، تمنيت أن أخفي

مشاعري عنهما، أن أخبئ حبي بين دفاتري، أن أجمع أشواقي وشجوني وحكاياتي في صندوق وأسلمها البحر، فقد يتصادف أن تجيء إليكِ.

سيدتي، ما بين حب وحب تصحو العصافير، وما بين حب وحب تأتي الأغاني، وما بين حب وحب تشرق الشمس من بين جفنين، ما بين حب وحب تغير طعم النسيم العليل.

سيدتي، لم تكن المرة الأولى التي رأيتك فيها في محطة القطار، لقد رأيتك قبل ذلك على عتبات الحلم، وعند بوابة الأماني، وفي محطة الذكريات، ففي البدء كنت أنا، وفي البدء كنت أنت، وفي البدء كنا معًا، وفي عيد رأس السنة كنت بجوار بابا نويل تحملين الهدايا للأيتام والفقراء ثم رأيتك أغنية تتسلق سلالم روحي ومقامات قلبي ثم فراشة تطيرين بين الجراحات.

سيدتي،

كقطرتي مطر التقينا، وكمسافتين تقاطعنا، أتينا كالمواسم، واجتمعنا كحكاية.

تقابلنا كقصيدة، كرواية، كموسيقى.

سيدتي،

لقد كنت أول الإحساس وأجمله، أول المشاعر وأغدقها، أول القراءة وأول الكتابة، وأول الألم، وآخر الجراحات، وآخر الحب وأعذبه. مودتي).

انتهيت من الرسالة.

انتهيت من وضع أشواقي وأشجاني وعواطفي بين قوسين.

انتهيت من شرب فنجاني القهوة وسيجارة واحدة، ولكنني لم أنته من قول الحقيقة التي داخلي، لم أستطع ملاحقة الكلمات ولا المشاعر الشاردة في طرق القوافل التي داخلي وإحضارها إلى هذه الرسالة.

لم أستطع فتح قنينة الكلمات المعتقة، لم أتجرأ على فتح خزانة المعنى من أول رسالة، أسوأ شعور يعيشه الإنسان قبل كتابة القصيدة وبعد كتابة الرسالة.

خرجت إلى الشرفة، ربما يكون هناك من يعيش الحالة التي أعيشها، ربما أكون أنا مثالًا لآلاف البشر المتعبين، وقبل أن أعود من الشرفة، قبل أن يرتد إليّ طرفي، وقبل أن يجف ريقي، قبل أن أغلق نوافذ قلبي المشرعة على حديقتها، قبل أن أرتب الفوضى التي أحدثتها في لحظة شوق، قبل أن أعيد القصيدة إلى مخدعها، قبل أن أضع الكأس وقنينة للنبيذ في أقاصي الدروب.

قبل أن تغادر الطيور المهاجرة المشاركة في احتفالات القراءة والكتابة، قبل أن تعود الابتسامة إلى قصرها، قبل أن يحلق المعنى لحيته استعدادًا لاستقبال رسالتها الجديدة، قبل أن أجمع شتات النسيان وتضاريس الحلم في ذاكرة واحدة.

قبل أن أعود أنا من رحلتي، قبل أن ألمس صوت الحزن، وأتفقد أغاني الجراح، قبل أن أغلق النافذة التي يتسرب منها الحنين، قبل أن أقوم بدور الممثل وأُقبل شفتيها من خلف المرايا، قبل أن يعود

ذهني من شروده، قبل أن أتأكد أن هذه الخيوط الرفيعة تؤدي إلى شفتيها، ردت برسالة تقول:

(سيدي،

ربما أربكتني رسالتك حين اكتشفت أنا صيغة واحدة لسؤال واحد، وأنا مذاق واحد لفنجان قهوة.

بين عشية وضحاها أصبحنا كقيس وليلى، أمسيت أقلب روحي بين جمر الحنين والأشـواق، الإجابات التي كنت أحملها صارت أسئلة تحملني.

بين عشية وضحاها أصحبت أبحث عن فنجاني المقلوب، أبحث عن فرحي الضائع، أبحث عن شطآني، عن تاريخي، عن مملكتي، عن خيلي. أصبحت أنتظر المواسم وهطول المطر، شروق الشمس وطلوع الفجر الذي أنت امتداد له.

سيدي،

بين عشية وضحاها أصبحت أنت الصوت وأنا الصدى، أنت البحر وأنا الموج، أنت القلب وأنا الدماء، أنت الجراح وأنا البلسم، أنت المساء وأنا الحلم، أنت الخيال وأنا الحقيقة.

بين عشية وضحاها أصبحت أنت النغم وأنا الرقص، أنت أول الغيث وأنا آخر البحر.

لقد تعلمت أن أبتسم وفي حلقي ألف غصة، وفي قلبي جرح يتكلم، وفي عيني دمعة.

لقد قوص الحمل الثقيل ظهورنا، لكننا لن نستسلم، حتى أصبحنا في سباق مع العمر، وفي كل مره يضعون الهزائم في طريقنا على هيئة ورود.

سيدي، إنني لا أعي الآن ما أكتبه إليك ولا أدري أين أنا؛ في زاوية البيت، أم على شواطئ الحب، أم على أجنحة الحنين وأسِنّة الأشواق، أم بساط الأمل؟

سيدي، لا أدري هل أسألك أم أجيب عليك، وفي النفس ما لا يجيء مع الكتابة، مالا يجيء مع الأشواق ولا مع الحنين، لا مع الحضور ولا مع الغياب، في النفس أنت هزيمة واحدة لجيشين مختلفين.

سيدي، سأعود إلى رسالتك ولكن سوف أنتظر إلى حين هدوء قلبي، حين تقصر المسافات وأرى الممرات التي تقودني إليك.

سيدي، لقد ضربت بكل تفاصيلي وبكل فلسفاتي وبكبريائي وغروري وجنوني وهذياني عرض الحائط وتسربت إليك من بين مسامات القبيلة.

وُدي أيها القيصر، إلى حب).

مرة أخرى تعود بك هذه السيدة الجميلة إلى مربع الربح والخسارة، ماذا ستكتب لها وقد اعتصرت مخيلتك وجمعت خلاصة العقود الثلاثة في رسالة؟!

ماذا ستقول لها؟!

كم أكره الروتين والرسميات والمقدمات الأفلاطونية.

أحيانًا يكون النفاق العاطفي هو الحل، هو القصيدة المضمخة بالمشاعر المؤقتة، هو الوسيط بيننا وبيننا، لذلك عادة ما تكون العلاقات الإنسانية في بداياتها الأولى منسجمة، فالثقة تتعامد مع الزمن والمسافة تتقاطع مع الحب وصدى الناي يصب في حديقة الزهور.

الأيام والليالي تكشفان معدن الأشياء، تزيحان الستار عن المغطى، تكشفان التصدعات والانشقاقات والنتوءات التي تحملها أعمدة المعبد.

رددت عليها:

(إلى تلك المرأة الياسمين،

سيدتي،

أحيانًا تكون الرسالة عاطفة، وأحيانًا قداسة، وأحيانًا مجاملة، أما رسالتك فكانت حياة، جلست أمامي، شربت نبيذي، تعطرت بعطري، لعبت بألعابي، جرينا ورقصنا وتمشينا معًا.

لقد أحسنت وفادتها لكنها لم تقل شيئًا مما تودين أن تقوليه أنت!

سيدتي،

أنا متعب جدًا، ولن أقف مرة أخرى أمام جدول الضرب لأعرف كم يلزمني من الوقت؛ لأعرف ما الذي تقوله رسالة، كم يلزمني من الوقت لأتمدد بين أحرف الرسالة وأنام.

سيدتي،

لا وجه للمقارنة بين رسالة تفترش الصمغ وتنام في أذني، وبين رسالة باتجاهها للعيش بين الشريان والصمام، لن أستمع إليك من خلال رسالة ولكن الأفضل أن أقابلك وجهًا لوجه، ولتكن فحوى الرسالة هي القهوة التي نحتسيها على شرف التقاء قلبين؛ لذلك فأنا أدعوك للعشاء في المكان والوقت الذي يناسبك. مودتي).

وقبل أن يرتد إليّ طرفي، قبل الشهيق وقبل الزفير، قبل أن أضع الهاتف من يدي كي أسرح مع الخيالات، أذهب إلى نافذتها، أسترق النظر من خلف ستارة النافذة، أرى كيف تتلون تعابير وجهها وهي تقرأ رسائلي وهي جالسة، واقفة، نائمة أم قائمة!

ردت برسالة تقول:

(إليك أيها القيصر، سيدي، إذا كانت رسائلي قد عبثت بكتبك ولوحاتك وبعثرت قصائدك، فرسائلك عبثت بقلبي وروحي وبعثرتني من داخلي.

سيدي، هناك مطعم عائم ربما يتناسب ومشاعرك الفياضة وأحاسيسك المرهفة،

غدًا، الثالثة عصرًا، سأمرّ عليك ومن ثم نترك الوقت للوقت).

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، ويبدو أن الدكتور مازن مرتبط مع الأوزبكيتين. المسافات التي نمشي إليها تسرق منا العمر، والمسافات التي تأتي إلينا تسرق منا الحب. كانت ليلة عصيبة لا النوم نوم، ولا الحلم حلم، ولا الرؤى رؤى، ولا الشخير شخير، ولا الكوابيس كوابيس، كل واحد في بلاد.

وحدي إلا من هاتف يأخذ حصته الليلية من الشحن.

أحيانًا تمرُّ علينا لحظات نكون فيها أشبه بعمال المناجم، يقضون أجمل أوقاتهم وهم يحفرون قبورهم بأيديهم، وعندما يأتون لزيارتنا لم تعد تعجبهم حياتنا، لذلك تقتصر زيارتهم لأهاليهم فقط، لم يعد يهمهم الشوارع ولا الحدائق ولا المستشفيات ولا المطارات ولا سباق التسلح ولا التكنولوجيا ولا الحب ولا البحر والنهر.

المشاعر المريرة هي التي تظهر فجأة عندما تتساوى لدينا الأرقام والأسماء والشوارع والجهات والنساء، عندما تتلون الأيام وتقف أمامنا الأشياء، عندما نشعر بالضياع.

فتحت اليوتيوب، بي رغبة لسماع أم كلثوم، استقررت على أغنية (من أجل عينيك عشقت الهوى)، وفي لحظة باغتني الشعر، ازدحمت الحروف والكلمات والعبارات والصور والمعاني من جميع الجهات، يباغتني القمر عبر النافذة، وتباغتني الذكريات عبر مرايا المواسم، دفتر أنيق وقلم ومكتب بالقرب منك وقصيدة في طور التكوين، أيهما أنت؟

كشوق أتى ساجدًا

من مغرب الشمس إلى مشرق الروح

كساقية تحتويها الكؤوس

كأفق معنى تسلّق أسئلتي وبكى

كجلمود صخر جدائله متعبة

كقوس قزح بدا مجهدًا من غبار المدينة

كأسئلة أتت في عيون امرأة

كحب قديم، كطيف سرى في طريق القوافل

كوحي تجلَّى في عنان الفؤاد

كليلٍ يجر سرابيله باحتشام

كفجرٍ بعيدٍ مُدبر في الفضاء

يمشط لحيته بتمهل

وينأى قليلًا فلا يترجل. .

أيها الليل كن سفرًا في عيون الغواني

كن ألقًا في مساء العذارى

كن قلقًا في وُريقات قلبي؛

كي تمر القصيدة.

اتصل الدكتور مازن، تساءل عن سبب بقائي في الفندق، أخبرته أنني ربما بحاجة إلى لحظات نقاهة، فقد أتعبتني المدينة وأتعبتني الحواشي من أغنية إلى أغنية ومن سهر إلى سهر ومن حنين إلى حنين، استندت إلى الكنبة المطلة على المدينة والبحر والناس بمختلف حكاياتهم وألوانهم وأعمارهم، كان الليل يمارس هواياته دون كلل أو ملل.

مررت على مدرجات القرية واحدًا واحدًا ، شربت القهوة وعانقت الحب في ظلال الصحاري والقفار، شربت من النبع، جلست بجوار الشلال.

أذَّن الفجر، صليت، تهيأت للنوم، أجمل الأحلام هي التي تأتي على هيئة مطر، كيف تحولت القرية إلى كثبان رمل؟ وكيف أصبحتُ أنا بطلًا من أبطال التزلج؟

كيف أمست فتاة القرية متمردة؟! إنه سباق مع الزمن، مع الجليد، مع الرمل، مع الصباح، مع المساء، معفتاة القطار.

الحادية عشرة صباحًاأفقت كمن يفتح بابًا ويخرج من غواصة، عبرت المحيطات ومخرت الخلجان، كنت أتوهم لعبنا في الشعب المرجانية، مداعبتنا للأسماك، مرورنا من بين الجواهر والأحجار الكريمة، ربما كانت الجوهرة الوحيدة في خط بحري يمتد من الحلم إلى الحلم، بين الحلم واليقظة فجوة كبيرة تتساقط فيها الأشياء والأحلام والأصدقاء والنساء والقصائد التي لم تكتمل والحب الذي من طرف واحد.

الرغبة في السقوط لا تقاومها الأحلام، ولا تقف في طريقها الصباحات المسافرة، ولا المساءات المهاجرة، حتى لا تقابل فشلنا وجراحاتنا في أقاصي الذاكرة، كانت أحلامنا القديمة خالية من الموت ومن الغرق ومن الحقد ومن الانتقام، كانت نقية إلا من الحنين والأشواق والعذابات والمكايدات الجميلة.

نظرت لنفسي في المرآة، ولم أتمنَّ أن يعود العمر ولا أن يتقدم لا قليلًا ولا كثيرًا ، لا ذكرى ولا شجن؛ لأن العمر توقف عندي

في أزهى سنوات الشباب، أحيانًا نقوم من النوم، نصعد من الحلم، ننزل من الأوهام ونحن متعبون نازحون من مدن الروح إلى منافي الغياب، كيف نتمسك بطيف الغربة وحبال المشنقة تلتف حول أعناق مواسمنا الشريدة، قبل أن أكمل فنجان القهوة وقبل أن تشير ساعة الهول إلى الثالثة عصرًا، كانت جولي تقترب من باب الفندق، ماذا تخبئ في صوتها، الخطوات الأنيقة؟

لحظة تأمل، كانت الأماكن والمرايا والكاميرات والمزهريات التي تقف على جانبي الممرّ تشارك اللحظة التي وصلت فيها.

سيدتي، كنت أتخيل قبل أن ألتقي بك أن الوجود أوسع من عينيك، وأن أغاني الشتاء أجمل من صوتك، وأن الفراولة أجمل من شفتيك.

قالت: على رسلك أيها الشاعر، أنا ثلاثة لا أصدقهم: المحامي والشاعر ونفسي.

كيف كانت ليلتك؟

قلت لها: لا تسألي عاشقًا كيف أمضى الليل ولا عاملًا كيف أمضى النهار، عدت إلى دفاتري وأوراقي المبعثرة أبحث عن رقعة تحمل إليك عواطفي الممزقة ومشاعري المجزأة على أرجاء المعمورة فلم أجد.

قالت: أنا لست بحاجة إليك لتلملم ذاتي المبعثرة ولا لتخفف من كآبتي.

لست بحاجة إليك لكي تواسيني في عمر أهدرته بلا ثمن، ولكن ما أرجوه منك ألّا تضاعف تعبي، خصوصًا في هذه المرحلة الحرجة من عمري، فأنا منهكة متعبة، لو أشعلت الآن عود ثقاب لاحترقت.

أنا بحاجة إليك تكتبني ديوان شعر، تلملمني من المدن ومن الشواطئ المهجورة ومن البلدان التي لا قطارات ولا مطارات فيها ولا حب، وتضمني بين جناحيك.

أنا بحاجة إليك تعود بي إلى ذلك المكان الرائع الذي شهد ميلاد حبنا الأول، فأنا أشتاق لإحساس يجمعنا ومشاعر تفرقنا، وفنجان قهوة ننام في أطرافه، أشتاق لبقايا وطن، أشتاق لبقايا عذاب، لبقايا سراب، لكن على يديك أنت.

أحتاج إليك.

كل حرف تكتبه تضع فيه قلبي، وكل حرف أتهجاه أجد فيه صورتك، أتوه لأبحث عنك، أموت في نفسي لأحيا فيك.

أحتاج إليك، كلما أشرقت الشمس تكون الشعاع الذي ينتظره قلبي، وكلما أضاء القمر تكون النورالذي تنتظره روحي، وكلما جئت بينهما تكون نسمات فؤادي ورمال صحرائي ومياه شطآني وبراعم أزهاري.

أحتاج إليك لتكون الغصن الوحيد الذي يحمل تفاحة وحيدة نقتسمها معًا في لحظة جنون، أحتاج إليك حزنًا.

أحتاج إليك ألمًا ، فبعض الحزن من لوازم العشاق، وبعض الأنين من زاد المغرمين، أحتاج إليك في نزال ربما يكون (غير متكافئ) مع الذات.

أحتاج إليك لأستقوي بك عليّ وأتحداني، أحتاج إليك حديثًا وصمتًا في آن.

أحتاج إليك ولكن نسيانًا فقط، جرحًا بلا ذاكرة، كي يتوقف العمر عندي أنا وتبقى مخبأ في عيون القلب وتنسي طريق العودة، في أجهزة الهاتف النقال في ذبذبات الإرسال في صندوق الوارد في الرسائل المرسلة في الفيس بوك في الماسنجر في زوايا البحر وأطراف الشواطئ.

ركبنا سيارتنا، اقتربنا أكثر، ابتعدنا أكثر، سلمنا أنفسنا لأغنية البحر، كانت تذهب بنا نسمة هواء عليل، تعود بنا نظرة، كلما تذهب بنا ابتسامة تعود بنا آه.

في لحظة كهذه عليك أن تملأ الجراحات التي داخلك برمل الشواطئ، وإن لم تستطع املأها بالملح، هذه اللحظة لن تتكرر إلا كل مئة عام.

كانت المسافة من الفندق إلى المطعم العائم عبارة عن مسافات تختزل الزمن وتختصر الحياة عبر شريط سينمائي، له رائحته المميزة وتصميمه الفريد.

كنا أغنية وكان البحر حلمًا ، كنا البهاء وكانت الريح وشمًا ، كنا رسالة قديمة ، وكان الوقت قيثارة ترقص في شفة الريح كلما اقتربنا من الجرح ولامسنا الأشواق.

كانت السماء ملبدة بالأتربة، وكان البحر ممتلئًا باليخوت والقوارب والندى والجمال، كان الشاطئ يتراقص طربًا وكان الوقت يعزف مع كل موجة سيمفونية جديدة، الحكايات التي تضيء تأتي من هنا، البحر يعتني بالغرباء، والشواطئ لا تحب أشجار اللوز ولا عناقيد العنب، ولا تحب العطر. البحر يقدر الغرباء القادمين من مدن العشق، يحتفل بهم على طريقته، الضباب والحزن والألم لم يمروا من هنا. اللحظات الجميلة تبدأ أحيانًا بعود ثقاب وأحيانًا بحبيبات ثلج وأحيانًا بقُبلة مالحة!

وصلنا إلى الشاطئ، أوقفنا سيارتنا، ترجلنا منها، كان الفندق العائم مكونًا من ثلاثة أدوار، كلها فوق الماء، الدور الأسفل للخدمات، والدور الأول والثاني مطعم، والأخير مقهى، إطلالة جميلة وجلسات ساحرة، كان يقف على مسافة من الشاطئ، والصعود إليه عبر ممر من الخشب.

لأول مرة أرى الدهشة على هيئة مطعم يسبح فوق الماء، على هيئة مطعم يقدم لك وجبة الغداء على سفوح الموج، على شكل راقصة مجنونة. عليّ أن أنسى نفسي لحظة، أن أترك شرطي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي داخلي على ممر الخشب أو أقذفه في اليمّ، ليس لديك وقت للارتياب، للشك، للخوف من

خلخال امرأة من ذهب أو سلسلة كلب من الماس، ولكن عليك البكاء إن حالفك الحظ واستطعت ابْكِ على زمن تسرب بين ممرات الخشب وفي طرقات الحب والحنين. لا علاقة للأخلاق بالسعادة، ولا علاقة للفقر بالجنون، ولا علاقة للرقص بطرق القوافل.

لقد تجاوزن السعادة والمرح والغرور والفن والصيف والشتاء، وكل الكوارث الطبيعية، إلى الرعب، لقد تحولن إلى براكين راقصة وشلالات ملتهبة، هذا ما تحبه أنت.

وهذا ما تتمنى مشاهدته وهذا ما كنت تنتظره بفارغ الصبر، لا تجلد ذاتك ولا تتقمص ثوب الزهد، ولا تقْسُ على نفسك الأمّارة بالسوء.

كان البحر في استقبالنا، عندما يدعوك البحر إلى وجبة عشاء لا تقم بتحطيم الأصنام التي على شواطئه؛ لأنك لست نبيًّا. قلت لها:

هذا أنتم أما نحن يقتلنا الفضول ونعتبر التدخل فيما لا يعنينا إصلاح وتهذيب، مع أن النبي ﷺ قال:

«من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه».

قالت: أحيانًا الصخب والانفلات النفسي والكبت والتراكمات العاطفية والاقتصادية والأخلاقية تجعلك تحيد عن طريقك، وتعتبر الناس على خطأ وأنت على صح، لكن تدري أين تكمن المشكلة؟!

قلت: أين؟ قالت:

عندما يكون الجميع على الخطأ، الجميع يدافع عن وجهة نظره الخاطئة، ينافح عن تصرفاته غير السوية، الجميع يكابر، هنا

يتعطل دور النخب ويتحولون إلى فوضى والدولة تتحول إلى صانع وملهم للفوضى.

قلت لها: المصيبة أن كل واحد منا مفتون بتوجهاته الخاطئة؛ لأننا ابتعدنا عن الدين ليس إلا.

قالت: لا، أنتم لم تبتعدوا عن الدين، أنتم لم تفهموا النص التشريعي كما يجب؛ لذلك كل جماعة فسرت النصوص حسب مصلحتها وقناعتها وفهمها وحدّ عِلمها.

قلت لها: أنتم من خلط الأوراق، عددتم الأديان، احتفظتم بالنسخة القديمة، النسخة المشكوك في صحتها، ثم أتيتم للتشكيك في الإسلام، بينما نحن نعتبر الدين نسخة واحدة لكنها تطورت تدريجيًّا حتى وصلت إلى نسختها المطورة؛ الإسلام.

قالت: إن هذا والذي جاء به موسى وعيسى ليخرج من مشكاة واحدة، هي ليست نسخة مطورة كما أسميتها، حسستني أنها برنامج حاسوبي، هي ديانات كانت تنزل على العباد فتضيع أو تُضيع أو تحرف، فيأتي دين بنفس ما حملته الأديان السابقة لأمم جديدة وهكذا، حتى أتى الإسلام وحفظ من لدن عزيز حكيم.

مرتكز هذه الأديان التوحيد والأخلاق، وحدود قليلة جدًّا لحفظ حقوق الإنسان، وهذه ما تؤخذ من الغرب ويستنكرونها، منها حد السارق والزاني وقاطع الطريق، وهناك اختلافات في تفسير آيات الحدود لدى فقهاء الدين الإسلامي، أنتم الأدباء والروائيون لديكم ألفاظ مضحكة.

قال نسخة مطورة قال! ومطورة بأي لغة بالضبط؟!

رباااااه، مرات أشعر أني سأكون مستشرقة كبيرة جدًّا يقرأ لي الملايين!

قلت لها: أقصد بنسخة مطورة عن الذي نزل على سيدنا نوح.

قالت: اللفظ مضحك بالنسبة لي.

قلت: كان بحجم أولئك القوم.

قالت: كل الأنبياء دعوتهم واحدة، التوحيد والأخلاق وحفظ الإنسان وأصل ما خلق اللّٰه له وتكريمه من حفظه وحفظ نفسه وعرضه وماله ودينه.

قلت: جميل.

قالت: توحيد، أخلاق، حقوق بإطار مكتمل.

قلت: نحن الآن نختلف عن قوم موسى من حيث مواكبة التطورات الحياتية.

قالت: كانت حضارة وتطور هي أعظم من تطوراتك اليوم، أمم خلت وحضارات انتهت، وحضاراتنا حضارات من وجهة نظري أسميها حضارة لا انتقالية عبر السنين، ستنتهي، أراها تطورات عمرانية مقابلها تهدم الإنسانية التي هي أساس الدين وأتى للحفاظ عليها.

الرسالات السابقة حرّفت أو نسخت برسالة محمد ﷺ؟

- حرفت أو انتهت تمامًا، وما يوجد الآن من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل، ما فيه من نصوص تخالف أصل الإنسانية والفطرة فاعتبرها صنيعة أيدي كهنة قاموا بتحريفها مباشرة في النص، والمسلمون حرفوا الكثير، لكن تحريفًا ليس مباشرًا في النص القرآني، لكن أوجدوا مذاهب بأسماء أناس قدسوهم وقدسوا نصوصهم أكثر من النص القرآني فشوهوا دينهم وحرفوه بنصوص ليست لكهنتهم ولكن لفقهائهم، فتحريفهم احترافي، حتى نسي المسلمون أن هناك نصًّا قرآنيًّا.

مرات كثيرة يأتي مخالفًا أو غير موجود، ويتواجد في نص الفقهاء ومن يسمونهم أئمة؛ فالتراث الإسلامي مليء بترهات وتخاريف تبتعد عن أصل الدين، وفيها ضياع للإنسان والفطرة.

- معنى ذلك أننا بحاجة إلى تنقيح النص؟

- التراث الإسلامي نعم يحتاج، ومليون يحتاج لدحض كثير من النصوص وأسميها تحريفات واجتهادات لا يقبلها عقل، عوضًا عن أن تكون نصًّا قرآنيًّا أتى للرحمة وللإنسانية، لا بما أتى به كهنة المعبد كما أسميهم.

- إذن برأيك لماذا لا يزال هناك من يقول إن الإله هو يسوع؟!

- فليعبد ما يشاء عبادته يحاسب بها الآن، وإليه ننقلب جميعًا وهو شيء يخص الذات الإلهية، عفوًا أو عذابًا، ما يخصنا هو تعايشنا بحقيقة أصلنا، وهي التعامل الإنساني فيما بيننا، تلزمنا كبشر بقوانين احترام وتعايش وقبول لبعضنا ولو كان يعبد بقرة!

- هل هو جهل بمعنى لم تصل إليهم المعلومة؟

- النفس دائمًا تبحث عن إله تعبده سواء عيسى أو موسى أو بوذا أو حجر أو ثمر أو عبادة النفس حتى؛ فكما ترى أنه لم تصله المعلومة، يراك بنفس نظرك، ونفس تفسيراتك، ويراك على ضلال، والضلال والهداية والحساب والعقاب بيد اللّٰه.

ضع دينك ويضع دينه، ولا إكراه في الدين، وعرض الأديان والدعوة لها لا تلزم الآخر بالاتباع فلندع للقوانين أن تحكمنا، قوانين عدل وإنسانية، وليعبد كل وما شاء، وليدع كل منا حول دينه كيفما شاء دون دماء وفلسفات واتهامات.

- نحن اتفقنا بالبداية إنها ليست أديانًا، إنما دين واحد، نحن أمام نسخته الجديدة أو المطورة، وهو أصل التوحيد.

- صحيح الدين هو الإنسانية، هو السلام، كل دين دعا لذلك، ما خالفه أسميه خروجًا عن قوانين الكون وأصل خلق الإنسانية والاستخلاف، أما حول توحيد الربوبية والألوهية فمعي قاعدتان:

لا إكراه في الدين، ولنا ماعبدنا ولكم ماعبدتم ولانسأل إلا في مخالفتنا وتجاوزاتنا في الحقوق.

- هل هناك اختلاف في التوحيد؟

- نعم، توحيد الربوبية هو توحيد اللّٰه بأفعاله من الخلق والرزق والإِحياء والإِماتة ونحو ذلك.

توحيد الألوهية: هو إفراد اللّه بالعبادة من صلاة وصوم وحج وزكاة ونذر وذبح ونحو ذلك، توحيد الأسماء والصفات أن تصف اللّه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وتسميه بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، فالأولى تتفق فيها كل الأديان، والأخيرة تختلف فيها الأديان.

- نحن لم نُكره أحدًا على الدين، ما أريد قوله: لماذا الغرب وصل إلى القمر ولديه تطورات علمية تتفق وقدرة اللّه وعظمته التي هي في القرآن الكريم ومع ذلك هم لا يزالون يقولون إن يسوع هو الإله؟!

- بل هو ثالث ثلاثة.

- كيف ثالث ثلاثة؟!

- إن سألته من خلقك؟ سيقول لك: اللّه.

لن يقول عيسى والعبادات ووو... إلخ، سيعيد الموجود أمامه الذي اسمه عيسى، هم بجلوا عيسى ووصلوه أن يكون إلهًا مع اللّه، كما يفعل المسلمون لكن باحتراف أكثر، فأصنامهم كثيرة وعبادتهم لهذه الأصنام أكثر من اللّه، وهو شرك مثله مثل عبادة النصارى لعيسى.

كأن تعبد بعض فرق الإسلام شخصًا معينًا؛ كعبادة الشيعة للحسين وعبادة الباطنية لبرهان الدين وهكذا، والمعتدلون منهم لهم أشخاص وفقهاء يعبدون نصوصهم ويعبدونهم أكثر من عبادتهم للّه.

النصراني إن قلت له: من خلقك؟ سيقول: اللّه، لكن يشرك مع اللّه عيسى قداسة ومحبة. المسلمون ربهم اللّه، وأصنامهم وإشراكهم

مع اللّه أكثر دون أن يصنعوا صنمًا كما فعل النصارى؛ فمنهم من يعبد أشخاصًا ومنهم من يعبد مذاهب ومنهم من يعبد نصوصًا لفقهاء وهكذا ، فقط لا نستطيع محاسبتهم؛ لأنه لا يوجد صنم أو تمثال.

- إذن بما أنه لا خلاف على اللّه، لماذا لا نتفق جميعًا على صيغة واحدة للدين؟! نؤمن برسالة محمد ﷺ لأنها آخر الرسالات وأشملها ، أو لنكن أكثر واقعيةلماذا لا يؤمن من بيده الدليل العلمي؛ لأنه باعتقادي أهم من الرسل؟!

- سيكون من الصعب جدًّا الالتقاء حول راية واحدة؛ لأن سنة الكون الاختلاف، سأعطيك مثالاأنت مسلم!

- نعم.

- أعرف، لكن لو أتينا لتفنيد المسلمين، لوجدنا الغالبية العظمى مسلمين بالبطاقة فقط، أنا قرأت كثيرًا عن الدين الإسلامي، لكنني مع الأسف لم أجده.

انعقد لساني عن الحديث، ربما تتحدث عن الذين يذهبون للغرب ويتأثرون بالأشياء السلبية.

قلت لها: عدم تطبيق البعض لا يعني الكل، وإن شاء اللّه في القريب تكونين مسلمة.

قالت: أنا علمانية ، ولا أريد أن أكون مسلمة ، لا ينبغي أن نكون على شيء ما لم تفِض بنا قناعاتنا ، وتفيض بنا أعمالنا ، هكذا أفضل، وربما سنكون أصحاء عقليًّا نحب الجميع.

هل أنت سعيد كونك مسلمًا؟ وهل ترى في كل هذا الدمار الذي يلحق بالمسلمين في كل الدنيا شيئًا يدعو للفخر والاعتزاز بالإسلام؟

قلت: الشعور بالفخر لا يعني التباهي أمام الآخرين أنني مسلم، أن تكون مسلمًا معناه الانتماء إلى الإيمان، إلى الحب، إلى السلام، إلى الصلاح، إلى الخير.

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هل أنت سعيدة وأنت بلا هوية دينية؟

قالت: الإنسان في حالة بحث مستمر عن الحقيقة المطلقة، وفي وقت ما قد أمارس طقوس الإسلام من صلاة وصيام كما أنزل ولكن ليس بالضرورة أن أوصم بالمسلمة.

اجتاحتني رغبة أكثر للحديث معها وتوضيح ما التبس عليها من الأمور.

لم أعد أنظر للإسلام كدين للخلاص من الجبروت والظلم والطغيان، بت على يقين أن كل ما يدور في العالم الإسلامي والعربي بالتحديد من قتل وتشريد وصراع وطغيان هو من فعل أعداء الإسلام، حتى لو هم من أبناء جلدته، أما ما جاء به الإسلام، فهو بريء براءة الذئب من قميص يوسف.

واصلت حديثها، لم يحدث أي اضطراب أو إرهاب أو صراع طائفي في بلدان الحريات، ربما لأنهم تمثلوا النظام والقانون في كل حياتهم، وهو ما يفتقده المسلمون، ما جعل تاريخهم يوصف بالأسود.

قلت: إنك تتحدثين عن البشر، عن سلوكيات، وهناك فرق بين أن تتحدثي عن عقيدة، وعمّن يحمل هذه العقيدة أو ينتسب إليها فحديثك

عن الظلم والطغيان والصراع، كل هذا من أفعال البشر، من ينتسبون للإسلام وليس من أفعال الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسان من الظلم والعبودية وتنظيم حياته بكل حذافيرها صغيرة وكبيرة؛ سياسيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا في كتاب مقدس، حفظ من كل تحريف وتزوير؛ وهو القرآن الكريم، وأرسل الأنبياء لتعليم البشر الفضيلة للخروج من كل براثين الحياة ليحرر الإنسان من ظلم أخيهالإنسان بواسطة أحكام القرآن، بالتالي فالقضية كلها صراع بشري خالص.

قالت: كل ما يجري في بلاد المسلمين هو من فعلهم، انقسامهم إلى شيع وفرق وأحزاب، ولكن لماذا لا نجد هذه الفروق وهذا الصراع في بلدان العالم الأول الذين يعيشون حياة هادئة بعيدًا عن معتقدات الدين وخلطها بالسياسة؟!

نحن نغط في وحل الجهل والمرض والطغيان، ونحن نملك أكبر سفر لتنظيم حياتنا وجعلها تنحو نحو الفضيلة، عليك أن تقرأي كثيرًا في الإسلام وتقرأي القرآن جيدًا ككتاب للاطلاع بتمعن وليس ككتاب مقدس؛ لأنك ستفاجئين بالكثير، أعدك بذلك.

تأملت في الفضاء الخارجي طويلًا، ثم التفت نحوها وبادرتها بسؤال:

- ما هو الفرق بين الإنسان الشرقي والغربي؟

- الغربي أصدق ويعرف فن العلاقات، الشرقي يلزمه المجتمع والعرف لبقاء علاقة زوجية لفترة قد تمتد للوفاة.

- معنى ذلك أن الشرقي أكثر وفاء.

- ليس من باب الوفاء ربما ، لكن ثقافة اعتادوا عليها أن الأسرة هي شيء قيم.

- هذه ليست ثقافة إنها سنة كونية، حيث أتى الدين الإسلامي وحث على بناء الأسرة، واعتبرها النواة الأساسية للديمومة والاستمرار.

- الموضوع يحتاج لنقاش، والمقارنة بين الشرقي والغربي لها نواحٍ عدة.

- ماذا تعني لك الحياة؟!

- إن ارتاح القلب وصفا كانت جميلة، وإن ضاق القلب وكثر الهمّ صارت أضيق من خرم إبرة.

- ما مفهوم الصداقة لديك؟

- بين نفس الجنس؟!

- مع الرجل.

- لا توجد صداقة بين الرجل الشرقي والمرأة.

- لا.

- الغربيون ربما يفهمونها أكثر ويعرفون حدودها.

لا أؤمن بشرقي أن يكون صديقًا لي.

- أتحدث عن مجتمعك.

- هناك إلى حد أحتفظ بهبما يتناسب وما لدي من قيم معينة عندي وما تربيت عليه، أي صداقة بحدود القيم التي عندي ويجب على الطرف الآخر أن يفهمها.

- هل هناك قيم ومبادئ لديكم أم أن كل شخص يتصرف وفق هواه؟

بمعنى هل تستطيع الأسرة أن تلزمك بمفاهيم وقيم؟

- الغربي كما تضع له الحدود يتعامل معكِ تمامًا، لا يمكنه أن يتعداها، يحترم الآخر ويحترم قيمه والحدود التي وضعها له الطرف الآخر.

- ما الذي يربطك بأسرتك؟

- الأمان والمال هو مايربطني بهم، والعائلة تضيف لي كثيرًا من التجارب، الحب.

- ربما أنت وضعك مختلف، ما هو المثقف الشرقي بنظرك؟

- الذي يتماشى مع الغرب.

- بمعنى يترك دينه وقيمه؟

- كاذبون في الأغلب يقولون ولايفعلون، يجيدون الكلام، وعمليًّا هم أبعد عما يكتبونه ويسوقون له.

- ليس كلهم، أليس كذلك؟!

- لا أوافق على من يتماشى مع الغرب وهو شرقي، وكنت كتبت حول هذا الأمر وتطرقت لنقطة واحدة في المثقف العربي، الأغلب منافقون.

- ماذا يعلمونكم في المدرسة من الأول إلى الثالث الثانوي عن الله أو الرب والقرآن والنبي محمد؟

يعلموننا أن من لا ينطق بالصدق يساوي كاذب، يكفيه أن يكون كاذبًا فقط، ليس في حاجة إلى وصف آخر.

يعلموننا أن الخائن يساوي خائن، الخيانة ليس بالفعل الهين كي نلحق به وصفًا آخر.

يعلموننا أن القاتل يساوي قاتل، كلمة قاتل كارثة في حد ذاتها، الظالم والمستبدالمتفرعن يكفيه استحقار العالم كله وسيذكره بالتاريخ بهذا الوصف.

لكنهم يعلمونكم أشياء أخرى مثل الجنس؟

الجنس هو فعل لا معنى له في ثقافتنا، في عائلتنا، إلا في منظومة الـزواج، وما خرج عن ذلك نزل لمرتبة الزنا، وهو من الكبائر، كُتاب غربيون عندما يكثرون في ديباجاتهم الفنية

أن لهم الحق في استخدام كل شيء، يمثلون ثقافة مغايرة عن ثقافتنا.

المشكلة التعبيرات المبتذلة التي أصبحت عادية في مجتمعات تدعي الاصطفاء وأنهم خير أمة، إقحام الجنس فيما لا جنس فيه كأنه أصبح موضة المثقفين ومُدعي التحرر والـجرأة، تلميحات جنسية تقحمونها جبرًا في كلماتكم وعباراتكم إقحامًا سخيفًا، كي تضفي على بوستاتكم جوًّا جريئًا وتحرريًّا مفتعلًا، ألم تعد الأوصاف المعتادة كافية للتعريف بصفة فعل أو شخص وبات مألوفًا بوصفه بكلمات لها دلالات وإيحاءات جنسية؟!

أشعر بالحرج الشديدمن أحاديثكم السياسية أو الاجتماعية أو حتى حواراتكم الثقافية البحتة، نصف الكلمات في الجمل هي تحرش، تربط بين جسم الإنسان وممارسته كأنها كلها في إطار البغاء والفضائح، فكيف للأسوياء من الفتيات والشباب أن ينظرن

لأجسادهم وتلك العلاقة بنظرة نقية وهي باتت في الأذهان وصف قبيح لفعل الخيانة والكذب والسرقة والقتل، واختلط معها الفساد الأخلاقي وباقي المحرمات، والكارثة عندما تجد هذه الألفاظ من فتيات! هذه وجهة نظري من زاوية معينة وأنت أسقطها على تفكيري.

المدارس تعلم التعايش، قد يأخذون الطلاب من جميع الديانات مرة لزيارة المسلمين في مساجدهم ومرة لزيارة الكنيسة أو المعبد وهكذا ويحضر الجميع، والعجيب أن المسلمين الأغلب هم الوحيدون الذين سيذهبون مع المسيحيين مثلًا لزيارة الجامع، لكن لن يذهبوا معهم للكنيسة، وهكذا التعايش، حتى الدين لا يسألون عن الكون، ومن خالق الكون والبحاروالنجوم والسماء، يقدسون من يبحث فيها، يقدسون العلم بمجموعه، ولايتركون شيئًا للمسلَّمات، كل شيء ينبغي البحث عنه، يقرأون ويبحثون والسلام.

- يجب أن نكون أمناء وأحرارًا بما أعطانا الله من نعم ونسيرها نحو الخير لا نحو الشرور وإشاعة الفرقة، نبحث عن السلام في هذا الكوكب مع كل البشر وكل الديانات، يجب أن نصل إلى هذه القناعة لا أن نظل ننخر بين كتب التاريخ لنبحث عن مساوئ من سبقونا وأطروحاتهم، نقرأ لنفهم، لنعدل، لنسمو، لا أن ننتكس، علينا أن نبدع ونستغل طاقاتنا الكامنة بالإبداع بما يخدم هذا الكون والكائن البشري.

- الإسلام كعقيدة قد جاء بحلول لكل مناحي الحياة، وبيّن كل الأمور الغامضة بأسلوب سلس وسهل، فالحرام بيّن والحلال بيّن

وبينهما أنا وأنت ومقدار ما نتقبل وكيفية تقبله، أما الخير والشر فهما مخلوقان مع الإنسان، فطالما وطئت قدما البشر كوكب الأرض فقد حملوا معهم هاتين الخصلتين، فكان أول صراع بين قابيل وهابيل حول امرأة.

نظرت إليّ نظرة إعجاب، وقالت: الغربي سيفعل مثلًا جريمة ما، لن يعطيها نصًّا من الكتاب لتبرير بشاعة ما فعل، يكون دافع العمل السيئ شخصه كشخص مجرم لا أكثر، لديه سلوك عدواني عنيف، لكن المسلم يفعل السلوك الإجرامي ويتبعها بالتكبير، وهكذا ديننا نحشره رغمًا عنه مع كل عمل شرير نقوم به.

- هذه المقارنة التي أريدها أنا؛ لذا الغربيون يتهمون الدين الإسلامي مباشرة، وليس الأشخاص أو المجتمع. وحصل في أوروبا ذات العنف والدماء، إنهم كانوا يقومون بالجرائم تجاه بعضهم وترتكب الجرائم بحق بعضهم عندما كانت الكنيسة تحكم، فلا أرى حوادث في التاريخ دموية إلا وكانت بمسمى ديني، بعد أن تركوا الدين جانبًا وقدسوه كدين في الكنائس وفي أخذ الأخلاق منه والفضائل، وجعلوا القانون هو الحكم عمَّ السلام بينهم والتعايش تحت مبدأ قاعدة شرعية في القرآن «لكم دينكم ولي ديني» أو «لا إكراه في الدين»، والسلوكيات والأخلاق يحكمها قانون إنساني معين.

من أين تأتي العدائية إذن؟

- الشعوب الغربية بسيطة ولا تهتم لأمركم، الإعلام والسياسة يلعبان دورًا في خلق ثقافة عدائية تجاهكم كعرب ومسلمين،

وأيضًا بعض المسلمين هنا يمثلون الإسلام بصورة سيئة، ما يخلق لدى الغربي هذه الثقافة، ربما لا تهمهم كثيرًا، مشغولون بثقافة أخرى قد تكون علمية ووو. . . إلخ.

سيبقى اليهودي يهوديًّا أولًا وإن تظاهر بغير ذلك، وسيبقى المسيحي مسيحيًّا أولًا وإن تظاهر بغير ذلك، وكذلك المسلم وسيبقى كل منهم يسعى، وإن في الخفاء، إلى تحقيق مصالح طائفته، وستبقى المشاعر الدفينة والأحقاد التاريخية تحت السطح إلى حين وجود أو إيجاد الظروف المناسبة لاستخدامها.

الدِّينُ عند الله واحد، لكن كل إنسان يفهم الدِّين، أو يُفسّره، بحسب سعة عقله أو بحسب هواه ومصالحه، ولهذا تعدّدت الاختلافات والخلافات في الدّين وحوله بتعدُّد العقول وأحيانًا بتعدُّد المصالح، حتى إنه ليمكن القول إن لكل إنسان دينه الخاص، وبكلمة واحدة:

دِينُ كل شخص هو فقط ما يفهمهُ من الدِّين.

أمامنا بوابة لا تستقبل من لا يحمل حجزًا سابقًا وتذاكر دخول.

فتحت الدكتورة حقيبتها البنية اللون وأخرجت هاتفها وأعطتهم صورة الحجز، تجاوزنا البوابة.

قالت الدكتورة جولي: هل تحب البحر؟

قلت: لم أعد أحبه، بل صرت أعشقه لدرجة أني صرت أخاف منه؛ لأنه يعرف عني كل شيء، البحر الوحيد الذي أحكي له عن

خيباتي وعن عثراتي وعن إحباطاتي وعن انكساراتي، أحكي له عن شطحاتي وجنوني، عن الأصدقاء الطيبين.

قالت وهي تضع نظراتها على ما تبقى داخلي من حزن:

عندما يفيض قلبك تعال إليّ أنا، توسّد قلبي واحكِ وأنا أربت على كتفيك، انشر شراعك داخلي أنا، وأبحر، اعترف، احكِ، عندما يفيض قلبك تعال إليّ أنا، امتطِ فرس البحر، حاول أن تنتصر لهزائمك.

قلت: ستهزمني عروسة البحر.

قالت: إياك ثم إياك أن تقترب منها. ابتسمت ابتسامة خفيفة.

قالت: البحر يحب أن يراك عزيزًا بنفسك قويًّا بإيمانك، تخفي ضعفك وتظهر قوتك، تترك الآخرين بسلبياتهم وإيجابياتهم وتغوص في أعماقك لتستخرج الجميل والأجمل.

قلت: ما الفرق بين البحر والمرأة؟

قالت: كلاهما عميق، وكلاهما ساحر، وكلاهما يقودان إلى الغرق!

كانت الساعة تقترب من الخامسة عصرًا، وكانت الشمس تلملم أشعتها وأسواطها وجحيمها، كانت الطاولة المخصصة لنا متقابلة مع الشمس، وعلينا أن ننتظر حتى يتم البحث عن طاولة أخرى أو أن تغرب الشمس، كان هناك مرقص صغير تتوسطه راقصة تجعلك تحزن على هذا الحقل الكبير، الرقص يحتاج إلى مؤمنين به.

قالت الدكتورة جولي: الرقص سلاح ذو حدين، إما أن يذهب بك إلى سماوات التجلي، وإما إلى الجحيم، هذه على ما أظن راقصة متدربة!

قلت: هل تجيدين الرقص؟

قالت: الرقص عالم مثير أعتقد أنه يمثل بطاقة العبور الوحيدة إلى الأنوثة، وفي الفترة الأخيرة حصل أمر عجيب، اقتحم الرجل مجالين ينسجمان مع المرأة أكثر من الرجل؛ هما الرقص والطبخ.

قلت: وهل تجيدين الطبخ؟ قالت: الطبخ بالنسبة لي صلاة، أؤديها ثلاث مرات يوميًّا.

قلت: جميل، إذن متى تتفرغون لإغوائنا؟!

قالت: أعرف ما ترمي إليه، وابتسمت.

قلت: ما الذي أرمي إليه؟

قالت: تريد أن تقول إن المسيحيين هم الذين ابتدعوا المسارح والمراقص وتاجروا بأجساد النساء.

قلت: ربما يكون لهم اليد الطولى.

قالت: كلامك منطقي لكن من هم مرتادو الملاهي والمراقص ومن هم عملاؤهم؟

قلت: نحن.

قالت: لن أكون مبالغة إذا قلت لك إنني لم أقابل بحياتي شخصًا سيئًا أو منحرفًا أو ساقطًا. قلت لها: أصدقك.

قالت: ليست مثالية، إنما هي الحقيقة، أنا الوحيدة التي لم أصادق خارج الجامعة طيلة دراستي، ولم أذهب للمذاكرة في بيت أي زميل، ولم يأت إلى بيتنا أي زميل بدعوى المذاكرة.

قلت: ربما تكون حالة شاذة في مجتمع انحدرمن القاع.

قالت: لا ، تلك الأماكن ترهق مرتاديها ، تذيقهم المر والذل والهوان، وهي أماكن لا تليق بالإنسان القويم السوي العاقل، فهي ضد الفطرة، وتمثل أحد مصادر التسلية الرخيصة.

قلت: الانحطاط الناتج عن الجهل، والذي يأتي من الداخل، فهذا مزاجه مزاج محارب، وهذا مزاجه مزاج مؤرخ لأحداث وحقب وممالك، وذلك مزاجه في القضايا التي ليست قضايا.

قالت: إنهم يبحثون عن السعادة في غير مواطنها ، السعادة تنتمي إلينا ولا ننتمي لها ، نحن نصنع اللحظة السعيدة وليست هي التي تصنعنا.

لذلك نحن ننتمي للمواقف البطولية ، ننتمي للشهامة ، ننتمي للكرم، ننتمي للحزن، ننتمي لعودة مريض ومساعدة محتاج وإيواء بائس.

قلت: معنى ذلك أن الأشياء التي نراها منحطة وساقطة يرونها علوًّا ، بينما يرون النبل والفضيلة سقوطًا.

عاد النادل متحسرًا ومعتذرًا بأنه لا يوجد أماكن شاغرة فكلها محجوزة.

بإمكاننا عمل جولة في المكان، ارتقينا إلى الأعلى حيث الإطلالة، حيث نرى أنفسنا وحقيقتنا وانعكاس صور الحزن المسافر من حديقة العمر إلى غابات العشق ووجع الأشرعة الآيلة للغرق بين رائحة القهوة ودهشتي من مقابلة امرأة مثقفة حد الإمتاع، كان المطعم مصممًا على شكل صخره ملساء، وكراسي دائرية الشكل، والأضواء تنفذ من كل جانب بحيث لا ترى مكان انبعاثها.

جلست على الكرسي المقابل لي، كان صوت الموسيقى متناسقًا مع روعة المكان، اختيارها ينمّ عن ذوق رفيع، مقطوعة شهيرة لموزارت، كان الجوُّ خياليًّا أقرب إلى الحلم منه إلى الواقع، كان لا بد أن أتعرف تلك الجميلة، كان فضولي بمعرفة أفكارها أكبر من قضاء وقت رومانسي معها.

كان مظهرها يوحي بأنها فتاة جادة تحب القراءة وتحب نفسها وتحب الحياة، القليل من الإكسسوارات في يديها، وعلى صدرها عقد صغير وخلخال في قدميها، طريقة تصفيف شعرها المنساب على كتفيها، كأنها حورية خرجت من البحر لتلهو بقلب هذا الفتى القروي، حدثت نفسي بأنه لا يجب أن أسألها من هي ولا لماذا أتت إلى هنا؟

امرأة تحمل هكذا نوع من الكاريزما قد يكون سؤالي سخيفًا نوعًا ما.

كان الجو جميلًا ورائعًا.

وجهًا لوجه أمام الأحلام والأماني والحب والسحر والجمال.

وجهًا لوجه أمام الذكريات، ليس لدي وقت لأضيعه، لن أقوم بلعبة الأسئلة والأسئلة.

أين نحن؟

قالت: حيث ينتهي الفرح يبدأ الحب.

قلت: ما هو تعريفك للحب؟

قالت: الحب هو الضوء الذي يسطع من أشد الليالي ظلامًا، هو القلق الذي يمنحك الهدوء، هو الخوف الذي يسري في العروق أمنًا وطمأنينة، هو البرد الذي يسافر في العظام دفئًا، هو المطر الذي يسقط في الحقول، فتنبت الزهور في قلبك.

قلت: إذن نحن لا نعرف الحب ولا هو يعرفنا.

قالت: وما الذي جعلنا وجهًا لوجه مع هذه السماء وعلى هذا البحر وأمام هذه الأمواج إلا الحب والحب العظيم؟!

قلت: أعتقد أن الحياة تغيرت والتطور التكنولوجي جعل الحياة مادة فقط، لا مشاعر ولا أحاسيس ولا فطرة ولا حب.

قالت: الحياة لم تتغير، لها طابع واحد منذ آلاف السنين، التهيؤات والمسميات والمعتقدات الوثنية والمسيحية والقبلية، كلها من عمل الفلاسفة والحكام والسلاطين والتجار، هذا القبح المرخص، القبح المقدم لنا كمنتج بعد أن تم التأكد من صلاحية استخدامه.

كيف يكون القبح غير المرخص؟ وإذا افترضنا أن للقبح طرفين أولهما هنا، آخرهما أين سيكون؟ حتمًا في قصور السلاطين! يتوارث هؤلاء القوم الرذيلة!

كانت كلماتها مثقلة بالاستغراب وبالاستفهام، بالخوف وبالحزن وبالفرح، كانت مزيجًا من الضوضاء والهدوء السكينة والصخب، كانت الطرقات تمتد فوق البحر مساحات شاسعة بامتداد البصر، من الأحلام والأماني، من أطراف عينيها إلى أقاصي المدى.

بدوت أصغر مما كنت وبدا العالم غريبًا وجميلًا ومذهلًا، موظفو المطعم أشبه بتلاميذ مدرسة، يرتدون ثيابًا متشابهة وأنيقة جدًّا كأنهم ولدان مُخلَّدون، ابتسامة ودودة من نادلة المطعم كانت كفيلة بإعادة توازن المطعم بأكمله.

قد تصبح الأحلام حقيقة ربما، هكذا كان شخص ما يتمتم داخلي، نعم، هناك أشخاص داخلي كثيرون لكنني لم أجد فرصة للتعرف عليهم، هناك الأنيق حد التعب، وهناك الطيب حد السذاجة، وهناك العاشق حد الوله، وهناك القروي حد الفطرة، وهناك الشاعر والروائي حد الهذيان، وهناك السياسي حد الوجع، هناك من يحب كرة القدم وهناك من يكرهها، هناك من يهوى الرسم وهناك من يستجم مع الألم، تختلف مستويات تقبلهم للأشياء وللمتغيرات؛ لذلك كثيرًا ما أتعب وكثيرًا ما أعاني!

وبينما كنت غارقًا في أعماق اللحظة، جذبتني الحياة البحرية، التفاصيل الصغيرة، الديكور المدهش، لمحت ابتسامة في نهاية الممر كأنها امرأة من جنون، امرأة من ضباب، امرأة من سحر، ربما تكون عروسة البحر.

عليك أن تترك الدهشة جانبًا وتهتم بمن معك، تصرف كضيف، كعاشق أنيق، تصرف كمحارب استعاد ملكه.

قالت: ما الذي تجد نفسك فيه؟ النساء، الرفاهية، السباحة، الرماية، ركوب الخيل، اليخوت، البحر والأسماك، الحيوانات البحرية، نباتات البحر، الرمال الذهبية؟!

بدا سؤالها كأنه اختبار، لماذا نتهرب من الاعتراف بمكنونات النفس؟

قلت: أنا أعيش اللحظة بكل أصولها وفروعها، وأستمتع بها حد الغياب، أينما وجدت الدهشة استقرت قوافل الشوق، أنبتت أزهار الورد والريحان، أينما قابلت عالمًا ممتلئًا بالسعادة والحب والإيمان والدعاء توقفت، وهكذا أنا دائمًا وأبدًا قاب قوسين أو أدنى من الحلم.

كطفل يتيم كنت أتلفت في كل اتجاه أبحث عن الضوء.

أبحث عن الضوء، عن الفرح، أبحث عني أنا.

أحتاج إليّ أنا، رفيقًا ونديمًا، صديقًا، ذاتًا أخرى. الرفاهية والجمال والدعة لا تعني شيئًا ما لم تكن حاضرًا أنت، كل شيء هنا بلون البحر وبطعم البحر.

المناديل والعطور الصغيرة تتمحور بشكل أخاذ وبريق عجيب، بإمكانك أن تشاهد الحياة البحرية بكل تفاصيلها، الروائح الزكية تنبعث من كل ركن، شيء ما يدفعني للحياة، للمرح، لا أريد التوقف، لن أفكر ولن أسمح لضميري أن يؤنبني ويوقفني عند حدود الموج، سأسمح للطفل الصغير الذي بداخلي أن يشرد، أن يلعب، أن يتنطط فوق البحر وبين حقائب النساء وهواتفهن وابتساماتهن الفريدة المتناثرة على الممرات كزهور الفل، ترى ما الذي تحتاجه الجنة الحقيقية؟! وكم ندفع لقاء دخولنا إليها؟! كما أن نعيمها سيكون دائمًا وليس مؤقتًا، الاستمتاع باللحظة هو ما نفتقده في حياتنا، ثمة صراع داخلي، رسم بياني، أفقي ممتلئ بالنساء وعمودي ممتلئ بالعطر.

لا أدري كيف أفصل بينه وبيني؟! بين داخلي المستعر وخارجي المشتعل؟! أسمع داخلي قهقهة أصوات، مجموعة من الفتيات ربما هي انعكاس لمقاهي الموج، أو مطاعم الجزيرة، من يحمل الآخر، أأحمل السعادة أم أن السعادة تحملني؟! كان شعور الفرح يغمرني من رأسي حتى أخمص قدمي.

كيف لذاتي المتمردة أن تتقبل أن أكون غيري؟ هل أسمح اليوم للأفكار السيئة أن تسيطر على ما تبقى منّي؟! على مخيلتي وعقلي وتقطع حبل أفكاري؟!

هناك في الركن، تعتلي فتاة المنصة وتصدح بصوت ملائكي ذي شجون.

كل ما فيها لا يدعوني للسفر خارج الروح.

عدنا إلى طاولتنا، كانت الشمس قد حملت عصاها ورحلت، وكان الغروب قد بدأ سرد حكايته الجديدة، وكنت أنا مدينة كاملة من الفرح، كل شيء من حولي يرقص، يغني، وكنت مُتسمّرًا وكان داخلي يتراقص، يتفاعل، يهذي، لم أتذكر أنني رقصت ولا طربت مثل هذه الليلة، كانت الطاولة تتمايل، والشيشة تغني، وإبريق الشاي يعزف.

في البداية كنت أغمض عينًا وأفتح أخرى، كنت أشك أنني في حالة صحو، لم أعد أرى الأشياء، الجميع في غيبوبة، لا أرى من الأشياء سوى دخانها، إنهم يشربون لكي يصحصحوا، لكي ينتقلوا إلى حالة الحقيقة، لديهم مبررات السكر وليس لدي مبررات الغياب في مدارات الحزن والألم.

قاتمة هي الأشياء التي تولد في تقاطع المصادفات، وفي منحنيات النبيذ، أشعر بالظمأ كلما توسعت دائرة الرقص، أشعر بالجوع كلما ارتفع صوت الموسيقى، أشعر بالنشوة كلما التقت شفتان أو طارت قُبلتان، وترك القاعة من فاضت بهما الرغبة إلى الدفء وإلى العناق وإلى الويل والثبور، في هذه الأماكن كل شيء مبعثر؛ مشاعر، انتماء، هوية، أسوار، قيم، نوافذ، شرف، معنى، دين، قبيلة، حتى أنا لم أعد قادرًا على لملمة نفسي.

القرويون يحتضنون السماء بزرقتها وسحبها ونجومها وينامون، يعانقون الصباح ويرافقون الشمس حتى تغرب ويستقبلون القمر حتى يكتمل، ويحتفلون بظهور نجم وتوديع آخر، هنا يلتقي القوس والسهم، وهناك الريشة والوتر، وداخلي أصوات الموسيقى بجراحاتي الغائرة، تعبي على نسوة تعثرت بهن الأقدار، تركن كل تفاصيل الأنوثة والأمومة، ليصبحن كرة ناعمة من شباك إلى شباك، ومن يد إلى يد، ومن حضن إلى حضن.

أصبحن خارج الحدود وخارج الوقت وخارج الحقيقة وخارج الحسابات العادية أو المزيفة، أصبحن خارج مدارات المواسم والمطر والعزف على قيثارة الهوى وتساقط الأشواق.

قالت: هل تدري من الذي ينادي بحرية المرأة؟

قلت: المرأة.

قالت: لا، إنهم الذين يتاجرون بالنساء حتى أصبحن لا داخل يخبئهن ولا خارج يحتويهن ولا أضلع تحميهن ولا حواجب تقلهن.

آن أوان الانسحاب إلى منطقة أقل جنونًا ، البحث عن الذات خارج أسوار الأماكن المغلقة، أشعر بالاختناق، بالضيق، بالاكتئاب، بأسواط تجلدني على ظهري. كانت خطواتي تسبقني ويقيني بأني ما زلت أنا يدفعني للصعود للأعلى، حيث يلتقي ضوء القمر بآهاتي ونجوم السحر بابتسامة الفتاة الفرنسية، تدحرجت وأنا أغادر المكان ككرة ثلج ملتهبة ، تتجاذبني همومي وشجوني ورائحة الخمر ، سيقان امرأة متمردة كلما رقصت قال لها البحر (كلما كلما) ، كان المطعم العائم أكثر عشقًا ، الدخان بلا حدود ، والمشاعر بلا حدود ، والرقص بلا حدود ، والشرب بلا حدود ، والزخرفة بلا حدود ، والكذب بلا حدود. كانت السجادة الحمراء ناعمة ، والأسقف المزخرفة تكاد أن تتكلم، فريق يعمل بصمت عجيب، كل شخص يعرف دوره بالضبط ، لا شيء يجعلهم يختلفون ، يستمتعون ويعملون ويشربون وينامون بصمت.

دخلت في عالم آخر ، عالم جميل ولطيف وذكي وطماع ونصاب ومحترف، عالم كلما مددت إليه يدك قبّلها وأعادها إليك فارغة منتظرًا عودتها إليه مرة أخرى، هنا لا يُقبلون الأيادي الفارغة بل لا يساعدونك على نزع معطفك إذا لم يكن ذلك في مصلحتهم.

وصلت إلى أعلى مدارج التجلي، المساحة المفتوحة، حيث السماء تبدو في متناول اليد ، المساحة التي خصصت للحب تبدو أكثر رومانسية، الكلاب هنا يشعرونك بأنهم أسيادالعبيد ، هم الذين يبحثون عن حريتهم بين أفخاذ النساء، الكلاب تستحق المزيد من التدليل أكثر من بعض البشر.

بعد كل صك غفران سرعان ما نعود لغوايتنا ، أصوات الكناري والعصافير، الأمواج متعبة بعد نهار صاخب، الديك البحري لا يجيد الرقص؛ لذلك عادة ما يكون في قيلولة المساء.

قالت الدكتورة: ما الذي تريد أن تأكل؟

قلت: مما تنبت عيناك.

خطواتنا تشبه رحله نحو الجنون.

السعادة التي نعيشها اليوم سوف نفتقدها غدًا. سعادة مؤقتة تصنعها موسيقى صاخبة وفتاة رقص تتصنع الابتسامة، وكأس كلما ذهبت إليها سافرت إليك.

شـردت أفكاري بعيدًا وأنـا أتجسد الحياة، أتأمل الفناجين المقلوبة فوق الأرصفة والممرات، أتأمل اللحظات التي قضيناها في القرية وأنا أبعثر ما تبقى من العمر في سهولها وجبالها ووديانها.

السعادة الحقيقية في أن تقوم باكرًا تُنشد مع الطيور أجمل الألحان، وتتسابق مع النباتات والصباحات الخرافية، النساء في القرية بكامل أناقتهن يغتسلن بأحلامهن كل مساء وبأشواقهن كل صباح، ينشرن هذيانهن على غصون الأشجار، مع شروق كل شمس.

هناك بإمكانك أن تأخذ روحك وتلهو كطفل بين أوراق النباتات، تلفحك رائحة الورد والجوري، ويشدك التراب المبلل بالمياه، وتأسرك روائح البن والزيتون. كلما تقدم بك العمر عادت بك الأيام للوراء؛ لأن لا شيء هناك معلب، ولا شيء يحمل تاريخ انتهاء.

ابتسمت بامتنان لذلك الموظف البسيط الذي يبدو من ملامحه أنه آسيوي.

ولكنه يجيد التحدث بالعربية، والأهم من ذلك ثقافته الواسعة ومعلوماته القيمة عن الحيوانات البحرية ومصدرها وأشكالها وأنواعها، النظام الكوني كفيل بجعل الحياة تسير بشكل طبيعي، وترتيب كل شيء في مكانه سيسهل علينا العيش في هذا الكوكب الذي يكاد أن يختنق، ونتبادل الاحترام لأننا نعلم سلفًا أن كل شخص موجود في مكانه الصحيح تبعًا لنظام قائم لا يمكننا تعديه.

قطع نادل المطعم حبل أفكاري وهو يقدم لي وجبة سمك بالأعشاب البحرية، وقاطعني سؤال يقول:

- لكن قل لي: كم من النساء أحببنك، فتحن لك قلوبهن، ولا سواك تطير، تلعب، تتحمص تحت الشمس في الشطآن، تبكي، تفرح، تقيم أمسياتك الشعرية ويصفقن لك، يلحِنَّ قصائدك ويغنين ويرقصن؟ أسأل هذا السؤال، لأني أعلم أنك شاعر والشعراء لا يحبون، إنما يعشقون في كل لحظة وفي كل وقت، قلت دون أن أتردد: امرأة واحدة.

قالت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة: أنتم الشعراء مع كل قصيدة امرأة ومع كل نص حب.

- مجادلة النساء ضياع للوقت.

- أنتم تعتبرون النساء امرأة، والكؤوس كأسًا واحدة، والحياة قصيدة واحدة.

- هل تصدقينني إذا قلت لك إنني لم أعد أبحث عن ثوب مطرز بالحب ولا عن وقت موشى بابتسامة ولا كأس تدور من شفة إلى شفة؟!

شبعت من الثرثرة والصخب الجميل، من الحب والحرب، من الشوق والحنين، من التسكع في طرق الحزن وشوارع الذكريات ومدن الآهات وحدائق الحلم، من الكتابة على جدران الوهم وورق الندى، من الغياب الأنيق، والحضور المر والغياب المضمخ برائحة القهوة وأحداث مئة عام من العزلة، وتذاكر القطار المسافر من الشريان إلى الشريان.

نحن بحاجة إلى الطمأنينة والسكينة، والمبيت على سجادة للصلاة، بحاجة إلى سبحات روحية تتساقط مطرًا من السماء، بحاجة إلى نافذة تطل على جنة الفردوس، بحاجة إلى أن أتقيأ الشرور والأوهام والفشل والإحباط واليأس التي بداخلي، المدن المزدحمة، الشوارع الخالية من الأحاسيس والمشاعر.

بحاجة إلى لحظة صافية، خالية من البهار ومن الأحماض ومن النكهات ومن الألوان ومن الكحول، لحظة مهجورة في أقاصي الرمل، لحظة منسية في رفوف الوقت، وفي جزر الحكايات الممتدة من المحيط إلى المحيط.

لحظة تمتد من تخوم الوقت إلى أقاصي الناي، كان صوت الموسيقى يملأ المكان، يذهب إلى البحر ويمر على الموج ويعود إلى صحراء قلبي، كانت رائحة القهوة تتراقص كجميلة عشقت ظلها، العصافير كعادتها كل مساء لا تجيد الغناء ولا الرقص، كل مساء عندها حلم، وكل فجر عندها أمل، وكل صباح عندها سفر،

للحظة أعدتني مزيجًا من الحب والحزن والأمنيات، فما من مساحة في الكون ستتحمل جنوننا وحماقاتنا وصدقنا وطهر أحلامنا سوى هنا.

كانت تتحدث وكأنها جزء من الموج، من أغنية.

قالت: هذا ما تحتاجه أنت، أما ما أحتاجه أنا فهو الاهتمام إلى مشاعر، أحاسيس، أوتار تداعب قلبي وأنغام تلامس سمعي وشجون تؤمن وحشتي وحب يلملم شتاتي.

أحتاج إلى من يجعلني أميرة فأتوجه ملكًا، أحتاج إلى شريك لا يكون نصفي الثاني بل كلي، أحتاج إلى إنسان يكون في الصيف مطرًا وفي الشتاء شمسًا وفي الربيع ورودًا وفي الخريف حبًّا.

المرأة لا تحب بعمق إلا رجل واحد، إذا أحبته سيكون أبًا وأمًّا وأخًا وصغيرها المدلل، المرأة لا تخون كالرجل بسهولة ولا تستطيع نسيان من تحب بمجرد غيابه.

كفتاة تعيش بين الموج والحب تتقاذفها الأحلام، لم ترسُ على شاطئ.

قلت: لها احكي فأنا أنتظرك كي تجمعي رذاذ العمر في قصيدة، وشتات السنين في حكاية.

تبسمت بخجل، تورد خدها.

قالت: لنعد إلى روايتك أو لنقل إلى روايتنا، هل عنصر الزمن موجود؟

قلت: نعم.

- ما هو الحدث الذي ترتكز عليه روايتك؟

- الحديث عن الكون بعد مئة عام من التكنولوجيا والتطور والعزلة.

- هذا موضوع كبير، حساس، متشابك، وكل ما يدور حوله تنبؤات وتصورات بما سيحدث في المستقبل، ليست مقنعة لأنها خالية من الحقيقة، لن تعرف البشرية معنى المستحيل، الأمراض المستعصية التي قضَّت مضاجعنا كالسرطان والطاعون والكوليرا ستختفي. لا أعتقد بأن المستحيل سيكون حاضرًا في المستقبل القريب.

- معنى ذلك أن هناك أمراضًا أكثر فتكًا ستظهر؟

- الطب سوف يغير من نظام الحياة بالقضاء على الأمراض وخلق بيئة جديدة، عن طريق أجهزة النانو المتطورة الدقيقة التي تعيش داخلك في نظام الدورة الدموية وتعمل على تنظيف الجسم؛ بحيث تتحرك هذه الأجهزة في جميع أعضاء جسم الإنسان وتقوم تلقائيًا بتصحيح أي خلل أو عيب أو نقص.

- لن تقبل شركات الأدوية بذلك ولو استدعى الأمر أن تخلق فيروسات أو أمراضًا أو عاهات.

- أتفق معكِ جملةً وتفصيلًا، أؤمن بتطور العلم وإمكانية التوصل إلى ما لا يصدقه عاقل، ولكن لكل نجاح ضريبته؛ لو استطاع العالم التوصل إلى كبسولة التكوين التي تنبأ بها العلماء لحلّت جميع مشاكل الإنسان.

- ما هي كبسولة التكوين وما هي الشرائح المدمجة يا دكتورة؟

- كبسولة إذا تعرضت إلى رضوض خطيرة في العمود الفقري مثلًا أو إلى فقدان الأصابع أو اليد أو القدم، فإنها على الفور، تعيد بعد فترة وجيزة الأعضاء المفقودة إلى طبيعتها من جديد.

- سيصبح الإنسان مجرد شحنات فقط، دون تغذية الروح للحصول على قدرات خيالية من الفكر أو الحصول على حاسة سادسة ووجدان يختلج ومشاعر تزيد أو تقلّ، بل لنقل رؤية ما لا يمكن رؤيته؟

- الشرائح المدمجة هي شرائح تقوم بتعبئتها حسب الطلب، ويتم زرعها داخل رأس الإنسان، بحيث يصبح قادرًا على قراءة الأفكار عن بُعد والتحادث مع بقية الناس والتحكم بأجهزة الكمبيوتر والآلات الإليكترونية وممارسة الألعاب الافتراضية.

كما سيتم تركيب عدسة لاصقة تستطيع من خلالها الدخول إلى شبكة الإنترنت، ما تتمتع به هو ذاكرة حادة وإمكانيات عقلية لن يحسدك عليها أحد؛ لأن الجميع تحت مظلة النانو، وسيكون الإنسان شبيهًا إلى حد كبير بالرجل الآلي.

- كيف ستكون الحياة في منزل المستقبل يا دكتورة؟

- سيكون العيش في منزل مهمته العناية بصحتك، ففي الوقت الذي تستحم فيه تقوم غرفة الدش بمسح ضوئي لجسدك ومن ثم تقدم تشخيصًا لجميع أعضاء جسمك، تقوم أجهزة النانو بتوفير كل ما تحتاجه عن طريق تفكيك أي مادة إلى جزئيات من الحجر أو الشجر وتجمعها لتصبح ثيابًا أو موادًّا غذائية وتكنولوجيا منزلية.

منزلك مثله مثل الموبيليا التي في داخله، بإمكانه أن يأخذ شكلًا آخر لأنه متكون من كمية هائلة من النانو المبرمجة والمؤتمتة والتي بإمكانها إعادة تشكيل نفسها لتكتسب صورًا

لأشياء أخرى يمكن الاستفادة منها، وبفضل الحجم الهائل من أجهزة النانو يمكن أن تظهر وتختفي مدنًا في لحظة من اللحظات.

هل سيكون هناك أعمال مشتركة مع بقية المخلوقات مثلًا النمل؟

- النمل عالم كبير وما زال العلم يكتشف كل يوم شيئًا جديدًا، فهناك اثنا عشر ألف نوع من النمل في العالم، وعدد النمل على الأرض يفوق عدد البشر بأضعاف مضاعفة، وأمام هذا التعدد يحتار الباحثون كيف يتعاملون مع هذه الأصوات، الترددات الصوتية التي يصدرها النمل تختلف من نملة لأخرى ومن جنس لآخر ومن موقف لآخر! النمل يتفوق علينا في حاسة السمع ويتوقع العلماء أن النملة تستخدم قرون الاستشعار من أجل بث واستقبال الترددات الصوتية.

وفيما يتعلق بالطبيعة يا دكتورة؟!

- الطبيعة البرية، تمكن العلماء منذ فترة بإعادة إحياء أنواع عديدة من الحيوانات عن طريق الحمض النووي، حتى إنه تم إحياء فيلة الماموث وأنواع كثيرة من الديناصورات.

كل شيء سوف يصبح ممكنًا ولن يقف شيء أمام العلم.

مع بداية القرن العشرين بدأ العلماء يعملون على تصميم أجهزة قادرة على تحويل مشاعر وأفكار الحيوانات إلى حديث مفهوم، حتى إن البشرية تمكنت في بداية الأمر أن تتواصل مع فئة الرئيسيات ومن ثم تمكنت من التواصل مع الثدييات وشيئًا فشيئًا تعلم الإنسان التواصل مع الأسماك والحشرات.

- ماذا عن وسائل النقل؟!

- لا حاجة لك لمغادرة المنزل من أجل العمل، فأنت تجلس على مقعد وثير، وبفضل العدسات تتعامل مع المهام الموكلة إليك بأفضل ما يكون، لن يكون هناك معنى للمكاتب فسوف نلتقي مع أصدقائنا وعملائنا عن طريق الواقع الافتراضي، وإذا اضطررت أن تغادر المنزل استخدم السيارة لهذا الغرض، لكنك في هذه الحالة راكب أكثر منك سائق؛ لأن القيادة كلها على عاتق الرجل الآلي القادر على قيادة المركبة دون وقوع حوادث سير مرورية.

وبالنسبة للطاقة واحتياطيات النفط، كيف سيكون الحال يا دكتورة؟!

النفط سيتم استنزافه وينفد، ووسائل النقل سوف تعمل على وسائل الطاقة البديلة المحافظة على البيئة وحتى إن ظل وجود احتياطي نفطي لن يكون له أي قيمة تذكر كما هو الآن.

- كيف ستكون السياحة؟

- ستكون الرحلات إلى نوادي فضائية في المدار الخارجي، وستكون نزهتك إلى القمر والمريخ في الصيف فضلًا عن أن تحل ضيفًا على العوالم الأخرى والتي سنصبح على علاقة جيدة معها.

ستقول إنه ضرب من الخيال وإنه من الصعب التنبؤ بهكذا مستقبل.

سنسعى للتخلص من الأعمال المملة والمجهدة والاستعاضة عنها بآلات حديثة؛ فأدوات الطبخ ستتطور وسيصبح هناك آلة لغلي الماء وتحويلها لقهوة وأخرى لتحميص الخبز، وفيما يخص الاتصالات ستكون مرئية ومسموعة مثل (السكايب وتطبيقات محادثات الفيديو الأخرى).

هذه الابتكارات لن يتقبلها الكثيرون، وسيظل البعض يفضل استخدام أجهزة قديمة وعتيقة، وهذه الأمور لن تكون من دون ثمن، فسوف نستمر في السحب من موارد الطبيعة وندمرها، سيتم استغلال الجو بشكل أكبر وسيصبح النقل الجوي من الأشياء الروتينية، فعندما تحتاج توصيل أو التنقل سيكون بمقدورك إرسال طائرة صغيرة لتوصيل أي شيء، حيث سيصبح مشاهدة الطائرات الصغيرة ذات القيادة الذاتية تطير في الأجواء من الأشياء المألوفة، سيتخلى البشر عن القيادة وتصبح سيارات القيادة الذاتية من الضروريات؛ لأنها ستكون أكثر سلامة وأمانًا، مما يقلل من الحوادث المرورية، وستصبح معها الطرق أكثر اعتمادًا على التكنولوجيا بحيث ترسل لهذه السيارات إشارات عن وجود حوادث طرق أو أعمال صيانة وغيرها من الأمور، كما سيكثر الاعتماد على التكنولوجيا في سيارات المستقبل، وسيقل اعتماد البشر على الورق بشكل كبير ولكنه لن يختفي، مما يؤدي إلى اعتماد البشر على الكتب والصحف الورقية والتي بدأت تتخلى عنها الصحف والمدارس والمعاهد والجامعات العالمية من الآن وسيتم استخدام الأجهزة الإلكترونية اللوحية بدلًا عنها.

أدركنا الوقت، الساعة الواحدة فجرًا، قالت الدكتورة: كيف يذهب الوقت الجميل؟

وكيف تغادر اللحظة السعيدة؟

قلت لها: لأنه خالص، مركز، خالٍ من الحزن ومن الحلم ومن الوهم ومن الزبد ومن الذكريات. وقفت الدكتورة تلملم أغراضها،

تضوع المسك من حقيبتها ، بحثنا عن جولاتنا ، عن أنفسنا المتعانقة فوق الموج، وعن أرواحنا التي تتراقص في أقاصي الأفق.

بحثنا عنا في انحناءات النبيذ وبين المسافات المتقاطعة. الوقت الجميل يرحل، كأننا لم نلتق، وكأننا لم نجلس ثلث نهار وثلثي ليل، وكأننا لم نكن قصيدة واحدة ولدت في محطة القطار.

كان الليل ساحرًا ، كأن النسيم العليل يحاول فينا أن نواصل، أن نستمر، أن نقف على الموج وأن نكون الكلمات والضحكات، أردت أن أتزود من شفتيها وبعض الزاد إثم، أردت أن أكمل المقارنة بين عينيها والبحر، أردت أن أرسمها على أطراف الموج.

في الحب تكون عناقيد العنب هي الخاسر الأكبر في معركة العيون الزرقاء، عندما يسقط الجميع في البئر، حيث عمق الحب، بين الوقت والوقت سقطت ابتسامة ، وبين الجرح والجرح نبتت رحلة الصيف والشتاء.

أيهما أقرب إلى قلبك، تعويذة مجهولة النسب أم بطاقة تهنئة بمناسبة عيد الحب، بعثت بها امرأة كافرة على أجنحة الشوق، مفعمة بالحب وبالأماني الجميلة؟!

في مدن الملح التقينا ، افترقنا ، ثم التقينا كجراح، كذكريات.

أتعلمين ما هو الضياع؟

قالت: الضياع هو الهزيمة التي تسدل ستائرها عليك وتذهب للنوم.

قلت لها : الضياع هو أن نقوم من مقامنا هذا كأننا لم نلتق.

أن يقتلنا الظمأ ونحن في وسط البحر والكأس مترعة والبحر من شوقٍ ومن شجنٍ يفيض، أن نقوم من مقامنا كأننا لم نرقص ولم نغنِّ،

ولم نتَمَاهَ بين مقامات الحزن وطبقات الموسيقى، كأننا لم تكفينا ابتسامة، لم ترونا شفة. اقتسمنا المكان، حملناه، خبأناه من عيون الموج. الحب مغامرة خطيرة، تركنا الفراغات التي داخلنا على شكل همس، تركنا شجوننا وبوحنا وظلالنا، وحملنا فقط كبرياءنا.

تركنا الوجد مشتعلًا، والوقت مغشّيًا عليه، تركنا الوعد لا هو غافٍ ولا صاحٍ، تركنا ساعتنا لموعد قادم، تركنا المواجع المتسلسلة.

تركنا العمر بجوار الكأس الفارغة، عبرنا السجادة الحمراء. أخاف عليها من العيون ومن البخار ومن الموج، أخاف عليك أن تسرقك السحب القريبة من هضاب القلب.

كل الأشياء التي من حولنا كانت في حالة زوال.

ركبنا سيارتنا، أغلقت الباب، فتحت الدكتورة أغنية لمحمد عبد الوهاب،

قالت: من هذا؟

قلت: إنه (مطرب القرن)، الثورة الفنية المستمرة، استمرت تقود سيارتها واستمررت أنا بالإصغاء للوتر الذي أتى بموعده، طال الطريق، تقود كأنها لا تعرف الشوارع والطرقات، الفرق بين جمالك الداخلي والخارجي يقاس بالسنوات الضوئية.

سألتها: هل ضعنا؟!

قالت: لا، إنني أعيش حربًا أهلية داخلية، وصدام أحاسيس غير مسبوق، وسباق مشاعر عجيب وإحساس غريب، أشعر أننا لن نلتقي،

كنت أمر بذات الإحساس ونفس المشاعر ولكني اعتدت أن أسلم الأشياء للأشياء، فأينما نبتت الزهور كنت أنا، وأينما أمطرت سحابة الحب كنت أنا، وأينما أينعت زهور الياسمين كنت أنا، وأينما حطت القصيدة رحالها كنت أنا، وأينما توجه المعنى كنت أنا.

قلت: حسبك أننا التقينا، وأننا رقصنا ومثلما التقينا اليوم سنلتقي غدًا أو بعد غد.

قالت: لقد انتظرتك عمرًا كاملًا ولست مستعدة أن أضيعك لأبحث عنك من جديد، كانت التفاصيل الصغيرة تكبر وتكبر، وتمر من أمامي واحدة تلو الأخرى، الفرح الذي ينطفئ فجأة قاتل.

وصلنا إلى باب الفندق، قالت: متى ستسافر؟

قلت لها: لم أقرر بعد، ما زال أمامي أمور لم أنته منها.

قالت: وهل أنا من الأمور التي انتهيت منها؟

قلت: أنت كل الأمر وكل الحب وكل العالم.

ترجلت، كانت الساعة الثالثة فجرًا، وكان بهو الفندق والساحة الخارجية المخصصة للاستعراض وللجمال وللأزياء وللحب وللغات وللجنسيات المختلفة مزدحمة ومكتظة، وكان المكان عباقًا بأجود أنواع العطور.

تجاوزت الملأ على مضض، كل شيء هنا وردي؛ أحمرالسماء، الشارع، السيارات، الفندق، الناس، عيني، كانت الثمالة تمشي بين الأقدام، كانت أعمدة الفندق مائلة والأسقف قريبة من العيون.

كان البهو أشبه بتابوت مفتوح، وكانت المدينة منفى، وهؤلاء النساء عبارة عن أجساد لا روح فيها، موسيقى تقدم الحزن كفنجان قهوة، تهدهد الوقت، تساير المعنى، من بين الجدائل والأجفان المستعارة والحقيقية، المدن الحقيقية لا تتركك ترحل كما أتيت، مكره أنت على ترك بعضك هنا.

كانت المسافة من باب الفندق إلى الغرفة أشبه بنهر قطعته وأنا لا أجيد السباحة، كيف يلوح غارق بيده وكيف يتعلم غارق لغة الوداع؟!

كيف تكون القصيدة شراعًا؟! والعيون وداعًا؟

كيف يسقي زهرة الكلمات مسافر؟! وكيف يحمل على كتفيه الحنين غارق؟!

وكيف يفتش عن وجهها في خطوات الرحيل؟!

كيف يسقط داخل صوتها ليصبح رسالة قديمة؟!

كيف أصغي إلى أغاني المنافي وموشحات الغربة، كيف؟!

أحيانًا يكون الحلم غربة، تكون الأمنيات امرأة، تكون القصيدة ظمأ. وصلت الغرفة، توضأت، صليت الوتر، تبقى وقت وجيز لصلاة الفجر، التفت وعلى المكتب مصحف أخذته وفتحته، قرأت ما تيسر حتى وصلت إلى قوله تعالى: (فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى) وإذا المؤذن يصدح بالأذان: اللّٰه أكبر اللّٰه أكبر.

قلت: حقًّا وصدقًا، صدقت ياداعي اللّٰه، أغلقت المصحف، قمت إلى الصلاة، جميعنا يحرص على حسن الظن، فما أجمل الظن باللّٰه، الظن المرتبط بالخير، بالفضيلة التي صلبناها على

مقاصل الخطيئة، لذلك نهرب إلى المتعة، ننتمي إلى اللا فضيلة، اللا شعور، اللا حب، ما أشقّ أن نكفر عن الخطيئة بخطيئة أخرى!

فرغت من صلاتي، أشعر بسعادة لو قسمت على أهل الأرض لكفتهم، أشعر بالارتقاء إلى مقامات الدهشة، الإيمان زهرة تنبت بين نبضات قلبك.

انتقلت للجلوس على الكنبة التي تمتد إلى الصالة وبجوارها طاولة عليها مناديل وقفص، سيجارة تنتظر مروري من عندها وريموت منذ أشهر لم أتابع الأخبار المتلفزة، استندت إلى الكنبة ليس لدي رغبة في حديث جانبي؛ لذلك من الأفضل ألّا أدخل الفيس.

أخذت الريموت، كانت أغلب القنوات تعيد البرامج التي قدمتها في وقت الذروة وأنا أقلب على مهل وجدت ماهو أشبه بندوة، عدت إليها، أحب الحوارات والندوات والنقاشات، ربما هي الوحيدة التي نخرج منها بفائدة، كانت عن الزهايمر.

كانت الدكتورة التي تتحدث هي فتاة القطار، تسمّرت مكاني، عادت بي الذكريات إلى سنة أولى جامعة، بحثت عنها في مواقع التواصل الاجتماعي دون جدوى، بحثت عن عنوان عيادتها وأرقام تليفوناتها، فوجدت ثلاثة أرقام لكن من الصعب التأكد منها، الساعة الآن الخامسة فجرًا.

كيف يأتي النوم وأنت تستعرض الوقت وتلتقي بالحزن وتصافح الأشواق؟!

الغربة تتساقط كالألوان على شفة السهر الذي يمتد إلى جوارك.

القصيدة بقايا ذكريات، رتب ما تشاء من النواح.

حاول أن تغني

قلِّم أظفار الكلمات

في سراب الفجر لا تفتح عينيك للنبيذ

اجعل قلبك المغبون في كتف العيون

قف عند أول شمعة سلمت نفسها للضوء

اترك المساء، واستدرج مواعيد القصيدة، غاية المعنى جسد مشاكس

أنثى تنشر اللوز المجفف تحت سوط الشمس

ستمطر فراشات المدينة

فقد تغفو هواجسها الملونة المثيرة

قل للغيم إنك شاعر، وقل للفجر إن مدينة ولدت من رقصة المزمار

الروح أول القادمين إلى محطات الرحيل، الوقت نصف مدينة شقراء

كيف تكتب ما يقول الحزن على ورق الضياع؟

حاول أن تكون سعادة مغموسة بالملح.

أتى النوم يجر خلفه الأحلام والأشواق، السعادة التي لا سقف لها، الغربة التي لا طعم لها، كرسي الاعتراف، رسائلها القديمة.

غالبًا ما تبعثرنا الأحلام وتجمعنا مزهرية الصباح.

غادرت مدينة الأحلام الواحدة ظهرًا، كيف ألملم أطراف الحكايات الملونة والقديمة والجديدة والتي كانت على هامش الذكريات؟!

كيف أرتب المدينة وأعيد الممرات إلى مواقعها السابقة؟!

كيف أرتب ما دمرته العواصف، كيف؟! ما زال وجهي ملتصقًا بالحلم.

كيف تستبدل بقهوتك البحث عن امرأة قررت أن تغيب؟! ثمة صوت حزين يجلس داخلك على مقعد خشبي مهترئ.

اتصلت بالرقم الأول لا أحد يجيب، اتصلت بالرقم الثاني رد فاكس، اتصلت بالرقم الثالث رد صوت نسائي قادم من محراب العشق.

أخبرتها أنني أبحث عن الدكتورة إيمان فتاة الرواية، عن فتاة الحلم، عن سيدة القطار، عن طبيبة المخ والأعصاب، عن الماضي الجميل، عن المستقبل المجهول.

أخبرتها أنني رأيتها تعبر الحلم نحوي، اعتذرت بأسلوب راقٍ، وقالت إنها مسافرة ولكن إذا تريد رقمها سجل عندك، نحن لا نحدد البدايات، وعندما نقرر أن نضع نقطة لنبدأ من أول السطر لا يعني أننا عاجزون عن ملء الفراغ، ولكننا نحاول أن نستمع إلى تلك المشاعر الجياشة القادمة من أقاصي العمر.

الحقيقة التي نبحث عنها موجودة داخلنا، الحلم هو الفراغ الذي يحتوينا، نحن المتاهات التي تسد الطريق، نحن الظلال التي تمضي عمرها هاربةً من الشمس، متى يكبر المساء ليصبح نقطة تتنقل فوق الكلمات وبين الجراح وفوق الطاولة القريبة من قلبي؟!

أحيانًا تضعك الأقدار كتمثال يجلس عاريًا في النهر، كان رقمها مميزًا، وكانت تضع على حائطها صورة بنت صغيرة، أشعر بالخوف، أحيانًا تكون الهزيمة الأولى مرتبطة بتاريخ ميلادك، وأحيانًا الطريق إلى مدن الياسمين يبدأ بهزيمة.

متصلة بالواتس؟! ماذا تكتب لامرأة كلما مر طيفها نهبتك الأشواق؟ كيف تسلم نفسك للحلم لامرأة تخاف الأزقة والممرات، تخاف من الضوء ومن الحنين ومن المطر؟!

أحيانًا ننتهك العمر، نجيء به من مدن الصقيع وقرى النار وعلى جبال الحزن ومن أنهار الأسى والمرارة، أحيانًا تكون عقارب الساعة هي الاتجاهات الاثنا عشر للحب، ومع ذلك نضل الطريق.

كتبت: مساء الخير، كانت صورتي على حائطي، الساعة الثانية وعشر دقائق ظهرًا «أخذت دشًّا»، صليت الظهر، اتصلت بالدكتور مازن أسأل هل نتغدى معًا؟ لكنه لم يرد، ربما لا يزال نائمًا، نزلت إلى المطعم، تناولت سلطة إيطالية مع باستا وكأس عصير برتقال، كان المطعم خاليًا إلا من رجل مسن يتناول الطعام ببطء كما يتناول العلاج.

عدت إلى الغرفة، فتحت التليفون، وجدت رسالة منها.

تقول: أهلًا وسهلًا، كانت تعرف من أنا، ولكنها تتحدى اللحظة المريرة التي ولدت بيننا ذات جنون، تتكر السحب المحملة بجنون الشوق، كلما اقترب مني الخوف ومد يده للرقص أشعلت سيجارتي وسلمتها لمرايا الواتس وجلست أتهجى حروف اسمها، ملامح القمر الصغير، كيف يتدفق الحنين من أقاصي المساء إلى نصف خاصرة ملونة؟!

بعثت لها برسالة بأن والدي مريض وهو مصاب بثلاث جلطات وأحتاج لمساعدتها.

ردت برسالة: يسعدني ذلك، أنا مسافرة وعندما أعود سأتواصل معك.

قدمت لها الشكر الجزيل، أنهيت الحوار وأنا على يقين أنه لم يبدأ، كانت صفحتها على منحدر، على هاوية، كيف تأتي الفتوحات الربانية والبوصلة معطلة؟!

السهم المختفي يشير عليّ أنا، كيف تمتد الذاكرة من نوافذ الغياب إلى مدن النايات في صفحة الواتس، هذه الطفلة لما تذق طعم المرارات بعد!

خرجت إلى الشرفة، سيجارة أخرى، ابتسامة من القلب، كيف يعود العمر، وكيف تعود الأشواق إلى نقطة الصفر؟! عدت ووجدت رسالة منها.

عندما يفشل الشاعر يصبح ناقدًا، لكن عندما يفشل العاشق ماذا يصبح؟

قلت: مجنونًا، فحين لا شيء يعود به إليه، لا ذكريات تعيده بتلقائيةٍ إلى رقَّةِ الحياة ونعومتها ولا موقف يسافر به إلى الأمسياتِ المتوارية خلف المطر المتساقط، لا شجون تحمله إلى المحطَّاتِ المنسيَّةِ حيث الأكفُّ تُلوِّحُ للأكف، لا ابتسامة تمنح القلب المكلوم فرصة التحليق باتجاه الأزمنةِ الحميمةِ في انسياب وتدفُّق.

أزمنة ما قبل القطاراتِ وما قبل الغروب وما قبل الفراق وما قبل الطفولة، لا ذكريات تختصر الطرقات البعيدة، تلك التي نعبرها لمرَّة واحدة ثم ننتظرُ عودتها بعد ذلك عُمرًا بأسره، لكنَّها لا تعود.

قالت: أنا لا أخاف من الجنون ولا من الموت ولا من الغرق، خوفي من الحب.

عندما يأتي العمر، يولد الحب في القطار، وعندما يذهب العمر يموت الحب في القطار.

قلت: وعندما تأتي الحسناء الفاتنة يحرسها ملك الجبال، مع أول رحلة يكون بقية العمر محطات انتظار.

كانت الحياة بصخبها، بصمتها، بعمقها، سطحها، حلوها ومرها، تتراءى لي من بين صفحتها في الواتس، كيف تبحث عنك في مدينة تتعثر بخطواتك؟!

كلما وجدت متسعًا لابتسامة خجولة بُحت بأسرارك للأصدقاء، للغرباء، للأرصفة. ما زلت أحتفظ بنوارسي وجيوشي وغيومي، لكنني حين وصلت إلى هنا تبعثر كل شيء، هي تعرف متى تتكلم وأنا أعرف متى أصمت، هي تعرف متى تغيب وأنا أعرف كيف أضع بيني وبين الآخرين حاجزًا من خوف، تجيء نسائمها عبر نافذة الواتس من بين الصخب المسافر والوقت المضيء.

كيف أتنفس كذبة أخرى، كذبة كبرى؟! وكيف أشتمُّ وردةً ليست داخل مزهريتي، وكيف صار الحبر ابتسامًا؟!

دعيني أسلم قلبي من دون احتفال، من دون انتظار!

فأنا منذ الأزل أقف تائهًا يحمل بيده خريطة الضياع، مكحلة الحزن.

كنت أمام صفحتها في الواتس كشخص يجلس على مقعد خشبي أمام محطة القطار، وبجواره حقيبة جلدية بها أوراق مبعثرة تحكي كيف يرث الشاعر جراحاته.

كلما نظر للقطار وهو يغيب عنه تذكر كيف جنى عليه أبوه، وكلما أقبل انفرجت عنه سحابة الغربة والكآبة والهموم كونه لم يجنِ على أحد.

قالت عندما شارف القطار على الوصول للمحطة التي نزلنا فيها، لم تكن محطتي فأنا كنت عائدة إلى الفندق لكنني حين وجدتك نسيت من أنا.

عبرت من عينيك إلى مدن الذكريات، إلى بوابة المحطة، إلى المول.

أثناء المغادرة لم أستطع الاقتراب منك، انعقد لساني، تمنيت أن يمضي كل منا في طريق، كابرت المشاعر واحتارت الأفكارواستدارت مرايا البوح باتجاه اللا أنا.

كنت تقف في القطار كبطل من كوكب آخر، كنت أعرف أنك تغيرت وأنك أصبحت شاعرًا كبيرًا ومعشوقًا لكثير من المعجبات، لذلك ماذا تقول متعبة من الشعر ومن الأدب ومن الحزن لشاعر اعتاد أن تتغزل به النساء واعتاد أن تطلب صداقته الجميلات؟!

وقبل أن أنبس بكلمة وقبل أن أقوم من مقامي تهيأت للخروج، لكنك لم تنتظر لكي أستند عليك، ابتعدت مثلما كنت تهرب في السابق، وكان العمر يكرر نفسه والأيام تعيد نفسها.

لكنني وقفت كعادتي وقوفًا وإن كان مائلًاكعادتي في غنى عنك وعن العواطف المزيفة والأحاسيس المؤقتة، لم أحْتَجْ إلى عصاك ولا إلى كتفك ولا إلى رفيق ولا إلى حبيب ولا إلى نديم!

الحزن غيم على سماوات قلبي، تأملت وجهي الحزين، ابتسمت، اكتملت كالبدر جمالًا وبهاءً ونقاءً، امتلأت بالثقة وبالرضا وبالإيمان، ارتسمت علامات الدهشة على محياي:

إنني - يا سيدي - أمشي بقدم واحدة، وكل يوم أسابق النجوم، أما أنت تتعثر وأنت بقدمين وفي كل مرة أنا من يساعدك على الوقوف.

ربما يزعجك حديثي، لكنني مضطرة لأقول لك أتمنى أن تنساني مثلما نسيتك، مثلما نسيت أنني بقدم واحدة، لقد أصبحت العرجة جزئي المشرق، جزئي القوي، جزئي المثقف، جزئي المكابر.

نشأت بيننا حميمةٌ توزعت على الممرات والأرصفة والشواطئ، إنها - يا سيدي - عاطفة متدفِّقة وموسيقى شعريَّة جميلةٌ ومنسجمة، لعبنا معًا وكبرنا معًا، وكلما تعثرت حملتني، وكلما تأخرت عنها انتظرتني، وكلما ظمئت حملتني إلى النهر، شربنا وغسلنا وسبحنا وضحكنا، سافرنا معًا ورقصنا معًا ونمنا معًا، مارسنا الحب بشقَّيه حلاله وحرامه.

كلما كسرني الطريق جبرني وكلما كشفت الرياح عن ساقي سترتني، تطاردُ العصافير بلا كلل لأجلي، تستعيد تفاصيلي الصغيرة، لحظاتِي الجميلة، مواعيدي الأخيرة، ابتساماتي الوضَّاءة، تجمع خصلات شعري المتساقطة لتحوك بها في المساء عُشًّا صغيرًا لعصفور مهاجر، تقرأ في عيني البشارات، وتلمح على خدودي التعب، وتشتمُّ من تحت لساني المرارات.

بها عبرت الرُّبى وتجاوزت الدروب الحزينة وعانقت أمنياتٌ كانت غاربة، إنها - يا سيدي -سؤالٌ متدفق وأجوبةٌ تتساقط كالمطر.

كانت الساعة شفة ولسانًا، من فرط ما قرأت يخيل إليّ أنني أحلم، يتراءَى لي شريط العمر، أكاد أرى قوس قزح يلقي قصيدته، إنها الحلم الضائع، القصيدة الشاردة، الأماني التي سافرت ذات يوم للبحث عنها، كأنّ الحياةَ قد أعادتها إليك مرَّة أخرى أو أعادتك إليها.

في عمق اللحظة الجميلة يصعب التمييز بين الأحاسيس الراحلة والقادمة، بين الوردة المتفتحة والذابلة، بين أول المطر وآخره، بين النظرة الأولى والابتسامة الأخيرة، عندما نحب نكون بلا هوية، وعندما نحب نكون بلا وطن، المرايا تفقد بهجتها فقط أمام الجميلات.

سيدتي: ما رأيك نلتقي غدًا أدعوك لفنجان قهوة؟

قالت: أنا أحزم أمتعتي للسفر.

قلت لها تصلي بالسلامة.

قالت: وحفظ اللّه.

في اللحظة البكر، اللحظة المنبثقة من ثنايا الغيم، اللحظة المتبخرة من غليان دمك وجنون مشاعرك وتوهج عاطفتك وتدفق شاعريتك، في اللحظة المتمردة على اللوز والزبيب والفل والأقحوان والخزامى.

في اللحظة التي تجاوزت الجنون إلى الجنون، تفتح قلبك لامرأة عابرة لترى كلُّ أغنياتِ الزمنِ القديم، الغيابِ الْمُرِّ، الجراحات الغائرة، السفر إلى أقاليم الذات، الرحيل إلى المجهول، تفتح قلبك لامرأة تفتش عنها داخلك في طريق أبدي ليس به سوى عناوين لعصور ما قبل الحب، عليّ الإمساك بهذه اللحظةِ الهاربة من الزمان الجميل، وعيشها بكامل الروحِ والقلب دون الالتفات لما هو آتٍ أو ما قد مضى، ما أحتاجه الآن هو عنوان لروايتي الجديدة فقط.

وضعت رأسي على المخدة، تساءلت لماذا لا أستعرض جدول الرحلات وأعمل لها مفاجأة، كانت رحلتها الساعة التاسعة مساء،

السادسة مساء كان المطار عبارة عن دورة حياة مجنونة، كان هناك طوابير مختلفة لشحن الحقائب.

كيف تبحث عن كلمة في كتاب؟

عملت جولة وكالعادة لا أحد، لدي إحساس أنها بالقرب، على مقربة مني (استار بوكس)، طلبت فنجان قهوة إسبريسو، فتحت هاتفي، وجدت رسالة منها:

مساء الخير.

مساء النور.

ماذا أتى بك إلى المطار.

قلت: لتوديعك.

قالت: إذن سآتي، أنا في مقصورة الدرجة الأولى.

تأتي أو آتي إليك؟ قالت: سآتي.

نزلت من المقصورة كملكة قادمة من كوكب القلب إلى بلاط الروح.

كانت ترتدي تنورة سوداء، تميل في تصميمها إلى الفساتين، وبلوزة أشبه بجاكيت لؤلؤي.

كانت تشرق في المساء وتتشح بالطفولة في منتصف العمر، تنزل الدرج بأسلوب موسيقي شائق يجعلك تتمنى أن يطول السلم.

اقتربت منها، حييتها، نصف ابتسامة خجولة تكفي ليتوقف الزمن.

كان طلال مداح يأتي من أقاصي الجمال، من صدى الذكريات، من ربى العمر، من سنوات العطش:

(زين الخجل وأهله وقليبه العطشان

ماشي على مهله كل الخُطى ألحان)

وكنت أنا

(شيء يهد الحيل ما أقدر على وصفه)

الصبر ليس صفة، إنه مفتاح الباب القادم في حياتك الرومانسية، إحساس ولد في القطار وماتفي القطار.

قالت: كلما ظننتك أوشكت على الرحيل، توطنت في أعماقي بقايا وَلَهٍ لا يكفي لإشعال سيجارة حب، لن تبني عمرًا في لحظة وداع.

كم كنت أنيقًا جدًّا، كلما ألتقي بك أشعر أنه اللقاء الأول، الحب الأول، النظرة الأولى. حينها كنت أقول لنفسي في المرة الأخرى سأكون أكثر أناقة منك لكنك تهزمني، تنتصر عليّ وكم أشعر بالسعادة وأنا أنتظرك تحملني على حصانك الأبيض كسبيّة.

لكنك كنت تهرب ساعة الرحيل، يبدو أنها في معصمك، جزء منك، كنت تصغر أمامي، تفضحني أمام قلبي، تخذلني أمام مشاعري، كنت في كل مرة أعجز عن تبرير هروبك، أخبئ ضوء القمر وضوء النجوم وضوء هواك، ابتسامتك، بريق عينيك كبطاقة حب للقاء قادم.

لم أتذكر كيف خرجت من القطار ولا كيف نزلت الآن السلالم مثلما لم أتذكر آخر مرة خرجت فيها من قلبك دون أن تمد يديك إلى ساعدي لتردني إليك ردًّا جميلًا.

كل مرة كنت أخرج من قلبك ودموعي شلال مطر، مضيت في طريقي وسط الزحام، وتركتك أنت والشعر ولوحة فنية وعدت، أن تهديني إياها ذات مساء تركتك أنت وأشواقي وحنيني وجنوني على قارعة الطريق، الجامعة، المدن، المحطة للضوء.

تركتك، لابتسامة فتاة قادمة.

لقد كرهت أنصاف الأشياء وأنصاف الرجال، كرهت العيش في المنطقة الفاصلة بين الحب واللا حب، الجد والهزل، الصباح والمساء، الصحو والمطر، البر والبحر، الشواطئ والعيون، النبوءة والجنون.

قالت: لماذا أنت ساكت؟ احكِ، الحقيقة دائمًا مؤلمة؛ لأن لها طريقًا واحدًا فقط.

قلت: لقد سرقت خارطة الكلمات، خارطة العمر.

قل لي ماهي أفضل طريقة للانتصار على المرأة؟

قلت: اللجوء إليها!

قالت: هل تعرف ماهي السعادة؟

قلت: أن يلتقي الحب والدهشة وساجية العيون.

قالت: لا، هي أن تكون بلا وطن وبلا عشيرة وبلا جواز سفر وبلا تذاكر وبلا مال، لكنك تملك قلبًا فترة صلاحيته إلى مالا نهاية، عندما تقول المرأة إنها تحتاج إلى العالم بأكمله، فإنها تحتاج إلى رجل، الجميع يتجه إلى الخارج ولكنهم في قرارة أنفسهم يتجهون صوب ذواتهم المهجورة.

لم تعد تثير اهتمامي الرياح الباردة القادمة من نافذتك.

الذاكرة مثقوبة ياسيدتي، وبقايا الهواء البارد سيمنح الآخرين فرصة العبور.

قالت: تمزقت الذكريات وأصبحت قصاصات ورق تعبث بها المحطات والقطارات في يوم عاصف بالأتربة.

عندما لا تستطيع بناء مسجد عليك أن تقيم محرابًا في منزلك، وإذا لم تتمكن عليك أن تقتطع جزءًا من قلبك بقدر سجادة للصلاة.

الإيمان هو الذي يمنحنا الحب ويمنحنا اليقين ويمنحنا التقوى، يمنحنا القدرة على العبور إلى الضفة الأخرى من العمر، خلف هذه النافذة (المطار) حياة جديدة، ساعة تنتظر عاشقًا يضبط عقاربها على دقات قلبه، أتربة قد تتلاشى حين يتساقط المطر، خلف هذه النافذة مدن، وخلف هذه المدن محطات، وخلف هذه المحطات محطات، ولكن ليس خلف اسمك اسم.

هذا هو المر الذي أتنفسه صباح مساء حتى بت أكرهك!

الحب إحساس، لكن الإيمان روح، كانت كلماتها موزونة مثل خطواتها، مثل نظراتها، مثل ابتساماتها. عبرنا المسافات الفارغة التي بيننا، كنا بمحاذاة الكوفي إلى اليمين حتى لا نؤخر المستعجلين، كانت تتوكأ على كتف الفراغ.

كانت مميزة في لبسها وفي حجابها وفي أسلوب حياتها وفي طريقة تعاملها، كنا نتقاسم الخوف من المجهول، الإعجاب المطرز بالأناقة، الشوق المضمخ بالأناة، الجنون المعتق بالمنطق.

بالجوار كثيرون كانوا يشاركوننا المكان والعبور والغناء، لكنهم لا يعيشون اللحظة الفاصلة بين الجنون والجنون، لذلك كنا الوحيدين، كان العالم يتلاشى والذكريات تتبخر والقصيدة ترسو على شفتيها فقط.

اتجهنا صوب الماضي الجميل، عانقنا الممكن والمستحيل، كانت الأتربة المعلقة في الأفق قناديل تضيء زوايا المساء، رائحة القهوة تكاد أن تعانق عقدًا من الفضة معلقًا على نحرها، كانت تمنح كلما ما حولها قيمة مضافة حتى عرجتها كانت أكثر أناقة.

اقتربنا من (استار بوكس)، لا يوجد به خصوصية، عدا زاوية تكاد تكون جهزت لنا، درجة الحرارة الخارجية تتساوى مع درجة حرارتي الداخلية، مشاعر متضاربة، حنين إلى أول الحب إلى أول الحلم إلى أول القصيدة إلى أول الوهم إلى أول رشفة من الفنجان، كانت النافذة مشرعة على سلسلة الأبـراج العالية، وكنت أنا مشرعًا على شواطئ عينيها، عندما تصبح وطنًا لي سأسرق منها نظرة تلهمني لكتابة برج.

طلبت لها فنجان قهوة فرنسية بالبندق، كانت استثنائية حين أقبلت، واستثنائية حين عبرت المحيطات والبحار والخلجان والبلدان، استثنائية حين جلست في أقاصي القلب وأنا والمكان وفنجان القهوة نلعب في شواطئ عينيها، كانت استثنائية، فقبل الغروب شمس وبعده قمر، كانت استثنائية كأنها العيد بهاءً ونقاءً وضوءًا.

كانت استثنائية كأنها مطربين صحاري الغياب وصدى الموسيقى القادمة من نافورة راقصة، ثمة جرح مكابر اسمه «أنا»،

ثمة حزن أنيق يشبه الحب، ابتسامة حقيقية تمنحك الرغبة في احتسائها، أربعة أحرف؛ اثنان في فنجان القهوة، واثنان في شفتي المساء الذي يلتقي فيه فنجان القهوة وابتسامتها، هو عنوان حقبة جديدة من العمر، جواز سفرلمدينة فاضلة.

كيف تبدأ رحلتك تائهًا وبعض الابتسامات مثل الكبريت قد تحرق الأخضر واليابس، جميلة هي الحياة حين تبدأ من شفتي امرأة، فنجان القهوة عابر سبيل، أول القادمين إليك صوتها، زقزقة العصافير في قفص قريب من النافذة، الصيف يحزم أمتعته، افتقدنا القشعريرة المصحوبة بالعطس والارتجاف، الشتاء له طعم مختلف حتى وإن كان قاسيًا وشديدًا يظل جميلًا.

قالت: كأنك مبرمج على الخيال، مصلوب على حلم جميل، الفردوس المفقود بين عينيك، المسافة الفاصلة بينك وبينك فتيل، الحزن لديك لوحة ثلاثية الأبعاد، الألم مرآة مقعرة، الآهات ليس لها سقف؛ لذلك لا تتوقف عندك، البكاء على الرصيف ليس حلًّا عندك، أنت تعيش على الطرف الآخر من الحياة؛ حيث الحب والجمال.

تتراقص الكلمات على شفتيها كشلال خرافي، إذا سجدت عينها في شفة فنجان القهوة، سفر يعانقه سفر، كلما تساقط المطر على صحراء قلبي احتفلت به.

قلت لها: أحيانًا أتمنى أن أكون سباحًا ماهرًا، حتى أصل إلى شواطئ عينيك، أتمنى أن أكون شاعرًا، فالشعر لغة الروح ونبض القلب، وهناك من لا تبلسم جراحاتهم إلا كلمة ولا ينقع غلتهم إلا قصيدة مليئة بالصور والتعابير، وهناك من يحلق بالكلمة وهناك

من لا تسمو به إلا الكلمة نحو الفضاء المفتوح، وهناك من هو موكل بفضاء اللّه يزرعه، وهناك من تأتيه الفضاءات منقادة؛ أظنه أنت، وهناك من يبحث عن ابتسامة يلوذ إليها كلما عزّت الأماني عن التحقق وتكدر صفو الحياة؛ أظنه أنا، لن تكفي مرآة واحدة لانعكاس الضوء والوقت والموسيقى وظلال الحلم.

قد يأتي الحب من دخان بخور يحترق، أو رائحة إبطين لامرأة نزلت من السماء مع المطر أو قصيدة غناها طائر مهاجر في لحظة صفاء.

- قالت: أنت محظوظ؛ لأنك من مواليد كانون الثاني، ولدت لحظة التقاء الماء العذب بالمالح، لحظة التقاء المرايا بملكة البحار، لحظة التقاء المساء بالنهر، لحظة التقاء الشجون بالعيون، لحظة التقاء الغربة الكبرى بالغربة الصغرى، لحظة التقاء الضوء بالرسوم المتحركة، لحظة التقاء الريشة بالوتر.

بل قولي لحظة التقاء العربة بالثلج، لحظة التقاء الناي بقوس قزح ولحظة تفتح الزهورعلى ينابيع الفرح وزغاريد الجمال، لحظة التقاء الزمن بجحافل الغبار ورايات الوجع، لحظة كان المساء نصفه حار والآخر بارد، لحظة كانت الموسيقى بلا سكر وبلا طعم وبلا رائحة، لحظة ولادة القهوة وبعثرة الأماني في أزقة الخوف، لحظة كانت القصيدة رفضًا للتواجد المنسي، لحظة تداعيات هرمة لشدّة نزيف الحرف.

قالت: سوف أصدقك، سوف أمسح نوافذ قلبي كي أرى كل شيء صافيًا وجليًّا، سوف أحاول أن أنحني لعاصفتك وأعبر الجسر من عينيك إلى عينيك ومن شفتيك إلى شفتيك ومن المساء إلى المساء، فقولي من أنت؟

كان المساء يداعب دخان سيجارة قريبة، وكانت هي تقف بين ندى العمر ومدرج الجامعة، كلما نظرت إلى سنوات العمر والأيام تطوى، والعلم لم ينتهِ والعمل استهلك منها كل شيء إلا نضارتها وجمالها، ابتسمت وقالت عيونها مالم تقله في السنين الخوالي، وكلما نظرت إلى نظارتها الطبية وحقيبتها التي تسبقها كالعادة إلى قاعة المحاضرات استعادت ابتسامتها، خبأتها خلف تجاعيد الوقت، أصلحت من جلستها.

أنا - يا سيدتي - بقايا دخان تركته المسافات كي يحرق الضوء، كلما وصل الحلم إلى سدرة المشتهى، تشبهني قامة المعنى، الظلال المسافر في تجاعيد أيامنا.

أنا أول الغيم آخر الصدى، منتهى المرايا، ملتقى الندى، أنا ثورة المعنى، اختلاجات النبيذ، رقصة الثلج المهاجر في سماوات الصلاة، أنا أغنيات الحقل، دندنة السنابل.

- قالت لا أجمل من الحب إلا انسياب المعنى بين شفتيك.

اصدقني القول كما مرأة أحببت؟!

- أحببت كل نساء الكون، عشقت الطريق المؤدي إلى البحر، النافذة المطلة على النهر، الصخرة الصماء في طريق السيل، الشجرة التي تفتح نهديها لتأوي الطيور المهاجرة.

تجاوزت الحب، وسبقت العشق، وغلبت الشوق، وهزمت الحنين، مارست الحب في الحقل وفي الميكروباص وفي التاكسي وفي القطار وعلى الشواطئ وتحت إبط النخلة السمراء وعلى التليفريك، تحت المطر وفوق جنون الفراشات، مارست الحب تحت سماء الزهور.

قالت وعلامات الدهشة تلامس الدخان المنبعث من سيجارةٍ أشعلتها للتو، رغم اندهاشي بك وبكتابتك لكني لن أصدقك، أنت تحمل داخلك جبالًا من المشاعر والأحاسيس، لكنك لا تعطي منها لكل قادم إلى قلبك سوى الفتات، وأنا أغلى ما لدي هو قلبي، لست مستعدة أن أضعه في رف من رفوفك، فأنا أحمله معي ككتاب، أخاف عليه من المطر ومن الشمس ومن الندى ومن الصدى ومن الظلال، أسكنه في المواسم ويسكنني في فواصل الألمفي الغياب أبحث عنه وفي مرايا العمر يبحث عني، في تجاعيد الفصول أبحث عنه وفي انحناءات المطر يبحث عني.

قلت في المتسع من الذاكرة امرأة واحدة فقط، وحين يكون المساء جزءًا من القلب أكون أنا كل الأشياء الجميلة أو مصدرها، قد يكون حبك جميلًا وقد يكون قاتلًا، يا سيدي قد يكون رائعًا وقد يكون باهظًا، قديكون سعادة غامرة وقد يكون موتًا محققًا!

كل الأشياء تشابهت عليك عدا أنا، ماذا يمكن أن يتقن شاعر غير مراودة الكلمات عن نفسها والاستماع إلى صدى موسيقى متناغمة مع هذيان العابرين؟! صمتت فجأة ثم قالت:

الجنون فنون، أليس هذا هو مذهبكم أيها الأدباء؟ ألستم أصحاب أسفار متعددة ومقعدًا واحدًا تركته لقادم، ربما لن يجد أحدًا بجواره؟!

احتدام، تصادم، تضاد في عالم الخيال، تمنى كلما قلت:

يا سحاب أمطري، أمطرت، وكلما قلت:

أيها البحر خذني إليك، لبى النداء، المسافات تأتي وتذهب.

قالت أنت تبحث عن بطلة لروايتك، أما أنا فأبحث عن رجل طال انتظاره، كان أنيقًا يحرك شجون المكان الذي يمر عليه، يبعث في الجدران الرغبة، في الحركة وفي أعمدة المكان، الرغبة في الرقص، كان جذابًا بعينين عسليتين وأنف كالسيف وخدود من مرمر.

عندما تغيب القصيدة سأغترف من عينيك ما يروي جنون المساء.

قالت: الوقوف أمام جدارية الصمت أمرٌ من البقاء على مشارف الذاكرة.

كلما قلت سنعود ياقلبي، متى جمحت عروقك؟

سنعود يا قلبي متى طربت شراايينك لألحان الحقول.

سنعود يا قلبي متى استبد بك الحنين.

لا سواك من يحمل المعنى، من يسجع مع الأطيار.

من يحمل تفاصيل الصباح؟ من يكتب على شفة المطر؟ من يرسم تجاعيد السفر؟!

صمت (شيء يهد الحيل ما أقدر على وصفه)

قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة:

لا تكلف نفسك عناء البحث عن الحب في قوافل الريح، لم تعلم أنني أنتظر هطولها كالمطر، قلت أشياء وأشياء وأنا أشعر بالأرض تدور، أشعر بالمسافة الفاصلة بيننا تبحث عن مسافة، الممرات تبحث عن جدار مائل، الأمكنة تلملم ما تساقط من سفر، أشعر بتلك الجبال التي فصلت بيننا، بتلك الصباحات البعيدة، بتلك النايات التي استغلت غيابها فهزمتني.

قالت ويداها تلتقيان عند خاصرة المساء وفي عينيها ينام الكحل وتستيقظ أحلامي وجنوني، ينام الحب وتسهر أشواقي وبطاقات الحب الأولى وجراحاتي وشجوني، أنا لحظة أخرى لونها أخضر، فلا تنتظرني، في الوقت المناسب سوف أجيئك حُلمًا أو حقيقة.

قلت: نريد أن نكون صورة جميلة قبل أن تشوهنا الحروب والأزمات والطائفية.

قالت: سنمارس الحب حتى تحت الأنقاض، كلما زاد كرههم ازددنا عشقًا، سنقول إننا في رحلة صيد برية وأن الرصاص الذي استهدفنا كان طائشًا، وسوف يشيعون القبح في كل مفاصل الحياة وسنحاول أن يكون الوجود شيئًا جميلًا.

أستأذنك، الإعلان الثاني لرحلتنا، أستنشق العطر، ألمح في خطوط يدي ابتسامة أنثى. اذهبي أنَّى شئتِ، فسوف يأتيني جنونك، اذهبي أنَّى شئتِ، قبلات الصباح سأقتسمها مع العصافير، وقهوة المساء سأقتسمها مع القمر.

السهر صديق فاشل، خصوصًا عندما يأتي مبكرًا لممارسة لعبة الشطرنج في أقاصي الجفون.

ما استطعت عمله هو إعطاؤها وردة، وكارت به إيميلي الشخصي وتليفوني. قالت: تغيرت الحياة، أصبحت الوردة يا شاعرنا جهاز آيفون.

افترقنا.

لا شيء يختلج في وجداني سوى الرغبة في البكاء، الغرور هو الفشل الذي داخلك، رفيقك اليأس والإحباط والحب والعدم، تحاول

أن تفتح جراب الأخلاق الحميدة فلا تجده، وتتجه إلى جراب (الدين المعاملة) فلا تجده، وتذهب إلى جراب المعادن النفيسة فلا تجده، كل ما تشعر به وتحسه واقعًا هو اشتعال الجمر تحت قدميك.

غادرت المطار، مشاعر متضاربة وأحاسيس منهوبة، لم يعد يهمني تفاصيلها، أسعى للتخلص من الذكريات القديمة والجديدة، كلما حاولت مقاربة الخطوات استوقفتني نسمة عابرة هنا، وهبّة عليل هناك، ليس هناك ما يدعو إلى القلق لكنني أشعر بالحزن، اعتدت أن تتساقط الأشياء الجميلة من بين أصابعي.

كلما ازدانت سماؤك بالقناديل زادت النتوءات وأصبح البرد أكثر قساوة من ذي قبل، حملت أوهامي وظنوني وشكي واليسير من يقيني.

عدت إلى المطار واتجهت صوب مكتب سفريات، حجزت على رحلة اليوم الثاني، خرجت من المطار، لم أقابل أحدًا، كان الشارع خاليًا إلا منِّي ومن وقع أقدامي المتعبات وأنفاسي المتلاحقة ببطء شديد.

السهرة لم تبدأ بعد، ولكنني أشعر أن الستارة قد أسدلت وأن كل شيء قد انتهى.

كلما أضواني الليل وبسطت يدي للهوى عادت محملة بالحزن والجراح.

قصة الحب التي أتمنى أن أعيشها تلك التي تنتهي بضربات ترجيح.

أطول رحلة في حياتي كانت في عينيها، مغرورة لأنها آخر الفراشات.

بين وجعين ظننتها وجعي، وبين وطنين ظننتها وطني، وبين قلقين ظننتها قلقي الجميل.

كلما اندملت جراحاتنا بحثنا عن جراح، وكلما نأت الذاكرة إلى أقاصي الحلم نكأتها الذكريات، وهكذا دواليك، كلما اندملت نكأناها.

السهر، المطر، السفر وأنت فصول أربعة، قالتها وذهبت مع الريح.

اذهبي مع الريح وعودي مع المطر.

ماذا تبقى لديك غير سجادة للصلاة وأغنية من تعب؟!

أغلب قصص الحب تنتهي بباقة ورد، الأرض كروية والحب كروي والقصيدة أيضًا كروية.

كان الشارع رغم رحابته ضيقًا حرجًا، وكنت أنا كتلة من الأحاسيس المتضاربة، الأحاسيس المتبخرة، الأحاسيس المنتهية الصلاحية، الأحاسيس الحارة، الأحاسيس المثلجة، الأحاسيس الشيطانية، الأحاسيس الإيمانية، عليك أن تنسى كل شيء، ما مر من العمر وما سيأتي وما تركته فائضًا وما تركك منقوصًا، عليك أن تواصل رحلتك فقط.

المرأة المثقفة سلاح ذو حدين، لذلك يصعب الإمساك بها من معصمها، حتى ولو كنت مهرجًا!

وصلت الفندق، اتصلت بالدكتور مازن.

قال: أهلًا ياصاحبي، أين أنت؟

قلت: بالفندق وإن شاء الله غدًا رحلتي، قال: إيش حصل؟

قلت: محاولة لإنهاء مواسم الهذيان.

قال: سآتي إليك، إن شاء اللّه أجيك ونتفاهم.

أنهيت المكالمة، حزمت أمتعتي، لم يبق غير الليل يطوي جناحه، عند الفجر سأطير إلى وهادنا، إلى حيث أنا، إلى الربى ومراتع الصبا ونجمة تلمع في الذاكرة.

اشتقت إلى الزهور والورود وعبق الرياحين في الصباح الباكر، ونكهة الطين المبلل بعرق البسطاء، إلى سنابل القمح وأعواد الذرة وأعشاب البرية، إلى المطر يبللني بالبهجة في القلب، إلى دموع غمامة تهطل أشواقًا وذكريات مطرزة بشقاوة الطفولة، إلى الفرح الذي يغمر الأفق أملًا ولم يفارقني في حِلِّي وترحالي، حتى صار عكاز قلبي في أحلك الأوقات وأكثرها قساوة منه. استمددت القدرة على المقاومة لكل ماكان ينتابني من سهر الفوضى ورغبة الاندماج في الصخب، الموسيقي والإيقاع الذي لامعنى له سوى تمرد الذات على ذاتها، والتحلل من العالم ليبقى المرء أكثر اغترابًا ونهمًا.

أجل، الفرح الذي يسكن فيّ، الممتد من القرية إلى مخيلتي وقلبي، وحده كان حارسًا لي من الوقوع في شرك المكان وترصد العيون المدمنة للفوضى وأشياء أخرى.

اشتقت إلى وديان اللّه وأسرار الليل وحكايات الجدات للأطفال الذين لا يعرفون ما يخبئه الغد لهم من مفاجآت، اشتقت إلى الأرض التي سقاها اللّه فيض الغمامة فأنبتت الزهر في ضلوعي. أيقظت العالم من سباته وأشعلت فيّ القصيدة؛ لأكتب ما تمليه قامة فارعة وعينان زاهيتان، تسكبان الروعة على كل الحقول.

اشتقت وأنا إليك آتٍ أيتها المرصعة بالنجوم وبيض الأماني، يا قدري الأول، يا بهجة القلب، ويا أشواقًا تلد أشواقًا، ولم تتبدل وتزيد فيّ حضورًا لتفعل كل هذا التوق إلى الهضاب والوهاد وأماكن الكركرة ومطارحة الناس أشواقهم وأغانيهم وما فيهم من تعب وفرح وخبايا لايعرفها سواهم.

أعود إليك وأنا جوّاب الأمكنة.

المسافر من محطة لأخرى، الباحث عني في أزمنة سرقت مني.

ولم أظفر بشيء سوى الآه.

أيتها الفاتنة التي تسبي الروح وتمتلك الفؤاد، وما يُرى إلى الآن لم أدرك معناكِ تمامًا، فلا شيء يسترد عافيتي سوى العودة إلى المهد، إلى البداية، إلى المعنى الحقيقي، أن يكون الإنسان ريفيًّا فيه من البساطة ورغبة العيش ما يجعله يمد بصره من أعلى إلى البعيد الأقرب من ملامسة الشفاه للشفاه.

الطريق إلى القرية عبارة عن قصائد مرصوفة على عجل، صباحات مسكونة بندى الحقول وأغاني الطيور، ومساءات مثقلة بالصلاة وبالدعاء والمناجاة، أصابع فتاة زينتها نقشة الحناء.

الذاكرة محاصرة بإيقاعات الجيل الخامس من الهذيان.

كان صديقي ينصت لصوت الموسيقى المنبعث من مسجل السيارة، ولكنه لا يغيب في أعماق الجمال والسحر، وكنت أنا أتمنى أن يظل الصمت رفيقًا ثالثًا. كنت حريصًا على لملمة

اللحظات الجميلة التي ضاعت مني في رحلة الذهاب، تكاد هذه المناظر المتدفقة كشلال منهمر أن تصيب القلب بنشوة الاصطدام بالصدى، فكلما اقتربت كاد الصخب الذي داخلي أن يتلاشى.

النقطة الفاصلة بين المدينة الصغيرة والقرية الكبيرة، الهواء مختلف، النسيم العليل يداعب القلب، في المدينة الصغيرة درسنا الثانوية العامة والجامعة، وفي القرية درسنا الحياة من البداية إلى النهاية.

علمتنا المدينة كيف نُمشِّط شعرنا وكيف نلبس البنطلون وكيف نمشي على الرصيف، وعلمتنا القرية كيف نمشط للحقول جدائلها وكيف يمشي الربيع على الصخور والتلال والوديان.

علمتنا القرية كيف يصبح الطين زهرًا والمطر ثمرًا، توقفت جانبًا أتأمل زرقة السماء الصافية، كم تمنيت أن أكتب عليها قصيدتي الأولى، أو أن أعلق عليها صورة المرأة التي منحتني صك مرور إلى مدن الأحزان، كنت أبحث في منعطفات الطريق عن البكاء الذي دفع عني هم الأسئلة وبؤس الإجابات وظِل رفيق طفولة كانت تتباهى بالفشل.

على قارعة الطريق كان يقف رجل بانتظار سيارة تقله إلى القرية، كان أصلع وبلحية بيضاء صغيرة، أغبر عليه أثر السفر، كنت أقود سيارتي باتجاه القرية وحيدًا، وليس من المروءة أن تترك قرويًّا في الطريق بين الأتربة وتحت أشعة الشمس، هدأت من سرعة السيارة، أحيانًا الصمت أفضل من رفيق وأفضل من صديق، لكنني عندما اقتربت منه كأنني أعرفه، وقفت، اقترب خطوة، نظرت في عينيه، كأنني أعرفه.

محمود أجاب بصوت أجشّ ولسان متعثر:

نعم، ترجلت من السيارة، سلمت عليه، احتضنته، تبخرت أجمل الذكريات من بين كتفيه المتعبتين، رفيق وصديق وأخ تسع سنوات دراسة وطفولة ونقاء وضحك ولعب وشعر، أجلسته بجواري، نظر إليّ وبكى، لقد نكأت جراحاته، أشعلت ذكرياته، أوقدت النار في هشيم سنوات عمره، ربتُّ على كتفيه، سألته:

قل لي: أين آمال؟! فضحك، ثم قال: ياه، لقد تزوجت فقلت: لِمَ ضحكت؟!

قال: لأنني عندما رأيتك مرّ شريط الذكريات المُرة والقاسية والموحشة فبكيت، ولما سألتني عن آمال ضحكت حيث انتهى شريط الذكريات المؤلمة وأتى شريط الذكريات المريرة والسعيدة والمجنونة.

ركبنا سيارتنا ومضينا، وأنا في حرب مع الأسئلة والذكريات، كلما وُلد في حلقي سؤال أبله نبذته في العراء، كيف تجمع عشرين ربيعًا في سؤال؟

لقد كان محمود بجواري وأمامي وعلى قارعة الطريق، هنا وهناك، وفي المدرسة وفي الصف، كنت أسمعه حين ينصت للطريق، المسافة كبيرة بين الحزن والألم، الأشجار والأحجار، الشيخوخة المبكرة والفرح المتأخر، لا يجتمعان، تحتاج الذاكرة إلى مساحة كافية من الانتظار، كان الطريق ترابيًّا ويشبه إلى حد كبير ذاكرتي، توقفت أمام شلال صغير، كنا نغتسل به بعد عودتنا من المدرسة أحيانًا بملابسنا.

نظر إليّ صديقي بحزن وشفقة وقال:

يبدو أنك مازلت تتذكر المكان، هناك علاقة وطيدة بيننا وبين الأماكن المتشابهة.

قلت له: إن هناك جسورًا من الحب ومن الشعر ومن اللعب ومن البكاء ومن الدراسة بيننا، كنت أعتقد في فترة من الفترات أنني أملك زمام اللحظة التي بعثرت الأماني وأضاعت الحلم، كانت الحياة تتشكل من نافذة واحدة هي الحب.

كنت أخاف من السحب المحملة بالحنين وبالمطر وبالنساء القادمات من طابور الصباح، لن يفيض الحزن إذا كانت الشمس تسافر كل صباح إلى داخلك لتضيء المستطيل الأخضر، حاول صديقي أن يركل المسافة المتصلبة حول قدميه.

لا أسوأ من أن تُكبِّلك المسافات وتعصرك الأيام وتشربك المواسم.

الأماكن كلها في حالة غياب، لا شوق ولا حنين.

الأماكن تخبئ وجهها بين أصابع الغصون، يبدو صديقي قلقًا ومستعجلًا وأنا عكسه تمامًا، أريد أن أستمتع بالطريق، وأتحدث إليه، إلى أين يريدنا أن نذهب؟

وهنا الفرح الذي تبحث عنه الأمطار والأعاصير والسحب والعواصف والأنهار، هنا يلتقي المعنى بأهداب الندى، أشواق من رحلوا بأغنية الحقول، هنا تاهت دروب الوصل، هنا تقتات الفراشات من أسنة الوقت،

هنا ذهبت أماني العاشقين مع الجداول، وأحلامهم مع تجاعيد السحر، هنا - يا صاحبي - لمشاعرك صدى، ولحنينك رجع، ولانتظارك معنى، هنا يلتقي العمر بالزهور والحلم بالحب، هنا بدأت قصائدي الكلام وأفكاري المشي، من هنا بدأت شرارة الحب الأولى.

قبل عينيها تعرفت الزهور، ونزلت بديار الورد وتعلمت الرقص من الأغصان، وتعلمت الكتابة على أجنحة التفاصيل، تعلمت الصمت حين يكون رماد القصيدة جمرًا، وتعلمت الوخز بالثلج قبل أن يعود النسيان من الحقل، هنا كان بيني وبينها ساقية من الحب، حقل من القبلات، كانت تتنفس الغبار القادم من سباق الكلمات، وكنت أتنفس الأماكن التي ولد فيها حبنا.

اخلع نعليك - يا صديقي - إنك بالوادي المقدس من بلاد الله، وامنحني لحظة واحدة كي أرتل بعضًا من الشعر بين يدي آلهة الجمال، قال صديقي: سوف يتساقط المطر.

قلت لصديقي: سنكون أجمل وسنكتمل، كنا - يا صديقي - حين يسقط المطر وتفيض الأشواق نصنع من قلقنا مركبًا ومن سراب الريح مصيرًا مشتركًا، ومن خيوط نظراتنا شراعًا، ومن طعم القهوة أغنية.

قال صديقي محمود: توقف، فقد أشعلت الصبابة والهوى، نكأت الجراحات التي لم تندمل بعد، لقد تجاوزت ياصاحبي المعنى والمبنى والأولين والآخرين، لقد خرجت عن لغة العشاق وأقواس المواسم وأناقة الأمواج، تجاوزت المجاز المرسل وسبقت النوارس وأشعلت موقد كانون وأخجلت موسم الخريف.

كان الطريق يحتفل بقدومنا على طريقته، فالطيور على الأغصان تسجع، تتمرجح والماء يسابق ظله والبلابل على أكتاف الوهاد والريح تجمع الألوان من عيون الفراشات، وأنا وصديقي بين فواصل الألحان، وكانت هي بين الصوت والصدى، هناك على يمينك، طريق يؤدي إلى منطقة (نقيل العقاب حاضي الجراجر المهروم)، كانت تضم قرى وحصونًا عديدة تملّكها ذات تاريخ أمراء وسلاطين.

وهناك على الجبال الشامخة والوديان المنثورة قبائل شتى، وتقاليدهم ليست مرتبطة بالتاريخ القديم بقدر ما هي التقاء بعادات القبائل الأخرى، مع اختلاف بسيط لا يعدو أن يكون خروجًا عن السرب.

تاريخ طويل من الحروب ومن النقوش ومن التجارة ومن التطور ومن التخلف ومن الانحطاط ومن الحب، لكنهم لا يزالون الأفضل، ما زلنا ننتسب إليهم ونفتخر بهم وفي كل يوم لا يخلو من حديث عنهم.

ما زلنا نعمل بقوانينهم وأعرافهم، بل ما زال البعض يسكن في منازلهم، وأقرب مثال الأعراس، حيث تميز القبائل بعضها من بعض، فإذا كانت لدى البعض ابتهاجًا ليس له سقف، فهي لدى البعض الآخر أفراح تسير في حدود العرف.

الطريق إلى تلك القرية مسكون ببقايا التاريخ وبقايا الندى وبقايا الحب وبقايا العطر، لا يخلو الطريق من ذكرى ولا الحقول من شجن ولا السواقي من مفارق ولا الروابي من عاشق.

قال صديقي: لقد اختصرت العمر واختصرت الأغاني واختصرت المسافة.

قلت: لأن من هنا تخرج المرأة «من بيت أبيها إلى بيت زوجها إلى قبرها» كما يقولون.

هنا النساء لا تتعلم غير القراءة والكتابة وحفظ القرآن، أو بعضًا منه وما ينفع المرأة في دينها ودنياها.

قال صديقي إن الإحصاءات تقول: إن النسبة الكبيرة من المطلقات بين الحاصلات على الشهادات العليا، وكلما زاد مال المرأة أو تعليمها خرجت إلى رحاب التمرد.

يا صديقي الدين الإسلامي حفظ للمرأة حقوقها بما يكفل بناء أسرة كريمة.

كان الطريق ممتلئًا بالحسن وبالهوى وبالشلالات وبالأطياف وبالخوف وبالجن وبالنجوم، مسكون بالعشاق وينابيع الماء والعيون الزرق.

كنت أراه مختلفًا وكنت أشعر بالسعادة حين أكون هنا، كانت الأشجار تقدس قدومي وكانت الأطياف تنتشي والأطيار تتراقص والندى يعطر الطرقات.

في الصباح كنت أمرُّ من هنا وكانت النساء في الحقول وفي السواقي وفي عيون الماء، كنت كلما مررت من هنا وجدتها، كانت ملكة وأميرة وكانت فتاة شقية، كانت أكثر خجلًا

من الضوء وأكثر جنونًا من المطر، كانت المصادفة تلعب دور الوسيط، أشجار اللوز وعناقيد العنب تنبت في أطراف لقاءاتنا.

كانت القرية أغنية والأشجار أوركسترا وكان رجع صوتي جمهورًا، وكان البحر في أقاصي عينيها هو المكان الذي نقيم فيه احتفالاتنا، ذهب الأولون بالشعر واللاحقون بالنثر وأنا بالحزن.

كان صديقي متأثرًا بقصص الحب الفاشلة ومتعبًا بجراحاته المتوالية، فشل في التعليم وفشل في الحب وفشل في الانتخابات وفشل في الهجرة، لكنه نجح في التجارة؛ لذلك الحديث أمامه عن الحب يزيد في خطوات عمره.

كانت تستمد جمالها من المواسم وكان القمر يستمد جماله منها، كانت أمها تفرح بقدومي وتضع اعتبارًا لكل لحظة تراني فيها، كانت نقية طاهرة والابتسامة لا تفارق شفتيها وفي كل حركة كانت تذكر اللّه، كانت متوسطة الطول وكبيرة العقل.

القرويات يتوارثن الحشمة والكرم وطاعة الزوج والرغبة في الإنجاب، كان أبوها عسكريًّا متقاعدًا، ملأته الأيام كبرًا والمناصب غرورًا والوحدة انفصامًا، كان سرمديًّا يستصغر الأشياء التي لا تمرُّ من يده ويستهجن الأشياء التي لا يصنعها هو، كان كل يوم في عراك مع الذات مع الوقت مع الصباحات ومع المساءات، ومع الابتسامات التي لا تخرج من تحت أظفاره.

قال صديقي: إن العسكر انعكاس للحياة المتأزمة والحياة المتاخمة للموت والحياة المصلوبة على أسنة الحرب، والحياة المتبخرة

من كثبان البارود، وأن الفتيات اللاتي ينشأن في بيئة كهذه في حالة خرجن إلى حياة جديدة فإنهن يبدأن في بناء حياة مختلفة تمامًا.

قلت له: إن المناطق التي تشهد حروبًا متتالية، يصبح أبناؤها عسكرًا بالفطرة، لذلك تكثر فيها الخلافات والاقتتال والثارات؛ لذلك يبحثن عن أسلوب حياة جديد.

قال صديقي حديثك أوقف الدماء في العروق، حدثني عن الحب.

قلتله: لقد كانت أول الحب وأجمله وأهناه وأدومه، كانت اللحظة في حضرتها عمرًا، والثانية أمام عينها دهرًا، كانت في الحب جملته القصيرة والطويلة وفي الأناقة الجديد والأجد.

قال حدثني عن المساء؟

قلت: في المساء كنت أشرب نخب مروري وأكتب نصف قصيدة أضعها في شفة الغيم وكانت النجوم رسولًا بيننا.

قال صديقي: إن المدينة أفضل من القرية وأنه وجد استقرارًا وراحة في المدينة أكثر مما كان في القرية، كان صديقي ينتظر رأيي؛ فقد كان كثير الإيمان بما أذهب إليه، كنت أرى أن الحياة في القرية متقاربة وكانت مجموعة القيم المتوارثة مدعومة بتعاليم الدين الإسلامي تجعل من الجميع أسرة واحدة.

قال صديقي إنه كان يعتقد أن المدينة أفضل من القرية ولكنه الآن عدل عن رأيه.

قلت له: أهل القرى أقل أمراضًا وأكثر ندى وأجزل كرمًا بحكم تأثرهم بما حولهم.

الحياة في المدينة تسير بإستراتيجية مختلفة، الأولاد، التربية، التعليم، اللبس، المناسبات، الحزن، الفرح، كل شيء مختلف حتى النوم، الأحلام في الغربة غير أحلام القرية.

الناس ينتظرون بفارغ الصبر، قالها بقلق، واصلنا المسير عكس اتجاه حركة معظم الناس، أشعر بالسعادة لكنها المرتبطة بالقلق، السعادة المرتبطة بالزمان والمكان، السعادة المشروطة لا تكفي لمواجهة القلق، كمحارب خسر معركته قبل أن تبدأ واعترف بالهزيمة، بدأ صديقي يوازن بين عجلته وصبري، بين صمته وهذياني، بين حضوره وغيابي، كان جليًّا يلوك القلق كالعلك، وأنا أتنسم عبير الذكريات كالعطر، لا شيء اقترب منه، كل الأشياء كانت وقفًا على الأرصفة المهجورة، أتمنى لو أن فتاة مخبأة في غصون الأشجار تمنح صديقي دورة في الغناء.

كانت الشمس في طريقها إلى كبد السماء، وكانت الطيور تغرد زرافات ووحدانا، كانت درجة الحرارة منخفضة، ما جعل الأجواء خرافيةالهضاب والتلال ترحب بنا، وكانت تلوح بالأشجار والحصى، تتقارب القرى، ويتماهى الطريق ثم يختفي خلف أصابع الأغصان الملونة بالأخضر والأحمر والوردي، كأنك تطوى صفحات كتاب لا تشبع من قراءته.

لقد حرك عباد الشمس الرغبة في ترتيب الذكريات حسب الحروف الأبجدية المتناثرة بين الأحجار والأشجار وأقدام السنابل التي تستعد للاحتفال بأعياد الميلاد.

أخرج صديقي قفص سيجارة لم يعد به سوى سيجاره واحدة، وضعها بين شفتيه ورمى القفص من النافذة، بحث عن قداحته في جميع جيوبه لكنه لم يجدها، أخذ سيجارته بيده اليمين ورماها خارج النافذة، إنه الشعور بالقلق بينما أنا أشعر بالألم، أتألم عندما تبادلني التحايا، وأتألم عندما ترقص ابتهاجًا بلقائي، أتألم عندما تغني فرحًا بعودتي، أتألم لأني أشعر بالعجز أمام هذا الكرنفال الكبير، وأمام هذا الزخم العظيم، أتألم لأنني لما أعد أملك سوى الذكريات والأحلام، أتألم لأن كل شيء يتضاعف، الحزن، الفرح، نضارة الروح.

دفعت ولاعة السيارة وانتظرت برهة وأنا أنظر إلى صديقي، أشعل سيجارته بخشوع، دخل في عالم آخر، تحركت السيارة ببطء على وقع الجمل الموسيقية التي تتموسق على جانبي الطريق، دنوت من الأغصان مددت يدي، ليس هناك ما يدهشني، فالجراحات التي حملتها داخلي في رحلة البحث عن وطن نمت، لا تخطيط سابق للحلم.

بناء صرح من الياجورعلى بحيرة من الذكريات يحتاج إلى امرأة فقط، استمتع صديقي بسيجارته، كان الدخان يتساقط مضرجًا بحنين الأغاني المواجهة لشفة صديقي، مد صديقي يده وخفض صوت الموسيقى المنبعث من مسجل السيارة، ثم قال:

لماذا استوقفتك الطريق؟

كنت مستغرقًا في الماضي أصغي لسواقي الماء، وحقول البن، كنت أناجي النفس، أعلل الآمال بالوصل، بالعودة الحميدة. التفتُّ إلى صديقي، كان جملًا متجزئة وكلمات متقاطعة،

كانت الأسئلة التي بين عينه أكثر من سنوات العمر الأربعين، سألته هل جربت العيش بين الهذيان والجنون؟!

أجاب: نعم، لكنني لم أستطع، أجمع تسابيح الرحيل، صلوات الهجران، وأنفاس الحنين، ومن ثم تركت حصتي من التركة لفنجان القهوة، أحرقت كل رسائل الحب وكل القصائد المنتمية إلى أوتار الكمنجات، لقد تركت آهاتي المبللة بنبيذ الانتظار على نوافذ الأمس.

لم يعد يدهشني موكب الطيور المهاجرة، ولم يعد سرب القطا جزءًا من إشراقة القلب، في العام 94م التحقت بالجامعة، توظفت في إحدى الصحف في العاصمة وبدأت رحلة البحث عن المتاعب في رحاب صاحبة الجلالة، قطعت شوطًا لكنني كنت أفتقر إلى الخبرة وإلى الشهادة وإلى الواسطة.

جمعتني المصادفة بزميلة كانت تشاركني نفس الهم، وذات الطموح، لكنها كانت من طبقة مخملية. سافرت بين الشريان والصمام، وداوت الجراحات وأشعلت النار في هشيم القلب، أصبح الطريق حكايات معلقة بين ذرات التراب كأن بائعة الكبريت مرت من هنا، مملكة النحل تجمع طوابع البريد طوال النهار وتغلق الموانئ والمطارات ليلًا.

وقفت، فتح صديقي باب السيارة وخرج ليدخن سيجارته، جلس على استراحة على قارعة الطريق. أطفأت محرك السيارة وذهبت إلى جواره بعد أن أخذت جولة على القرى والبيوت.

كان الدخان يتصاعد من البيوت ما زالوا يستخدمون الحطب وتنانير الطين، يقول القرويون إن طعم الأكل مختلف وطعم اللحم والشربة ألذّ، النساء القرويات يستيقظن مع ديك الصباح ولا ينمن إلا مع المساء، فبعد أن يجهزن وجبة الإفطار يذهبن لإحضار الحطب والحشائش للأبقار وبعد ذلك يجهزن وجبة الغداء.

القرويون يتناولون وجبة الغداء بعد صلاة الظهر مباشرة، بعد ذلك يتجهزن بأجمل ما مرت عليه أياديهن ويشاركن في جلسات المقيل، القرويات لا يعرفن لائحة الحزب الداخلية ولا برنامج المرشح الرئاسي، اقتربت قليلًا وأنا أمد يدي لحبة سيجارة، أصوات خطوات امرأة عائدة من المستوصف، ذهبت لتلقح لمولودها البكر، هكذا قال صديقي.

الجميلات يتزوجن وهن في عمر الزهور، مضت الفتاة تجر رداء الكبرياء خلفها والحياء أمامها.

أشعلت سيجارتي.

قال صديقي إن هذه الفتاة مظلومة وأن أولياء أمرها بحاجة إلى محاكمة، فقد كان الأحرى بها أن تكون عائدة من الجامعة.

قلت لصديقي: إن طفل هذه الفتاة يساوي شهادات الدنيا وهذا نصيبها وهذا قدرها.

قال صديقي إن هذا حديث المتخلفين، نحن من يصنع الأقدار ونحن من يوجد النصيب ونحن من يحدد مصير اللحظة القادمة، أشعلت سيجارتي وصدى حديثه في أذني، وعن يميني وعن شمالي، إنه يتجاوز كل الخطوط ويظهر من جسده النحيل أنه يعاني من

سوء التغذية ما سبب له خللًا في التفكير، أجلس أنا بهدوء فوق حجرة ملساء، شعرت بالقهر والغبن والشفقة، رفعت عيني لوجهه كان بائسًا وعلى محياه ذلك الشاعر النبيل الذي كان يحدثني كل مساء عن حبيبته، لقد كان يعشق القمر ويحب المشي في الظلام قبل عشرين عامًا، كان قد مر على دخولي الجامعة ثلاث سنوات، قررت أن أوقف القيد، لم يكن هنالك دافع لمواصلة التعليم، كان الضجيج الذي تحدثه الألوان من حولي كفيلًا بإيقاف الحزن الذي يعزف أغاني الصباح والمساء وسط رأسي، كيف يمكن لعنقود عنب أن يتحول إلى خمر دون أن تتبادل المسافات بنادق الصيد مقابل سكين معتقة بشرائح الليمون، كنت أتأمل وجه صديقي وهو يواصل حديثه الخالي من كل شيء عدا الحزن، شيخوخة مبكرة هي القاسم المشترك بيننا، سألته ماذا درست خلال السنوات الجامعية الثلاث؟ أجاب صديقي بنهدة عميقة وابتسامة خجولة، حفظت أغاني فيروز، انتقلت من مرحلة الثرثرة إلى مرحلة الصمت، صادقت الخليل بن أحمد وأبا العلاء المعري والمتنبي.

قابلتني لأول مرة، في عيني امرأة كافرة، كانت تجيد العزف على الجيتار وتسابق الأنفاس الملتهبة وتوزع ابتساماتها على أبواب الكنائس والمدن المهزومة.

كان قد مر على آخر لقاء قرابة العشرين ربيعًا، يبدو أن صديقي قد عرك خلالها الحياة جمرًا وتمرًا، وصًلا وفراقًا، كانت الأشجار المتدلية في حالة إنصات لهذا الشاب العجوز الذي جمع التعاسة والغبطة في كأس قصائد الخريف، مع

روايات الشتاء، أغاني الصيف مع موسيقى الربيع، كان صديقي يتحدث إليّ كمن يرسم أكثر من لوحة في وقتٍ واحد.

أنهى صديقي سيجارته ورمى بها إلى حفرة ممتلئة بماء غير آسن، هكذا هي نهايتنا جميعًا، عندما تتحول إلى حبة سيجارة بيد الآخرين، نحن من سوف يساعدهم في إشعالها ومن ثم رميها.

كان صديقي قد انخرط في الحزب الشيوعي الذي كان يحكم البلاد، ولم يحكم البلاد، كان صديقي عاصفة هوجاء؛ فهو مسلم بالبطاقة وملحد بالسليقة، ما أقبح الحياة حين تُمسي غنيًّا وتصبح فقيرًا، تُمسي عاشقًا وتصبح مفارقًا، تمسي شاعرًا يكتب قصيدته الوطنية وتصبح في زنزانة بتهمة العمالة، ماذا ستكتب ومشاعرك الوطنية قد تحولت إلى سوط يعيد ترتيب الفوضى التي تركتها القصائد، التي وصلت إلى شواطئ كتفيك حافية القدمين؟ ماذا عساه أن يقول شاعر أصبح وطنه المنفى؟ في كل لحظة تعرضهم الظنون في أسواق النخاسة، يرحلون بحجم نقائهم وبحجم حبهم وبحجم شجونهم، يرحلون كلما أصبح الضياع سيدًا والظنون وطنًافي زنزانة ضيقة، جدرانها أضلعك وسقفها خطيئتك القادمة، لا أحاسيس تجمع منها قصيدتك الجديدة، ولا قلم كي تتذكر عينيها لحظة سقوط الفراشات على طبق العشقفي زنزانة تحتاج لبعض الوقت، لتدرك أنها أوسع من وطنك، لن تشعر في تلك اللحظة بالخوف، رمقني السجان بنظرة خاطفة، كان شابًّا يافعًا، ما أحوجني إلى عرافة بغداد، كيف يبيت شاعر في زنزانة خالية من الشواطئ والأنهار والعطر والأشجار والنساء؟!

في زنزانة خالية إلا من وسادة أحزانك؟! كيف ستحلم وكيف ستخضر السنابل وكيف ستفتح نافذة قلبك للمواسم؟! كيف ستنتشي والرصيف الذي كنت تبكي عليه لن يكون هنافي زنزانة لا مذاق لها ولا طعم، كيف تتذكر عشيقتك؟ كيف تكون لطيفًا بين جدارين ذاكرتهما ممتلئة بالغبار؟ وسقف يعيش على تنهدات العابرين؟!

استمر صديقي في جلد ذاتـه، وتعذيب روحـه، والسير على الأسلاك الشائكة.

يكمل، خرجت من السجن، لا أصدقاء، ولا حبيبة، ولا وطن، كنت بأشد الحاجة إلى استراحة أستطيع من خلالها إنقاذ شيء ما داخلي، أين يذهب شيوعي في هذا البلد، بل أين يستريح؟

تذكرت مقهى لكنه بعيد وأنا متعب ومنهك القوى، لكن ما يغريني تلك القهوة التي تفوقت على النبيذ، نظرت إليه، أشرت بيدي إلى عصفور يبني عشه، وكم كان جليًّا عليه الاستمتاع وعندما صمت عن الحديث قلت له:

لا يكفي أن تكون بناء، ولكن عليك أن تتحول كبناء إلى قديس وكنجار، إلى كاهن وكشاعر إلى فراشة.

قال صديقي: الطرقات في بلادنا ذهاب فقط، هي لا تكفي للجمع بين الشك واليقين، الحزن والفرح، الشهيق والزفير؛ لذلك نحاول أن نجمع شتات الفرح المتساقط من قبلات القصائد، لكننا لا نستطيع. عاد صديقي لإكمال حديثه وعدت للإصغاء في طريقي إلى المقهى، كان الباعة المتجولون يتقاسمون الشوارع والأرصفة

ويسببون ازدحامًا، بل إنهم يعيقون حركة سير المارة والمتسكعين، طاولة تبيع الفواكه الطازجة، وأخرى تبيع التبغ والحلوى، وثالثة عليها ذرة شامية من تحتها جمر، ورابعة تبيع الآيسكريم وخامسة تبيع الثلج، تجاوزت إشارة المرور، كانت نظرات راكبي السيارات تقول إنني شخص لا أنتمي إلى هذه الأرض.

عليّ ألا أنزعج، فالاشتراكية بيتي وأنا أول الملحدين، وهذه البلاد التي أتشرد فيها أنا أيضًا ملحدة!

وصلت المقهى، أمسكت بمقبض الباب المكسور، فتحت على مهل، دخلت، كان المكان صغيرًا ولا يتسع لأكثر من ثمان طاولات، كان الجزء الخلفي دائمًا مشغولاً كاملاً من قبل نساء بمختلف الأعمار، عندما وصلت إلى الكاشير أدخلت يدي في جيبي، خرجت بيضاء، لا يوجد معي نقود، يقال إنها واحدة من أكبر النعم الثلاث على الإنسان؛ أن يكون دون نقود إطلاقًا، لكن حين يصل الفقر إلى أقصاك تصبح عقارب الساعة التي على الجدار مجرد صورة.

لا قيمة للوقت ولا قيمة للمعنى ولا طعم للقهوة حين يصل الفقر إلى آخر طرقات قلبك، أقصى سنوات عمرك، وإلى أقاصي غربتك، يختلط النبض بالخطوات، الضجيج بالمطر، دونما توقف رحلت، اصطدمت الذاكرة بباب المقهى، تساقطت البقية الباقية منّي.

لست أول من وقف الفراغ بوجهه والفقر بجيبه.

على مقربة منا حزمة كبيرة من العشب الأخضر تمشي ببطء، يبدو أن تحتها امرأة عجوزًا، الرجال هنا لا يحملون العشب ولا الماء، ولا يرعون البقر، إنها من اختصاص النساء، إلا من أبى.

كنا كنديمين فاض بهما الحزن ومضى بهما الوقت إلى منتصف الجراح، كلانا يبحث عن حلم جديد، وذاكرة لا تحب الغروب، كلانا عائد من رحلة طويلة.

كان الوقت ينازع الكبرياء، الحماس الذي يسبق لحظة التباهي والغرور، كان الطريق يكتسي حلة من الصمت، وكان الندى يعيد كتابة قصائده التي بلّلها المطر، في أثناء ذلك السرد وتلك الحوارية القاتلة الناصعة البياض، تقطعت بيني وبين صديقي كل الخيوط، وأصبح كُلي يترضى عني، عندما توقفت الموسيقى أطفأت محرك السيارة وترجلت باتجاه قارعة الطريق، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا.

شيء ما داخلي يدفعني للفرار منّي ومن مناصفة ملحد الجلوس على قارعة الطريق.

لأول مرة أقابل ملحدًا وجهًا لوجه، كم يبدو العبء ثقيلًا، ماذا تقول لشاعر تركته حبيبته على الشاطئ ممسكًا بسنارة صيد وذهبت لإحضار فنجان القهوة ولم تعد؟!

بإمكاني أن أنسحب ولكن بوُدّ، بأناقة لا تقبل الريبة، قلبي يقطر دمًا على الذين يعيشون من أجل النظرية الشيوعية أو السلالة الروحية المنبثقة من رسالة يسوع، أو الهرولة بين الكتب المحرفة الستة والوصايا العشر، قررت الجلوس بجوار صديقي والاستماع إليه حتى ينتهي ومن ثم أبدأ معه حوارًا دينيًا؛ فربما كان بحاجة إلى من يضيء له الطريق.

كانت الاستراحة التي جلسنا عليها عبارة عن أحجار متقاربة بشكل أجمل من كراسي الحدائق، أكل عليها الناس وشربوا، كم هي ناعمة وملساء ودافئة! كم أكرمت من كريم، وكم أظلَّت من لئيم وكم آوت من غريب!

أشعل صديقي سيجارة وعمد إلى أخرى وناولني وأنا غارق في تفاصيل الطريق.

في حضرة الدخان تراءت لي نماذج مختلفة من العابرين؛ فهناك الغزاة حيث كانت استراحتهم هنا لإكمال خططهم العسكرية، وهناك التجار وكانت استراحتهم هنا للراحة والتقاط الأنفاس، وهناك الأحبة وكانت استراحاتهم لقراءة رسائل الحب والغرام، وهناك الشعراء واستراحتهم هنا للترويح عن النفس وإطلاق العنان للخيال الخصب، وجعل المشاعر الجياشة وجهًا لوجه أمام الانفعالات العاطفية التي تركها العابرون في فضاء غير محدود!

القرية صفاء وسلام وأحاديث غرام، هكذا يبدو لي المعنى الحقيقي للإنسان في تجلياته، في إدراكه قبل أن يأخذه بريق الحياة وزخرف الدنيا وبهرجة اللواتي يذهبن إلى أبعد مما فيهن بطلاء لا يروق لريفيٍّ، إلا أن يراه كما هو {حسنا غير مجلوب}، ليس فيه رتوش وخربشات وتفنن في صياغة عينين، وجعلهما مجرد آلتَي جذبٍ تسقط فيها البراءة والشعور بالبساطة.

إدراك معنى الصباح المبكر فينا، في أعماقنا، في وهاد قريتنا.

إدراك معنى أن نكون بشرًا أتقياء أنقياء، ليس فينا ما في العالم منشره لكل ما أنتجه العصر من تكنولوجيا، من ثورة معلومات، من اتصالات وزخرفة أمكنة.

- أيتها الفارعة - يا دارنا المليئة بالأسرار والوشوشات وكثير من الظنون الجميلة.

يا إشراقة الروح وهذا التوقد الذي يكبر في الحنايا، ياسفري الذي لا يهدأ إلا ليبدأ من جديد، يا دار الآباء والأجداد وقد وضعوا معالم الطرق المؤدية إلينا بأقدامهم التي لم تتعب يومًا.

يا هذا الذي يربض في الذاكرة التي يغادرها كل شيء، لتبقى قريتنا دارنا، أشواقنا التي خبأتنا فيها ولانفلت منها إلا لحبٍّ.

من زمن إلى أزمنة لم نجد سوى تعب الرحيل وضيق الأفق.

ولا سواي كمحارب لا تلين له قناة.

أيتها القرية الجميلة الفاتنة الساحرة التي تسبي العيون وتوقع فينا نبض الغرام، وتفعل فينا كل هذا الابتهاج، يا مسرى الروح وإطلالة العمر على العمر، يا أول العابرين إلى قلبي والرابضين فيه، يا قرنفلة أسْتَافها، ويا أشواق تلد أشواقًا.

هذا أنا، هدّني الترحال، أضناني السفر وأمضيت من العمر ما يستحق الرثاء، دخلت في معمعة العصر، في أروقة المدينة وناطحاتها ودروبها التي ليس لها آخر.

حياة تضاعف القسوة على النفس، فيمضي العمر في ركام المعاناة ومتاهات بشر لايعرفون بالضبط المعنى الحقيقي للريفي وهو يقاوم كل المغريات ويقف بصلابة على المعنى الفطري الأول.

هل كان عليّ هذا الترحال في زمن لا يلقي بالًا للغريب ولا يفسح له المكان مجالًا للترحيب؟

هل كنت في كل هذا الغوص العميق في محيط الكرة الأرضية قادرًا على مواجهة الذي أريد؟ وما الذي جعلني أمضي السنوات الطوال بعيدًا عني بعيدًا عن المهد؟

هكذا أدركت بعمق أن ما كنت أجوب من أجله الأرجاء وأبحث عنه ليس سوى قريتي الصغيرة، العالم الأكثر دهشة، الأكبر من كل ناطحات السحاب ومحطات الانتظار وأرصفة البشر النائمين والذاهبين والآيبين.

قريتي المعجون أنا بطينها، أعود إليها وقد {قست كل الصباحات والأمسيات بملاعق القهوة}، كما قالها الشاعر الإنجليزي {إليوت} الذي أدرك معنى أن يكون المرء وحيدًا في الزحام ومسافرًا في متاهات الطرقات ليس معه غير رغبة السير وتجاوز عتبات الزحام إلى رنّة واقع وخربشة ذاكرة.

على قارعة الطريق عشب أخضر ويابس، كانت القرى والجبال والسماء كتلة واحدة في صورة ثلاثية الأبعاد نزعت الجاكيت وضعته تحت رأسي، انْسدحت على العشب وبدأت في استعادة شريط الذكريات.

رقم الإيداع: 20817 / 2019

الترقيم الدولي: 1 – 218 – 838 – 977 – 978